

NETFLIX

NOW A NETFLIX ORIGINAL SERIES

SIEGE AND STORM



رواية

ترجمة: عمر ابراهيم



GRISHAVERSE

الحصار والعاصفة

"الفانتازيا كما يجب أن تكون".

صحيفة نيويورك تايمز

"أفضل عالم سحري بعد هاري پوتر".

مجلة باسل

"أحداث سريعة، ومشتعلة، وفاتنة.. يستحيل على القارئ أن يتركها قبل أن يتمها في جلسة واحدة".

صحيفة يو إس إيه توداي





لي باردوغو المؤلفة رقم ١ الأكثر مبيعا في نيويورك تايمز لكتاب البيت التاسع، ومبدعة عالم الغريشا (الآن مسلسل أصلي على نيتفليكس) الذي يشمل ثلاثية الظلال والعظام، وثنائية ستة من الغربان، وثنائية ملك الندوب، وغير ذلك الكثير.
ظهرت قصصها الخيالية القصيرة في سلاسل مختارات أدبية متعددة. منهم سلسلة (أفضل خيال علمي وفانتازيا أمريكية). تعيش في لوس أنجلوس، وهي زميل مساعد في كلية باولي موري في جامعة ييل.






9 789778 201598




ياسمين
قصص
روايات
t.me/yasmeenbook
الحصار والعاصفة

باردوغو ، لي
الحصار والعاصفة : رواية / لي باردوغو.
ترجمة : عمر إبراهيم.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2024.
422 صفحة، 20 سم.
ردمك : 978-977-820-159-8
ا- القصص الأمريكية
أ- إبراهيم، عمر (مترجم)
ب- العنوان : 823
رقم الإيداع : 10793 / 2023
الطبعة الأولى : يناير 2024.



كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

الحصار والعاصفة

لي باردوغو

ترجمة : عمر إبراهيم

الإهداء

إلى أمي التي آمنت بي عندما فقدت إيماني بنفسي..

الغريشا

جنود الجيش الثاني

سادة العلم الصغير

الكوربورالكي

(جماعة الموتى والأحياء)

المتلاعِبون بالقلوب

المعالِجون

الإثيريالكي

(جماعة المستحضِرين)

مستحضِرو الرياح

مستحضِرو النار

خالقو الأمواج

الماتيريالكي

(جماعة المصنِّعين)

الحدادون

الخيميائيون

تمهيد

منذ زمنٍ طويلٍ، حلم الصبي والصبية بالسفن، قبل حتى أن تتسنى لهما فرصة لرؤية البحر الحقيقي.

كانت سفنًا سحرية، لطالما حُكِيت عنها القصص، صواريها صُنِعت من خشب الأرز الفاتن، ونسجت أشرعتها حوريات عذراوات من خيوط الذهب الخالص. أما طاقم السفينة، فكان من الجرذان البيضاء التي لا تكف عن الغناء بينما تنظف سطح السفينة بذيولها الوردية.

لم تكن «ڤيرهادر» إحدى تلك السفن السحرية، بل كانت سفينة تجارية من (كيرتش) تفوح من مخازنها روائح الدخن والعسل الأسود، المختلطة بروائح العرق والبصل الذي يؤمن البحَّارة أنه يمنع مرض الأسقربوط. أما بالنسبة إلى طاقم السفينة، فكانت ألسنتهم لا تكف عن البصق وقذف الشتائم، وكانوا يتقامرون دائمًا آملين أن يحظوا بكؤوسٍ من الروم.

أُعطي الصبي والصبية أرغفة من الخبز يتقطر منها السوس المبلل، وأُجبِرا على مقاسمة حجرتهما (التي هي عبارة عن خزانة ضيقة) مع راكبين آخرين وبرميلٍ من سمك القد المالح. لم يلقيا بالًا لما كان يحدث على متن السفينة؛ فكلاهما اعتاد قرع الأجراس كل ساعة منذ الصغر، وتأقلمت آذانهما على صيحات النوارس وثرثرات أهل كيرتش غير المفهومة.

كانت تلك السفينة مملكتهما الخاصة، والبحر خندقهما الواسع الذي يحاصر أعداءهما في الخليج.

تكيَّف الصبي مع ظروف العيش على متن السفينة مثلما تأقلم على أي شيء آخر؛ فتعلَّم ربط الحِبال وخياطة الأشرعة، ولم ينتظر أن تلتئم جروحه، فهمَّ بالعمل جنبًا إلى جنب مع طاقم السفينة. كان يخلع نعليه ويتسلق الصواري حافي القدمين كبحَّارٍ مغوارٍ. تعجَّب الجميع من قدرته على تحديد مواقع الدلافين، وسمك الشفنين، وقرش النمر ذي الخطوط اللامعة، وكيف كان يتوقع البقعة من البحر التي سيخترقها ذيل الحوت في وقتٍ قياسي.

جميعهم قالوا لو أنهم امتلكوا مقدار ذرة من حظِّه، لصاروا أثرياء بلا استثناء.

أما عن الصبيَّة، فكانت تقذف في قلوبهم التوتر..

بعد ثلاثة أيام من الإبحار، طلب القبطان منها أن تلزم الطابق السفلي أطول وقتٍ ممكن، وألقى اللوم على دجل الطاقم الذين يعتقدون أن وجود النساء على متن السفينة سيجلب لهم رياحًا عاتية لا يعلم مصدرها، ولا يُحمد عقباها، وكان هذا صحيحًا، ولكنهم ربما كانوا سيرحبون بفتاةٍ بشوشة مضحكة، لا تكف عن إلقاء النكات ومحاولة العزف على صفارة القصدير.

تقف الصبية دائمًا صامتة عند مقدمة السفينة، بوشاحها الملفوف حول رقبتها، وكتمثالٍ خيزومي مصنوع من الخشب الأبيض، لا تحرك ساكنًا. وفي أثناء نومها، تصرخ عاليًا فتوقظ كل من غفلت أعينهم من الرجال الجالسين على سطح السفينة.

قضت الصبية أيامها في الحوم كالأشباح حول طابق السفينة السفلي المظلم، وأخذت تعد براميل العسل الأسود، وتتأمَّل رسومات القبطان. وفي المساء تلوذ بحضن الصبي مما يخبئه الظلام، ويقضيان ليلتهما في تجميع الأبراج من بحر النجوم السماوي مثل: برج الصياد، وبرج العالم، وبرج

الأبناء الأغبياء الثلاثة، بالإضافة إلى أجسامٍ متخيلة أخرى كخيوط بكرة الغزل الساطعة، والقصر الجنوبي ذي الأبراج المائلة الستة.

ظلَّت بجانبه أطول وقتٍ ممكن، تحكي له القصص وتوجه إليه الأسئلة؛ لأنها كانت تعلم أنها ستحلم عندما تنام. أحيانًا كانت تحلم بسفنٍ رملية مشطورة ذات أشرعة سوداء، وأسطحها مغطاة بالدماء، وركابها يصرخون من بين طيات الظلام، لكن أسوأ الأحلام كانت تلك التي يظهر فيها الأمير ذو الوجه الشاحب الذي يضغط بشفتيه رقبتها، ويتحسَّس بأصابعه الطوق الملتف حولها، الذي يستدعي قوتها من أعماقها لتنفجر كضوء الشمس البراق.

عندما حلمت به، استيقظت بجسدٍ مرتعد، وصدى قوتها يهز دواخلها، وأثر الضوء لم يزل يدفئ بشرتها.

احتضنها الصبي بقوة، وهمس إلى أذنها ببعض الكلمات ليساعدها على النوم من جديدٍ.

قال: «إنه كابوس محض.. وتلك الكوابيس ستكف حتمًا عن مطاردتك».

لم يكن يعلم أن الأحلام هي أأمن مكانٍ يمكنها أن تستخدم قواها فيه، وأنها في أمسِّ الحاجة إلى ذلك.

***

في اليوم الذي اقتربت فيه سفينة ڤيرهادر من اليابسة، وقف الصبي والصبية في مقدمة السفينة يتأملان ساحل (نوڤيي زم) بينما يدنو منهما.

أسرعا إلى الميناء، مارّين ببستانٍ من الصواري المتآكلة والأشرعة المربوطة، وكان ثمة قوارب شراعية لامعة قادمة من سواحل (شو هان) الصخرية، وسفن حربية محمَّلة بالأسلحة، ومراكب ثلاثية الأشرعة، وتجار ذوو أبدان سمينة، وصيادو حيتان من (فييردا). ومن بين تلك السفن، كانت ثمة سفينة ضخمة رفعت علمًا أحمر يحذر من وجود قتلة على متنها، وعندما مرَّت سفينة الصبي والصبية بها، كادت الصبية تقسم أنها سمعت قرقعة أصفاد.

وجدت سفينة ڤيرهادر مرساها، وخفض سلَّمها، وصاح عمال المرفأ يتبادلون التحايا مع طاقمها، ثم شرعوا في فك الأربطة عن البضائع وإنزالها. جال الصبي والصبية بأعينهما حول الميناء، باحثين بين الحشود عن متلاعِبٍ بالقلوب يرتدي زيًّا قرمزيًّا، أو مستحضِرٍ يرتدي زيًّا أزرق، أو عن أي سلاحٍ من أسلحة (راڤكا) التي تبرق في ضوء الشمس. ثم حان وقت مغادرتهما، فشبك يده -التي أخشنتها أيام العمل الصعبة- في يدها، وعندما طرقت أقدامهما ألواح رصيف الميناء الخشبية، باتت تهتز وتلتف من تحتهما.

ضحك البحَّارة، وصاحوا قائلين: «إلى اللقاء أيها الشبحان!».

خطا الاثنان خطواتهما الأولى نحو العالم الجديد، وشرعت الصبية في الدعاء بداخلها لأي قديسٍ قد يكون منصتًا إليها، قائلة: «أرجوك، دعنا نعيش بسلامٍ هنا، واجعل هذا بيتنا».

الفصل الأول

بتنا في (كوفتون) أسبوعين كاملين، وما زلت أتوه فيها..

تقع البلدة غرب ساحل (نوڤيي زم)، تباعد بينها وبين المرفأ الذي رست فيه السفينة أميالٌ طويلة. عما قريب، سنتعمق أكثر إلى ما خلف حدود (نوڤيي زم)، وربما حينها سنشعر بالأمان أكثر.

تفحصتُ الخريطة التي رسمتُها لنفسي وراجعتُ خطواتي. أقابل (مال) كل يومٍ بعد الانتهاء من العمل لنمضي معًا إلى النزل، لكنني اليوم تهت تمامًا بعدما ذهبت أبتاع عشاءنا. وضعت فطائر اللحم والكرنب في حقيبتي، فانبعثت منها روائح غريبة للغاية، أخبرني البائع أنها وجبة شهية خاصة بـ (نوڤيي زم)، لكنني لم أصدقه، ومع ذلك، فهذا أمرٌ غير مهم بالنسبة إليّ؛ فكل الطعام أصبح مذاقه كالرماد مؤخرًا.

جئنا إلى (كوفتون) باحثين عن عملٍ كي نستطيع أن نسافر إلى الغرب، حيث مراكز تجارة الـ «يوردا»، والحقول المليئة بالأزهار البرتقالية التي يكيلونها الناس بالبوشل[1] ثم يمضغونها. يعد ذلك المنشط من سلع الرفاهية في (راڤكا)، لكن بعض بحارة سفينة ڤيرهادر استخدموه ليبقيهم مستيقظين في أثناء دوامات المراقبة الطويلة. أما رجال (نوڤيي زم) فيحبون وضع تلك الزهور بعد تجفيفها بين الشفاه واللثة، وحتى النساء يحملنها في حقائب مطرزة تتدلى من أرساغهن.

ثمة لافتات إعلانات مثبتة في كل شرفة محلٍّ مررتُ به، تروج أنواعًا مختلفة من الـ «يوردا» من بينها: برايتليف، وشيد، ودهوكا، وبيرلي. لمحتُ

(1) مكيال للحبوب يستخدم في الولايات المتحدة، ويساوي 32 رطلاً.

فتاة ترتدي تنورةً زاهية تميل إلى جنبها وتبصق من فمها عصيرًا لونه كلون الصدأ في مبصقة موضوعة أمام أحد المحلات، قمعتُ بداخلي إحساسًا بالغثيان.. كانت هذه إحدى عادات أهل (نوفْيي زم) التي لا أظنني سأمارسها يومًا.

تنهدت وسلكت طريق البلدة الرئيسي، على الأقل علمت أين كنت الآن. لم أعتد مظهر (كوفتون) بعد.. بدت لي كأنها مدينة خام، تنقصها الكثير من التشطيبات؛ فمعظم شوارعها غير ممهدة، ودائمًا ما شعرت أن مبانيها ذات الأسقف المسطحة، والجدران الخشبية الواهية، والنوافذ الزجاجية، على وشك أن تسقط في أي لحظة. أما النساء فيرتدين ثيابًا مخملية لها أشرطة، وبالنسبة إلى واجهات المحلات، فكانت مكتظة بالحلوى، والحلي الرخيصة، وكل أنواع البضائع فيما عدا البنادق والسكاكين وأواني الطبخ. هنا، حتى الشحاذون يرتدون الأحذية.. هكذا تكون المدن التي لم تطلها يد الحرب الباطشة.

مررتُ بمتجرٍ لبيع الخمور، فلمحت طيفًا قرمزيًّا بطرف عيني.

لا بد أن هذا فردٌ من أفراد الكوربورالكي..

تراجعتُ على الفور، ثم ألقيتُ بنفسي في أحضان الظلال التي تتوسط بنايتين، قلبي ظل ينبض بعنفٍ، ويداي تتحسسان مسدسي المستريح في جرابه المعلق بفخذي.

ذكَّرت نفسي بأن عليَّ دائمًا اللجوء إلى خنجري أولًا، فسحبته من كمي رويدًا. طاف صوتٌ في عقلي يقول: «حاولي ألا تلفتي الانتباه.. واستخدمي مسدسك عند اللزوم، وآخر حلٍّ تلجئين إليه هو قوتك».

تذكَّرت من جديدٍ أنني أحتاج إلى قفازيَّ المصنَّعين اللذين اضطررت إلى تركهما في راڤكا. كانا مبطَّنين بمرايا صغيرة تمكِّنني من إصابة خصومي بعمى مؤقت في أثناء الشجار، وأستطيع بفضلهما أيضًا أن أقسم شخصًا

نصفين بتكتيك «القطع»، لكن إذا رآني أحد المتلاعبين بالقلوب، قد أعجز عن القيام بأي من هذا؛ فهؤلاء كانوا صفوة جنود مستحضِر الظلام، وفي إمكانهم إيقاف قلبي عن النبض أو عصر رئتي من دون حتى أن يسددوا إليّ صفعة واحدة.

بقيتُ كما أنا، منتظرة، أصابعي ملتفَّة حول مقبض خنجري، ثم بعد لحظات تشجعت وألقيت نظرة من خلف الحائط. رأيت عربة محمَّلة بالبراميل، توقف حوذيها ليتحدث إلى امرأة ترقص ابنتها بحماسٍ بجانبها، حتى رسمت تنورتها الحمراء الداكنة دائرةً في الهواء من حولها.

لم يكن ثمة أحدٌ من الكوربورالكي، إنها فقط طفلة صغيرة تلهو وتلعب!

عدتُ لأتوارى خلف البناية، وأخذتُ ألتقط أنفاسي بعمقٍ محاولةً تهدئة نفسي.

قلتُ في بالي: «لن يحدث ذلك دائمًا؛ فكلما صرت أكثر حرية من ذي قبل، ستهدئين بلا شكٍّ».

يومًا ما سأستيقظ من سباتٍ بلا كوابيس، وسأمشي في الشوارع بلا خوفٍ، وإلى أن يحدث ذلك، سأبقي أصابعي تحتضن خنجري الواهي، آملةً أن يحميني فولاذ الغريشا من مخاوفي.

عدتُ أمشي في الشارع الصاخب، أمسك بوشاحي الملفوف حول رقبتي، ظللتُ أشدده أكثر.. باتت تلك عادتي التي أقوم بها تلقائيًّا عندما أشعر بالتوتر. أسفله يقبع طوق موروزوفا، أقوى مضخِّم قوى عُرِف منذ فجر التاريخ، والشيء الوحيد الذي قد يفضح هويتي، الذي من دونه سأعود لاجئة راڤكانية معدمة وقذرة.

لم أعلم ماذا كنت سأفعل عندما يتغير الجو؛ فلست معتادة على المشي مرتدية أوشحة أو معاطف ذات رقبة طويلة في الصيف، ولكن بحلول ذلك الوقت، سأكون أنا و(مال) بعيدين تمامًا عن البلدان المزدحمة والأسئلة غير

المرغوب في سماعها، أو بالأحرى هذا ما أتمناه.. سنكون وحدنا لأول مرة منذ مغادرتنا لـ (راڤكا).

ارتعد جسدي عندما تخيلت ذلك.

عبرت الشارع متفادية العربات والأحصنة، شاخصة بعيني بين الحشود، أنتظر أن يفاجئني ظهور جيش من الغريشا، أو حراس الأوبرتشنيكي، أو مرتزقة شو هان، أو قتلة فييردا، أو جنود ملك (راڤكا)، أو ربما مستحضِر الظلام نفسه!

ثمة الكثير من الناس الذين يحاولون اصطيادي..

كررت تلك الكلمة في ذهني: اصطيادي..

لو لم أورِّط معي (مال)، لظلَّ متعقبًا في الجيش الأول، لا هاربًا يحاول النجاة بحياته كما هو الآن.

باغتتني ذكرى مريعة فجأة: شعر أسود، وعينان أردوازيتان.. وجه مستحضِر الظلام تعتليه ملامح الانتصار بينما يطلق العنان لقوى طية الظل الخفية، ثم سرقت منه ذلك الانتصار..

انتشرت أخبارٌ كثيرة بسهولة في (نوڤيي زم)، لكن لم يكن من بينها أمرٌ يسرُّ. تكاثرت الإشاعات عن كيف نجا مستحضِر الظلام من معركة الطية بطريقةٍ ما، وأنه عاد ليجمع قواه ليحاول مرة أخرى انتزاع عرش (راڤكا)، لم أرد أن أصدق أن هذا وارد الحدوث، لكن في الوقت ذاته أنا أذكى من الاستخفاف به.

أما بقية القصص فلم تكن أقل فظاعة؛ قيل إن الطية اجتاحت الشواطئ، دافعة اللاجئين إلى الهروب شرقًا وغربًا، وأن ثمة طائفة جديدة ظهرت من العدم، تلتف حول قديسة في إمكانها استحضار النور.

لم أرد أن أفكر في أي من هذا؛ فأنا و(مال) نحظى بحياةٍ جديدة الآن، وولينا ظهرينا عن (راڤكا).

أسرعت الخُطى حتى وصلت إلى الميدان الذي أقابل فيه (مال) كل ليلة، لمحته يقف مستندًا إلى حافة النافورة، يتحدث مع أحد أصدقائه من أهل البلدة الذي تعرَّف عليه في أثناء عمله في المستودع، ليس في وسعي تذكر اسمه.. ربما كان (جِب) أو (جِف).

كانت للنافورة أربع حنفيات ضخمة، لكنها كانت تفتقر الزخارف المطلوبة لكي تضفي عليها لمساتٍ جمالية، وهذا ما جعلها حوضًا كبيرًا محضًا تتردد عليه الفتيات والخادمات ليغسلن الملابس. وعلى الرغم من ذلك، فلم يكن من بينهن من تهتم بإنجاز المهمة التي جاءت لها؛ فجميعهن ظللن يحدقن إلى (مال)، وفي الواقع، كان من الصعب تجاهل وجوده؛ فقد نما شعره حتى تجاوز الطول الذي يجبر الجنود على الاحتفاظ به، وبدأ يتلوى على مؤخرة عنقه. وبلَّل رذاذ النافورة قميصه فالتصق بجلده الذي كسته الشمس باللون البرونزي طوال فترة عمله على متن السفينة، في لحظةٍ أعاد (مال) رأسه إلى الخلف بعفوية، ضاحكًا على شيءٍ أخبره به صديقه، لم يدرك حينها أن ثمة فيضًا من الابتسامات يتدفق نحوه، ليس مصدره النافورة.

قلت في نفسي وقد أصابني ضيقٌ شديد: «يبدو أنه اعتاد ذلك حد أنه لم يعد يلاحظ أي شيء».

عندما التقت أعيننا، اتسع ثغره بابتسامة عذبة ولوَّح لي، تبادلت حينها الفتيات النظرات وقد اعتلت وجوههن ملامح الدهشة وعدم التصديق. كنت أعلم ما رأونه جيدًا: فتاة هزيلة شعرها مجعد ولونه بني قذر، لها خدان شاحبان، وأصابعها مصبوغة بلونٍ برتقالي من أثر تعبئة الـ «يوردا».

لم يكن مظهري سارًّا للناظرين، كما أن قمعي لقوتي أسابيع طويلة قد أثَّر فيَّ بالسلب، بالإضافة إلى إهمالي تناول الطعام، وعدم قدرتي على النوم بسبب الكوابيس التي لا تكف عن إثارة ذعري.

تلك التعبيرات على وجوه النساء وشت بما يفكرن فيه، وشت بذلك السؤال الاستنكاري الذي ظل يعبث بأذهانهن: تُرى ماذا يفعل شاب كهذا مع شابة مثلي؟

فردت ظهري، وحاولتُ تجاهلهن بينما كان (مال) يقترب مني ليحتضنني.

قال بعد ذلك: «أين كنتِ؟ لقد قلقت عليكِ».

- «كنت أسير خلف قطيع من الدببة الغاضبين».

- «أضللت الطريق مجددًا؟».

- «أنا لا أعلم حقًّا من أين تأتي بمثل هذه الأفكار».

«أتذكرين چس؟»، قال مومئًا برأسه إلى صديقه.

فخاطبني صديقه بلسانٍ راڤكاني ملتوٍ، قائلًا: «كيف حالكِ؟»، ثم مدَّ إليَّ يده ليصافحني وعلى وجهه ملامح حادة.

فأجبته بلغة أهل (نوڤيي زم): «بخيرٍ، شكرًا لك».

لم يبادلني الابتسام، لكنه ربت على يدي بخفة؛ كان (چس) حتمًا غريب الأطوار.

تجاذبنا أطراف الحديث مدة وجيزة، لكن (مال) لاحظ التوتر على وجهي؛ فلم أكن أحب التواجد في الخارج وقتًا طويلًا. ودَّعنا (چس)، ولكنه قبل أن يرحل رمقني بنظرةٍ حادة، ثم همس إلى أذن (مال) بشيء لم أتبيَّنه، انتظرت بينما كان يرحل بعيدًا عن الميدان، ثم سألت (مال): «ماذا قال لك؟».

ردَّ قائلًا: «ماذا؟.. لا شيء.. هل لاحظت أن ثمة حبوبَ لقاح على حاجبيك؟»، ثم مسحهما بلطفٍ.

- «ربما كنت أريدهما كما هما!».

- «اعذريني إذن».

وبينما كنَّا نمضي في طريقنا بعيدًا عن النافورة، رأينا إحدى الفتيات تميل بجسدها إلى الأمام، تحاول -في الغالب- أن تخلع ثوبها عن جسدها، وإذ بها تقول لـ (مال): «إذا مللتَ من تلك العظام، فإن لديَّ ما يمكنني إغراؤك به».

تملَّك الغضب مني.. نظر إليها (مال)، متفحصًا هيئتها ببطء، ثم قال بنبرةٍ باردة: «كلا لم أمل، كما أنك لا تملكين شيئًا مغريًا».

احمرَّ وجه الفتاة عندما سخرت منها رفيقاتها وأخذن يرششنها بالماء. حاولت أن أبقي حاجبي مرفوعًا بحدة، لكنني فشلت في قمع تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتي رغمًا عني، وعندما مضينا في طريقنا إلى النزل، قلت لـ (مال): «شكرًا».

- «لماذا تشكرينني؟».

- «لأنك دافعت عن شرفي أيها الأبله».

جذبني بقوة إلى بقعةٍ ظليلة، شعرتُ بالذعر لأنني ظننتنا في خطر، ولكن سرعان ما وجدته يحتضنني، وأحسست بشفتيه تعانقان شفتي، وعندما انتهى من تقبيلي، وتراجع إلى الوراء، شعرت بسخونة في خدي، وقدماي صارتا واهنتين.

قال (مال): «دعيني أوضح لك شيئًا: أنا لست مهتمًّا بالدفاع عن شرفك».

فقلت محاولةً التقاط أنفاسي: «مفهوم».

- «كما أنني أريد أن أستمتع بكل لحظة معك قبل أن نعود إلى «الهوة»».

لقد سمَّى (مال) النزل بـ«الهوة»؛ كان قذرًا ودائم الازدحام، ولم يوفر لنا أي خصوصية على الإطلاق، لكنه -في النهاية- كان رخيصًا.

ابتسم بثقة ثم سحبني من يدي لنختلط بحشود الناس في الشوارع. وعلى الرغم من تعبي، شعرت أن خُطاي صارت أخف.. لم أعتد تواجدنا الدائم معًا.. ارتعد جسدي من جديدٍ، حتمًا لن نتعرض للإزعاج فيما بعد.

تسارعت نبضات قلبي.. لم أدر ما إذا كان هذا من أثر توتري أم حماسي.

لم يتوقف عقلي عن التفكير، فكررت سؤالي لـ (مال) قائلةً: «إذن، ماذا قال لك جس؟».

- «نصحني بأن أعتني بك جيدًا».

- «أهذا كل ما في الأمر؟».

تنحنح، ثم أضاف: «و... قال إنه سيصلي لإله العمل كي يخلصك من البلاء الذي أصابك».

- «من ماذا؟».

- «لقد أخبرته أنك تعانين من تضخم في الغدة الدرقية».

- «ماذا قلت للتوِّ؟».

- «في الواقع، كان عليَّ أن أشرح له سبب اهتمامك الزائد بوشاحك».

حرَّرت الوشاح من قبضتي.. كنت بالفعل ممسكةً به من دون أن أشعر.

همست إليه باستغراب قائلة: «إذن، هل أخبرته حقًّا أنني أعاني تضخم الغدة الدرقية؟».

- «كان عليَّ أن أخبره بأي شيء. أعلم أن هذا جعل منك مسخًا مثيرًا للشفقة؛ فتاة جميلة تعاني ورمًا ضخمًا.. أتفهمين مقصدي؟».

لكمت ذراعه بقوة.

- «بالمناسبة، إن الأورام في بعض البلاد تُعد من علامات الجمال».

- «حقًّا؟ تُرى وما رأيهم في المخصيين؟ لأنني قد أجعل منك واحدًا الآن!».

- «يا لكِ من شريرة!».

- «عذرًا، فمرضي هذا يجعلني غريبة الأطوار».

قهقه (مال) ضاحكًا، لكنني لاحظت أنه كان يتحسس مسدسه.

تقع الهوة في إحدى ضواحي (كوفتون) الفقيرة، وكنّا نحمل معنا الكثير من النقود التي ادخرناها من رواتبنا لنبدأ بها حياة جديدة. وخلال أيام، سنجمع ما يكفي لنغادر تلك البلدة، بضجيجها المزعج، وهوائها المليء بحبوب اللقاح، والخوف الذي تبعثه في نفسينا. سنذهب إلى مكانٍ آمن، حيث لا يأبه أحدٌ لما حدث لـ (راڤكا)، وعدد الغريشا لا يُذكر، ولا يعرف أحد بوجود مستحضرة نور.

وحيث لا يستغل أحدٌ أحدًا..

عكرتْ تلك الفكرة صفو ذهني.. رغم أنها ترددت عليه كثيراً في الآونة الأخيرة.

تُرى ما الذي أجيد فعله في هذا البلد الغريب؟

إن (مال) -على سبيل المثال- يستطيع الصيد، والتعقب، واستخدام السلاح، أما أنا، فالأمر الوحيد الذي أصلح له هو أن أكون من الغريشا.

كم أشتاق إلى استحضار النور.. كل يوم يمر عليَّ من دون استخدام قواي أصير أضعف من ذي قبل؛ ألهث وأنا أمشي بجانب (مال)، ويزداد حمل الحقيبة على ظهري. كنت ضعيفة وخرقاء حد أنني بالكاد استطعت أن أحافظ على عملي في تعبئة اليوردا في أحد المخازن. لم أتربح سوى فلسات قليلة، لكنني كنت مصرة على العمل؛ أردت أن أساعد بأي شكل.. شعرت أننا عدنا مثل أيام الطفولة: (مال) المقتدر، و(ألينا) عديمة الفائدة.

نفضت تلك الأفكار عن عقلي.. فقد لا أكون مستحضِرة النور حاليًّا، لكنني لن أغدو تلك الفتاة الصغيرة الحزينة أيضًا، حتمًا سأجد طريقة ما لكي أكون ذات فائدة.

لم يرفع مظهر النزل من معنوياتي.. كان يتكوَّن من طابقين، ويبدو في أمسِّ الحاجة إلى طلاءٍ منعش. كانت ثمة لافتات مثبتة على النوافذ، تعلن عن وجود حمامات ساخنة، وأسرَّة خالية من الحشرات، بخمس لغات

مختلفة، ورُسِمت عليها صورتان: واحدة لحوض استحمام، وأخرى للسرير.. ومنذ الوهلة الأولى، علمت أن تلك اللافتات لا تحمل إلا أكاذيب مهما ترجمت ما كتب عليها.

وعلى الرغم من ذلك كله، لم أهتم بسوء المكان؛ لأن (مال) كان بجانبي.

صعدنا السلم الأمامي المهترئ، الذي يؤدي إلى الحانة التي تشغل معظم مساحة الطابق السفلي. كان الجو باردًا، والصمت مخيم على المكان، على عكس ما عهدناه من صخبٍ في الشوارع. عادة ما يرتاد الحانة بعض العمال في تلك الساعة، يجلسون على الطاولات المثقوبة، ويختمرون بما أوتوا من أجورهم اليومية، ولكن المكان كان خاليًا اليوم، ولم يكن ثمة أحد سوى صاحب الفندق العابس الذي يجلس خلف المنضدة.

كان أحد المهاجرين من (كيرتش).. ودائمًا ينتابني شعورٌ بأنه يبغض أهل (راڤكا)، أو ربما لأنه يظننا سارقين؛ فقد جئناه منذ أسبوعين، نرتدي ثيابًا رثة ونبدوان في حالة مزرية، ولا نحمل معنا أي متاع، ولا نملك ما ندفعه له سوى دبوس شعر ذهبي؛ بالتأكيد ظن أننا سرقناه، ولكن هذا لم يمنعه مِن أخذه في مقابل إعطائنا سريرًا ضيقًا في غرفةٍ يشاركنا فيها ستة أشخاص آخرين.

عندما اقتربنا منه، وضع المفتاح على المنضدة أمامه بقوة ثم دفعه نحونا من دون أن نطلبه. لاحظت أنه ربط المفتاح بعظمة دجاجة منقوش عليها شيء لم أتبيَّنه، فأثارت دهشتي تلك اللمسة السحرية.

طلب منه (مال)، مستعينًا ببعض المفردات «الكيرتشية» التي تعلمها على سفينة ڤيرهادر، دلو ماءٍ ساخنٍ للاستحمام.

لفظ الرجل كلمة واحدة بغلظة: «نقود!».

كان سمين البنية، ذا شعر رفيع، وأسنانه صُبِغت باللون البرتقالي من أثر مضغ نبات اليوردا. أبصرت جسده يتعرق، رغم أن الجو لم يكن دافئًا، حدً

أن قطرات العرق ارتصت كشاربٍ فوق شفته العليا.

بادلته النظرات بينما كنَّا نتجه صوب السلم الذي يقع على الجانب الآخر من الحانة الخاوية. ظلَّ يراقبنا، ضامًّا ذراعيه إلى صدره، وقد ضاقت حدقتاه، تعبيرات وجهه لعبت بأعصابي.

ترددت قبل أن أصعد السلم وقلت لـ (مال) الذي بدأ الصعود بالفعل: «ذلك الرجل لا يرتاح لنا».

- «أجل، ولكنه يحب ما ندفعه له.. سنرحل من هنا خلال أيام قليلة».

حاولتُ التخلص من توتري؛ فقد أصابني الضيق بما فيه الكفاية طوال اليوم.

تبعته وقلت متذمرةً: «حسنًا.. ولكن قل لي، في حين إن احتجتُ إلى قول: «يا لكَ من أبله» بلغة كيرتش، كيف أقولها؟».

- «ير ڤن أزل».

- «صدقًا؟».

ضحك (مال) وقال: «إن أول شيء يعلِّمه لك بحار هو السباب».

كان الطابق الثاني في حالةٍ مزرية، ربما أسوأ من الغرف العامة بالأسفل، السجاد رث وبالٍ، وتفوح من الرواق رائحة الكرنب المخلوطة بالتبغ، وأبواب الغرف الخاصة مغلقة، ولم يصدر من خلفها أي صوت بينما مررنا، الصمت موحش.. ربما خرج النزلاء ليستمتعوا بيومهم.

الضوء الوحيد الذي ينير الرواق ينبعث من نافذة قذرة يتيمة تقع في آخره. وبينما كان (مال) يعبث بالمفتاح، ألقيتُ نظرة على العربات التي تمر بالأسفل، وفي الجانب الآخر من الشارع، ثمة رجلٌ يقف تحت شرفة، يصوب نظره في اتجاه النزل تارة، ثم إلى ياقته وكمِّه تارة أخرى، كأن ملابسه جديدة ولا تناسب مقاسه، تقابلت نظراتُنا من خلف الزجاج، ثم تناثرت على غير هدى.

انتابني شعور مفاجئ بالخوف..

- «مال!»، همستُ بصوتٍ خفيض، ويدٌ تبحث عنه للتشبث به، ولكن الأوان قد فات، وانفتح الباب.

- «لا!»، صرختُ فاندفعتْ من يدي دفقة ضوء تعمي الأبصار، سرت في الرواق كله، ثم جذبتني يدٌ خشنة، ألصقت ذراعي بظهري، ثم دفعت بي داخل الغرفة في خضم مقاومتي وركلاتي.

انبعث صوتٌ هادئ من أحد الأركان يقول: «اهدئي؛ فأنا لا أود أن أقطع أوصال صديقك الآن».

تباطأ الزمن.. جلت بنظري حول الغرفة الفوضوية ذات السقف المنخفض، حيث الحوض المهشَّم يستريح على منضدة مكسورة، والغبار يحوم حول شعاع شمسٍ خافت، ونصل السكين يلمع على رقبة (مال). اعتلت وجه الرجل الممسك به تعبيرات وجهٍ هازئة أعلمها جيدًا.. إنه (إيڤان).. وبجانبه وقف عددٌ من الرجال والنساء أيضًا، ارتدوا جميعًا معاطف وبناطيل تجار وعاملي (نوڤيي زم)، لكنني تعرَّفت على بعض وجوههم التي عهدتها في أثناء فترة وجودي بالجيش الثاني، إنهم من الغريشا.. وخلفهم، اختبأ شخص في الظلال، يستريح بتعالٍ على مقعد متآكل كأنه عرش.

ذاك الشخص.. هو مستحضِر الظلام.

تجمَّد كل شيء في الغرفة للحظة.. سمعت شهقات وزفرات (مال)، وحركات الأقدام، وصوت رجلٍ يحيي أحدًا في الشارع بالأسفل. لم أستطع أن أشيح بوجهي عن يدي مستحضر الظلام، تلك الأصابع البيضاء الطويلة المستريحة على ذراعي المقعد في سكون.

لقد ظننت يومًا ظنًّا أحمق بأنني لن أراه مرتديًا ملابس عادية..

ثم صفعني الواقع على خدي..

هل سينتهي كل شيء هكذا؟ من دون قتال، أو دوي رصاص، أو صراخ؟ تشنج صدري الذي ضاق بالغضب والخيبة.

قال مستحضِر الظلام بلطفٍ: «خذوا مسدسها، وابحثوا عن أي أسلحة أخرى».

أحسست بثقل سلاحي وهو يُنتَزع من فخذي، وكذلك خنجري وهو يُسحَب بقوة من غمده المثبت في خصري.

أردف مستحضِر الظلام عندما انتهوا: «سآمرهم بتركك، فيما لو حركت بنانًا، سأترك إيڤان ينهي حياة المتعقب على الفور، أخبريني أنك فهمتِ».

أومأت برأسي بحدة.

رفع إصبعه، فأطلقوا سراحي. تعثَّرت إلى الأمام ثم وقفت متجمدة في منتصف الغرفة، ويداي منقبضتان. أردت أن أشطر مستحضِر الظلام نصفين، ثم أهمُّ بقسْم ذلك المبنى الملعون طوليًّا، لكن (إيڤان) سيذبح (مال) حينها.

قلتُ بنبرةٍ غليظة: «كيف وجدتنا؟».

- «لقد خلَّفتما أثرًا باهظًا»، قال وهو يلقي بشيءٍ ما إلى الطاولة بكسلٍ.. شيء أحدث طقطقة فور هبوطه بجانب الحوض، كان أحد دبابيس الشعر الذهبية التي ثبَّتتها (جينيا) في شعري منذ أسابيع طويلة، والتي استخدمناها لندفع تكاليف رحلة عبورنا البحر الحقيقي، ثم انتقالنا إلى (كوفتون)، وفي النهاية استأجرنا بها سريرًا بائسًا ليس خاليًا من الحشرات كما يروِّج لأسرَّة النزل كلها.

نهض مستحضر الظلام من مقعده، فطاف طيف خوف غامض حول الغرفة، كأن كل فردٍ من الغريشا شهق نفسًا ولم يزفره، منتظرًا. أحسست بالخوف يتسرَّب منهم، فاهتزت دواخلي انتباهًا، لطالما عاملوه باحترامٍ وإجلال، لكن ما يحدث الآن كان جديدًا كليًّا؛ فحتى (إيڤان) بدا منزعجًا.

اخترق مستحضِر الظلام الضوء، فظهرت على وجهه بضع ندوب خفيفة، من المؤكد أن أحد الكوربرورالكي قد عالجها، لكن هذا لم يمحوها إلى الأبد، إذن، فقد تركت القولكرا أثرها فيه.

«جيد»، قلتها في نفسي، شاعرة بالرضا.. أو ربما ببعض الارتياح؛ فعلى الأقل لم يعد مثاليًّا كما كان.

وقف يتأملني ثم قال: «ما رأيكِ في حياة الاختباء هذه يا ألينا؟ إنك لا تبدين في أفضل حال».

- «وأنتَ أيضًا».

لم تكن ندوبه السبب فحسب؛ فقد ارتدى التعب كعباءة باهظة، وأسفل عينيه نمت هالات باهتة، وتجاويف عظام وجنتيه أضحت أكثر حدة من ذي قبل.

تشكَّلت نصف ابتسامة على شفتيه وقال: «ثمن بسيط كان عليَّ دفعه».

شعرت بالبرودة تسري في أوصالي.

تُرى لماذا دفع ذلك الثمن؟

اقترب مني، فعلتُ ما في وسعي كي أتماسك ولا أتراجع إلى الوراء، كل ما فعله أنه أمسك بطرف وشاحي، ثم شدَّه بلطفٍ فانزلق بحرية، ساقطًا من حول رقبتي إلى الأرض.

- «يبدو أنك عدت للتظاهر بما أنت أعلى منه، وما لا يناسبك».

هاجمني طيف الضيق.. ألم أكن أفكر في ذلك منذ دقائق قليلة؟

تمتمت قائلة: «شكرًا لاهتمامك».

سمح لأصابعه أن تلامس الطوق، ثم قال: «إنه ملكي مثلما هو ملكك يا ألينا».

أبعدت يده عني، مما أثار قلق الغريشا من حولنا.

قلت: «إذن، لماذا وضعته حول رقبتي؟ ماذا تريد مني؟».

بالطبع كنت أعلم؛ لقد أراد كل شيء: ملك راڤكا، وملك العالم، وقوة الطية.

لم يهمني سماع إجابته؛ فقد أردت أن أبقيه يتحدث؛ كنت أعلم أن أوان هذه اللحظة سيحين، ولهذا استعددت لها. لن أسمح له أن يأخذني معه مرة أخرى.. نظرت إلى (مال)، آملةً أن يفهم ما أنوي فعله.

قال مستحضر الظلام: «أود أن أشكرك».

لم أتوقع ذلك..

- «تشكرني؟».

- «نعم؛ لأنك أعطيتِني هدية».

استفزت عينيَّ تلك الندوب على خده البالي.

ابتسم وقال: «ليست هذه.. مع أنها تذكِّرني بكل شيء جيدٍ».

سألته، وقد استثار فضولي: «تذكرك بماذا؟».

برق شعاعٌ رمادي من عينيه..

قال: «أن جميع الرجال قد يصبحون حمقى.. ولكن لا، يا ألينا، فالهدية التي أعطيتها إياي أكبر من ذلك بكثيرٍ».

أشاح بنظره عني، وصوبه نحو (مال)، ثم أردف: «على عكسك أنت.. إنني أعلم جيدًا ما هو الامتنان، وأود أن أعبر عنه».

رفع يديه، فزحف الظلام على الغرفة..

صرخت قائلة: «الآن!».

تلقى (إيڤان) طعنة في جنبه من مرفق (مال)، وفي اللحظة ذاتها، رفعتُ يديَّ فانفجر منها الضوء، فأصيب كل من حولنا بالعمى. ركزت قوتي، حتى استحالت إلى منجلٍ من الضوء الخالص، كان لديَّ هدف واحد: ألا أدع مستحضِر الظلام واقفًا على قدميه، دققت النظر في الظلام الدامس، محاولة البحث عن هدفي.. ولكن حدث شيء غريب.

لقد رأيت مستحضر الظلام يستخدم قوته مئات المرات، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا.. حام الظلام حول دائرة الضوء، دار أسرع.. سحابة تتلوى وتصدر طنينًا كما لو كانت ممتلئة بحشراتٍ جائعة، حاولت تبديدها بضوئي، لكنها أخذت تدور وتتلوى وتدنو أكثر.

كان (مال) يقف بجانبي، وبشكلٍ ما، استطاع أن يسرق سكين (إيڤان)، قلت له: «ابقَ بجانبي».

عليَّ أن أستغل أي فرصةٍ لأحدث فتحة في الأرض مثلًا؛ سيكون ذلك أفضل من أن أقف مكتوفة الأيدي. زدت من تركيزي فشعرت بقوة «القطع» وهي تذبذب كياني، ولكن حينما رفعت يدي، انبثق شيء ما من الظلام.

قلتُ في ذهني: «لا بد أن هذه خدعة ما.. لا بد أنه وهم».

إنه مخلوق ما، شقَّ ثنايا الظلام، وجهه فارغ وبلا ملامح، وجسده يهتز، ثم يتعتم ، ثم يتكوَّن مجددًا، بحيث يكون له ذراعان، ورجلان، ويدان طويلتان في نهايتهما مخالب على حد تقديري، وظهر عريض انشق منه -كما ينشق الجرح الغائر- جناحان أخذا يتلويان وينتفضان، إنه مخلوق يشبه الڤولكرا، إلا أنه بدا بشريًّا أكثر، ولم يخفه الضوء.. ولم أخفه أنا.

أصرَّ عقلي المذعور أنها خدعة.. وأن ما أراه مستحيل الحدوث، إنه انتهاك لكل ما أعلم عن قوانين قوى الغريشا؛ فنحن لا نخلق أشياء.. لا نبث الحياة فيما لا ينبض بها، وها هو المخلوق يندفع نحونا، فالتصق كل الغريشا بالجدران وقد تملَّك منهم خوف بيِّن.

تخلَّصت من خوفي وركَّزت على قوتي من جديدٍ، فتحت ذراعي، مكونة قوسًا براقًا من الضوء والحنق، اندفع نحو ذلك المخلوق واخترقه. للحظة ظننت أنه سيظل يقترب مني، وإذا به يترنَّح ثم يبرق كسحابةٍ تخللها الضوء، وفي النهاية يذوب إلى اللاشيء. أحسست بالسكينة برهة، قبل أن يرفع مستحضِر الظلام يده ويستدعي مخلوقًا آخر، ثم آخر.. ثم آخر.

قال: «تلك هي الهدية التي منحتِني إياها.. الهدية التي حصلت عليها في الطية».

كان وجهه ينبض بالقوة، وبنوعٍ غريبٍ من الغبطة الخبيثة، وفي الوقت ذاته بدا عليه الإجهاد.. فما كان يفعله، استهلكه بشكلٍ ما.

تراجعتُ و(مال) نحو الباب عندما اقتربت المخلوقات منّا، وفجأة، اندفع واحدٌ نحونا بسرعةٍ مدهشة، ضربه (مال) بسكينه فتجمد مكانه، وترنَّح لحظة، ثم أمسك به بغلظةٍ ورماه بعيدًا كأنه دمية أطفال.

لم يكن هذا وهمًا..

صرخت بأعلى صوتي: «مال!».

ثم نفذت «القطع»، فاحترق المخلوق حتى فُني، ولكن آخر حلَّ محله في ثوانٍ، جذبني فارتعد جسدي، قبضته كانت كمثل آلافٍ من الحشرات تزحف على ذراعي. رفعني في الهواء، فعلمت وقتها أنني أخطأت في ظني؛ فللمخلوق فم ينفرغ، كاشفًا عن فراغٍ هائل تقبع بداخله صفوف لا حصر لها من الأسنان الحادة، والتي ثقبت جميعها كتفي لمَّا همَّ ذلك المخلوق بعضي.

لم أعهد مثل ذلك الألم من قبل؛ أخذ يصدى بداخلي، ويتكاثر، ويشرِّح لحمي واصلًا إلى العظام ليكشطها.

من بعيدٍ، سمعت (مال) ينادي اسمي، وفي اللحظة ذاتها، سمعت صراخي.

أطلق المخلوق سراحي، فهويت على الأرض ككومة قش، استلقيت على ظهري، مستسلمة للألم الذي ظل يتردد داخلي في موجاتٍ لا متناهية. أبصرت حينها السقف المبلل، وذلك الكيان الجاثم فوقي، ووجه (مال) الشاحب بجانبي.. شفتاه تشكَّلت باسمي، لكنني لم أسمعه؛ كانت روحي تنسحب مني.

آخر شيء سمعته كان صوت مستحضر الظلام، عاليًا وواضحًا كأن شفتيه ملتصقتان بأذني، بينما يهمس بالشيء الوحيد الذي استطعت سماعه في خضم السكرات: شكرًا لك.

الفصل الثاني

الظلام مجددًا..

ثمة شيء يسري بداخلي، أبحث عن الضوء، لكنه بعيد عن قبضتي.

- «اشربي».

أفتح عيني فيتكوَّن وجه (إيڤان) أمامي، يهمس إلى أحدٍ قائلًا: «أنتِ قومي بذلك».

تميل (جينيا) إليَّ، بوجهٍ لم أرَ جمالًا يضاهيه من قبل، حتى في زي الكفتا الباهت.

تُرى هل أنا أحلم؟

تقرِّب شيئًا من شفتي وتقول: «اشربي يا ألينا».

أحاول أن أبعد الكوب عني، لكنني لا أملك على يدي سلطانًا.

ينغلق أنفي فجأة، ويفتح فمي عنوة، وينزلق إلى حلقي حساءٌ ما.

تصيبني نوبة سعال وبصق.

أحاول أن ألفظ ذلك السؤال: «أين أنا؟».

فينبعث صوتٌ آخر، صافٍ وبارد، يقول: «أعيدوها إلى الأسفل».

***

إنني في العربة، عائدة من القرية مع (آنا كونيا). مرفقها النحيل يغرز في ضلعي مع كل هزة في الطريق المنحدر الذي سيعيدنا إلى (كيرامزين)، و(مال) يجلس إلى جانبها الآخر، يضحك ويشير إلى كل ما يراه.

يتهادى المهر الصغير السمين إلى الأمام، عرفه يتمايل بينما نتسلق آخر تلٍّ، وعندما نقطع نصف المسافة، نمرُّ برجلٍ وامرأة يمشيان على حافة الطريق. يصفر الرجل ويلوح بعصاه مع صوت الموسيقى، والمرأة تمشي برأسٍ مطأطأ، تحمل على ظهرها كتلة ملح.

أسأل (آنا كونيا): «هل هما فقيران جدًّا؟».

- «ليسا أفقر من غيرهما».

- «إذن لماذا لا يشتري الرجل حمارًا؟».

- «لأنه لا يحتاج إلى حمار؛ فلديه زوجة».

يقول (مال): «سأتزوج ألينا».

تمرُّ العربة بهما، فيرفع الرجل قبعته ويلقي تحية مرحة في الهواء، يستقبلها (مال) بغبطة ويردها، ثم يقذف نحوه سيلًا من الابتسامات والتلويحات، حتى يكاد يقع من فوق مقعده. أنظر نحو المرأة التي تمشي خلف زوجها.. ليست -في الواقع- سوى فتاة، عيناها مثقلتان بالعجز والتعب.

لا شيء يفوت (آنا كونيا).

تقول: «هذا ما يحدث للمزارعات اللائي لا يحظين بعطف الدوق، ولهذا عليك أن تشعري بالامتنان، وتذكريه كل ليلة في صلواتك».

***

صوت صليل أصفاد..

يبدو القلق على وجه (جينيا) وهي تقول: «إن استمرارنا فيما نفعله بها سيؤذيها».

يرد (إيڤان) سريعًا: «لا تخبريني كيف أقوم بعملي».

يرتدي مستحضر الظلام الأسود، ويقف بين ثنايا الظلال كالعادة. أسمع نغمات الأمواج من تحتي، أدرك أننا على متن سفينة، أتألم كأن الواقع قد وجَّه إليَّ صفعة قوية.

أرجوكم، أخبروني أنني غارقةٌ في حلم.

***

إنني في الطريق إلى (كيرامزين) مجددًا، أراقب رقبة المهر المطأطأة بينما يصعد التل، أنظر إلى الخلف، فأرى الفتاة التي تتألم من حمل كتلة الملح، فتبادلني النظرات.

تجلس (باغرا) بجانبي في العربة وتقول: «يشعر الثور بالنير، ولكن هل تحس الطيور بثقل أجنحتها؟».

عيناها سوداوان كالفحم.

يرددون طوال الوقت: كوني ممتنة، كوني ممتنة..

تمسك (باغرا) باللجام.

***

- «اشربي!».

المزيد من الحساء.. لا أريد أن أقاوم الآن.. لا أريد أن أختنق مجددًا. أرجع إلى الوراء، أدع جفنيَّ يسقطان، عقلي مغيَّب، وجسدي واهن لا يقوى على الاعتراض.

كفٌّ يلامس خدي.

- «مال».

ألفظها كنعب غراب.

تنسحب اليد من فوق خدي.

ثم يسود اللاشيء.

***

- «استيقظي!».

هذه المرة لا أتعرَّف على الصوت.

- «أخرجوها من هنا».

ينفتح جفناي.. هل ما زلت أحلم؟ يتكئ صبي عليَّ، شعره أحمر داكن، وأنفه مكسور، يذكِّرني بـ «الثعلب فائق الذكاء» الذي حكت لي (آنا كونيا) قصته. كان ذكيًّا حقًّا، حدَّ أنه في إمكانه الهرب من أول فخٍّ يقع فيه، لكنه يتمتع أيضًا بحماقةٍ تمنعه من الهرب من فخٍّ آخر.

ثمة صبي آخر يقف خلفه، لكنه ضخم، أحد أضخم من رأيتهم في حياتي، عيناه الذهبيتان فيهما لمحة شو هان.

يقول الثعلب: «ألينا».

تُرى كيف عرف اسمي؟

ينفتح الباب، فأرى وجهًا غريبًا آخر، ولكن هذه المرة لفتاة شعرها أسود قصير، ولها نفس العينين الذهبيتين مثل الفتى الضخم.

تقول: «إنهم آتون».

فينفر الثعلب ويقول: «أعيدوها إلى الأسفل من جديدٍ».

يقترب الفتى الضخم مني، فينزف الهواء ظلامًا تطوف قطراته حولنا.

- «أرجوكم، لا!».

لكن الأوان فات، والتهمني الظلام.

***

أنا الفتاة التي تصعد التل، حذائي ينغمس في الوحل، وظهري ينوح من ألم الحمولة الملقاة عليه. كلما ظننت أنني لا أقوى على أخذ أي خطوة أخرى، أحس بقدمي ترتفعان من على الأرض. يتهاوى الملح من فوق كتفي، أشاهده يتفتت على الطريق. أطفو أعلى، وأعلى، ثم أبصر عربة صغيرة تحتي، عليها ثلاثة ركَّاب ينظرون إليَّ بثغورٍ منفرجة من فرط الاندهاش،

أرى ظلي يعبر فوقهم، ثم فوق الطريق، ثم فوق الحقول الشتوية العارية.. طيف أسود لفتاة لها جناحان متمددان رفعاها فوق كل شيء.

***

أول شيء أدركت أنه حقيقي كان تمايل السفينة، ثم تخبُّط أشرعتها، وصفعات الموج لهيكلها.

عندما حاولت النهوض، شعرت بألمٍ يسري في كتفي، شهقتُ وانتفضتُ إلى الأمام، عيناي مفتوحتان عن آخرهما، وقلبي يكاد ينفطر. أحسست بالغثيان، ووجدتني مجبرة على غض بصري عن النجوم التي سبحت في مرمى بصري. كنتُ في كابينة مرتَّبة بالسفينة، أجلس فوق سريرها الضيق، وضوء النهار يتسرَّب من النافذة الدائرية.

وجدتُ (جينيا) تجلس على حافة سريري، إذن فأنا لم أحلم بها.. أم أنني أحلم الآن؟

هززتُ رأسي محاولة التأكد من استيقاظي، فأصابتني نوبة غثيان أخرى؛ رائحة الهواء الكريهة حرمت معدتي من الهدوء، أجبرت نفسي على أخذ نفسٍ طويلٍ.

ارتدت (جينيا) زي كفتا أحمر، مطرزًا باللون الأزرق، وهو دمجٌ لم أرَ مثله من قبل. كان الزي قذرًا وباليًا إلى حدٍّ ما، لكن هذا لم يؤثر في جمالها الذي فاق جمال الملكات، وخاصة جمال شعرها ذي الخصل المثالية الملفوفة.

قرَّبت كوبًا من فمي، وقالت: «اشربي».

سألتها بحذرٍ: «ما هذا؟».

- «ماء فحسب».

حاولت أن أمسك الكوب ولكن أدركت حينما رفعت يديَّ أنهما مكبلتان. كانت نكهة الماء لاذعة، لكن العطش تملَّك مني، أخذت رشفة، فسعلت، ثم شربت بشراهة.

نظرتُ إلى (إيڤان) الذي كان يتكئ على الباب، يراقبني، ثم سألت: «منذ متى؟ منذ متى وأنا هنا؟».

فردَّت (جينيا): «ما يزيد على أسبوع قليلًا».

- «أسبوع؟».

ارتعد جسدي؛ لقد مكثت أسبوعًا كاملًا عكف فيه (إيڤان) على تبطئة ضربات قلبي ليبقيني غائبة عن الوعي.

نهضتُ لأقف على قدمي، فهرب الدم من رأسي، كدت أقع لولا أن أمسكت (جينيا) بي. حاربت إحساسي بالدوار، ثم أفلتُّ يد (جينيا)، فتعثرت نحو النافذة، فنظرت عبر زجاجها الدائري المضبب.

لا شيء.. لا شيء سوى زرقة البحر.. لا مرفأ ولا ساحل، و(نوڤيبي زم) بعيدة جدًّا.

حبست الدموع التي تجمَّعت في عيني.

سألتُها: «أين مال؟»، وعندما لم تجِب، التفتُّ نحو (إيڤان) وكررت سؤالي: «أين مال؟».

فجاء ردُّه: «إن مستحضِر الظلام يود رؤيتك، فهل تقوين على المشي أم سيتعين عليَّ حملك؟».

قالت (جينيا): «أعطِها دقيقة لتأكل وتغسل وجهها على الأقل..».

- «كلا، خذني إليه».

عبست (جينيا).

قلتُ بإصرارٍ: «أنا بخيرٍ».

في الواقع، كنت أشعر بالتعب والوهن والخوف، لكنني لن أبقى متمددة فوق ذلك السرير الضيق.. كما أنني أردت إجابات، لا طعام.

عندما غادرنا الكابينة، قابلتنا رائحة نتنة، أسوأ من روائح السمك والجيف القذرة التي اعتدتها في أثناء رحلتي على متن سفينة «ڤيرهادر»،

كتمتُ فمي على الفور وشعرت بالامتنان لأنني لم أتناول أي طعام.

- «ما هذا؟».

قال (إيڤان): «دماء، وعظام، ودهن حيتان.. ستعتادين تلك الروائح».

ردّدَت (جينيا) غالقةً أنفها: «أجل، ستعتادين أنت تلك الروائح».

إذن، كنّا على متن سفينة تحويت[1].

اصطحباني إلى غرفة تخزين بها سلّم يؤدي إلى سطح السفينة بالأعلى. تسلَّق (إيڤان)، ثم تبعته على عجلٍ؛ أحاول تحرير نفسي من أسر ظلمات السفينة، وروائحها المقبضة بالأسفل. واجهت صعوبة في أثناء الصعود لأن يدي مكبلتان، ففقد (إيڤان) صبره وجذبني إلى الأعلى، وحينما وصلنا، رفعت رأسي لأستنشق نفحات الهواء البارد حتى أذى عيني ضوء النهار البراق.

كانت السفينة مكتملة الطاقم؛ يقودها إلى الأمام ثلاثة من مستحضري الرياح الذين وقفوا بجانب الصواري، يرتدون أزياء الكفتا الزرقاء التي أخذت ترفرف حول أرجلهم. إنهم من الإثيريالكي، جماعة المستحضرين التي كنت جزءًا منها منذ أشهر قليلة، أما عن بقية الطاقم، فقد ارتدوا ملابس خشنة، ومعظمهم كانوا حفاة الأقدام ليقفوا بثباتٍ على أرضية السفينة الزلقة. لاحظت أنهم لا يرتدون أزياء موحدة؛ إذن فهم ليسوا أفرادًا من الجيش، كما أنني لم أرَ أي ألوان حولي غير ألوان أزياء الكفتا المشرقة التي ميَّزت بين الغريشا وبين البحارة العاديين.

وقف الغريشا بكسلٍ بجانب سور السفينة، يشاهدون الأمواج أو يتجاذبون أطراف الحديث، تاركين البحارة منخرطين في أشغالهم، حتى إنني رأيت مصنعة، ترتدي زيها الأرجواني، تستند إلى لفافة من الحبال، وتقرأ.

(1) أي سفينة صيد حيتان.

مررنا بغلايتين ضخمتين من الحديد، موضوعتين على سطح السفينة، وعلى الفور التقط أنفي تلك الرائحة النتنة التي تطابق تلك الرائحة في الأسفل.

قالت (جينيا): «هذه الأواني التي يستخدمونها في استخلاص الزيت، وعلى الرغم من أنها لم تُلمَس بعد، فإن الرائحة لا تتلاشى».

ظلَّ الغريشا وطاقم السفينة -على حد السواء- مصوبين أنظارهم نحونا بينما كنَّا نمشي بطول السفينة، وعندما وصلنا إلى صاري الشراع الثانوي، نظرت إلى الأعلى فأبصرت الفتى ذا الشعر الأسود والفتاة اللذين رأيتهما في الحلم، كانا يتدليان من الحبال مثل طائرين جارحين، يراقباننا بأعينٍ ذهبية متطابقة.

إذن، فأنا لم أحلم بهما.. بل كانا معي في الكابينة.

قادني (إيڤان) إلى مقدمة السفينة، حيث ينتظرنا مستحضر الظلام، كان يقف موليًا ظهره لنا، يشاهد الأفق الأزرق من وراء ساطور السفينة[1]، وزيه الأسود يرفرف من حوله كأنه علم حربٍ داكن.

انحنى (إيڤان) و(جينيا)، ثم تركانا معًا.

سألته على الفور:«أين مال؟»، بحلقٍ لا يزال جافًّا.

لم يلتفت إليَّ، واكتفى بهز رأسه، وقال: «دائمًا ما أتوقع ما ستقولينه».

- «أعتذر عن جعلك تشعر بالملل.. أين هو؟».

- «ومن قال إنه ليس ميتًا؟».

شعرت بألمٍ في معدتي.

قلت بثقة زائفة: «لأنني أعرفك جيدًا».

- «وإذا كان ميتًا؟ هل ستلقين نفسك في البحر؟».

- «لن أفعل ذلك إلا لو أخذتك معي.. أين هو؟».

(1) قطعة خشبية بارزة تقع في مقدمة السفينة

- «انظري خلفك».

التفتُّ، فتراءى لي وجه (مال)، من بين الأحبال والأشرعة، بعيدًا في آخر السفينة، كان محاطًا بحراس من الكوربورالكي، لكنه ظل مصوبًا نظره نحوي، حتى عندما كنتُ في طريقي إلى مستحضِر الظلام، انتظر أن التفت إليه.

تقدَّمت إلى الأمام، فأمسك مستحضر الظلام بذراعي بقوة، ثم قال: «لا تخطين خطوة أخرى».

قلت له متوسلة: «دعني أتحدث إليه».

كم كرهت نبرة اليأس تلك..

- «لن تحظي بأي فرص؛ فكلاكما لديكما عادة سيئة: تقومان بأفعال حمقاء وتسميانها بطولية».

رفع مستحضِر الظلام يده، فجذب الحراس (مال) بعيدًا.

صاح قائلًا: «ألينا»، ثم صارع الحارس الذي مسكه بقوة من وجهه.

- «مال! مال!».

صرختُ بينما كانوا يجذبونه بعيدًا، إلى الأسفل.

حررت نفسي من قبضة مستحضِر الظلام، حلقي يختنق من شدة الغيظ.

قلت: «إذا أذيتَه...».

- «لن آذيه.. على الأقل ما دام ذا نفعٍ لي».

- «لا أريد أن يصيبه مكروه».

- «إنه بأمان الآن يا ألينا، ولكن لا تختبريني؛ فمن سيتعدى حدوده منكما، سيتعذَّب بسببه الآخر، لقد أخبرته بهذا بالفعل».

أغمضت عيني، محاولة التحكُّم في غضبي وقلة حيلتي؛ لقد عدنا من حيث بدأنا..

أومأت برأسي مرة واحدة، وإذا بمستحضِر الظلام يهزِّز رأسه ويقول: «كم هو سهل إيذاؤكما؛ أطعنه بالسكين، فتنزفين أنت!».

- «ليس في وسعك فهم أي من هذا».

لامس بأصابعه طوق موروزوفا، ثم تحسَّس رقبتي.. حتى تلك اللمسة الخافتة خلقت بيننا اتصالًا ما، خدر من القوة سرى بداخلي كأنني جرس قرعه هو.

قال بلطفٍ: «إنني أعلم ما يكفي».

- «أريد أن أقابله.. كل يوم؛ حتى أطمئن عليه».

- «بالطبع.. أنا لست قاسيًا يا ألينا، بل أنا حذرٌ فحسب».

كدت أضحك وأنا أسأله: «ألهذا سمحت لأحد وحوشك بأن يعضني؟».

صوَّب نظره نحو كتفي وهو يقول: «هذا ليس سببًا.. ولكن هل يؤلمك الجرح؟».

أجبت كاذبة: «كلا».

اعتلت شفتيه أخفت الابتسامات وهو يقول: «ستتحسنين، ولكن هذا الجرح لن يُشفى نهائيًا، حتى لو تدخل أحد الغريشا».

- «تلك الوحوش...».

- «الـ «نيتشيڤويا».

قلت في رأسي: «اللاأشياء»، وتذكرت أصوات حركاتهم ونقراتهم، وغيابة الظلمة في ثغورهم العميقة.

شعرتُ بخفقان في قلبي قبل أن أسأله: «ما هؤلاء؟».

التوت شفتاه، وآثار الندوب في وجهه بالكاد كانت ظاهرة، كأنها شبح خريطة، إحداها قريبة على نحوٍ خطر من عينه اليمنى، حد أنه -في الغالب- كاد يفقدها. التفتت أصابعه حول خدي كأنه يمسك كوبًا، وعندما تحدث أصدر صوتًا هامسًا عذبًا: «إنهم فقط البداية».

تركني واقفة عند مقدمة السفينة، بعدما نفختْ أصابعه في خدي الحياة، وكوَّنت الأسئلة في رأسي بركة، وقبل أن أتوصل إلى الإجابات، ظهر (إيڤان) أمامي وبدأ يجذبني نحو منتصف السفينة.

- «لماذا نسرع الخطى؟».

ولكن تذمُّري لم يجدِ نفعًا، بل جعله يهزني بقوة أكبر، فتعثَّرت إلى الأمام، وآلمتني ركبتاي فور اصطدامهما بسطح السفينة، مع أني استندت بيديَّ المكبلتين إلى الأرض لأقلِّل من حدة السقوط، وجفلت عندما شقَّت لحمي قطعة خشب صغيرة.

- «تحركي!»، صاح (إيڤان) آمرًا، فنهضتُ، فوخزني بطرف حذائه، فعدت أحتضن أرض السفينة التي ارتجَّت من تحتي.

ثم ردَّد: «قلت تحركي!».

وإذا بيدٍ ضخمة ترفعني بلطفٍ لأقف على قدمي من جديد، عندما التفتُّ، ذهلت لرؤية العملاق والفتاة ذات الشعر الأسود التي سألتني: «هل أنت بخيرٍ؟».

ردَّ (إيڤان) بالنيابة عني: «هذا ليس من شأنكِ».

فقالت الفتاة: «إنها سجينة ستورمهوند، ويجب أن تُعامَل بحسب القوانين».

ستورمهوند.. اسمٌ مألوف.. هل هذه سفينته إذن؟ وهذا طاقمه؟ لقد سمعتهم يتحدثون عنه عندما كنتُ على متن سفينة ڤيرهادر، قالوا إنه قرصان ومهرب، مشهور بقدرته على الخلاص من محاصرات الفييرديين، وبالثروة التي جمعها من استيلائه على سفن أعدائه، كما أنه لا يرفع علم العقاب المزدوج.

قال (إيڤان): «بل هي سجينة مستحضِر الظلام، إنها خائنة!».

ردَّت الفتاة: «سجينته في البر ربما».

تمتم (إيڤان) ببعض كلمات اللغة الشوهانية التي لا أفهمها، فضحك العملاق ثم ما لبث أن قال: «تتحدث الشوهانية مثل سائح!».

وأضافت الفتاة: «ونحن لا نتلقَّى منك أوامر أيًّا تكن لغتها!».

ابتسم (إيڤان) بخبثٍ، وقال: «حقًّا؟»، ثم لفَّ يده، فأمسكت الفتاة صدرها وجثت على ركبةٍ واحدة.

وقبل أن ترمش عيني كان العملاق قد أمسك بسكين حادٍ شديد الالتواء وتقدم ليطعن (إيڤان)، مما دفع الأخير إلى أن يلف يده الأخرى بكسلٍ، فالتوت قسمات وجه العملاق، ومع ذلك ظلَّ يتقدم.

قلت متذمرة: «دعهما وشأنهما»، وأخذت أحرك يدي المكبلتين، ولكن بلا جدوى، مع أني أقدر على استدعاء الضوء، ولكن لن أستطيع التحكم فيه جيدًا.

تجاهلني (إيڤان)، وأحكم قبضته على الهواء، فتجمَّد العملاق في مكانه، وهوى السكين من بين أصابعه، وانسلَّ العرق من جبينه بينما يسرق (إيڤان) نبض الحياة من قلبه.

ثم قال (إيڤان) بحدة: «دعونا لا نخرق القوانين».

فقلتُ، وقد تملكني الذعر: «إنك تقتله!».

ثم صدمت كتفي بجنبه محاولة طرحه أرضًا.

وفي تلك اللحظة، دوى صوت رصاصتين.

شُلَّ (إيڤان)، وتبخرت ابتسامته الخبيثة، وتراءى من خلفه شاب طويل، خيل إليَّ أنه في مثل سني، أو ربما أكبر بأعوامٍ قليلة، شعره أحمر، وأنفه مكسور.. إنه الثعلب فائق الذكاء.. يحمل في يده مسدسًا صوَّب فوهته نحو عنق (إيڤان).

- «إنني مضيف لطيف، يا آرق الدماء، لكن لكل بيتٍ قوانينه».

مضيف؟

إذن، لا بد أن هذا (ستورمهوند).. لكنه أصغر بكثيرٍ من أن يبدو قبطانًا لمركب شراعي!

أخفض (إيڤان) يديه، فهرع العملاق يمتص هواء الأرجاء، ونهضت الفتاة ممسكة بصدرها، وأخذت أنفاسهما تتثاقل، ونيران الكره في عينيهما تنفث قيظها.

قال (ستورمهوند) مخاطبًا (إيڤان): «ذاك رجل صالح.. والآن، سأصطحب السجينة إلى حيث أتت، وأنت فاذهب وقم بـ... أيما ما تقوم به بينما يعمل الجميع من حولك».

غضب (إيڤان)، وقال: «لا أظن أن...».

فقاطعه بقوله: «ما قلته واضح، فلم تريد بدء جدال؟».

اكفهر وجه (إيڤان) غيظًا، وقال: «إنك لا...».

فاقترب منه (ستورمهوند)، وقد ذاب الضحك من نبرته، ولطفه استحال إلى حدة كنصل سيفٍ وهو يقاطعه قائلًا: «أنا لا يهمني من تكون على ظهر اليابس؛ فعلى متن هذا السفينة، لست إلا صابورة[1]، وما إن أقرر الاستغناء عنك، فتستحيل إلى طعمٍ لأسماك القرش، وكم أحب تلك الأسماك؛ صعبة الطهي لكنها اختيار جيد للتغيير. تذكر ما قلته جيدًا عندما تسول لك نفسك تهديد أي شخصٍ على هذه السفينة».

ثم تراجع إلى الخلف، وقد استعاد حسه المرح، وأضاف: «هيا، اذهب الآن يا طعم القروش.. هرول إلى سيدك».

- «لن أنسى ما قلته يا ستورمهوند»، لفظها كبصقةٍ على الأرض.

فنظر إليه المخاطب، وقال: «وهذا هو المطلوب!».

فاستدار (إيڤان) واندفع إلى الأمام.

(1) ثقل يوضع على السفينة للحفاظ على توازنها.

أعاد ستورمهوند مسدسه في جرابه، ثم ابتسم بلطفٍ، وقال: «إنه لإحساس مذهل أن نشعر فجأة بأن السفينة مزدحمة، أليس كذلك؟»، ثم اقترب من العملاق والفتاة، وربت على كتفيهما، وأردف بهدوء: «لقد أبليتما بلاءً حسنًا».

لم يزل (إيڤان) يشغل انتباههما.. وقبضتا الفتاة كانتا مشدودتين.

حذَّرهما القبطان قائلًا: «لا أريد المزيد من المتاعب، مفهوم؟».

تبادلا النظرات، ثم أومأ كلاهما في غيظ.

- «جيد، اذهبا إلى عملكما، وسأعيدها أنا إلى الأسفل».

أومأ الاثنان مجددًا، ثم تفاجأت بهما ينحنيان لي سريعًا قبل أن ينصرفا.

سألته بينما كانا يبتعدان عنَّا: «هل تربطهما صلة قرابة؟».

فأجاب: «إنهما توأمان: توليا وتمار».

- «وأنت ستورمهوند».

- «بشحمه ولحمه».

ارتدى بنطالًا جلديًّا، وحول فخذيه علَّق حزامًا من المسدسات، وحول جسده التف معطف لونه يمزج بين الخضرة والزرقة، ذيله مشقوق، وكماه واسعان للغاية؛ ملابس تليق بقاعة رقص، أو مسرح أوپرا، لا سفينة صيد.

سألته: «ماذا يفعل قرصان على متن حواتة؟».

فأجاب مصححًا: «قرصان بأوراق رسمية.. على أي حال، أنا أملك العديد من السفن، ومستحضر الظلام أراد حواتة، فجلبت له واحدة».

- «تقصد سرقتها».

- «بل حصلت عليها».

- «لقد كنت في كابينتي».

قال بلطفٍ وهو يصطحبني إلى الأسفل: «نساء كثيرات يحلمن بي».

فقلت بإصرارٍ: «لقد رأيتك حينما استيقظت.. أريد أن...».

رفع يده وقال: «لا تضيعي أنفاسك يا عزيزتي».

- «لكنك لا تعلم ما أردت قوله».

- «كنت ستحكين عن حالتك، وتطلبين مساعدتي، مؤكدة عدم مقدرتك دفع ثمنها، وأن قلبك صادق.. كالعادة».

رمشت، وقد نالت مني المفاجأة؛ فهذا ما كنت سأقوله بالضبط.

- «ولكن...».

- «هذه مضيعة للأنفاس، والوقت، ولهذا المساء اللطيف.. كل ما في الأمر أنني لا أحب أن يُعامَل مساجيني بطريقة لا تليق؛ هذه إحدى اهتماماتي».

- «إنك...».

هزَّ رأسه، وقال يقاطعني: «مشهورٌ بعدم تأثري بالقصص المأساوية، ولذا، فإن لم تحوِ قصتك كلبًا متكلمًا، فأنا لا أرحب بسماعها، فهل ينطبق عليها هذا الشرط إذن؟».

- «أي شرط؟».

- «وجود كلب متكلم».

- «كلا، بل تحوي مستقبل مملكة وشعبها».

- «يا له من أمر مثير للشفقة».

ثم جذبني من ذراعي نحو بابٍ في آخر السفينة.

قلت بغضبٍ: «ظننتك تعمل لمصلحة راڤكا».

- «إنني أعمل لمن يملك أكثر محفظة منتفخة».

- «إذن، هل ستبيع بلدك لمستحضِر الظلام مقابل القليل من الذهب؟».

- «بل مقابل الكثير من الذهب.. تأكدي أني لا أعمل بثمنٍ بخس».

ثم أشار نحو الباب وأردف: «من بعدك».

نزلت إلى كابينتي بمساعدته، حيث انتظرني اثنان من الغريشا ليغلقا الباب عليَّ، انحنى القبطان أمامي، ثم مضى من دون أن ينبس بكلمة أخرى.

جلست فوق السرير، ووضعت رأسي بين يدي. قد يلعب (ستورمهوند) دور الأبله كيفما شاء، لكنني متأكدة من أنه زارني في الغرفة، وثمة - بالطبع- سبب لذلك، أو ربما أنا أتشبث بأي خيط أمل رفيع.

عندما أحضرت إليَّ (جينيا) صحنَ عشائي، وجدتني متكومة فوق السرير، ووجهي يقابل الجدار.

قالت: «عليكِ أن تأكلي».

- «دعيني وشأني».

- «عبوسك سيملأ وجهك بالتجاعيد».

- «وكذبك سينشر في جسدك النتوءات».

قلتها بحدة، ومع ذلك فقد ضحكت، ثم دخلت الغرفة ووضعت صحن العشاء، واتجهت صوب النافذة لتشاهد انعكاسها في الزجاج.

وإذ بها تقول: «ربما عليَّ أن أصبح شقراء؛ فلون زي الكوربورالكي يتعارض مع لون شعري الحالي».

نظرت إليها وقلت: «إنك تعلمين جيدًا أن شعرك إذا أضحى طينًا مخبوزًا، ستظلين أجمل من أي امرأة تسكن القارتين».

ابتسمت وقالت: «معك حق».

لم أبادلها الابتسام، فتنهدت ودققت النظر في حذائها، ثم أردفت: «لقد افتقدتك».

صدمني وقع كلماتها المؤلم.. لقد افتقدتها أيضًا، وكم شعرت بمدى حماقتي حينها.

سألتها: «هل كنت يومًا صديقتي؟».

جلست على حافة السرير، ثم أجابت: «هل سيحدث ذلك فارقًا؟».

- «أود أن أعرف كم كنت حمقاء في السابق».

- «لقد أحببت كوني صديقتك يا ألينا، لكنني لم أندم على ما فعلته».

- «وماذا عن ما فعله مستحضر الظلام؟ هل تشعرين بالأسف تجاه ذلك؟».

- «أعلم أنك ترينه وحشًا الآن، لكنه يحاول القيام بما يصب في مصلحة راڤكا، ومصلحتنا جميعًا».

استندت إلى مرفقي، واعتدلت في جلسي. لقد عشت أكاذيب مستحضِر الظلام وقتًا طويلًا، حد أنني تناسيت أن ثمة بعض الناس لا يدركون حقيقته.

قلت: «إنه من خلق الطية يا جينيا».

- «إن المهرطق الأسود...».

- «ليس له وجود»، قلتها متذكرةً ما كشفته لي (باغرا) من حقائق منذ أشهرٍ في القصر الصغير.

ثم أردفت: «إنه يلقي اللوم على أحد أجداده، في أمر بناء الطية، في حين أن لا وجود لمستحضر ظلامٍ غيره، وكل ما يهمه أن يبقى مستحوذًا على القوة».

- «هذا مستحيل؛ لقد قضى مستحضر الظلام عمره محاولًا أن يحرر راڤكا من أسر الطية».

- «كيف تقولين هذا بعدما شاهدت ما فعله في نوڤوكريبيرسك؟».

أتذكر عندما استخدم مستحضر الظلام قوة اللابحر ليهشم بلدة بأكملها، وليستعرض قدراته أمام أعدائه، ويعلن عن بدء فترة حكمه، وقد أعنته على ذلك.

- «أعلم أن.. ثمة حادثًا ما».

- «حادثًا؟ لقد قتل مئات الناس، أو ربما الآلاف!».

قالت حينها بهدوء: «وماذا عن من كانوا على متن السفينة؟».

أخذت نفسًا طويلًا، ثم تراجعت إلى الخلف قليلًا. ظللتُ أتأمل ألواح الخشب من فوقي لحظة طويلة، لم أرد أن أوجه إليها ذلك السؤال، لكنني علمت أنني سأفعل ذلك على أي حال؛ فذلك السؤال بقي يطاردني أسابيع طويلة، وأميالًا طويلة فوق عرض المحيط:

- «هل هناك.. هل هناك ناجون آخرون؟».

- «غير مستحضِر الظلام وإيڤان؟».

أومأت برأسي وانتظرت.

قالت بعد برهة صمت: «اثنان من مستحضري النار اللذان ساعداه على الفرار، وبضعة جنود من الجيش الأول استطاعوا العودة بسلام، ومستحضرة رياح تُدعى ناتاليا، لكنها ماتت بعد أيام قليلة إثر إصاباتها».

أغمضت عيني.

تُرى كم كان عدد ركاب تلك السفينة الرملية؟ ثلاثين؟ أربعين؟

ارتجف كياني؛ سمعت صراخهم، وعواء القولكرا، وشممت رائحة البارود المخلوطة برائحة الدماء.

لقد ضحيتُ بكل هؤلاء الناس من أجل حياة (مال)، وحريتي، ولكن في النهاية ماتوا هباءً؛ لقد عدنا بين براثن مستحضر الظلام الذي صار أقوى من أي وقتٍ سبق.

وضعت (جينيا) يدها فوق يدي، وقالت: «لقد قمت بما أجبرت عليه يا ألينا».

هربت مني ضحكة دوت في الأرجاء، ثم باعدت بين يدي ويدها، وقلت: «هل هذا ما أخبرك به مستحضر الظلام؟ هل يهون هذا عليك تأنيب الضمير؟».

- «كلا، الأمر ليس كما تتصورين».

نظرت إلى حجرها، وأخذت تطوي أطراف زيها وتفردها من جديدٍ.

قالت في النهاية: «لقد أعتقني يا ألينا.. ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ أن أفرَّ عائدة إلى القصر والملك من جديدٍ؟»، ثم هزَّت رأسها، وأضافت: «كلا، لقد اتخذت قراري».

- «وماذا عن باقي الغريشا؟ لا أظن أن جميعهم أخذوا صف مستحضر الظلام؟ كم منهم بقي في راڤكا؟».

تبدَّلت ملامح (جينيا) وهي ترد قائلة: «لا يجدر بي أن أتحدث معك في مثل هذه الأمور، على ما أظن».

- «ولكن يا جينيا...».

- «تناولي طعامك يا ألينا، واستريحي قليلًا؛ فالثلج سيضربنا قريبًا».

الثلج؟ إذن نحن لسنا عائدين إلى (راڤكا)، لا بد أننا نتجه شمالًا.

نهضت (جينيا)، ونفضت التراب عن زيها. كنت أعلم مدى أهمية لونه بالنسبة إليها، مهما سخرت هي من ذلك؛ فذاك إثباتٌ على انتمائها الحقيقي إلى الغريشا، وأنها مكفولة الحماية ومقربة من الكل، ولم تعد خادمة. تذكرت ذلك المرض الغامض الذي أصاب الملك قبل انقلاب مستحضر الظلام، لقد كانت (جينيا) من القلائل من بين الغريشا المقربين من العائلة الملكية، وها قد استغلت هذه الميزة لتحصل على حقها في ارتداء الزي الأحمر.

قلت قبل أن تغادر الغرفة: «لديَّ سؤال آخر يا جينيا».

وقفت واضعة يدها على مزلاج الباب.

كان سؤالًا غير ذي أهمية، وذكره سخيف بعد مرور كل هذا الوقت، لكنه أمر أرهقت من التفكير فيه منذ وقتٍ طويل.

قلت: «ماذا حدث للرسائل التي كتبتها لمال.. لقد أخبرني أنه لم يستلم أيًّا منها».

لم تلتفت إليَّ، لكني لاحظتها تهز كتفها، وتهمس: «لم يُرسلوا؛ فمستحضر الظلام قال إن عليك ترك صديقك القديم».

ثم أغلقت الباب، وسكن المزلاج في غمده.

أكاذيب محض.. كل تلك الساعات التي قضيتها في الحديث مع (جينيا)، وتبادل الضحكات، وأكواب الشاي، وارتداء الفساتين.. كانت كلها أكاذيب محضًا. وأسوأ ما في الأمر أن مستحضر الظلام كان على حق؛ فلو كنت قد تمسكتُ بـ (مال)، وبذكرى الحب الذي أكننته له، لكنت سأفشل في إجادة استخدام قوتي. لكن (جينيا) لم تعرف أيًّا من هذا، وفضلت أن تنفذ الأوامر، وتترك قلبي للحطام، لا أعلم ماذا يسمى ذلك، لكنها ليست صداقة على أي حال.

انقلبت إلى جنبي الآخر، شعرت باهتزاز السفينة الرقيق من تحتي. تُرى هل يماثل هذا شعور الطفل الذي تهزه أمه بين ذراعيها لينام؟ لا أتذكر أن حدث معي ذلك، ولكن (آنا كونيا) أحيانًا ما كانت تهمهم بصوتٍ خفيض لا نكاد نسمعه، عندما كانت تذهب لتطفئ الأنوار، أو تغلق أبواب المهاجع ليلًا في (كيرامزين)، هذا أقرب تصور للتهويدة أعرفه أنا و(مال).

سمعت بحارًا، من مكانٍ ما من فوقي، يصرخ بصوتٍ يعلو على هرير الريح، ثم قرع الجرس ليعلن عن موعد تغيير نوبة المراقبة.

ما زلنا حيَّين.. لقد هربنا منه من قبل، ويمكننا فعل ذلك ثانية.

أخذت أذكِّر نفسي، ولكن بلا فائدة، واستسلمت للدموع التي هربت من عيني.

لقد أحضر (ستورمهوند) ودفع له المال.

واختارت (جينيا) مستحضر الظلام.

وعدت أنا و(مال) وحيدين كما كنا دائمًا، بلا أصدقاء أو حلفاء، يحفنا بحر ليس له آخر، وحتى إن انتوينا الفرار، فلن نجد مأوى.

الفصل الثالث

بعد أقل من أسبوع، أبصرت أول طوف جليدي.

ذهبنا إلى أقصى الشمال، حيث البحر غامق اللون، والثلج ينبثق من أعماقه مثل حرابٍ مميتة، وعلى الرغم من أنها بداية الصيف، فإن الرياح شقَّت جلدنا، وفي الصباح تكسو رقاقات الثلج الحبال.

قضيت ساعات أطوف في كابينتي، وأحدق إلى البحر الذي بلا نهاية. وكل صباح، يسمحون لي بالصعود إلى سطح السفينة، لأريح رجلي قليلًا، وأرى (مال) من بعيدٍ، ودائمًا أجد مستحضِر الظلام واقفًا بجانب السور، يتأمل الأفق، كأنه يبحث عن شيء ما، و(ستورمهوند) وطاقمه يقفون على مبعدةٍ منه.

وفي اليوم السابع، مررنا بجزيرتين يشبهان حجرين أردوازيين، تذكرتهما منذ أن كنت أعمل رسامة خرائط: إنهما «ڃيلكا» و»ڤيلكي»، الشوكة والسكين.

ثم سلكنا «طريق العظام»، ذاك المسطح المائي الأسود الممتد في الأفق طويلًا، حيث تحطمت سفنٌ لا حصر لها إثر اصطدامها بالجزر التي لا اسم لها، التي تظهر وتختفي من بين براثن الضباب. وفي الخرائط رسمت على هذا الطريق جماجم بحارة، وأفواه وحوش عريضة، وحوريات بحر شعرهن في بياض الثلج، وأعين فقمات سوداء عميقة. لا يرتاد هذا المكان سوى أمهر الصيادين الفييردانيين، ليحصلوا على الجلود والفرو، يغامرون بحياتهم ليحظوا بجوائز ثمينة.. ولكن أي جوائز تلك التي نبحث عنها؟

أمر (ستورمهوند) أن تخفض أشرعة السفينة، فسرنا ببطءٍ إلى أحضان الضباب. خيم صمتٌ غريبٌ على السفينة، أبصرت القوارب الطويلة للحواتة، وأسنة حربات الصيد المصنوعة من فولاذ الغريشا، علمت حينها سبب وجودنا هنا؛ أراد مستحضر الظلام أن يحصل على مضخم قوى ما.

تأمَّلت رتب الغريشا من حولي، وتساءلت مَن مِن بينهم سيقع عليه الاختيار ليحظى بإحدى «هدايا» مستحضر الظلام، وإذ بالشك ينسال إلى أعماقي.

قلت في نفسي: «إنه الجنون بعينه، ولن يجرؤ على المحاولة».

ومع ذلك فقد شعرت بالقلق؛ لأنه دائمًا ما يمتلك تلك الجرأة.

***

في اليوم التالي، أمر بإحضاري إليه.

سألت (إيڤان) بينما كان يصطحبني إلى السور الأيمن: «إلى أين أنت ذاهب بي؟».

وقف مستحضِر الظلام يحدق إلى الأمواج، أردت أن ألقي به من فوق سور السفينة، بالطبع هو يكبرني بمئات الأعوام، ولكن هل يستطيع السباحة؟

- «أخبرني أنك لا تفكر فيما أفكر به.. أخبرني أنك تنتوي إحضار مضخم قوى لفتاة حمقاء بلهاء أخرى».

- «أتقصدين فتاة أقل عندًا وأنانية وتعطشًا إلى حياة الفئران؟ صدقيني، لقد تمنيت ذلك».

قلت وأنا أتألم: «لكن لكل غريشا مضخم قوى وحيدًا، هذا ما قلته لي بنفسك».

- «مضخم موروزوڤا مختلف».

اندهشت مما قاله حد أن فاهي انفغر من تلقاء ذاته.

سألته بعد برهة صمتٍ وجيزة: «هل ثمة شيء آخر مثل الأيل؟».

- «لقد خلق الاثنان ليستخدما معًا يا ألينا؛ إنهما فريدان من نوعهما، مثلنا تمامًا».

تذكرت الكتب التي قرأتها عن نظريات الغريشا، جميعها أكدت أن قوى الغريشا لا تعرف الحدود، ولكن يجب أن تبقى تحت السيطرة.

قلت: «كلا، أنا لا أريد ذلك، أود فقط...».

فقال ساخرًا: «تمنَّيْ ما شئتِ.. فأنا أريد أن أشاهد المتعقب بينما ينفث أنفاسه ببطءٍ وسكيني مغروس في قلبه، وأريد أن أرى البحر وهو يبتلعكما معًا، ولكن مصيرنا واحد الآن يا ألينا، وليس في وسع أحد منا تغييره».

- «يا لك من مجنون!».

- «أعلم أنك حينما تقنعين نفسك بذلك ينتابك بعض الرضا، ولكن مضخمات القوى يجب أن تتحد، إذا كان لدينا أي أمل للتحكم في الطية».

- «إنك لا تستطيع التحكم في الطية، بل عليك تدميرها!».

اعتلت شفتيه ابتسامة خافتة وهو يقول: «احذري مما تقولينه يا ألينا؛ فقد ظننت في البدء أنك مثلها»، ثم أشار إلى (إيڤان)، الذي وقف تاركًا مسافة استحياء، وقال: «أحضر إليَّ الفتى».

قفز قلبي إلى حلقي.

قلت: «انتظر، لقد قلت لي إنكَ لن تؤذيه».

تجاهلني، فالتفت كالبلهاء، كأنما سيسمع ندائي أحدٌ من على متن هذه السفينة التي لعنها القديسون.

وقف (ستورمهوند) بجانب دفة السفينة، يراقبنا بوجهٍ معدوم الملامح.

جذبت كُمَّ زي مستحضر الظلام وأردفت: «لقد أبرمنا اتفاقًا، وأنا لم أخل به. أما أنت فقلت...».

نظر إليَّ بعينيه الأردوازيتين الباردتين، فلقيت الكلمات حتفها على شفتي.

لحظات وظهر (إيڤان) يجر (مال) خلفه، متجهًا به صوب حاجز السفينة. وقف أمامنا، يحدق إلى ضوء الشمس، ويداه مكبلتان، كان أقرب إليَّ هذه المرة من الأسابيع الماضية، ورغم أنه بدا عليه الإعياء والشحوب، فإنه لم يمسسه ضرر، لمحت أسئلة متناثرة على ملامحه الحذرة، ولكنني لم أعلم لها إجابات.

قال مستحضر الظلام مخاطبًا إياه: «حسنًا أيها المتعقب، قُم بعملك».

نظر إليَّ (مال)، ثم عاود النظر إليه، وقال: «أي عمل؟ نحن في منتصف المحيط».

- «لقد أخبرتني ألينا يومًا ما أنك في إمكانك خلق أرانب من الحجارة، كما أنني سألت طاقم ڤيرهادر عنك، وأخبروني أنك بارع كذلك في البحر، إنهم يظنون أيضًا أنك تستطيع أن تغرق قبطانًا سعيد الحظ في بحرٍ من الثراء، بعملك هذا».

تبدَّلت ملامح (مال) وقال: «أتريدني أن أصيد حيتانًا؟».

- «كلا، بل أريدك أن تصيد «سوط البحر»».

نظرنا نحوه مصدومين، حد أنني كدت أضحك.

سأله (مال) متشككًا: «هل تبحث عن تنينٍ ما؟».

- «أجل، تنين الجليد: روزاليه».

روزاليه..

أعرف ذلك الكائن من القصص..

يُحكى أن «سوط البحر» كان أميرًا ذات يوم، أصيب بلعنةٍ ما، وأُجبِر أن يتخذ شكل ثعبان بحر ويحمي المياه الباردة لطريق العظام.

ترى هل هذا مضخم القوى الآخر لموروزوڤا؟

قال (مال) كأنه قرأ أفكاري: «هذه حكاية خيالية محض، أو قصة أطفال، لا وجود لها في الواقع».

فقال مستحضر الظلام: «لقد شوهد «سوط البحر» هنا، في هذه المياه، لسنوات».

- «إنها أسطورة محض، تمامًا مثل حوريات البحر وكائنات السيلكي البيضاء[1]».

رفع مستحضر الظلام حاجبه المقوس كأنه سيطلق منه سهمًا، ثم قال: «وماذا عن الأيل؟».

نظر (مال) إليَّ، فهززت له رأسي بهدوءٍ.

لا يهم ما ينتوى فعله مستحضر الظلام، فلا أظن أننا سنساعده على أي حالٍ.

صوَّب (مال) نظره نحو الأمواج وقال: «إنني لا أعلم حتى من أين أبدأ».

فأخرج مستحضر الظلام سكينًا نحيلة من جيب زيه، وقال: «أتمنى ألا يكون ما تقوله صحيحًا، من أجلها لا غير؛ فكل يوم يمر من دون أن نعثر على «سوط البحر»، سأنتزع ببطءٍ من جلدها قطعة، ثم سيشفيها إيڤان، وسيتكرر ذلك إلى الأبد».

أحسست بالدماء تهرب من وجهي.

قال (مال): «إنك لن تؤذيها».

دوت في مسامعي نبرة الخوف التي تحدث بها.

قال مستحضر الظلام: «بل إنني لا أريد أن أؤذيها.. أودك فقط أن تفعل ما آمرك به».

---

(1) في الأساطير الكلتية والإسكندنافية، كائنات الـ «سيلكي» تتخذ شكل الفقمة في البحار، وتستحيل إلى إنسان في البر.

فقال (مال) بيأسٍ هذه المرة: «ولكنني استغرقت شهورًا لأعثر على الأيل، وما زلت لا أعلم كيف فعلت هذا!».

تقدَّم نحوه (ستورمهوند)، تركيزي مع (مال) ومستحضر الظلام كاد ينسيني أنه يقف على مقربةٍ منا.

قال: «إنني لن أسمح بأن تُعذَّب فتاة على متن سفينتي».

صوَّب مستحضر الظلام نظرته الباردة نحوه وقال: «إنك تعمل لديَّ يا ستورمهوند، وعليك أن تقوم بعملك وإلا فانسَ أن أدفع لك أي نقود».

طافت موجة قلق غريبة على السفينة.

ظلَّ طاقم (ستورمهوند) يراقبون الغريشا بملامح تطفح منها العدوانية، ووقفت (جينيا) مشدوهة، تضع يدها على فمها، ولا تنبس ببنت شفة.

قال (ستورمهوند) بهدوءٍ: «أعطِ المتعقب بعض الوقت، أسبوعًا مثلًا، أو بضعة أيام».

انزلقت أصابع مستحضِر الظلام على ذراعي، كاشفة لحمي الأبيض الذي توارى تحت كمي، وإذ به يسأل: «هل أبدأ بذراعها؟».

ثم لامس خدي بأصابعه، وأردف: «أم بوجهها؟».

أومأ بعد ذلك إلى (إيڤان) وقال: «أمسك بها».

وعلى الفور، ثبَّت (إيڤان) رأسي، فرفع مستحضر الظلام سكينه التي رأيتها تلمع بطرف عيني، حاولت التراجع ولكن (إيڤان) شلَّ حركتي. التقى النصل بخدي، فأخذتُ نفسًا مرتعدًا، وحينها صاح (مال) قائلًا: «توقف!».

فانتظر مستحضِر الظلام.

- «سـ ... سأنفذ أمرك».

- «كلا!»، قلتها بشجاعةٍ أكبر مما شعرت بها.

ابتلع (مال) ريقه، وقال: «علينا أن نبحر إلى الجهة الجنوبية الغربية، أي نعود من حيث جئنا».

وقفتُ متصلبة، تُرى هل رأى شيئًا من قبل، أم أنه يحاول إبعاد الأذى عني؟

مال مستحضِر الظلام برأسه، وقال وهو يتفحص وجهه: «أظن أنك أذكى من أن تتلاعب بي أيها المتعقب».

أومأ (مال) برأسه في حدة، وقال: «في إمكاني العثور عليه، فقط أمهلني بعض الوقت».

أعاد مستحضر الظلام سكينه إلى جيبه، فزفرتُ بهدوءٍ وحاولتُ قمع رجفة سرت بداخلي.

- «لديكَ أسبوع من الآن»، قالها واختفى وراء الباب، ثم نادى بعد لحظاتٍ (إيڤان) قائلًا: «أحضرها إليّ».

- «مال...».

لم أكمل الجملة؛ فقد جذبني (إيڤان) من ذراعي بقوة.

رفع (مال) يديه المكبلتين، محاولًا الإمساك بي، التقت أصابعنا لهنيهة، ثم سحبني (إيڤان) نحو الباب.

ظلَّ قلبي ينبض بعنفٍ بينما كنَّا ننزل إلى باطن السفينة الرطب، تبعت (إيڤان) من دون أن أنبس بكلمة، أحاول التفكير في كل ما حدث للتوِّ. لقد قال مستحضر الظلام إنه لن يؤذي (مال) ما دام في حاجة إليه، لطالما ظننتُ أنه يستخدم (مال) كوسيلة للضغط عليَّ، ولكن اتضح لي الآن أن ثمة سببًا أكبر من هذا، فيا تُرى هل يعلم (مال) حقًّا طريقة للعثور على «سوط البحر»، أم أنه فقط يكسب المزيد من الوقت؟

لا أدري أي منهما حقيقي؟ وأي منهما أريد أن يصير حقيقة؟ وبالطبع لا أتمنى أن أُعذَّب، ولكن ماذا لو عثرنا بالفعل على تنين الجليد؟ ماذا سيترتب على حصولنا على مضخم قوى آخر؟

أدخلني (إيڤان) إلى كابينة واسعة، يبدو من مظهرها أنها كابينة القبطان، لا بد أن (ستورمهوند) كان يقيم مع طاقمه حيث يبيتون؛ ثمة سرير التصق بأحد الأركان، والجدار الخلفي حاد الانحناء مرصع بصفٍّ من النوافذ سميكة الألواح، تتسرب منها أمواج ضوء تتدفق إلى المكتب الذي يجلس خلفه مستحضر الظلام.

انحنى (إيڤان) ثم غادر الغرفة على غير هدى، مغلقًا الباب خلفه.

مشيت بضع خطوات بمحاذاة الباب وأنا أقول: «لقد صار يتوق إلى الفرار من أمامك.. لقد صار خائفًا من ذلك الكائن الذي تحوَّلت إليه، وجميعهم كذلك».

- «هل تخافينني يا ألينا؟».

- «هذا ما تريده، أليس كذلك؟».

هزَّ كتفيه، وقال: «إن الخوف حليفٌ قوي، ومخلص أيضًا».

ظلَّ يتفحصني بعينيه الباردتين، بنفس الطريقة التي دائمًا ما تبعث داخلي شعورًا بأنه يقرأني ككلماتٍ على ورق، وأصابعه تتحرك فوق النص، واشيةً بسرٍّ ما لا يسعني سوى توقعه.

حاولتُ ألا أتململ، رغم إطباق الحديد على معصمي.

قال مستحضر الظلام: «أريد أن أطلق سراحك».

- «بالطبع، تريد إطلاق سراحي، وسلخ جلدي.. لديك خيارات عدة».

لم أزل أشعر بملمس سكينه على خدي.

تنهد وقال: «كان ذلك مجرد تهديدٍ يا ألينا، وقد حقق النتيجة المرجوة منه».

- «هل معنى ذلك أنك لم تنتوِ سلخ جلدي؟».

- «أنا لم أقل هذا».

نبرته واثقة -كالعادة- وبها شيء من الرضا، ربما كان يهدِّد بتقطيعي إربًا، أو بإعداد عشائه.

أبصرت في الضوء الخافت آثار ندوبه، كنت أعلم أن عليَّ البقاء صامتة، حتى أتركه يتحدث كما شاء، ولكنني فشلت في قمع فضولي.

سألته حينها: «كيف استطعت النجاة؟».

داعب بأصابعه خديه الحادَّين ثم ردَّ بنبرة اللامكترِث: «بدا لي أن القولكرا لم تهتم بتذوق طعم لحمي، هل لاحظت من قبل أنها لا تتغذى بعضها على بعض؟».

ارتعد جسدي.

إنها مخلوقاته، ومن بينها ذلك الذي غرز أسنانه في كتفي، ما زال جلدي ينبض إلى الآن.

قلتُ في نفسي: «الشيء يستدعي ما يشابهه».

أردف مستحضر الظلام: «تلك تجربة لا أهتم بتكرارها؛ لقد سئمت من رحمة القولكرا.. ورحمتك أيضًا».

مضيتُ إلى عمق الغرفة، ووقفتُ أمام المكتب، وقلتُ: «إذن، لماذا تريد إعطائي مضخم قوى آخر؟».

سألته بيأسٍ، متشبثة بطرف نقاشٍ ربما يدفعه إلى التفكير بعقلانية.

أضفت بعد برهة صمتٍ: «في حال أنك نسيت: لقد حاولت قتلك».

- «وفشلت».

- «وها أنا ذا سأنال فرصةً أخرى، فلماذا تريد أن تزيد من قواي؟».

هزَّ كتفيه مجددًا، وقال: «ستضيع راڤكا من دون مضخمات قوى موروزوڤا، لقد قُدِّر لك أن تحظي بهم، مثلما قُدِّر لي أن أعتلي العرش، وليس هناك ما قد يغير ذلك».

- «كم يبدو الأمر مريحًا لك!».

تراجع في جلسته، مكتوف الأيدي، وقال: «إنك لم تريحيني قطُّ يا ألينا».

- «لا يمكنك جمع مضخمات القوى؛ فكل الكتب تجمع على استحالة حدوث ذلك».

- «ليس إجماعًا».

وددتُ لو أصرخ من فرط الإحباط.

- «لقد حذَّرتني باغرا منك، وأخبرتني كيف أن غرورك وطموحك يعميان بصيرتك».

قال بنبرةٍ أبرد من الثلج: «أحقًّا قالت هذا؟وبأي كلمات أخرى همست إلى أذنك تلك الخائنة؟».

أجبتُ غاضبة: «أخبرتني أنها تحبك، وأنها تؤمن بأنك ستنقَّى من خطاياك».

أشاح بوجهه عني، لكنني لم أستطع مواراة ملامح الألم التي اعتلته، تُرى ماذا فعل بها؟ وأي ثمنٍ دفعه؟

قال بصوتٍ خفيض: «الفداء، الخلاص، التوبة، جميعها أفكار أمي الغريبة، ربما كان يجدر بي أن أنتبه أكثر من ذلك».

ثم مدَّ يده نحو المكتب، رافعًا عن سطحه كتابًا نحيلًا أحمر اللون، فتلألأت الحروف الذهبية التي ترصع غلافه: إستوريي سانكتيا.

سألني: «أتعرفين ما هذا؟».

عبست؛ إنه كتاب «حياة القديسين» الذي بعث في نفسي ذكرى قاتمة، لقد أعطاني المستشار الروحاني نسخة منذ أشهر في القصر الصغير، فقذفتُ بها داخل درج طاولة الزينة، ولم أتذكرها منذ ذلك الحين.

أجبته قائلة: «إنه كتاب للأطفال».

- «هل قرأتِه؟».

- «كلا».

صارحته بالحقيقة رغم أنني تمنيت في تلك اللحظة أن أقرأه، ظلَّ مستحضر الظلام يدقق النظر فيَّ، تُرى ما أهمية كتاب قديم يجمع بعض الصور الدينية؟

نظر إلى الغلاف ثم قال: «خرافات.. دعايا للفلاحين.. أو ربما هذا ما ظننته في البدء، لقد كان موروزوفا رجلًا غريبًا، يشبهك بعض الشيء، من حيث انجذابه إلى الناس العاديين والضعفاء».

- «ولكن مال ليس ضعيفًا».

- «أعترف بأنه موهوب، لكنه ليس من الغريشا على أي حال، ولن يستوي بك أبدًا».

- «بل إنه مثلي، وقدراته ربما أعلى».

هزَّ رأسه معترضًا، وأزعم أنني لاحظت ملامح الشفقة على وجهه.

قال في النهاية: «تظنين أنكِ وجدتِ فيه دفء العائلة، وستصنعين معه مستقبلًا، فيما ستزداد قوتك، وسيزداد هو عجزًا وكبرًا، سيحيا حياة الأوتكازاتسيا[1] القصيرة، ثم ستراقبينه يفارق الحياة».

- «فقط اصمت!».

ولكنه ابتسم، وقال: «هيا، اضربي الأرض بقدميك، وحاربي طبيعتك الحقيقية، واتركي وطنك يتعذب».

- «كل هذا بسببك!».

- «بل لأنني أودعت ثقتي في فتاة لا تحتمل حتى التفكير في قدراتها».

قالها ثم نهض والتفَّ حول مكتبه. ورغم أن الغضب كان متملكًا مني، فإنني تقهقرت خطوة، واصطدمت بالكرسي الجاثم فوق الأرض من خلفي.

(1) لفظة باللغة الرافكانية، وردت في الجزء الأول، تشير إلى الأشخاص الذين لا يملكون قوى الغريشا.

أردف: «إنني أعلم جيدًا ما تشعرين به حينما تكونين رفقة المتعقب».

- «أشك في ذلك».

لوَّح بيديه وقال: «كلا، لا أقصد اللهفة السخيفة التي ستتلاشى يومًا، بل إني أعلم ما يسيطر على قلبك: إنها الوحدة.. ومعرفتك باختلافك عنه التي تنمو شيئًا فشيئًا».

ثم اقترب مني وأضاف: «وكلما تنمو أكثر، تؤلمك أكثر».

حاولتُ أن أواري الصدمة التي تفشَّت داخلي، تمتمت بهذه الكلمات التي لم تصدقها حتى أذني: «لا أفهم مقصدك».

- «ذلك الشعور لن يتلاشى يا ألينا، بل سيتفاقم، مهما ارتديتِ من أوشحة، ومهما قلتِ من أكاذيب، ومهما ركضتِ هربًا».

حاولتُ أن أشيح بوجهي عنه، ولكنه أمسك بذقني، وأجبرني على النظر إليه، اقترب مني حد أنني صرت أشعر بأنفاسه.

قال: «ليس ثمة من يشبهوننا يا ألينا، ولن يكون هناك من يشبهنا».

تحررتُ منه، مصطدمة بالمقعد الذي انقلب، حتى كدت أفقد توازني، طرقتُ الباب بيدي المكبلتين، وناديت (إيڤان)، لكنه لم يحضر حتى أمره مستحضِر الظلام.

المشاهد تتدفق خافتة إلى ذاكرتي: يد (إيڤان) على ظهري، ورائحة الطرقة العفنة تتدفق إلى أنفي، وأحد البحارة يسمح لنا بالمرور، الصمت يخيم على كابينتي الضيقة، والباب ينغلق من خلفي، والسرير يحتويني، وقماش الغطاء الخشن يخدش وجهي الذي دفنته فيه، جسدي يرتجف، ورأسي يحاول أن ينفض عنه كلمات مستحضر الظلام، يداهمني حلم يقظة بموت (مال)، والحياة أمامي طويلة لا يعلم متى ستنتهي، وجرح الاختلاف لن ينضب، والخوف يتسلل إلى داخلي، وكما المخالب الحادة ينهش في قلبي.

أعلم أنه كاذبٌ متمرس، وفي إمكانه التلاعب بعواطف المرء، واستغلال نقاط ضعفه، لكنني لا أستطيع إنكار ما شعرت به في (نوفيبي زم)، أو حقيقة ما أراني إياه مستحضر الظلام: حزني، واشتياقي.. رأيت انعكاسهما في عينيه الرماديتين القاتمتين.

***

تبدَّل القمر فوق الحواتة، وطاقمها صار دائم اليقظة ولا يعرف الراحة، وعقولهم مشغولة بما تعرَّض له قبطانهم من إهانة. أما الغريشا فقد زادت التمتمات في اجتماعاتهم، وسيرنا البطيء في مياه طريق العظام أتلف أعصابهم.

أحضر كل يومٍ إلى مستحضر الظلام، لأقف بجانبه في مقدمة السفينة، بينما يقف (مال) في مؤخرتها وسط حراسة مشددة، وأحيانًا ما أسمعه يخبر (ستورمهوند) بالاتجاهات، أو أراه يشير إلى بعض الخدوش على كتلات ثلج كبيرة تنبثق من سطح الماء. نظرت نحوها ذات مرة، بدت كآثار مخالب، أو ربما ليست آثار أي شيء على الإطلاق. ما يهم أنني رأيت (مال) يقوم بمثل ما قام به في (تسيبيا)، عندما كنَّا نتعقب سير الأيل، أراني أغصانًا مكسورة، وعشبًا مسحوقًا، وغيرها من العلامات التي يعمى عنها البصر، إلى أن يزيل (مال) عنها الغشاوة، وهذا ما أثار شك الطاقم، وغيظ الغريشا.

غربت شمس يومٍ جديد، اصطحبني مستحضر الظلام إلى الباب، أمام ناظري (مال)، لم يسمح لنا أن نتكلم، لكنني حاولت إطالة النظر في عينيه، كأنني أخبره بصمتي هذا أنني بخيرٍ، فيما ازداد هو غضبًا ويأسًا، وصرت لا أقوى على تهدئته.

ذات يومٍ، تعثَّرتُ بالقرب من الباب، فأمسك بي مستحضِر الظلام، وقرَّبني منه حد الاحتضان، رغم أنه كان في إمكانه تركي بعدها، وقبل أن تتسنى لي فرصة الابتعاد، سمح لأصابعه أن تداعب أسفل ظهري، فاندفع (مال) إلى الأمام، ولولا إمساك الحراس به، لتشاجر مع مستحضر الظلام.

- «لديك ثلاثة أيام أخرى أيها المتعقب».

صاح (مال): «دعها وشأنها!».

- «إنني ملتزم بصفقتنا حتى الآن؛ فها هي أمامك، لم يمسسها ضرٌّ بعد، لكن ربما ليس هذا ما يخيفك».

بدا على (مال) التوتر حينها، شحبت ملامحه، وفمه تشكل كخطٍّ مشدود على وجهه، وعضلات ذراعيه تضخمت بينما أخذ يقاوم أسره، لم أقدر على تحمل المنظر برمته.

قلت له بنبرةٍ هادئة: «أنا بخيرٍ؛ إنه لا يقدر على إيذائي».

كنت أكذب بالطبع، لكنها كذبة عذبة المذاق في فمي.

نظر إليّ مستحضر الظلام، ثم صوَّب نظره نحو (مال)، فأبصرت تلك الفجوة العميقة بداخله.

قال: «لا تقلق أيها المتعقب؛ ستعلم كل شيء حينما ينتهي اتفاقنا».

ثم اصطحبني إلى الأسفل.. سمعته يودع (مال) بهذه الكلمات: «سأجعلك تسمع صرخاتها».

***

ثم مرَّ باقي الأسبوع، وفي اليوم السادس، أيقظتني (جينيا) مبكرًا، وعندما أفقت، أدركت أن الفجر يدنو في الأفق، فغزا الخوف دواخلي؛ ربما قرر مستحضر الظلام أن ينهي المهلة، ويفي بتهديداته.

ولكن وجه (جينيا) أشرق كشمسٍ لا تعرف المغيب..

أخذت تقفز على أطراف قدميها، وترقص وهي تساعدني على النهوض من السرير.

- «لقد عثر على شيء ما! أخبرنا المتعقب أننا اقتربنا منه!».

- «اسمه مال».

ثم ابتعدت عنها، متجاهلة ملامح الصدمة التي اعتلت وجهها.

تبعتها إلى الأعلى وأخذت أفكر: ترى هل هذا حقيقي؟ أم أن (مال) يحاول ببساطة أن يكسب المزيد من الوقت؟

انبثقنا من الظلام إلى ضوء أول النهار الرمادي الخافت. ازدحم السطح بالغريشا الذين وقفوا يحدقون إلى الماء، بينما ظل مستحضرو الرياح يحركون التيار، وطاقم (ستورمهوند) يتحكمون في الأشرعة. تكاثف الضباب أكثر من اليوم الماضي، تجمَّع فوق سطح الماء، واجتاحت خيوطه الرفيعة هيكل السفينة، والصمت لا تكسره إلا توجيهات (مال)، وأوامر (ستورمهوند).

وعندما اتسع البحر من حولنا، التفت (مال) إلى مستحضر الظلام وقال: «أعتقد أننا اقتربنا».

- «تعتقد؟».

أومأ (مال) برأسه مرة واحدة.

أطرق مستحضِر الظلام يفكر بعض الوقت، فإن كان (مال) يسعى إلى المماطلة، ستنتهي محاولاته سريعًا، وسيدفع الثمن غاليًا.

وبعد مرور ما أحسست أنه دهرٌ، أومأ مستحضر الظلام إلى (ستورمهوند)، فصاح الأخير إلى طاقمه قائلًا: «أخفضوا الأشرعة»، فتحركوا لينفذوا الأمر.

نقر (إيفان) كتف مستحضر الظلام، ثم أشار إلى الأفق من جهة الجنوب وقال: «أرى سفينة هناك يا سيدي».

سأل مستحضر الظلام (ستورمهوند): «هل أعلامها مرفوعة؟».

- «أغلب الظن أنهم صيادون، لكننا سنراقبها تحسبًا».

ثم أشار إلى أحد أفراد طاقمه، الذي هرول بدوره إلى الصاري الرئيسي، ممسكًا بمنظارٍ طويلٍ في يده.

عُدَّت القوارب الطويلة، وفي غضون دقائق أنزلت من الجانب الأيمن من السفينة، محمَّلة برجال (ستورمهوند) وحراب الصيد، أما عن الغريشا، فقد احتشدوا حول الشراع ليراقبوا ابتعاد القارب، والمجاذيف شقَّت الضباب بثباتٍ، مثلما تشق الأمواج.

اقتربتُ من (مال)، ولكن لم يلتفت إلينا أحدٌ بسبب انشغالهم بمتابعة القارب، غير (جينيا) التي بدا عليها الاضطراب في البدء، ثم تعمدت الانضمام إلى زملائه من الغريشا.

نظر كلانا إلى الأمام، لكننا كنَّا قريبين حدَّ أن كتفينا تلامسا.

تمتم بنبرةٍ متماسكة: «أرجوكِ أخبريني أنك بخيرٍ».

أومأت برأسي، وابتلعت الغصة التي سدت حلقي، ثم قلت بهدوءٍ: «أجل، أنا بخيرٍ، هل وجدته حقًّا؟».

- «لا أعلم، ربما.. عندما كنت أتعقب الأيل، ثمة أوقات شعرت فيها أنه قريب.. ولكن إن أخطأت يا ألينا...».

أشحت بنظري عنه حينها، غير عابئة بما قد أتلقَّاه من عقاب إذا رآني أحدهم. ارتفع الضباب فوق الماء الآن، وأمسى يزحف فوق سطح السفينة، نظرت إلى مستحضر الظلام من جديدٍ، ودقَّقت في كل تفاصيل وجهه كأنني أحفظها: قرنيتاه الزرقاوان البراقتان، وشفتاه المنحنيتان، والندبة التي تشق خده، ومن خلفه هرولت (تمار) إلى أعلى الصاري، حاملةً في يدها قنديلًا.

- «هذا ليس خطأك يا مال.. ليس خطأك بالمرة».

طأطأ رأسه، حتى لامست جبهته جبهتي، ثم قال: «لن أتركه يلحق بك أي أذى».

كلانا كنَّا نعلم أنه لا يقدر على إيقافه، لكن الحقيقة جارحة للغاية، ولذا فقلت: «أعلم هذا».

حام على ثغره طيف ابتسامةٍ وهو يقول: «لا شك أنك تسخرين مني».

- «إنك تحتاج إلى الكثير من الرعاية».

طبع قبلة على جبيني، وقال: «سنجد طريقة للهرب يا ألينا؛ دائمًا ما ننجح في ذلك».

وضعتُ يدي المكبلتين على صدره وأغلقت عيني. كنا وحدنا وسط بحرٍ جليدي، سجينيْن لدى شخصٍ في إمكانه -حرفيًّا- خلق الوحوش، وهذا ما أعلمه يقينًا. استندت إلى (مال)، ولأول مرة منذ أيام، ألقيت بنفسي في أحضان الأمل.

صاح أحدهم فجأة: «انظروا يمين مقدمة السفينة!».

حركنا رأسينا في اللحظة ذاتها.. تحرك شيء ما داخل الضباب، جسم أبيض متموج.

زفر (مال) طويلًا، مندهشًا.

وفي تلك اللحظة، شقَّ ظهر الكائن الأمواج، قاسمًا إياه أقواسًا متعرجة، وتقذف حراشفه ألوان الطيف متلألئة في الهواء.

إنه روزاليه..

الفصل الرابع

إنها حكاية شعبية.. حكاية مخلوق من مخلوقات الأحلام التي تعيش على حواف الخرائط، غير أن تنين الجليد حقيقي بلا أدنى شكٍّ، وها قد عثر عليه (مال)، مثلما وجد الأيل من قبل، ولَّد ذلك في داخلي شعورًا غريبًا.. شعورًا بأن كل شيء يحدث بسرعة، وأننا ندنو -على غير هدى- من شيء لا نفهمه.

انتبهت لصرخة انبعثت من أحد القوارب الطويلة.

وقف رجلٌ يمسك بحربة صيدٍ في يده، ويستعد للتصويب، فيما اختفى ذيل التنين الأبيض تحت الماء، قاسمًا الأمواج، ثم صفع سطح الماء حينما انبثق، مرسلًا جدارًا من الماء ليصطدم أخيرًا بهيكل القارب. أجلس الرجل نفسه سريعًا بينما أخذ القارب يترنح بقوة، ثم توازن في اللحظة الأخيرة.

قلت في نفسي: «جيد.. قاتلهم».

ثم أطلقت حربتين من القارب الآخر، الأولى انحرفت عن المسار واصطدمت بسطح الماء من دون أن تلمس التنين، والأخرى أصابت هدفها.

ارتفع جسده، وترنَّح ذيله إلى الأمام وإلى الخلف، ثم تموَّج مثل الأفعى، متحررًا من أسر المياه. للحظة تعلق في الهواء، زعانفه شفافة تشبه الأجنحة، وحراشفه مضيئة، وعيناه حمراوان من قيظ الغضب، وعرفه يقذف في الأرجاء خرزات من ماء، وفوه الواسع انفرج ليكشف عن لسانٍ وردي وصفوف من الأسنان اللامعة، وإذ به يهبط فوق أقرب قارب، حتى تهشم خشبه محدثًا دويًّا عاليًا، انقسم شطرين، وتلقَّف البحر أجساد الرجال المذعورين. انغلق فم التنين على رجل أحد البحارة، ثم اختفى، صارخًا،

تحت الأمواج، وسبح البحارة باقي الطاقم في بحر الدماء، ضاربين الأمواج بغضبٍ، متجهين صوب القارب المتبقي، ثم صعدوا من جانبه.

نظرتُ نحو شراع الحواتة، فوجدت أن قمم الصواري ابتلعها الضباب، لكن ضوء قنديل (تمار) لم يزل يشع بثباتٍ أعلى الصاري الرئيسي.

أصابت حربة أخرى هدفها، فشرع سوط البحر في الغناء، صوته أعذب من أي شيء سمعته في حياتي، كورال ينشد أغنية حزينة بلا كلمات، غير أنني أدركتُ فيما بعد أنها ليست أغنية، بل كان صراخًا، وأخذ المخلوق يتلوى ويدور فوق الأمواج، ومن خلفه القارب يطارده، حيث فشل البحارة في تحرير سن الحربة من الجسد المتين.

قلت في نفسي مترجية إياه: «قاتِل أرجوك؛ فإذا أمسك بك، لن يطلق سراحك».

لكن فات الأوان؛ فها هي سرعته تبطئ، وحركاته تخمل، وصرخاته الحزينة تتذبذب، وموسيقاها تتلاشى، تمنيت حينها أن ينهي مستحضر الظلام كل هذا، فلم لا؟ لماذا لم يستخدم قوة «القطع» ويقضي على سوط البحر ويقيدني به مثلما فعل مع الأيل؟

صاح (ستورمهوند) قائلًا: «ألقوا بالشباك!»

الضباب كثيف حد أنني لم أعرف من أين انبعث صوته.

لحظاتٌ وسمعت صوت اصطدام آتٍ من ناحية السور الأيمن.

قال مستحضر الظلام: «بددوا الضباب؛ سنفقد القارب المتبقي!».

سمعت الغريشا ينادي بعضهم بعضًا، ثم شعرت برياح المستحضرين وهي تتشبث بأطراف معطفي.

انجلى الضباب، فانفتح فمي عن آخره؛ وقف مستحضر الظلام والغريشا على الجهة اليمنى، يراقبون القارب، الذي بدأ ينحرف بعيدًا عن الحواتة، فيما ظهرت سفينة شراعية أخرى من العدم، قادمة من جهة اليسار،

علماها الملونان يرفرفان عاليًا، أحدهما عليه كلب أحمر خلفه حقل أخضر، والآخر لعقاب (راڤكا) المزدوج، مرسوم باللونين الأزرق والذهبي الباهتين، مثبت تحته.

أصوات الاصطدام عاودت الدوي، رأيت أشياء أشبه بمخالب فولاذية تخترق الحاجز الأيسر للسفينة.

علمت لاحقًا أنها خطافات.

ثم توالت الأحداث في غضون لحظات:

عويلٌ أتى من مكانٍ ما، كأنه لذئب يحاول إخافة القمر. صعد رجال إلى سطح السفينة، مسدساتهم مثبتة على صدورهم، يحملون في أيديهم سيوفًا قصيرة مقوسة الأنصال، ينبحون كقطيعٍ من الكلاب البرية، رأيت مستحضر الظلام يلتفت، القلق والغضب يتملَّكان منه.

قال (مال): «ماذا يجري هنا؟»، ثم تقدم إلى الأمام، فتبعته لنحتمي خلف صاري الشراع الثانوي الواهن.

- «لا أعلم، إما أمرٌ جيدٌ جدًّا، وإما بالغ السوء».

ألصقنا ظهرينا، أيدينا لم تزل مكبلة، وقفنا بلا حراكٍ، لا نقوى على حماية نفسينا من الحرب التي اشتعلت حولنا، دوت الطلقات عاليًا، والهواء أنير بنيران الغريشا.

زعق (ستورمهوند) قائلًا: «هيا، قاتلوني أيها الكلاب!»، ثم اندفع نحو ساحة القتال، شاهرًا سيفه الضالع.

أسرع نحو الغريشا رجال ينبحون من كل حدبٍ وصوب، لم يهبطوا فقط من الصواري، بل من حاجزي الحواتة أيضًا.

إنهم رجال (ستورمهوند)..

لقد انقلب (ستورمهوند) على مستحضِر الظلام.

لا شك أن ذلك القرصان فَقَدَ عقله؛ فعلى الرغم من أن رجاله يفوقون الغريشا عددًا، فإن الأعداد لا يعتد بها في أي قتالٍ مع مستحضر الظلام.

صاح (مال) قائلًا: «انظري!».

أبصرتُ رجال السفينة المتبقية يحاولون السيطرة على سوط البحر، رفعوا شراعًا فدفعتهم الرياح العتية ناحية السفينة الأخرى، لا الحواتة، لم أعلم في البدء مصدر تلك الرياح، لكن بعدما اقتربتُ أكثر ودققتُ النظر، رأيت أحدهم يقف رافعًا ذراعيه، فعلمت حينها أن (ستورمهوند) جنَّد مستحضِر رياح ليعمل لديه.

فجأة، التفَّت ذراعٌ حول خصري ورُفِعت في الهواء، العالم انقلب من حولي، صرختُ عندما ألقيت على كتفٍ ضخم، رفعت رأسي وأنا أقاوم تلك الذراع الفولاذية التي أمسكت بي، فرأيت (تمار) تسرع نحو (مال) وفي يدها سكين لامعة.

صرخت بأعلى صوتي: «لا! مال!».

رفع يديه ليدافع عن نفسه، ولكن كل ما فعلته (تمار) أنها حررته، ثم أعطته السكين، والسيف المستقر في غمده حول فخذها، وأمرته أن يذهب.

بينما جذبني (توليا) بقوة أكبر، كان يعدو فوق سطح السفينة، ومن خلفنا (تمار) و(مال).

ظل رأسي يصطدم برأس العملاق وأنا أقول: «ماذا تفعل؟».

فتجيبني (تمار): «فقط استمري في الركض»، ثم تضرب بسيفها الآخر أحد الكوربورالكي الذي اعترض طريقها.

- «كيف أركض وأخوك الغبي هذا يحملني على كتفه كما يحمل خنزيرًا؟».

- «أتريدين النجاة أم لا؟».

لم يكن لديَّ وقتٌ لأجيب.

قال (توليا) حينها: «تمسَّكي جيدًا؛ سنقفز في الماء!».

أغمضت عيني وتأهبت للارتطام بالماء البارد، ولكن قبل أن يمضي (توليا) بضع خطوات أخرى، نخر وجثا على ركبةٍ واحدة، وحرَّرني من قبضته. وقعت على الأرض، وانقلبت على جانبي، نظرت إلى الأعلى فرأيت (إيڤان) واقفًا، وجانبه مستحضِر نار يرتدي ثوبه الأزرق. كانت يدا (إيڤان) ممدودتين، يسحق قلب (توليا)، ولكن (ستورمهوند) لم يكن قريبًا لينقذه.

اندفع مستحضر النار نحو (تمار) و(مال)، يحمل صوانًا في يده، ويقذف ألسنة اللهيب المقوسة في الهواء.

حدَّثتُ نفسي يائسة: «لقد انتهى كل شيء قبل أن يبدأ».

ولكن بعد لحظات، تسمَّر مستحضر النار مكانه، لاهثًا، ولهيبه تلاشى كأن لم يكن.

زعق (إيڤان): «ماذا تنتظر؟».

فلم يكن من مستحضر النار إلا أن أجاب بهمسةٍ مختنقة، عيناه انتفختا كأنهما ستهربان من وجهه، ويده تمسك برقبته كأنه يخنق نفسه.

وقفت (تمار) ممسكة بسيفها في يدها اليمنى، أما قبضتها اليسرى فمنغلقة كأنها تمسك بشيء ما.

قالت: «يا لها من حيلة جيدة»، ثم قذفت صوان مستحضِر النار المشلول بعيدًا، وأردفت: «لكنني أعلم حيلة أذكى».

رفعت سيفها عاليًا، وبينما وقف مستحضر النار بلا حراكٍ، يحاول يائسًا استنشاق الهواء، انقضَّت عليه، دافنة سلاحها في أحشائه بغيظٍ عتيد، فخرَّ صريعًا. ظلَّ (إيڤان) مذهولًا، يحدق إلى وجه (تمار) التي وقفت بجانب الجسد الذي انتزعت منه الحياة للتوِّ، وسيفها تتقطر منه الدماء، بيد أنه فقد تركيزه بلا شكٍّ؛ ففي تلك اللحظة، نهض (توليا) وزأر كوحشٍ مرعب.

أحكم (إيڤان) قبضته، محاولًا استعادة قوته، فتلوَّت قسمات وجه (توليا)، لكنه لم يقع، بل مدَّ يده إلى الأمام، فانكمش وجه (إيڤان) متألمًا، وفي الوقت ذاته، مذهولًا.

نظرت إلى (توليا)، ثم إلى (تمار)، وقد بزغت شمس الحقيقة في ذهني؛ كلاهما من الغريشا.. كلاهما من المتلاعبين بالقلوب.

اقترب (توليا) من (إيڤان) وقال: «هل يعجبك هذا أيها الشاب؟» فمدَّ الأخير يده إلى الأمام بيأسٍ، رغم ارتعاشة جسده، ولهاثه الشديد.

تألم (توليا) قليلًا، لكنه تابع المضي، وعلا عويله وهو يقول: «الآن سنعلم من يملك القلب الأقوى!».

ثم تقدَّم مجددًا إلى الأمام، ببطءٍ شديد، كأنه يصارع رياحًا عاتية، حبات العرق ترتصُّ على وجهه، وأسنانه عارية تكشف عن بهجة خبيثة.

تساءلت حينها إن كنت سأراهما يسقطان فريستين لبراثن الموت.

ثم انكمشت قبضة (توليا)، فازداد تأوه (إيڤان)، والتفَّت عيناه إلى الأعلى كأنه يحاول رؤية جبهته، وانبثقت من بين شفتيه الدماء كفقاعات اللعاب، ثم ارتطم بأرض السفينة.

ازدادت الفوضى من حولي في هذه الأثناء؛ فقد انشغلت (تمار) بمقاتلة أحد مستحضري الرياح، وانقضَّ اثنان من الغريشا على (توليا)، وسمعت دوي رصاصة فعلمت أن (مال) استحوذ على مسدس، لكن في النهاية، انصبَّ تركيزي على بدن (إيڤان) الصريع. لقد بترت ذراع مستحضر الظلام اليمنى؛ أحد أقوى المتلاعبين بالقلوب في الجيش الثاني، ذلك الذي نجا من أهوال طية الظل وبطش الڤولكرا، قد فارق الحياة الآن.

أيقظني من شدَهي نحيب أحدهم، إنها (جينيا).. تقف بجانب جثة (إيڤان)، ما تنفك تنظر إليها، واضعة كلتا يديها على فمها.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنطق اسمها: «جينيا...».

فعَلَتْ صيحة من الجانب الآخر، استدرت لأرى مستحضر الظلام يتصارع مع بحار مسلح.

ظلَّت (جينيا) ترتعش، ثم وضعت يدها في جيب زيها وأخرجت منه مسدسًا، فاندفع (توليا) نحوها.

- «لا!».

ركضتُ لأباعد بينهما؛ فلن أسمح له بقتل (جينيا).

ارتعش المسدس الثقيل في يدها.

خاطبتها بهدوءٍ قائلة: «جينيا، هل ستقتلينني حقًّا؟».

نظرت حولها بغضبٍ، لا تعلم من ستطلق عليه النار، وضعت يدي على ذراعها، فانتفضت ووجَّهت فوهة المسدس نحوي.

ثم دوت صيحة كرعدٍ هشَّم السماء والأرض، فعلمت أن مستحضر الظلام تحرَّر، نظرت خلفي لأرى الظلام يزحف نحونا.

- «لقد انتهى أمرنا».

جالت الجملة في رأسي، ولكن بعد لحظات، أبصرت ضوءًا يلوح من بعيدٍ، ودوت رصاصة في الهواء، فتبدد الظلام كأن لم يكن. رأيت مستحضر الظلام يمسك بذراعه، واعتلى الغضب والألم ملامحه، أدركت حينها -رغم صعوبة تصديق الأمر- أنه أصيب بطلقة نارية.

اندفع (ستورمهوند) نحونا، حاملًا مسدسيه، وصاح في وجهينا قائلًا: «اركضا!».

فجذبني (مال) من ذراعي وصاح: «هيا يا ألينا!».

وجدت نفسي أقول بيأسٍ: «تعالي معنا يا جينيا».

يداها ارتعشتا بقوة حد أنني ظننت مسدسها سيطير من يدها، وخداها تبلَّلا بعبرات الحسرة.

أخفضت سلاحها، وقالت وهي تبكي: «لا أستطيع يا ألينا.. فقط اذهبي.. اذهبي».

وفجأة، حملني (توليا) من جديدٍ فوق كتفه، فأخذت أضرب ظهره العريض وأصرخ: «لا! انتظر!».

لكن لم يأبه أحدٌ بما أقول.. وأسرع (توليا) الركض، ثم قفز فوق سور السفينة، صرخت ونحن نقترب من الماء البارد، ثم تأهبت للاصطدام به، ولكنه لم يحدث؛ فقد حملتنا رياح أحد المستحضرين، وألقت بنا بقوة على متن السفينة المهاجمة حتى كادت تنكسر عظامنا. تبعنا (مال) و(تمار)، ومن خلفهما (ستورمهوند)، الذي وقف فور وصوله وصاح قائلًا: «أعطه الإشارة!».

فعلت صافرة تصم الآذان.

ثم صاح مجددًا بفردٍ من الطاقم لم أره من قبل: «كم رجلًا متبقيًا يا پريڤيت؟».

فأجابه قائلًا: «وقع منَّا ثمانية، وثمة أربعة على متن الحواتة، والشحنة في طريقها إلينا».

- «أعينونا أيها القديسون..»، قالها (ستورمهوند) والتفت لينظر نحو الحواتة وهو في حيرةٍ من أمره، ثم صاح بالرجال الواقفين بجانب الصاري الرئيسي قائلًا: «أيها الجنود، وفِّروا لهم التغطية».

فوجَّه الجنود بنادقهم صوب الحواتة، وأعطى (توليا) مال بندقية، وعلَّق أخرى على ظهره، ثم قفز على السور وبدأ يتسلقه. أما (تمار) فقد أخرجت مسدسها من جرابه المعلق حول فخذها، وبقيت أنا ملقاة على سطح السفينة، يداي يخنقهما الحديد كما هما.

صاح (پريڤيت) قائلا: «لقد أمَّنَّا سوط البحر أيها القبطان!».

طار اثنان من رجال (ستورمهوند) في الهواء، مرفرفين بأذرعهما بقوة، عابرين حاجز السفينة، ثم ارتطما بعنفٍ بسطح السفينة الأخرى، أحدهما أصيب بجرحٍ غائر في ذراعه.

ثم سمعنا دوي الرعد من جديد.

قالت (تمار): «لقد عاد مرة أخرى!».

اندفع الظلام نحونا ثانية، مخيمًا فوق السفينة، مبتلعًا كل ما يعترض طريقه.

صحت قائلة: «حرِّروني! دعوني أساعدكم!».

فرمى (ستورمهوند) المفاتيح لـ (تمار) وقال: «هيا!».

أمسكت (تمار) بمعصمي، وأخذت تعبث بالمفاتيح، والظلام يطوقنا من كل جانبٍ، حد أننا صرنا جميعًا كالعميان، ثم سمعت أحدهم يصرخ، وأخيرًا انفك القفل، وسقطت الأصفاد مصطدمة بأرض السفينة التي كبحت صليلها.

رفعتُ يدي، فانفجر منهما الضوء، دافعًا بالظلام إلى الخلف من حيث أتى، إلى الحواتة. هتف رجال (ستورمهوند)، ولكن سرعان ما لقيت ضحكاتهم حتفها، عندما تردد في الهواء صوت آخر، كأنه صرير عالٍ لبابٍ خفي يفتح، بابٌ كان يجب أن يظل مغلقًا إلى الأبد. آلمني كتفي بشدة، كأن ذلك الألم بمنزلة جرس يذكرني بما نسيت: أن كائنات النيتشيڤويا قادمون.

التفتُّ إلى (ستورمهوند) وقلت: «علينا أن نبتعد فورًا.. هيا، الآن!».

بدا عليه التردد، كأن ثمة صراعًا يدور داخله؛ لم يزل هناك اثنان من رجاله على متن الحواتة. زعق وقد تبدَّلت ملامحه: «ارفعوا الأشرعة أيها البحارة! وأنتم أيها المستحضرون، توجهوا بنا ناحية الشرق!».

فعل البحارة ما أُمِروا به؛ فرفعوا أذرعهم إلى الأعلى، وشدوا حبال الأشرعة، التي قابلتها الرياح بصفعةٍ قوية.

تساءلت عن عدد الغريشا الذين يعملون لدى ذلك القرصان..

بعد ذلك، وقعت عيني على مستحضري الرياح الذين اصطفوا على الحواتة، وباتوا يرسلون رياحهم باتجاه سفينتنا التي ظلَّت تتمايل بعنفٍ.

صاح (ستورمهوند) بأعلى صوته قائلًا: «مدافع الجهة الشمالية، استعدوا لضرب مقدمة السفينة! انتظروا إشارتي!».

لحظات وسمعت انفجارين مدويين، هزَّا السفينة بضراوة، ثم تتابعت قذفات المدافع التي أحدثت ثقبًا غائرًا في هيكل الحواتة. سمعت صرخة ذعر آتية من هناك، وحينها انتهز مستحضرو الرياح الفرصة ليبتعدوا بالسفينة.

وعندما تلاشى دخان المدافع، رأيت شبحًا أسود يصعد صاري الحواتة المنكوبة، وإذ بموجةٍ من الظلال تندفع نحونا، لكنها مختلفة عن أي موجةٍ سابقة؛ فقد مشت فوق الماء، أو بالأحرى زحفت عليها، ورافقها طنين غريب لألف حشرة غاضبة. ازداد الظلام حلكة وصار أكثر كثافة من ذي قبل، ثم استحال مجددًا إلى موجة انقسمت كأنها اصطدمت بصخرة هائلة، وتفتَّت بعد ذلك إلى شتى الأشكال. تمتم (مال) الواقف بجانبي ببعض الدعوات، ثم رفع بندقيته إلى كتفه، فركزت قوتي ونفذت مهارة «القطع»، فاحترقت كجمرة مخترقة السحابة السوداء، حاولت القضاء على النيتشيڤويا قبل أن يتخذوا شكلهم الكامل، لكنني لم أستطع ردعهم جميعًا، وظل قطيع المخالب والأسنان السوداء هذا يندفع نحونا.

ثم أطلق رجال (ستورمهوند) النار صوبهم.

صعد النيتشيڤويا صواري السفينة، وحاموا حول الأشرعة، يقطفون منها البحارة كأنهم يقطفون الفواكه، ثم انزلقوا إلى أرض السفينة. ظل (مال) يطلق النار، ومن حوله الطاقم يشهرون سيوفهم، لكن الرصاصات والنصال لم تجد نفعًا مع تلك الوحوش، بل أبطأت حركاتهم فقط، أضحت أجسادهم الظلية تتمايل وتتشكل، ثم تواصل الاندفاع.

واصلت السفينة التحرك، مبتعدة عن الحواتة ببطءٍ بعض الشيء. سمعت تأوهًا عاليًا، ثم أبصرت موجة أخرى من الظلام الغاشم تنطلق صوبنا، تنقسم بالفعل إلى أجسامٍ مجنحة، تسرع لتدعم جنود الظلال.

رآها (ستورمهوند) أيضًا فأشار إلى أحد مستحضري الرياح الذي كان منشغلًا في عمله، وصاح: «أريد رعدًا الآن!».

تفاجأت.. لا بد أنه لم يقصد ذلك؛ فمستحضرو الرياح لا يستدعون الرعد، كما أنه أمرٌ خطيرٌ وغير متوقع؛ ألسنا في عرض البحر؟ وعلى متن سفن خشبية؟ لكن الغريشا لم يترددوا لحظة، وصفقوا بأيديهم، وفركوها، كاد الضغط يصم أذنيَّ، والتيار يجرف الهواء.

ألقينا بأنفسنا على أرض السفينة قبل أن تطلنا ألسنة الرعد التي تنزلت من السماء، شعرت كأن السفينة تطير فوق الأمواج، من بعيدٍ أبصرت موجة سوداء أخرى، قادمة من جانب الحواتة، تماسكتُ ووقفتُ على قدميَّ، محاولة استجماع قواي لأتأهب لهجومٍ جديد، لكنه هجوم لم يُشن؛ فقد بدا أن ثمة حدودًا لقوى مستحضر الظلام، وأننا ابتعدنا عن محيطه.

اتكأتُ على سور السفينة، الرياح ورذاذ الماء يصفعان جلدي، وسفينة مستحضر الظلام ووحوشه اختفت من حيز رؤيتي، فهزَّت صدري ضحكة، أو ربما شهقة بكاء.. وإذ بـ (مال) يلقي ذراعيه حولي، يحتضنني بقوة حد أن خدي ابتل من قميصه الرطب، وأذنيَّ سمعتا دقات قلبه، كلانا تشبثنا بحقيقةٍ لا يمكن تصديقها: وهي أننا ما زلنا على متن الحياة.

أما طاقم السفينة فقد انفجروا في التهليل، رغم بحار الدماء التي سُفِكت، وعدد الأصدقاء الذين فقدوا، ظلوا يصرخون، ويصدحون، وينبحون، ويعوون، بينما يرفع (توليا) بندقيته بيدٍ واحدة، وأرجع رأسه إلى الخلف، ثم عوى طويلًا كذئبٍ انتصر لتوِّه على صياده، حتى إن الهواء الهارب من فمه باعد بين شعري وكتفيَّ.

ثم انفككت عن حضن (مال)، وظللنا نراقب معًا ضحكات الطاقم، ونفكر في إجابةٍ للسؤال ذاته: ما الذي أوصلنا إلى ما نحن فيه الآن؟

الفصل الخامس

تراجعنا لنستند بظهرينا إلى سور السفينة، ثم انزلقنا إلى الأسفل حتى جلسنا على الأرض وقد سيطر علينا دوار وإعياء شديد. ها نحن قد فررنا من مستحضر الظلام، ولكن ما زلنا على متن سفينة غريبة، محاطين بمجموعة من الغريشا المخبولين، الذين يلبسون أزياء البحارة، وينبحون ككلابٍ مسعورة.

سألني (مال): «هل أنتِ بخيرٍ؟».

فأومأت برأسي، مع أن جرح كتفي يحترق، لكن سائر جسدي لم يتأذى، بل كان ينبض من أثر استخدام قوتي من جديد.

سألته: «ماذا عنكَ؟».

فأجاب غير مصدقًا: «لم أخدش».

صارعت السفينة الأمواج، مندفعة بسرعة شبه مستحيلة، بفعل رياح المستحضرين، ومعاونة خالقي الأمواج. اكتشفت أن جسدي مغمور بالماء فور انتهاء المعركة، وأسناني بدأت تصفع بعضها من فرط البرد، احتضنني (مال)، ثم ألقى علينا أحد أفراد الطاقم غطاءً.

أمر (ستورمهوند) في النهاية أن نتوقف، وأن تُرخى الأشرعة، فخارت قوى مستحضري الرياح وخالقي الأمواج، ووقع بعضهم إلى جانب بعض. قواهم غادرت أجسادهم، تاركة وجوههم تسطع، وأعينهم تحترق.

تباطأت سرعة السفينة حتى صارت تتهادى بلطفٍ وهدوءٍ غريب.

صاح (ستورمهوند) آمرًا: «ابدؤوا المراقبة».

فأرسل (بريڤيت) أحد البحارة إلى أعلى الصاري، حاملًا في يده مقرابًا طويلًا، أنا و(مال) نهضنا حينها.

نزل (ستورمهوند) ليمر بصفوف الإثيريالكي المتعبين، يربت على ظهور مستحضري الرياح وخالقي الأمواج ويتمتم لهم ببضع كلمات لم أتبيَّنها، ثم شاهدته يأمر بنقل المصابين من البحارة إلى الأسفل، حيث سيعرضون على طبيب السفينة، أو ربما معالج من الكوربورالكي، يبدو أن ذلك القرصان لديه من كل جماعات الغريشا من يعمل لحسابه.

تقدَّم (ستورمهوند) نحوي، ساحبًا سكينه من غمدها، رفعت يديَّ إلى أعلى، ووقف (مال) أمامي، مصوبًا بندقيته نحو صدر القرصان، وعلى الفور سمعت السيوف تُستَل من أغمادها، وكذلك المسدسات.

تباطأت خطوات (ستورمهوند) وهو يقول: «تمهل يا أوريتسڤ.. لقد واجهت الكثير من المتاعب ودفعت أثمانًا باهظة كي تكونا هنا على متن سفينتي، وسيكون أمرًا مخجلًا إذا امتلأ جسدك بالثقوب الآن».

ثم قلب السكين، بحيث صار مقبضها باتجاهي، وقال: «هذه من أجل الوحش».

لا شك أنه يقصد سوط البحر.. كدت أنسى أمره في خضم المعركة، ثم زعق في طاقمه قائلًا: «تراجعوا»، فأعادوا أسلحتهم إلى أماكنها.

أومأ بعد ذلك إلى (تمار) وقال: «اسحبيه إلى هنا».

فأعطت (تمار) أوامرها إلى مجموعة من البحارة، الذين مالوا إلى السور الأيمن للسفينة وأخذوا يفكون حبالًا كانت قد رُبِطت بطريقة معقدة، ثم بدؤوا يسحبون سوط البحر إلى الأعلى، حتى ألقى به إلى أرض السفينة، وصار يصارع بوهنٍ أسر الشباك الفضية، ثم أطلق صرخة غاضبة، وجزَّ على أسنانه الضخمة، فقفزنا جميعًا إلى الخلف.

مدَّ (ستورمهوند) السكين نحوي مرة أخرى، وقال: «يجب أن تقومي بذلك بنفسك على ما أظن».

نظرت إليه متسائلة عن مدى معرفته بمضخمات القوى، وبهذا المضخم على وجه الخصوص.

أردف: «هيا، علينا أن نتحرك.. صحيح أن سفينة مستحضر الظلام متوقفة الآن، لكنها لن تبقى على حالها».

برق نصل سكينه في ضوء الشمس الخافت.. إنها مصنوعة من فولاذ الغريشا بلا شكٍّ، والحق أنني لم أندهش هذه المرة، ترددت فقط.

قال بعد ذلك مستطردًا: «لقد فقدت ثلاثة عشر رجلًا للتوِّ، فلا تخبريني أن مثل تلك التضحية قد ضاعت هباءً».

نظرت إلى سوط البحر، الذي ظلَّ يتلوّى على الأرض، والهواء يهرب من خياشيمه، وعيناه الحمراوان مغيمتان ولكنهما يشعان شرًّا، تذكرت حينها نظرة الأيل الداكنة، الثابتة، وذعره الهادئ في لحظاته الأخيرة. لقد عاش الأيل في مخيلتي طويلًا، حد أنني حينما رأيته يخرج من بين الأشجار، متجهًا إلى المرج المثلج، شعرت أنه مألوف لي، أو أنني عرفته مسبقًا، أما سوط البحر فكان غريبًا، أقرب إلى الأسطورة من الحقيقة، رغم أن جسده ملقى أمامي الآن، يتألم بأسى.

عاود القرصان الحديث قائلًا: «لن ينجو على أي حالٍ».

أمسكت بالسكين الثقيلة وتساءلت: هل تعد هذه رحمة حقًّا؟ بلا شك ليس ثمة وجه تشابه بين ما أنا مقبلة على فعله، وما فعلته مع أيل موروزوفا.

إنه روزاليه.. الأمير الملعون، حارس طريق العظام، الذي يغري -في الحكايات- العذراوات الوحيدات، ويحملهن فوق ظهره ضاحكًا، ويذهب بهن بعيدًا.. بعيدًا إلى أقصى حد عن الشاطئ، بحيث لا يستطعن الصراخ

للنجدة، ثم يغوص بهن إلى قصره، القابع تحت الماء، فيغشى عليهن، لأن الطعام المتاح إما لؤلؤ وإما مرجان. ثم يبكي روزاليه، ويغني أغنيته الحزينة فوق جثثهن، ويذهب بعد ذلك ليختطف ملكة أخرى.

قلت في نفسي: إنها حكايات محض؛ فهو ليس أميراً، بل مجرد حيوان يتألم.

تمايل على جانبيه، وبات يفتح ويغلق فمه بلا فائدة، ثمة حربتان مغروزتان في ظهره، يتقطر من حولهما دم لزج، رفعت سكيني غير عالمة أين أوجه نصلها، ذراعاي ارتعشتا، وسوط البحر يلهث ويتنهد حتى أشفقت عليه، وانبعث منه صدى خافت لكوراله الساحر.

تقدم (مال) إلى الأمام وخاطبني بحدة قائلًا: «انهي الأمر يا ألينا بحق القديسين!».

ثم سحب السكين من قبضتي وألقاها إلى الأرض، وأمسك بيدي ووضعهما حول إحدى الحراب، ثم دفعناها دفعة واحدة، ناهية. ارتجف سوط البحر ثم سكن بدنه إلى الأبد، وتسربت منه برك دماء غمرت سطح السفينة. نظر (مال) إلى يديه، ثم مسحهما في قميصه الممزق، والتفت.

أتى (توليا) ومعه (تمار)، انقبضت معدتي، لعلمي لما هو آتٍ.

تردد صوت في عقلي يقول: «كل هذا ليس حقيقيًا.. في إمكانك المضي بعيدًا، دعيه وشأنه».

داهمني إحساسٌ بأن الأحداث تتعاقب سريعًا، لكنني لا أستطيع أن أعيد مضخم قوى كهذا إلى البحر مرة أخرى؛ فها هو قد ضحى بحياته بالفعل، كما أن حصولنا على المضخم لا يعني بالضرورة أنني سأستخدمه.

بدت قشوره بيضاء، وقزحية في الوقت ذاته، ما يعني أنها تقذف في الأرجاء أقواس قزح باهتة، فيما عدا قشرة واحدة، حدودها تبدأ عند عينيه الكبيرتين، وتنتهي عند قمة رأسه، فتلك ذهبية اللون.

سحبت (تمار) خنجرًا من حزامها، وبمساعدة (توليا)، بدأت تنتزع القشور، لم أسمح لنفسي أن أشيح ببصري، وعندما انتهيا، سلَّما إليَّ سبع قشور متناسقة، لم تزل مبتلة بالدماء.

حينها قال (ستورمهوند): «دعونا ننحني برؤوسنا حدادًا على الرجال الذين فقدناهم اليوم؛ كانوا بحارة صالحين، وجنودًا مخلصين، نرجو أن يحملهم البحر إلى مرفأ آمن، وأن يستقبلهم القديسون على شاطئ منير».

ثم ردَّد صلوات البحارة بلغة (كيرتش)، وتمتمت (تمار) بضع كلمات بلغة (شوهان). وقفنا جميعًا لحظة، على متن هذه السفينة المتأرجحة، خافضين رؤوسنا، شعرت بغصة تسد حلقي.

مات رجال آخرون، ومخلوق سحري قديم آخر، شرَّح جسده فولاذ الغريشا. وضعت يدي على جلده اللامع، لم يزل ناعمًا وباردًا تحت أصابعي، وعيناه حمراوان، ضبابيتان، فارقتهما الحياة. أطبقت قبضتي على قشوره الذهبية، شاعرة بحوافها تنغرز في لحمي، تُرى، أي قديسين انتظروا مثل هذه الكائنات؟

مضت دقيقة طويلة، تمتم بعدها (ستورمهوند) قائلًا: «فليستقبلهم القديسون برحمتهم».

فردد الطاقم وراءه الجملة ذاتها.

أردف (ستورمهوند) بعد ذلك: «علينا أن نتحرك؛ فعلى الرغم من الخرق الذي أصاب هيكل الحواتة، فإن مستحضِر الظلام بحوزته مصنِّع أو اثنان، وبعض المستحضرين، ووحوشه هؤلاء تدربوا على استخدام المطرقة والمسامير، ولذلك علينا ألا نلقي بمصيرنا في يد الحظ»، ثم التفت إلى (پريڤيت) وقال: «أمهِل المستحضرين بضع دقائق ليستريحوا، ووافِني بتقريرٍ عن الخسائر، ثم ارفع الأشرعة».

رد (پريڤيت) بحدة: «حسنًا أيها القبطان.. ولكن.. ألن يدفع الناس أثمانًا باهظة ليحصلوا على قشور التنين أيًا كان لونها؟».

عبس (ستورمهوند)، لكنه أومأ برأسه وأجاب باقتضاب قائلًا: «خذ كل ما تريده، ثم نظِّف سطح السفينة وتحرك بنا، لديك الإحداثيات بالطبع».

جلس أفراد من الطاقم بجانب جثمان سوط البحر، وشرعوا في فصل قشوره عن جسده، لم أتحمل النظر إلى تلك العملية، فأوليتهم ظهري، محاولةً السيطرة على الألم الذي كاد يفتك بمعدتي من فرط التوتر.

أتى (ستورمهوند) ليقف بجانبي، ثم نظر خلفه وقال: «لا تحتدي في الحكم عليهم».

- «إنني لا أحكم عليهم؛ فأنت القبطان هنا».

- «وهم لديهم محافظ عليهم ملؤها، وآباء وإخوة عليهم إطعامهم. لقد فقدت ما يقرب من نصف طاقمي، ولهذا كان الثمن باهظًا ليخفف من حدة تلك اللدغة، ولكن ذلك لا يعني أنك لست جذابة».

- «ما الذي أفعله هنا؟ لماذا ساعدتنا؟».

- «هل أنت متأكدة أنني ساعدتكما؟».

تدخل (مال) حينها قائلًا: «أجب عن السؤال يا ستورمهوند! لماذا عزمت على اصطياد سوط البحر إذا كنت ستسلمه إلى ألينا؟».

- «لم يكن غرضي اصطياده، بل اصطيادكما».

قلت: «ألهذا انقلبت على مستحضر الظلام؟ لتنال مني؟».

- «لا نستطيع تسمية ذلك انقلابًا ما دام قد حدث على متن سفينتي».

صحت غاضبة: «سمِّه ما شئت! فقط اشرح ما حدث!».

تراجع إلى الخلف، وأسند مرفقه إلى السور، شاخصًا ببصره حول السفينة، وإذا به يرد: «كنت سأشرح لمستحضر الظلام أمرًا مهمًا لو كان قد سألني، لكنه لحسن الحظ لم يفعل، وهو أن مشكلة استئجار رجل بائع لشرفه أنه

يبحث دائمًا عن الثمن الأغلى».

حملقت إليه وقلت: «أخنت مستحضر الظلام من أجل المال؟».

- «لكن الخيانة لفظة قاسية؛ فأنا بالكاد أعرفه».

- «يا لك من مجنون! إنك تعلم جيدًا ما يمكنه فعله، وليس ثمة ثمن يستحق خوض مخاطرة كهذه».

- «سيتكشف لنا ذلك فيما بعد».

- «سيطاردك مستحضر الظلام حتى آخر أيامك».

- «إذن أنا وأنت لدينا شيء مشترك الآن، أليس كذلك؟ كما أنني أحب أن يكون لديَّ أعداء أقوياء؛ فهذا يعزز شعوري بأهميتي».

عقد (مال) ذراعيه، ثم نظر إلى القرصان وخاطبه قائلًا: «لا يمكنني تحديد ما إذا كنت مجنونًا أم أحمق».

- «لديَّ مميزات كثيرة سيصعب عليك الاختيار من بينها».

هززت رأسي.. لا بد أنه فقد عقله.

سألته: «ما دمت تبحث عن ثمنٍ أعلى مما عرضه عليك مستحضر الظلام، فمن الذي استأجرك الآن؟ وإلى أين أنت ذاهب بنا؟».

فقال: «جاوبي عن سؤالي هذا أولًا...»، ثم وضع يده في جيبه، وأخرج كتابًا صغيرًا أحمر اللون، وأردف: «لماذا كان مستحضر الظلام يحمل هذا معه؟ إنني لا أظنه متدينًا!».

أمسكت بالكتاب، وقلبته، رغم أنني علمته من نظرةٍ واحدة، حروف غلافة الذهبية برقت في ضوء الشمس.

سألته: «هل سرقته؟».

فأجاب: «أجل، إلى جانب بعض الأوراق التي عثرت عليها في كابينته، أو بالأحرى هي كابينتي، فلا أعتقد أن هذه تعد سرقة».

قلت مشمئزةً: «إنها «بالأحرى» كابينة قبطان الحواتة الذي سرقت سفينته».

- «ذلك هو العدل في أبهى صوره، أقترح عليك أن تعملي في المحاماة إذا فشلت كمستحضرة نور؛ فعلى ما يبدو أنك صعبة الإرضاء، وانتقادية. أظن أن هذا الكتاب ملكك».

ثم أمسك بالكتاب، وفتحه، فوجدت اسمي محفورًا خلف الغلاف: ألينا ستاركوف.

حاولت أن أحافظ على جمود تعبيرات وجهي، لكن عقلي عجَّ بالتساؤلات فجأة؛ فتلك هي نسختي من كتاب «حياة القديسين»، النسخة نفسها التي أعطاني إياها المستشار الروحاني منذ أشهر في مكتبة القصر الصغير. لا بد أن مستحضر الظلام أمر بتفتيش غرفتي بعد هروبي من (أوز ألتا)، ولكن لماذا قرر الاحتفاظ بالكتاب؟ ولماذا سألني إذا كنت قد قرأت الكتاب؟

تصفحته سريعًا، كان يضم رسومات توضيحية رائعة، وعلى الرغم من كونه موجَّهًا إلى الأطفال، فإنه لا شك سيكون مروعًا بالنسبة إليهم؛ بعض القديسين صُوِّروا في أثناء صنعهم المعجزات، أو إقامتهم للأعمال الخيرية. تجلى القديس (فيليكس) بين أغصان شجر التفاح، والقديسة (أناستازيا) صُوِّرت في أثناء تخليصها مستوطنة (أركيسك) من براثن الطاعون الفتاكة. ورغم ذلك، فقد امتلأت معظم الصفحات بصورٍ لتضحيات القديسين؛ فالقديسة (ليزابيتا) رُسِمت بعد أن قُطِّعت لأربع، والقديس (لوبوف) قُطِع رأسه، والقديس (إليا) كُبِّل بالأصفاد.

تجمدت مكاني، ولكن هذه المرة أخفقت في مواراة رد فعلي.

قال (ستورمهوند): «مثير للاهتمام، أليس كذلك؟»، ثم نقر بإصبعه الطويلة آخر صفحة توقفت عندها، وأردف: «هذا هو المخلوق الذي اصطدناه، إن لم أكن مخطئًا».

لم تتخف الحقيقة؛ فخلف القديس (إليا)، تبدَّى مظهر سوط البحر الذي لا مثيل له، بعدما رش في الأرجاء رذاذ بركة أو محيط، وتلك لم تكن العناصر الوحيدة التي تضمها طيات الرسمة، حينها -وبشكلٍ ما- حاولت ردع يدي عن التسلل إلى الطوق المستقر على رقبتي.

أغلقت الكتاب، وهززت كتفي وقلت: «هذه قصة محض من بين كل القصص الأخرى».

رماني (مال) بنظرة حيرة.. لا أعلم إذا كان قد رأى ما حوته تلك الصفحة.

انتابني شعورٌ حثَّني على عدم إعادة الكتاب إلى (ستورمهوند)، لكن الشك زحف إلى ملامحه بالفعل، فأجبرت يدي أن تمتد إليه، آملةً ألا يلاحظ ذلك الزلزال الذي هزَّ يدي هزًّا.

تفحَّص وجهي، ثم وقف مستقيمًا وأخذ يعبث بكمَّيه، وقال: «احتفظي به؛ فهو ملكك في النهاية، ومثلما لاحظت بالطبع، فأنا لا أمس المتعلقات الشخصية لأي أحد احترامًا وتقديرًا، كما أنك ستحتاجين إلى شيء لتنشغلي فيه إلى أن نصل إلى أوز كيرڤو».

شاركني (مال) الاندهاش ذاته.

سألته: «هل ستأخذنا إلى راڤكا الغربية؟».

- «سآخذكما لمقابلة عميلي، وهذا كل ما أستطيع قوله الآن».

- «ومن هو؟ وماذا يريد مني؟».

- «ولماذا أنتِ متأكدة من كونه رجلًا؟ أليس ثمة احتمالية أن أوصلك إلى ملكة فييردا؟».

- «هل أنت جاد؟».

- «كلا، ولكن من الحكمة أن تفتحي مداركك».

زفرت بيأسٍ وأنا أسأله: «هل أجبت مباشرةً عن سؤالٍ من قبل؟».

- «هذا أمر يصعب تحديده.. تبًّا، لقد قمتُ بذلك للتوِّ!».

التفت إلى (مال)، محكمةً غلق قبضتي، وقلت: «سأقتله».

فزأر (مال) في وجه (ستورمهوند) قائلًا: «أجب عن السؤال!».

رفع الأخير حاجبه، وقال بنبرةٍ حادة كنصل سيف: «عليكما أن تعلما أمرين: أولهما أن القباطنة لا تتلقى أوامر على متون سفنهم، وثانيهما أنني لديَّ عرض لكما».

نخر (مال) وقال: «ولماذا نثق بك من الأساس؟».

حينها عاد (ستورمهوند) إلى طريقته اللطيفة وهو يرد: «لأنكما لا تملكان خيارًا آخر.. أعلم أن في إمكانكما إغراق هذه السفينة، والزج بنا في لجج البحر سحيقة العمق، لكنني أتمنى أن تسمعا عرض عميلي، وتأخذاه بعين الاعتبار، وإن لم يعجبكما، فأقسم بأن أساعدكما على الهرب، وآخذكما إلى أي مكانٍ في هذا العالم».

لم أصدق ما سمعته للتوِّ.

سألته: «أتركت مستحضِر الظلام إذن لتخون عميلك الجديد أيضًا؟».

فأجاب وقد بدا عليه الغضب: «بالطبع لا، ولكن عميلي دفع لي المال لأجلبكما إلى راڤكا، لا لأبقيكما فيها، وهذا يتطلب دفع ثمن آخر».

نظرت إلى (مال) الذي رفع كتفيه وقال: «إنه كاذب، وربما مجنون أيضًا، لكنه على حق؛ فكلانا لا يملك خيارًا آخر».

حككت جبهتي، شعرت أن رأسي على وشك استقبال نوبة صداع، ذهني مشوش وجسدي منهك، و(ستورمهوند) يتحدث بطريقةٍ تحفز بداخلي رغبة بقتل أحدهم رميًا بالرصاص، وأتمنى أن يكون هو، لكنه في النهاية حررنا من قبضة مستحضر الظلام، وفور مغادرتنا هذه السفينة، سنجد طريقتنا الخاصة في الهروب، أما الآن، فليس في وسعي التفكير فيما هو أبعد من ذلك.

قلت له: «حسنًا».

فتبسم وقال: «جيد أنكما لن تغرقانا جميعًا»، ثم صاح بأحد أفراد الطاقم، الذي كان يتحرك بالقرب منا، قائلًا: «اذهب إلى تمار وأخبرها أن المستحضرة ستشاركها غرفتها».

ثم أشار إلى (مال) وأردف: «أما أنت، ففي إمكانك المكوث مع توليا».

وقبل أن تتسنى له فرصة للاعتراض، بادره (ستورمهوند) قائلًا: «هكذا تجري الأمور هنا على متن السفينة، إنني أمنحكما رحلةً مجانية على متن سفينة (ڤولكڤولني) إلى راڤكا، وأرجوكما لا تستهزئا بكرمي، واحترما قوانين هذه السفينة، وحدودي».

انبعث صوتٌ من بين أسنان (مال) المطبقة يقول: «سأبقى معها».

وضعت يدي على كتفه، لا شك أنني كنت سأشعر بأمانٍ أكبر لو بقيت معه، لكن هذا ليس الوقت المناسب لكي نعترض على قرارات القرصان.

قلت له: «لا تقلق، سأكون بخيرٍ».

تبدَّلت ملامحه، ثم استدار ومضى، مختفيًا بين فوضى الحبال والأشرعة. خطوت خلفه خطوة، فقال (ستورمهوند) قائلًا: «دعيه وشأنه؛ فذلك النوع من البشر يحتاج إلى وقت للتفكر ولوم الذات، وإلا سيصير غريب الأطوار».

- «ألا تتحدث جديًّا أبدًا؟».

- «لا أظن ذلك، حتى لا تصير الحياة مملة».

هززت رأسي وقلت: «وذلك العميل...».

- «من الأفضل ألا تسألي، كما أن العروض كثيرة، بالأخص منذ اختفائك من الطية بالطبع معظم الناس يظنون أنك ميتة، وهذا قد يقلل من السعر.. حاولي ألا تنزعجي من الأمر».

نظرت إلى الجانب الآخر من السفينة، حيث الطاقم يحملون جسد سوط البحر، وبرميةٍ واحدة واهنة، ألقوه في البحر، فاصطدم بالماء بقوة.. هكذا اختفى روزاليه، وبهذه السرعة ابتلعته الأعماق.

دوت صافرة طويلة، ثم توزع أفراد الطاقم، وكذلك مستحضرو الرياح، كل إلى مكانه، وفي غضون ثوانٍ، تفتحت الأشرعة كزهور بيضاء لامعة وضخمة، ومضت السفينة في طريقها من جديد، جهة الجنوب الشرقي، صوب (راڤكا).. صوب الوطن.

سألني (ستورمهوند): «ماذا ستفعلين بتلك القشور».

- «لا أعلم».

- «لا تعلمين؟ أعرف أن جمالي فاتن، لكنني لست من الوسام الحمقى كما يبدو، ولهذا، فأنا أعلم أن مستحضر الظلام أرادك أن ترتدي قشور سوط البحر».

إذن لماذا لم يقتله؟

عندما قتل مستحضر الظلام الأيل، ووضع طوق موروزوڤا حول رقبتي، قيَّدني به إلى الأبد، ارتجفت.. متذكرةً الطريقة التي اتصل بها معي، وأحكم قبضته على قوتي، بينما وقفت عاجزة.

ترى هل ستمنحه قشور التنين القدرة ذاتها؟ وإن كان هذا صحيحًا، فلماذا لم يأخذها؟

قلت لـ (ستورمهوند): «إنني أملك مضخم قوى بالفعل».

- «وإن صدقت الحكايات، فإنه قوي المفعول».

بل إنه أقوى مضخم عرفه العالم، هذا ما أخبرني به مستحضر الظلام، وهذا ما صدقته، ولكن ماذا لو كان ثمة المزيد؟ وماذا لو اتضح أنني لم ألتمس سوى بدايات القوة الحقيقية للأيل؟

هززت رأسي.. فهذا هو الجنون بعينه.

- «لكن المضخمات لا تجمع».

قال لي حينها: «لقد تصفحت الكتاب، ويبدو أن ذلك ممكن».

شعرت بثقل الكتاب في جيبي.. ترى، هل اعتقد مستحضر الظلام أنني علمت أسرار موروزوفا من كتاب الأطفال هذا فانتابه خوف ما؟

قلت له: «إنك لا تعلم ما تقوله؛ فليس من بين الغريشا من حصل على مضخمين، فخطورة ذلك...».

- «الآن عليَّ أن أنصحك بعدم استخدام هذه الكلمة في أثناء الحديث معي؛ فأنا أعشق المخاطرة بشكلٍ مبالغ فيه».

فقلت بحدة: «ولكن ليس من هذا النوع».

- «يا له من أمر مثير للشفقة.. إذا لحق بنا مستحضر الظلام، لا أظن أن السفينة والطاقم سينجون من معركةٍ أخرى، ولكن مضخم قوى آخر قد يعدل كفة الاحتمالات، أو ربما يقلبها لصالحنا، كم أكره القتال النزيه!».

- «ومن المحتمل أيضًا أن يتسبب المضخم في قتلي، وإغراق السفينة، وخلق طية ظل أخرى، أو أسوأ من هذا كله!».

- «إنك -وبكل تأكيدٍ- بارعة في القلق».

زحفت أصابعي إلى جيبي مثل الأفاعي، تتلمس حواف القشور الرطبة.

معلوماتي عن نظريات الغريشا طفيفة وسطحية، لكن هذه القاعدة بدت واضحة لي بشكلٍ كافٍ: لكل غريشا مضخم وحيد. تذكرت أحد النصوص الفلسفية المعقدة التي طلب مني قراءتها، ورد فيه الآتي: **لماذا لا يستطيع فرد من الغريشا امتلاك أكثر من مضخم قوى؟ وما هو الشيء الذي ليست له نهاية؟ سأجيب عن السؤال الأخير لأنه الأهم: في الواقع ثمة شيئان ليس لهما حدود؛ الكون وطمع الرجال.**

احتجت إلى وقتٍ للتفكر.. ثم قلت في النهاية: «هل ستفي بوعدك وتساعدنا على الهرب؟».

لا أعلم لماذا سألته؛ فإن انتوى خيانتنا، فلن يخبرني بالطبع. توقعت أنه سيرد بمزحةٍ ما، إلا أني تفاجأت به يقول: «هل أنت متحمسة لأن تهجري وطنك مرة أخرى؟».

وقفت مشدوهة..

اتركي وطنك يتعذب.

قالها لي مستحضر الظلام واتَّهمني بالتخلي عن (راڤكا). لطالما أخطأ في أشياء كثيرة، لكنني لا أستطيع قمع إحساسي بأنه محق فيما قاله هذه المرة؛ فقد تركت وطني تحت رحمة طية الظل، وملك ضعيف، وطاغيتين جشعين مثل مستحضر الظلام والمستشار الروحاني. والآن، إن صحت الشائعات، فإن الطية تتوسع، و(راڤكا) تتهاوى.. كل ذلك بسبب مستحضر الظلام، والطوق، وبسببي.

رفعت رأسي ناحية الشمس، أستقبل هواء البحر الأخاذ، ثم قلت: «بل إنني متحمسة لأكون حرة».

- «لكنك لن تصيري حرة أبدًا ما دام مستحضر الظلام على قيد الحياة، وكذلك الحال مع بلدك، وأنت مدركة تلك الحقيقة جيدًا».

لقد ظننت (ستورمهوند) طماعًا غبيًّا، لكن لم يخطر على بالي أنه قد يكون وطنيًّا، إنه راڤكاني في النهاية، وعلى الرغم من ألاعيبه التي امتلأت بسببها جيوبه، فإنه ساعد وطنه أكثر من أسطولها البحري الضعيف.

قلت له: «إنني أريد الاختيار».

فرد قائلًا: «ستحظين به.. أعدك وعد كاذبٍ وقاتلٍ»، ثم مضى متجهًا صوب الجانب الآخر من السفينة، وإذا به يتوقف بعد بضع خطوات ويتلفت ويقول: «إنك محقة بشأن أمرٍ واحد، وهو أن مستحضر الظلام خصم قوي، ولهذا عليك أن تفكري في توسيع دائرة أصدقائك الأقوياء».

***

لم أرِد أي شيء آخر إلا أن أخرج كتاب «حياة القديسين» من جيبي، وأقضي ساعة في تأمل صورة القديس (إليا)، لكن (تمار) كانت تنتظرني لتصطحبني إلى غرفتها.

ليس ثمة وجه مقارنة بين سفينة (ستورمهوند) وبين سفينة التجار الصلبة التي حملتني أنا و(مال) على متنها إلى (نوڤيي زم)، أو حتى تلك الحواتة الغريبة التي غادرناها للتوّ؛ فإن هيكل سفينته متناسقٌ، زهي المظهر، ويضم العديد من الأسلحة الثقيلة. أخبرتني (تمار) أن (ستورمهوند) استولى عليها بعدما كانت بحوزة قرصان زمني[1] يستهدف سفن (راڤكا) التي تمر بمرافئ الساحل الجنوبي. لقد أحبها (ستورمهوند) حبًّا جمًّا، حد أنه جعلها السفينة الأساسية في أسطوله، التي تحمل علمه، وأطلق عليها اسم (ڤولكڤولني)، أي «ذئبة الأمواج».

ذئاب.. كلب العاصفة[2].. الكلب الأحمر المرسوم على علم السفينة.. الآن فهمت لماذا لا يكف الطاقم عن النباح والعويل.

كل شبرٍ من السفينة له أهمية.. ينام الطاقم تحت المدافع، وفي حالة الاشتباك، يقفزون من أراجيحهم الشبكية سريعًا، ويتخذون مواقعهم. اتضح أنني محقة بشأن عدم وجود أطباء من الأوتكازاتسيا؛ لأن ثمة أفرادًا من الكوربورالكي على متن السفينة، ولهذا تحوَّلت غرفة الأطباء، وضمَّت معها غرفة التموين، لتكون مضجع (تمار)، وعلى الرغم من هذا، فقد كانت غرفةً صغيرة، بالكاد تتسع لأرجوحتين شبكيتين وخزانة، تصطف بطول جدرانها صناديق صغيرة عليها عبوات مراهم غير مستعملة، ومسحوق زرنيخ، وصبغة الأنتيمون.

---

(1) أي من (نوڤيي زم).

(2) Sturmhondحرفيًا كما وردت في السياق لسببين: الأول كي نفرق بينها وبين اسم القبطان Stormhoundارتأينا هنا أن نترجم كلمة: (ستورمهوند كما ترجمناه)، والذي يبدو أن المؤلفة قد استقت اسمه من الكلمة الأولى، غير أنها أحدثت بها تغييرين، والثاني لكي نبرز المعنى الدلالي للاسم.

استلقيت فوق إحدى الأرجوحتين، محافظةً على توازني بإسناد قدمي إلى الأرض، واعية لمستقر الكتاب الأحمر داخل معطفي. شاهدت (تمار) تخلع معطفها، وتجرد نفسها من الأسلحة: كان ثمة حزامٌ من المسدسات ملفوف أسفل صدرها، وحزام آخر حول خصرها به فأسان رفيعتان، وحذاؤها ذو الرقبة الطويلة ثُبِّت به غمد يستقر فيه خنجر، وأخيراً كان هناك غمد آخر مثبت بفخذها، به خنجر أيضًا، باختصارٍ، كانت (تمار) ترسانة أسلحة متحركة.

أخرجت من أحد جيوبها جوربًا مملوءًا بكراتٍ معدنية صغيرة، ألقته على الخزانة فأحدث صريرًا لحظيًّا، ثم قالت: «إنني أشعر بالأسى تجاه صديقك».

- «لماذا؟».

سألتها بينما أرسم دوائر على ألواح الأرض الخشبية بطرف حذائي.

- «لأن أخي يشخر كدبٍّ ثمل».

ضحكت وقلت: «مال يشخر أيضًا».

- «إذن يمكنهما أن يكونا ثنائيًّا موسيقيًّا».

ثم اختفت، وعادت بعد لحظات تحمل دلوًا، وقالت: «لقد ملأ خالقو الأمواج البراميل بماء المطر، استعيني بها إذا أردتِ الاغتسال».

إن المياه النقية تعد رفاهية على متن السفن، ولكن بما أن هناك من بين الطاقم أفرادًا من الغريشا، فليس ثمة داعٍ لترشيد الاستهلاك. غمست (تمار) رأسها في الدلو، ثم أخذت تعبث بشعرها القصير الداكن، وقالت: «إنه حقًّا لشابٌّ وسيم.. ذلك المتعقب».

رفعت عيني إلى الأعلى متذمرة وقلت: «لا تقولي أنت هذا».

- «ليس من نوعي المفضل، لكنه ما زال وسيمًا».

رفعت حاجبي.. لطالما كان (مال) مناسبًا لأذواق الجميع، لكنني لم أكن لأخوض في مسائل شخصية مع (تمار)، وبما أنني ما زلت لا أثق بـ(ستورمهوند)، فلن أثق بطاقمه بطبيعة الحال، كما أنني لا أريد أن أتعلق بأحدٍ منهم؛ فقد تعلمت من (جينيا) درسًا، وصداقة واحدة محطمة تكفي.

قررت تغيير الموضوع، فقلت: «ثمة أناس من كيرتش ضمن طاقم ستورمهوند، ألا يؤمنون بخرافاتٍ متعلقة بوجود فتاة على متن السفينة؟».

- «لكن ستورمهوند لديه طرقه الخاصة في التعامل مع مثل هذه الأمور».

- «وهل... يضايقونك؟».

اتسع ثغرها بابتسامةٍ عريضة كشفت عن أسنانها البيضاء التي طغى لمعانها على لون بشرتها البرونزي، ثم نقرت سنة القرش المتلألئة التي تتدلى من عنقها، والتي أدركت على الفور أنها مضخم قوى، وإذا بها تكتفي بالرد قائلةً: «لا».

- «حسنًا».

وقبل أن أرمش بعيني، سحبتْ سكينًا أخرى من كمها، وقالت: «وهذه تنفع أيضًا».

أخذت نفسًا قصيرًا وقلت: «وكيف تختارين بينهما؟».

- «هذا يتوقف على حالتي المزاجية».

ثم قلبت السكين وأعطتني إياه وأردفت قائلةً: «لقد أعطى ستورمهوند أوامر بتركك وحيدة، ولكن في حالة أن ثمل أحدهم، أو نسي، هل ستستطيعين الدفاع عن نفسك؟».

أومأت برأسي.

ربما لم أكن أمشي مثلها، مخفيةً ثلاثين سكينًا في جيوبي، لكنني لست بعاجزة.

وضعت رأسها في الدلو مجددًا ثم قالت: «إنهم يرمون النرد بالأعلى، وأنا مستعدة لأحظى بنصيبي، يمكنك أن تأتي معي إذا أردت».

لم أكن مهتمة بالمقامرة أو شرب الروم، لكن ليس في وسعي نكران أنني أغويت، ومع ذلك، فقد ظل جسدي يرتجف من أثر استخدام قوتي التي حاربت بها كائنات النيتشيڤويا، والإرهاق والجوع تملَّكا مني لأول مرة منذ أسابيع، ولذا هززت رأسي وقلت لها معتذرة: «لا شكرًا».

- «اعتني بنفسك.. فإن لديَّ ديونًا عليَّ تحصيلها، لقد راهنني پريڤيت أننا لن نعود سالمين، أقسم إنه بدا كمعزي في جنازة عندما تسلقنا ذلك السور».

سألتها مذعورًا: «هل راهن على مقتلكم؟».

فضحكت وأجابت: «إنني لا ألومه؛ فالجميع يعلم أن مواجهة مستحضر الظلام وأتباعه من الغريشا بمنزلة انتحار، وانتهى الأمر بأن اقترع الطاقم ليروا من من بينهم سيجبر على نيل شرف الخوض في تلك المعركة».

- «هل يعني هذا أنك وأخاك لم يحالفكما الحظ؟».

- «نحن؟».

وقفت تلك المتلاعبة بالقلوب بالقرب من الباب، شعرها مبلل وضوء القنديل يسطع على ابتسامتها، قالت قبل أن تغادر: «إننا لم نشارك في القرعة، بل تطوعنا».

***

لم أحظ بفرصةٍ للحديث إلى (مال) على انفرادٍ إلا عندما حلَّ الليل.

دعينا إلى تناول العشاء مع (ستورمهوند) في غرفته، وكان حقًّا عشاءً عجيبًا. قدم مضيف السفينة إلينا وجبتنا، وهو رجل يبدو عليه الالتزام، ومن الواضح أنه يكبر جميع من على السفينة بسنواتٍ عدة. كان الطعام أشهى مما قدم إلينا خلال الأسابيع الماضية: خبز طازج، سمك الحدوق

المشوي، فجل مخلل، وأخيراً نبيذ مثلج خلق زوبعةً في رأسي بعدما أخذت منه بضع رشفات.

أكلت بنهمٍ، كما الحال معي دائمًا بعدما أستخدم قواي، بينما لم يأكل (مال) إلا القليل، وكان مقلًا في حديثه، إلى أن تحدث (ستورمهوند) عن شحنة الأسلحة التي يعيدها إلى (راڤكا)، حينها انتعش (مال) وأنهى الاثنان ما تبقى من وجبتهما وهما يتحدثان عن البنادق، والقنابل، وطرقًا مدهشة لتفجير الأشياء. لم أستطع أن أوليهما انتباهي، وبينما كانا يتناقشان حول البنادق التي تطلق رصاصات متعددة، والتي انتشرت في جبهة (نوڤييي زم)، لم أستطع التفكير إلا في القشور القابعة في جيبي، وكيف عليَّ استخدامها.

تُرى، هل سأجرؤ على الاحتفاظ بمضخم قوى ثانٍ؟

لقد قتلت سوط البحر، وهذا يعني أن قوته أضحت ملكي، وإذا عملت القشور عمل طوق موروزوڤا، سيصير من حقي منح قوة التنين لمن شئت، وحينها سأعطيها لأحد المتلاعبين بالقلوب من طاقم (ستورمهوند)، ربما يكون (توليا)، وسأحاول أن أتحكم فيه مثلما تحكم فيَّ مستحضر الظلام من قبل، ثم سأجبر القرصان أن يبحر بنا إلى (نوڤييي زم)، رغم أني -في الواقع- لا أريد ذلك.

ارتشفت من كأس النبيذ مجددًا.

عليَّ أن أتحدث إلى (مال).

حاولت إلهاء نفسي بإحصاء الزخارف التي تملأ كابينة (ستورمهوند). كل شيء بدا مصنوعًا من الخشب اللامع، والنحاس المطلي. تناثرت فوق سطح المكتب عدة خرائط، وأجزاء مفككة من آلة السدس[1]، ورسومات غريبة لجناح مفصلي لطائر ميكانيكي. تلألأ سطحه الكريستالي والخزف الكيرتشي، وزجاجات النبيذ حملت ملصقات كُتِبت بلغة لم أتبيَّنها.

(1) آلة فلكية قديمة كانت تستخدم لقياس الزاوية بين جسمين أو نجمين.

قلت في نفسي: «إنها غنائم النهب»، مدركةً مصدر ثرائه.

أما عن القبطان نفسه، فقد سنحت لي الفرصة لأول مرة أن أتفحص هيئته عن قرب. يبدو أنه يكبرني بأربع أو خمس سنوات، وكان ثمة شيء شديد الغرابة في وجهه، ذقنه حادة للغاية، وعيناه في خضار الوحل، وشعره عجيب الحمرة، أما أنفه فكأنما كسرت وأعيدت إلى مكانها بالشكل الخاطئ عدة مرات.

وجدته قد لاحظ تحديقي إليه، وكدت أقسم إنه أشاح بوجهه عن الضوء.

عندما غادرنا كابينته، أدركنا أن الوقت تجاوز منتصف الليل، اصطحبت (مال) إلى ركنٍ معزول من مقدمة السفينة، على الرغم من وجود وردية مراقبة في الأعلى، فإنني لا أعلم متى سأستطيع التحدث إليه مرة أخرى على انفرادٍ.

قال (مال)، وقدماه تترنح من أثر الشراب: «لقد أعجبني.. رغم أنه ثرثار، وقد يعزم على سرقة أزرار حذائك، لكنه ليس شريرًا، ويبدو أنه يعلم الكثير عن...».

- «هلا صمتّ؟ أريد أن أريك شيئًا».

حملق إليّ كأنه يراني شبحًا، وقال: «لا داعي للوقاحة».

تجاهلته، وأخرجت الكتاب الأحمر من جيبي، وأمرته أن ينظر في الصفحة التي ألقيت فوقها شعاع ضوء أنار وجه القديس (إليا).

تجمَّد (مال) في مكانه وقال: «الأيل.. وروزاليه».

شاهدته بينما أخذ يتفحص الرسمة، إلى أن صعقته لحظة الإدراك، فتنفس وقال: «بحق القديسين.. ثمة شيء ثالث!».

الفصل السادس

وقف القديس (إليا) حافي القدمين على شط بحر مظلم، مرتديًا ما تبقى من رداءٍ أرجواني ممزق، مادًّا ذراعيه إلى الأمام، وراحتاه موجهتان إلى الأعلى. تعتري وجهه ملامح السكينة والهناء التي دائمًا ما تتجلى في لوحات القديسين، تحديدًا -على الأغلب- قبل أن يُقتَلوا بأشنع الطرق، وحول رقبته التفَّ طوقٌ حديدي كان موصولًا بالأغلال السميكة التي قيدت معصميه من قبل، وتلك الأغلال تتدلى من جانبيه الآن بعدما كسرت. ومن خلفه، انبثق من الأمواج ثعبان أبيض متموج، وبجانب قدميه وقف أيلٌ أبيض، يحملق إلينا بعينين داكنتين ثابتتين.

ولكن لم يستحوذ أحد هذين المخلوقين على انتباهنا الكامل.

تزاحمت الجبال في الخلفية، وراء كتف القديس اليسرى، وهناك في الأفق، بالكاد تبدَّى طائر أخذ يلتف في دوائر حول قوس حجري شاهق. تحسست أصابع (مال) ريش ذيله الطويل، الذي امتزج لونه الأبيض بطيفٍ ذهبي خافت، يطابق لون الهالة الملتفة حول القديس.

قال (مال): «هذا مستحيل».

- «لكن الأيل حقيقي، وكذلك سوط البحر».

- «لكن هذا... مختلف».

إنه محق؛ فإن «طائر النار» لم يرد ذكره في قصة واحدة، بل ألف قصة، ودائمًا ما يوجد في قلب كل أسطورة راڤكانية، ولطالما كان مصدر إلهام لمؤلفي المسرحيات، والروايات، والأشعار الغنائية، والأوبرا. كما قيل إن حدود (راڤكا) قد رُسِمت بفعل طيرانه، وأنهارها تدفقت من دموعه،

وعاصمتها وجدت من محط ريشته، وعندما وجدها محارب شاب التقطها، وحملها إلى الحرب معه، فلم يستطع أي جيش ردعه، وصار أول ملوك (راڤكا).

هذا ما ورد في الأسطورة.

إن طائر النار يمثل (راڤكا)، ولم يكن مصيره أبدًا أن يصيبه سهم متعقب، وأن ترتدي عظامه ليرتفع شأن يتيمة مغرورة.

قال (مال): «القديس إليا...».

- «إليا موروزوڤا».

- «أهو أحد قديسي الغريشا؟».

لامست الورقة بطرف إصبعي، تحسست الطوق، والأغلال التي تطبق على معصميه، ثم قلت: «ثلاثة مضخمات.. ثلاثة مخلوقات.. ونحن تحصلنا على اثنين منهم».

هزَّ (مال) رأسه بقوة كأنما يستفيق من سكرات النبيذ، ثم أغلق الكتاب فجأة. للحظة ظننت أنه سيلقيه في البحر، لكنه ما لبث أن أعطاني إياه وقال بنبرةٍ تنم عن غضبٍ دفين: «وماذا سنفعل بهذا إذن؟».

ذلك ما شغل تفكيري نهارًا وليلًا، وفي أثناء وجبة العشاء التي شعرت أنها لن تنتهي. تسللت أصابعي من تلقاء نفسها لتتحسس قشور سوط البحر مرة بعد مرة، كأنها تشتاق إلى ملمسها.

- «إن ستورمهوند لديه مصنَّعون في طاقمه يا مال، ويظن أن عليَّ استخدام القشور، وربما يكون على حق».

نظر (مال) حوله وقال: «ماذا؟».

ابتلعت ريقي بتوترٍ، وأردفت باندفاع: «إن قوة الأيل لا تكفي لمحاربة مستحضر الظلام والقضاء على الطية».

- «وهل يكمن الحل في مضخم ثانٍ؟».

- «مؤقتًا».

تحسس شعره بيده وقال: «مؤقتًا؟ أتريدين الثلاثة حقًّا؟ أتريدين صيد طائر النار بحق القديسين؟».

داهمني شعور بأنني ساذجة، وطماعة، وسخيفة بعض الشيء. قلت: «إن الرسمة...».

فهمس يقاطعني: «إنه محض رسمة يا ألينا، رسمها كاهن ميت!».

- «ولكن ماذا لو كانت أكثر من هذا؟ لقد قال مستحضر الظلام إن مضخمات موروزوفا مختلفة، وأنها يجب أن تستخدم في آنٍ واحد».

- «هل تستمعين لنصائح القتلة الآن؟».

- «كلا، ولكن...».

- «وهل وضعتما قصصًا أخرى بينما كنتما مختبئين بالأسفل؟».

- «لم نكن مختبئين! إنه فقط حاول إثارة غيظك».

- «والحق أنه نجح...».

أمسك بسور السفينة.. مفاصل أصابعه البيضاء أخذت تنثني من الغضب، ثم أردف قائلًا: «يومًا ما، سيخترق سهمي عنق ذلك النذل».

تردد صدى كلمات مستحضر الظلام في رأسي: ليس ثمة من يشبهوننا يا ألينا.

نفضتها عن ذهني، ووضعت يدي على ذراع (مال) وقلت: «لقد عثرت على الأيل، وعلى سوط البحر، وربما قد قدر لك أن تعثر على طائر النار أيضًا».

قهقه ضاحكًا، ولكنها كانت ضحكة كئيبة، طغت على نبرته الحادة فأثلجت صدري.

قال: «أعلم أنني متعقب جيد يا ألينا، لكنني لست ممتازًا، علينا أن نعثر على مكانٍ نبدأ منه رحلة البحث؛ فإن طائر النار قد يكون في أي مكانٍ بالعالم».

- «ما أعلمه جيدًا أنك ستنجح».

تنهد ووضع يده فوق يدي، ثم قال: «إنني لا أتذكر أي شيء عن القديس إليا».

لم أتفاجأ؛ فإن ثمة المئات من القديسين. وفي (رافكا)، لكل قرية صغيرة، أو مسطح مائي، قديس خاص. أما في (كيرامزين)، فالدين يعتبر ملهاة للقرويين، وكنَّا نذهب إلى الكنيسة مرة أو مرتين في السنة.

وجدتني أتذكر المستشار الروحاني؛ فإنه من أعطاني نسخة «حياة القديسين»، ولم أعرف حينها ماذا أنتوى أن يفعل بها، أو حتى إذا كان يعلم ما تحويه من أسرار.

قلت لـ (مال): «وأنا أيضًا، لكن لا بد أن ثمة معنى لذلك القوس».

- «هل تعرفت على شكله؟».

عندما وقعت عيني على الرسمة لأول مرة، بدا القوس مألوفًا لي، لكنني تصفحت أعدادًا لا تحصى من كتب الخرائط في أثناء فترة تدريبي، وهذا ما جعل ذاكرتي تكتظ بصورٍ لوديان وآثار كثيرة في (رافكا) وما بعدها.

هززت رأسي وقلت: «لا».

- «بالطبع لا.. فكان سيسهل هذا الكثير».

زفر طويلًا، وقرَّبني إليه، محملقًا إلى وجهي تحت ضوء القمر، ثم لامس الطوق المثبت في رقبتي وأردف قائلًا: «كيف سنعرف تأثير تلك الأشياء عليك يا ألينا؟».

فأجبت معترفة: «لا أعلم».

- «ومع ذلك، ما زلت تريدين الأيل، وسوط البحر، وطائر النار».

تذكرت دفقة البهجة التي سرت بداخلي وقتما استخدمت قوتي لمحاربة أتباع مستحضر الظلام، وكيف أن جسدي اهتاج وتذبذب عندما نفَّذت «القطع»، ترى، أي شعور سيداهمني حينما تزداد قوتي ضعفين أو ثلاثة؟

شعرت بدوارٍ في رأسي.. نظرت إلى السماء المرصعة بالنجوم وليلها المخملي الأسود. أحسست بالجوع فجأة، جوع إلى القوة، أخذ صوت في رأسي يردد: إنني أريدهم كلهم.. أريد الضوء كله، والقوة كلها، أريد كل شيء!

ارتعد جسدي بعنفٍ، لامست بإبهامي غلاف الكتاب، وتساءلت: تُرى، هل جشعي هو ما يجعلني أرى فقط ما أريد أن أراه؟ ربما ذلك هو الجشع ذاته الذي دفع مستحضر الظلام إلى أن يكون المهرطق الأسود، ويقسم (رافكا) نصفين، لكن في النهاية، ليس ثمة مجال للهروب من حقيقة أنني لن أماثله في القوة من دون المضخمات، ولم نملك أنا و(مال) سوى خيارات محدودة.

قلت لـ (مال): «إننا نحتاج إلى الثلاثة معًا، إذا أردنا حقًّا أن نكف عن الهروب.. إذا أردنا حقًّا أن نذوق طعم الحرية».

تحسس (مال) خط عنقي، ثم انحناءة خدي، ولم ينفك نظره عني. خالجني شعور بأنه يبحث عن إجابة في عيني، ولكنه عندما تكلم في النهاية، اكتفى بقول: «حسنًا»، ثم طبع على شفتي قبلة حانية، ورغم محاولاتي تجاهلها، فإن الحزن قد طغى على مذاق شفتيه.

***

لم أدرِ ما إذا كنت حريصة، أو بالأحرى خائفة، ألا أفقد أعصابي في تلك اللحظة، ولكننا -على أي حال- تجاهلنا تأخر الساعة وذهبنا ليلتها إلى (ستورمهوند). قابل القرصان طلبنا بمرحه المعهود، ثم عدت مع (مال) إلى سطح السفينة لننتظر بجانب الصاري الثانوي. مرَّت بضع دقائق، وإذا

به يظهر، وتتبعه مصنعة شعرها مضفر، وتتثاءب كطفلةٍ استيقظت من سباتها للتوِّ، لم يكن ثمة شيء مذهل في مظهرها، ولكن بما أن (ستورمهوند) قد أكد كونها أفضل مصنعة لديه، فعليَّ أن أصدقه. أبصرت (توليا) يتبعها، ومعه (تمار)، يحملان قنديلين ليساعداها في عملها.

ثمة أمرٌ شغل تفكيري وقتها، وهو أننا إذا نجونا مما هو آت، فسيعلم جميع من على متن سفينة (ڤولكڤولني) بوجود مضخم قوى آخر، وهذا ما لا أوده أن يحدث، ولكن ليس هناك ما قد يمنعه.

صفق (ستورمهوند) بيديه، غير ملاحظٍ هيئتنا الكئيبة تقريبًا، ثم قال: «عمتم مساءً جميعًا.. إنها حقًّا لليلة مثالية لكي نحدث ثقبًا في الكون، أليس كذلك؟».

سألت المصنعة: «أتعلمين ما عليك فعله؟».

طلبت مني أن ألتفت لأريها الجزء الخلفي من الطوق، الذي لم ألمح منه إلا قليلًا في المرايا من قبل، لكنني -رغم ذلك- متأكدة أن حالة سطحه أقرب إلى المثالية، كما أن أصابعي لم تكتشف أثرًا للحام طرفي الطوق، بعدما انتهى (ديڤيد) من عمله.

أعطيت مال القشور، الذي أعطى بدوره المصنعة واحدة.

قالت: «هل أنت متأكدة أنها فكرة جيدة؟».

وأخذت تعض شفتها بعنفٍ حتى ظننت أنها ستنزف.

أجابها (ستورمهوند) قائلًا: «بالطبع لا، ولكن كل إنجاز عظيم يبدأ بفكرة سيئة».

التقطت المصنعة القشرة من بين أصابع (مال)، ثم أسندتها إلى معصمي، ثم مدت يدها طالبةً غيرها، وانحنت لتبدأ عملها. أحسست في البدء بحرارة تنبعث من القشور، بينما أخذت حوافها تنبعج وتتشكل من جديد. التحمت القشور، واحدةً تلو الأخرى، حتى استحالت إلى صف يلتف حول

معصم يدي. كانت المصنعة تعمل في صمتٍ، تحرك يديها بعناية، بزوايا دقيقة للغاية، أما (توليا) و(تمار) فقد وقفا حاملين القنديلين بثباتٍ، وحتى وجهاهما قد خلوا من أي تعبيرات، حد أنهما باتا تمثالين جامدين بلا حياة، و(ستورمهوند) نفسه لم ينبس بكلمة.

في النهاية، وقبل أن يجتمع طرفي ذلك السوار، بقيت قشرة واحدة، ظل (مال) يحدق إليها وهي مستريحة في أحضان كفِّه.

- «مال...».

خاطبته ولكنه لم يجبني، فقط اكتفى بأن يلمس بإصبعه الموضع الفارغ المتبقي، حيث ينبض جلدي العاري، ثم أعطى المصنعة القشرة الباقية.

وانتهى الأمر في لحظات..

حدق (ستورمهوند) إلى سوار القشور المضيء، ثم قال بصوتٍ خفيض: «لقد ظننت أن نهاية العالم ستكون أكثر إثارة».

فقلت حينها: «تراجعوا!».

فتقهقر الجميع إلى حاجز السفينة.

- «وأنت أيضًا يا مال».

استجاب على مضض.. أبصرت (پريڤيت) واقفًا بجانب الدفة يتأملنا، انبعث أزيز الحبال من أعلانا، حيث وقف رجال المراقبة مادين رؤوسهم ليشاهدوا ما يحدث من أفضل زاوية. أخذت نفسًا عميقًا، كان عليَّ توخي الحذر، أريد الضوء لا الحرارة، مسحت كفيَّ المبتلتين في معطفي، ثم مددت ذراعي، وقبل أن أستدعي النور، وجدته يعدو باتجاهي، من كل حدبٍ وصوب، من ملايين النجوم، من شمس ما زال الأفق يحجبها، وبسرعةٍ لا يضاهيها شيء، وبعزم وحشٍ منتقم.

همست قائلة: «يا للهول!»، ثم اخترقني الضوء، مبددًا ظلام الليل، وانفجر في السماء لون ذهبي براق، وتلألأ سطح الماء كما الألماسة المهولة الحجم، عاكسًا شذرات بيضاء من ضوء الشمس. وعلى الرغم من محاولاتي المستميتة لكي لا تتفشى الحرارة، فإنها غمرت الهواء.

أغمضت عيني من شدة الضياء، محاولةً التركيز، واستعادة تحكمي. سمعت صوت (باغرا) الأجش يتردد في عقلي، طالبًا أن أثق بقوتي، ويقول: **إنها ليست حيوانًا سيمضي بعيدًا عندما يراك، أو عندما تشيرين إليه فيختار أن يأتي إليك أم لا.** لكن هذا لم يماثل أي شيء شعرت به من قبل.. كان حيوانًا بالفعل، مخلوقًا قُدَّ من نارٍ لا تنطفئ، يتنفس قوة الأيل، وغضب سوط البحر، اقتحم دواخلي ليسرق أنفاسي، ليحطمني، ليذيب أوصالي، حتى لا أعي شيئًا سواه.

داهمني شعور بأن هذه جرعة زائدة من الضوء، إلا أنني، في الوقت ذاته، لم أستطع التفكير سوى في احتياجي إلى المزيد.

سمعت صيحات آتية من مكانٍ بعيد، وشعرت بالحرارة تتغمدني، متلفحةً معطفي، وحارقةً شعري المتدلي على ذراعي، ولكنني لم ألق بالًا لكل ذلك.

- «ألينا!».

بدأت أمواج البحر تعتلج، فترنَّحت السفينة.

- «ألينا».

وفجأة، ألقى (مال) ذراعيه حولي، وجذبني إلى الخلف. أمسكني بحزمٍ ساحق، مغمضًا عينيه من شدة البريق. شممت رائحة ملح البحر، ممتزجةً بروائح العرق، وبرائحة (مال) المألوفة لي. وقتئذٍ تذكرت (كيرامزين)، بعشب مرجها، وقلب غابتها الأخضر الداكن. كما تذكرت أن لي ذراعين، ورجلين، وضلوعًا مضمومة، عندما أحكم (مال) قبضته عليَّ، كأنه يجمع

أجزائي التي تفرَّقت. أدركت أن لي شفتين، وأسنانًا، ولسانًا، وقلبًا، وأُضيف إليهم جزآن جديدان: طوق وقيد، من عظام وأنفاس، وعضلات ولحم، كلاهما صارا ملكي.

هل تحس الطيور بثقل أجنحتها؟

شهقت لما ارتدت إليَّ حواسي.. لم أكن مجبرة على الإمساك بقوتي؛ فقد تعلقت بي بالفعل، كأنني بيتها. أطلقت سراح الضوء بدفقة واحدة مركزة، فتهشم بريق السماء، مستعيدًا ظلامه، وانهالت علينا الشرارات كأنها ألعاب نارية تتلاشى، أو بتلات لامعة هربت من ألف زهرة.

انخفضت الحرارة، وهدأت الأمواج. جمعت آخر شرائط ضوء، وغزلتهم حتى صاروا ثوبًا براقًا أخذ ينبض فوق سطح السفينة. كان (ستورمهوند) والآخرون جالسين القرفصاء بجانب السور، فاغرين أفواههم من فرط الرهبة والخوف، أما (مال) فقد ضمني بعنفٍ إلى صدره، وأسند وجهه إلى شعري، وأنفاسه تهرب في دفقات عنيفة.

- «مال».

خاطبته بلطفٍ، فتمسك بي بقوة أكبر، فتأوَّهتُ وقلت: «إنني لا أستطيع التنفس يا مال».

فتح عينيه ببطء، ونظر إليَّ، أرخيت يدي فتلاشى الضوء كأن لم يكن، وحينها أراخ هو قبضته. أشعل (توليا) قنديلًا، فهمَّ الجميع بالوقوف، ونفَّض (ستورمهوند) التراب عن حواف معطفه الفيروزي المبهرج، أما المصنعة فبدت كأنها على وشك أن تمرض، وملامح التوأمين استعصى عليَّ قراءتها؛ فأعينهما الذهبية تأجَّج فيهما شيء لم أتبيَّنه.

قال (ستورمهوند) بصوتٍ مرتجفٍ بعض الشيء: «حسنًا، أيتها المستحضرة، أنت تعلمين بالتأكيد كيف تقيمين استعراضًا».

احتضنت يدي (مال) وجهي، وأخذ يقبِّل جبيني، وأنفي، وشفتي، وشعري، ويضمني إليه بقوة مجددًا، ثم سألني بنبرةٍ طغت عليها الخشونة: «هل أنت بخيرٍ؟».

- «أجل».

ولكن هذه كانت كذبة؛ فقد شعرت بالطوق يخنق حلقي، وبالقيد يضغط على معصم يدي، ولكن ذراعي الأخرى ظلَّت عارية، وأحسست كأني كيان غير مكتملٍ.

***

أيقظ (ستورمهوند) طاقمه، واستأنفنا رحلتنا وقت بزوغ الفجر، لم يعلم أحدٌ منَّا إلى أي مدى قد بلغ ضوئي، ولكن كانت ثمة احتمالية كبيرة أنني كشفت موقعنا، ولذا تعين علينا التحرك سريعًا.

أراد كل فرد من أفراد الطاقم أن يلقي نظرةً على مضخم القوى الجديد، بعضهم بدافع الفضول، والبعض الآخر ليتوخوا الحذر فيما بعد. لكن (مال) أثار قلقي؛ فقد ظل يراقبني باستمرار، كأنه يشعر أنني سأفقد السيطرة في أي لحظة، وعندما حلَّ الغسق، وأنزلني إلى الطابق السفلي، أوقفته في ركن أحد الممرات الضيقة وقلت: «أنا حقًّا.. بخيرٍ».

- «وكيف تعلمين ذلك؟».

- «هذا ما أشعر به وحسب».

- «لكنني رأيت ما لم تريه، كان الـ...».

- «لقد هرب الضوء مني.. ولم أدر ماذا كان عليَّ أن أتوقع».

هزَّ رأسه وقال: «بدوت غريبة يا ألينا.. كنت جميلة، وبشعة في الوقت ذاته».

- «هذا لن يحدث مجددًا؛ فالقيد صار جزءًا مني الآن، تمامًا مثل رئتي وقلبي».

- «قلبك...».

نبرته كانت خافتة.

أمسكت بيده، وضغطت صدري بها، ثم قلت: «قلبي ما زال كما هو يا مال.. ما زال ملكك».

رفعت يدي الأخرى، وألقيت موجة ضوءٍ خافتة على وجهه، فجفل.

لن يفهم أهمية قوتك، وإذا فهمها، سيهابك.

صرفت كلمات مستحضِر الظلام عن رأسي؛ فإن (مال) لديه كل الحق لأن يشعر بالخوف.

قلت له بلطفٍ: «دع هذا الأمر لي».

أغمض عينيه، ثم أدار وجهه ناحية الضوء المنبعث من يدي، ومال برأسه ليسند خده إلى كفي، فومض الضوء برقة على بشرته. وقفنا هكذا، صامتين، إلى أن قرع الجرس، معلنًا عن تغيير نوبة المراقبة.

الفصل السابع

لفحنا دفء الرياح، وتبدَّل لون المياه من الرمادي إلى الأزرق عندما توجهت بنا سفينة (ڤولكڤولني) جنوب شرق (راڤكا). حرص طاقم (ستورمهوند)، المكوَّن من البحارة ومرتزقة الغريشا، على الحفاظ على سرعة السفينة، وسريانها بسلاسة. وعلى الرغم من انتشار القصص عن قوة مضخم القوى الجديد، فإنهم لم يولوني اهتمامًا، وكذلك الحال مع (مال)، مع أنهم كانوا يراقبونني من حينٍ إلى آخر في أثناء ممارستي التدريبات في مؤخرة السفينة. توخيت الحذر، متحكمة في مقدار استحضاري للضوء، وتدربت وقت الظهيرة، حينما تعتلي الشمس عرش السماء، بحيث لا تكون ثمة احتمالية لأن تُكشف تمريناتي. أما (مال)، فلم يزل متوجسًا مني خيفة، ولكنني أخبرته بالحقيقة، وهي أن قوة سوط البحر صارت جزءًا مني الآن.. فتنتني، وزادتني قوة، ولم تخيفني.

سحرتني قصص مرتزقة الغريشا المختلفة، أحدهم حكى أن عمته خبأته بدلًا من أن تسلمه إلى مستحضر الظلام، وقال آخر إنه هرب من الجيش الثاني، وقصت أخرى حكاية اختبائها في سرداب عندما أتى مختبرو الغريشا لامتحانها.

قالت خالقة الأمواج تلك: «أخبرتهم أمي أنني مت بالحمى التي انتشرت في القرية خلال موسم الربيع الذي مضى، وقصَّ الجيران شعري، وعرضوني عليهم باعتبار أنني ابنهم الميت، الذي ليس من الغريشا، إلى أن بلغت من الكبر ما يكفي لأن أرحل».

أما (توليا) و(تمار)، فقد كانت أمهما من الغريشا، وخدمت على حدود (راڤكا) الجنوبية، حيث قابلت أباهما، أحد مرتزقة (شو هان).

قالت (تمار): «قبل مماتها، أجبرت أبي أن يعدها بعدم إلحاقنا بالجيش الثاني، ثم سافرنا إلى نوڤيبي زم في اليوم التالي».

معظمهم ذهبوا إلى (نوڤيبي زم)؛ فإلى جانب (راڤكا)، كانت لهم ملاذًا آمنًا، حيث لن تطلهم أيدي أطباء (شو هان) الذين سيجرون عليهم بعض الاختبارات، ولن يحرقهم صيادو السحرة الفييردانيون، لكنهم، في النهاية، حرصوا على عدم استعراض قواهم؛ فالغريشا عبيد ذوو قيمة عالية، وتجار (كيرتش) معدومو الضمير مشهورون بالبحث عنهم، ليبيعوهم في مزادات سرية. تلك جميعها تهديدات أدت إلى أن يلوذ معظم الغريشا بجيش (راڤكا) الثاني، لكن أولئك المنشقين فكروا بشكلٍ مختلف؛ فقد ارتأوا أنهم إذا قضوا حياتهم في الانتقال من مكانٍ إلى آخر، خشية أن يفضح أمرهم، فتلك ستكون حياةً أفضل من العيش في خدمة الملك ومستحضر الظلام.

وأنا متفهمة لذلك الاختيار.

مرَّت بضعة أيام طغت عليها الرتابة، ثم طلبت أنا و(مال) من (تمار) أن تعلِّمنا بعض الأساليب القتالية الزمنية[1]، آملين أن نتخلص من ملل الحياة على متن السفينة، والقلق البشع الذي انتابنا لاقتراب عودتنا إلى (راڤكا الغربية).

أكد طاقم (ستورمهوند) الشائعات المزعجة التي وصلتنا عندما كنا في (نوڤيبي زم)؛ لقد توقفت رحلات عبور الطية، وهرب اللاجئون من حدودها التي أخذت تتوسع باستمرارٍ، والجيش الأول بات على وشك القيام بثورة، أما الجيش الثاني فقد تداعى، لكن أكثر خبر أثار الرعب في نفسي كان يخص طائفة المستشار الروحاني، التي أطلق عليها اسم

(1) نسبة إلى (نوڤيي زم).

«طائفة قديسة الشمس»، التي بدأت تزداد انتشارًا. لم يعلم أحد كيف استطاع الفرار من القصر الكبير، بعد محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها مستحضر الظلام، لكنه ظهر في أحد الأديرة الكثيرة المنتشرة في أنحاء (راڤكا).

نشر المستشار الروحاني إشاعات عن موتي داخل الطية، وأنني بُعِثت بعد ذلك لأكون قديسة، أردتُ أن أضحك، لكنني عندما تصفحت كتاب «حياة القديسين» الملعون ليلًا، لم تصدر مني سوى قهقهة مكتومة. تذكرت رائحة المستشار الروحاني، خليط كريه من البخور والعفن، فتشبثت بمعطفي، لقد أعطاني ذلك الكتاب الأحمر، وكان عليَّ أن أتساءل عن السبب.

وعلى الرغم من الندوب والكدمات التي أصبت بها، فإن تدريباتي مع (تمار) ساعدتني على قمع قلقي الدائم.

تنضم الفتيات إلى جيش الملك، تمامًا مثل الصبية، فور بلوغهن سن التجنيد، ما يعني أنني رأيتُ الكثيرات منهن يقاتلن، وتدربت معهن، لكنني لم أرَ في حياتي من يقاتل مثل (تمار)، ذكرًا كان أم أنثى؛ فإنها خفيفة كالراقصات، وتملك حدسًا مميزًا يجعلها لا تخطئ في توقع حركة خصمها التالية. أما سلاحها الخاص فهو الفأس ثنائية الحدأة، تستخدم اثنين في آنٍ واحد ببراعة فائقة، أنصالهما تلمع كضوءٍ منعكس فوق سطح الماء. ولا تقل خطورتها أيضًا حينما تستخدم سيفًا، أو مسدسًا، أو حتى قبضتيها، وليس ثمة من يماثلها سوى (توليا)، وعندما يتبارزان، يقف الطاقم بأكمله ليشاهدونهما.

لا ينبس العملاق إلا بأقل كلمات، ويقضي معظم وقته في إنجاز أعمال السفينة، أو يطلق نظراته المخيفة في الجوار، ومن حين إلى آخر كان يساعدنا في التدريبات، على الرغم من أنه ليس معلمًا جيدًا.

- «أسرعي الحركة».

كان هذا فقط ما يخبرني به على الدوام.

لا شك أن (تمار) كانت معلمةً أفضل منه..

رآنا (ستورمهوند) ذات يوم نتدرب في مقدمة السفينة، ومنذ ذلك الحين صارت حصصي أقل خطرًا.

قال موبخًا (تمار): «أرجوكِ لا تتسببي في إتلاف الشحنة».

فانتبهت على الفور، وقالت بحدة: «حسنًا أيها القبطان».

قذفته بنظرة غيظ وقلت: «إنني لست طردًا عليك إيصاله يا ستورمهوند».

مرَّ أمامنا متبخترًا وهو يقول: «الأسوأ أن الطرود لا تتكلم، وتبقى حيث توضع».

ولكنه انضم إلينا حينما بدأت (تمار) تدريبات المبارزة بالسيوف العادية وثنائية النصل. كان (مال) يتحسَّن يوميًّا، على الرغم من أن (ستورمهوند) كان يفوز عليه بسهولة في كل مبارزة بينهما. لم يبد أن (مال) يكترث، ودائمًا ما يتقبَّل خسارته بالمزاح، وهو أمر لم أفهمه مطلقًا؛ فالهزيمة تثير غضبي، أما (مال) فتنتابه نوبة ضحك.

وذات يوم، بعد الظهيرة، وجَّهت سؤالًا إلى (تمار)، بينما كنا نشاهد (مال) و(ستورمهوند) يتبارزان بسيفين ثلمين، قائلة: «كيف تعلمت أنت وتوليا أن تستخدما قواكما؟».

وجدت مخرازًا فأعطتني إياه، وعندما لم نكن نتقاتل، كانت تعلمني عقد الحبال وتضفيرها.

ظلَّت توبِّخ (مال) قائلة: «ابق مرفقيك ثابتين، وكف عن الرفرفة بهما كما الدجاج!».

فأطلق ضحكة مدوية، حينها رفعت (تمار) حاجبها وقالت لي: «يبدو أن صديقك يستمتع بوقته».

هززت كتفي وقلت: «هذه طبيعته.. يمكنك أن تلقي به في مخيم مليء بقتلة فييردانيين، وسيخرج محمولًا على أكتافهم، إنه كما الورد النادر، يزدهر أينما يُزرع».

- «وماذا عنك؟».

- «إنني مثل الحشائش».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة مشرقة، فعلى الرغم من جمودها وبطشها في أثناء القتال، فإنها -خارج المعركة- تبتسم بسهولة.

قالت: «وأنا أحب الحشائش؛ فإنها تعيش طويلًا».

ثم اندفعت بعيدًا عن السور لتلملم الحبال.

وجدتني أبادلها الابتسام، ثم عدت سريعًا للعمل على الحبل الذي كنت أحاول ربطه.

أحببت مكوثي على متن سفينة (ستورمهوند)، أحببت (توليا) و(تمار) وبقية الطاقم، أحببت جلوسي معهم لنتناول وجباتنا، أحببت نغمة (پريڤيت) في أثناء الحديث، وأحببت أوقات الظهيرة التي كنا نتدرب فيها على التصويب، كنا نصنع صفوفًا من زجاجات النبيذ الفارغة لنصوب نحوها في مؤخرة السفينة، ونتراهن من دون شجار.

كان الأمر أشبه بوجودي في القصر الصغير، ولكن دون سياساته الفوضوية، ودون صراعات الحفاظ على المظهر العام. فأفراد الطاقم يتعاملون معًا بسلاسة وبساطة؛ فجميعهم شباب، وفقراء، وقضوا معظم حياتهم في الخفاء، وها قد وجدوا في هذه السفينة موطنًا لهم، واستقبلوني، و(مال) كذلك، دونما ضجيج.

لم أعلم ما ينتظرنا في (راڤكا الغربية)، ولكن داهمني شعور بأن العودة هي الجنون ذاته، وعلى متن الـ (ڤولكڤولني)، حيث الرياح تهب هبًّا، والأشرعة البيضاء ترسم خطوطًا معوجة في صدر السماء الزرقاء الرحب، كدت أنسى المستقبل، وأنسى خوفي.

وعليَّ الاعتراف بأن (ستورمهوند) يعجبني أيضًا؛ فعلى الرغم من غروره، وكثرة صراخه، واستخدامه لعشر كلمات ليوصل معلومة ما قد تغني عنها كلمتان فقط، فإن قيادته لطاقمه أبهرتني. لم أره يستخدم الحيل ذاتها التي يلجأ إليها مستحضر الظلام، بل كان الطاقم كله يتبعه دون تردد.. يحترمونه ولا يخافونه.

سألت (تمار): «ما اسم ستورمهوند الحقيقي؟ أعني اسمه الراڤكاني».

- «لست أدري».

- «ألم تسأليه من قبل؟».

- «ولِمَ أسأله أصلًا؟».

- «وأي منطقة في راڤكا هي مسقط رأسه؟».

نظرت إلى السماء ثم قالت: «أتريدين أن نتدرب قليلًا بالسيوف؟ لديَّ بعض الوقت حتى تبدأ نوبة المراقبة».

دائمًا ما تغير الموضوع لما أتحدث معها عن (ستورمهوند).

- «لا أظنه تنزَّل من السماء إلى هذه السفينة.. ألا يهمك معرفة أصوله؟».

أمسكت (تمار) بالسيوف وأعطتها (توليا)، الذي يعمل رئيسًا لحرس السفينة، ثم قالت: «لا أظن؛ فهو يتركنا نبحر، ونتقاتل».

أضاف (توليا): «ولا يجبرنا على ارتداء الحرير الأحمر، وينصب نفسه علينا زعيمًا».

ثم فتح الخزانة بالمفتاح المتدلي من عنقه.

ضحكت (تمار) وقالت: «زعيم مثير للشفقة».

فقال (توليا) متذمرًا: «أي شيء سيكون أفضل من اتباع أوامر شخص متعجرف يرتدي زيًّا أسود!».

قلت: «ولكنك تتبع أوامر ستورمهوند».

- «فقط عندما يريد ذلك».

انتفضت فجأة، فقد وجدت (ستورمهوند) واقفًا خلفي.

قال: «حاولي أن توجهي أوامر إلى هذا الثور، وترقبي ما سيحدث».

نخرت (تمار)، وأخذت تساعد (توليا) في تخزين الأسلحة.

مال (ستورمهوند) نحوي وقال بصوتٍ خفيض: «إذا أردت معرفة شيء عني، وجهي إليَّ السؤال مباشرة».

قلت مدافعة عن نفسي: «إنني كنت أتساءل فقط عن موطنك الأصلي.. هذا كل ما في الأمر».

- «من أين أنت؟».

- «كيرامزين.. وأنت تعلم بهذا».

- «أقصد أين ولدت؟».

ومضت بعض الذكريات المعتمة في عقلي: طبق مسطح عليه بنجر مطبوخ، كان ينزلق من أصابعي بعدما يلطخها ببقعٍ حمراء، ورائحة عصيدة البيض، وجلوسي فوق كتف أحدهم، ربما يكون والدي، في أثناء مشيه في طريق مترب. كنا نوصم بخيانة الدوق العطوف، في (كيرامزين)، إذا ذكرنا أسماء آبائنا، وكانوا يعتبرون هذا إنكارًا للجميل، كما علمنا ألا نتحدث عن حياتنا السابقة، قبل وصولنا العزبة، حتى تلاشت معظم ذكرياتنا.

قلت مخاطبة (ستورمهوند): «يمكنك القول بأنني ولدت في اللامكان؛ فقريتي صغيرة جدًّا حد أنها لا تملك اسمًا، والآن، ماذا عنك؟ من أين أتيت؟».

افترَّ ثغره بابتسامةٍ عريضة، فراودني الشعور ذاته من جديد، بأن ثمة شيئًا غريبًا في ملامحه.

غمز لي وهو يقول: «كانت أمي الصدفة، وأنا اللؤلؤة».

ثم مضى بعيدًا، وظل يصفر بنغماتٍ ناشزة.

***

مرَّت ليلتان، وفي الليلة الثالثة قدمت إليَّ (تمار)، ومالت إلى مضجعي حتى كساني ظلها، وأخذت تهز كتفي السليم.

- «حان وقت الذهاب».

قلت بنبرةٍ يسيطر عليها النعاس: «الآن؟ كم الساعة؟».

- «سيدق الجرس الثالث[1]».

- «صباحًا؟».

تثاءبت ثم نهضت، وألقيت رجلي خارج سريري الشبكي، وسألتها: «أين نحن؟».

- «على بُعد خمسة عشر ميلًا من ساحل راڤكا الغربية، هيا أسرعي؛ فستورمهوند ينتظرنا».

كانت ترتدي زيها، وحقيبتها القماشية الصغيرة تتدلى من بين كتفيها، لم أملك أغراضًا لأجمعها، فهممت بارتداء حذائي، وتحسست جيب معطفي الداخلي لأتأكد من وجود الكتاب الأحمر، ثم تبعتها إلى الخارج.

على سطح السفينة وجدت (مال) واقفًا بجوار السور الأيمن، واجتمع من حوله نفر من الطاقم. أصابتني الحيرة حينما رأيت (پريڤيت) يرتدي معطف (ستورمهوند) الفيروزي المبهرج، ولولا أنه لم يكن يعطي أوامر لظننت أنه (ستورمهوند). كان المعطف واسعًا، وياقته مرفوعة، وأبصرت على رأسه قبعة من الصوف، أخفضها إلى أذنيه قليلًا.

عصفت ريح باردة، وتلألأت نجوم السماء، وهلال داهم الأفق كنصل منجل، حتى كاد يقتلع منه جزءًا. بتُّ أراقب الأمواج التي تخللها الضوء، وأنصت إلى تنهيدات البحر الثابتة، ولكنني لم أرَ اليابس بعد.

فرك (مال) ذراعي محاولًا تدفئتي، فسألته: «ماذا يحدث؟».

---

(1) منذ بداية نوبة المراقبة، يقرع جرس كل نصف ساعة.

رد بنبرةٍ حذرة: «سنذهب إلى الشاطئ».

- «في منتصف الليل؟».

تدخل حينها (ستورمهوند) قائلًا: « سنرفع أعلام سفينتي بالقرب من ساحل فييردا.. يجب ألا يعلم مستحضر الظلام بأنك عدت إلى الأراضي الراڤكانية بعد».

ثم مال برأسه محدثًا (پريڤيت)، فجذبني (مال) إلى الجانب الأيسر من السفينة، وقال: «هل أنت مطمئنة لما سيحدث؟».

- «إطلاقًا».

فأسند يديه إلى كتفي وقال: «ثمة احتمالية كبيرة بأن يُلقى القبض عليَّ إذا عثروا علينا يا ألينا؛ ففي النهاية، أنت مستحضرة النور، أما فأنا فلست إلا جنديًّا عصى الأوامر».

- «تقصد أوامر مستحضر الظلام».

- «هذا لا يهم».

- «بل إنه مهم بالنسبة إليَّ.. كما أننا لن نُكشَف، سنذهب إلى راڤكا الغربية، وسنقابل مستحضرة النور، ثم سنقرر بعد ذلك ماذا نريد أن نفعل».

قرَّبني (مال) إليه ثم قال: «هل كنت دائمة جالبة المتاعب هكذا؟».

- «أفضِّل أن أصف نفسي بالمعقدة المبهجة».

انحنى ليقبِّلني، فشق صوت (ستورمهوند) ثنايا الظلام وهو يقول: «أيمكننا تأجيل التقبيل والعناق إلى وقتٍ لاحق؟ أريد أن نصل إلى اليابس قبل حلول الفجر».

تنهد (مال) وقال: «سألكمه عندما ينتهي كل شيء».

فقلت: «سأدعمك حينما تحاول».

ثم أمسك بيدي وعدنا إلى المجموعة.

أعطى (ستورمهوند) ظرفًا مختومًا بنقطة شمع زرقاء شاحبة إلى (پريڤيت)، ثم ربت على ظهره. في البدء، بدا أنه على وشك أن يذرف دموعًا، لكنني ظننت فيما بعد أنه انعكاس لضوء القمر في عينيه. انزلق (توليا)، ومعه (تمار)، من جانب السفينة، ممسكين بقوة بالسلم المثبت فيها. نظرت نحوهما، متوقعةً أن أرى قاربًا طويلًا عاديًا، فتفاجأت بمركبٍ صغير لم أرَ مثله في حياتي، يتهادى بجانب سفينة (ڤولكڤولني)، الجزآن الأيمن والأيسر معًا يشبهان زوجًا من الأحذية المفرغة، تجمعهما أرضية بها فجوة عظيمة في منتصفها.

تبعتهما مع (مال)، نزلنا بحذر على إحدى جانبي المركب المقوسين، ثم مضينا إلى منتصفه، حيث قمرة القيادة الخفيضة واقعة بين صاريين. قفز (ستورمهوند) بعدنا، ثم اعتلى منصة مرتفعة موضوعة خلف القمرة، واستقر خلف الدفة.

سألته: «ما هذا؟».

فأجاب: «اسميته قارب «الطنان»، ولكنني أفكر أن أطلق عليه «طائر النار»».

نظر في جدولٍ ما لم أتبين مكانه بالتحديد، أخذت نفسًا عميقًا، فوجدته يتبسم ويصيح قائلًا: «اقطعوا المرساة والوثاق!».

هم كلٌّ من (تمار) و(توليا) بفك عقد الوثاق الذي ربطنا بسفينة (ڤولكڤولني)، رأيت حبل المرساة يتلوى كثعبانٍ حيٍ في مؤخرة قارب «الطنان»، ثم انزلق طرفه إلى البحر بهدوء. ظننت أننا قد نحتاج إلى مرساة عندما نصل إلى وجهتنا، لكنني افترضت أن (ستورمهوند) يعرف عمله جيدًا.

صاح قائلًا: «لنبحر!».

رفرفت الأشرعة بقوة، على الرغم من أن صواري القارب كانت أقصر من صواري السفينة، وأشرعتها المستطيلة المزدوجة تطلبت فردين من الطاقم ليضبطا موقعها. حام نسيم خفيف حول قماش الأشرعة، فتحرك القارب بعيدًا عن السفينة. نظرت فوقي فلمحت (ستورمهوند) يشاهد السفينة تبتعد. لم أر وجهه، لكن شعورًا قويًا خالجني، يقنعني بأنه يودعها، وسرعان ما استعاد تركيزه وصاح: «فليبدأ مستحضرو الرياح عملهم!».

أبصرت أفرادًا من الغريشا يقفون في كل مكانٍ على سطح السفينة. رفعوا أذرعهم في آنٍ واحد، فلطمتنا الرياح، وضربت الأشرعة، فعدَّل (ستورمهوند) مسارنا، وأمر بزيادة السرعة، فاستجاب مستحضرو الرياح، وقفز قاربنا الصغير الغريب إلى الأمام.

- «خذوا هذه».

ألقى (ستورمهوند) زوجًا من النظارات الواقية في حجري، وفعل الأمر ذاته مع (مال)، كانت تشبه النظارات التي ارتداها المصنعون في ورشهم بالقصر الصغير. نظرت حولي فوجدت جميع أفراد الطاقم يرتدونها، وكذلك (ستورمهوند)، فارتديناها. مرَّت بضع ثوانٍ، ثم أمر القرصان بزيادة السرعة مرة أخرى، فشعرت حينها بالامتنان لنظاراتي الواقية.

اهتزَّت الأشرعة من فوقنا، فأحسست بنصال القلق تطعن بدني.

ترى، لماذا هو في عجلةٍ من أمره؟

أسرع القارب فوق الماء، تزلج هيكله الرفيع بين الأمواج بخفة حد أنه بدا كأنه لا يلمسها، تشبَّثت بمقعدي، وظلَّت معدتي تطفو مع كل هزة.

صاح (ستورمهوند): «حسنًا أيها المستحضرون، ارتفعوا بنا، وأنتم أيها البحارة، انقسموا إلى الجناحين، وانتظروا العد التنازلي».

استدرت نحو (مال) وقلت: «ماذا يقصد بـ «ارتفعوا بنا»؟».
صرخ (ستورمهوند): «خمسة!».
فبدأ أفراد الطاقم يتحركون عكس عقارب الساعة وهم يشدون الحبال.
- «أربعة!».
باعد مستحضرو الرياح أذرعهم أكثر.
- «ثلاثة!».
ارتفع اللوح الخشبي الذي يوصل الصاريين، فانزلق الشراعان طوليًّا.
- «اثنان!».
صاح البحارة: «هيا ارفعوه!».
فرفع المستحضرون أذرعهم إلى أعلى درجة.
- «واحد!».

تحركت الأشرعة إلى الداخل والخارج، وباتت تعلو فوق السطح مثل جناحين لا مثيل لهما. تقلصت معدتي، وحدث ما لم يكن ليرد على الخاطر: وحلق قارب «الطنان».

تمسكت بمقعدي، وأخذت أتمتم ببضعة أدعية تخللت أنفاسي المضطربة، ثم أغمضت عيني عندما صفعت الرياح وجهي.. وارتقينا إلى سماء الليل.

ظل (ستورمهوند) يضحك كالأبله، أما مستحضرو الرياح فقد باتوا يتقاذفون الصيحات ليتأكدوا من ثبات الارتفاع، أحسست أن قلبي سيثقب صدري ويهرب.

قلت في نفسي وقد تملَّك القلق مني: «بحقكم أيها القديسون، كيف حدث ذلك؟!».

علا صوت (مال) فوق هرير الرياح وهو يقول: «ألينا!».
- «ماذا؟»، لفظتها من بين شفتي المطبقتين بقوة.
- «افتحي عينيك؛ عليك أن تري هذا».

هززت رأسي بقوة.. لم أرد رؤية أي شيء مما يحدث.

انزلقت يد (مال) إلى يدي، وأمسكت بأصابعي المجمدة.

قال: «فقط حاولي».

أخذت نفسًا مرتعشًا ثم فتحت عيني، فوجدتنا محاطين بالنجوم، ومن فوقنا امتد القماش الأبيض كطرفي قوس يمسكه أحد الرماة. لم أستطع منع نفسي من النظر من فوق حافة قمرة القيادة.. كانت الرياح تزأر حتى كادت تصم آذاننا. ومن تحتنا، بعيدًا جدًّا، ترقرقت الأمواج المكسوة بضوء القمر كجلد ثعبانٍ لامح يزحف ببطءٍ شديد، وإذا سقطنا الآن، سنتحطم فوق ظهره.

هربت مني ضحكة فاترة، لا أعلم إن كانت من أثر البهجة أم الرعب، لقد كنا نطير! نعم نطير!

عصر (مال) يدي ثم أطلق صرخة فرحة، فصحت قائلة: «هذا مستحيل!».

حينها قال (ستورمهوند): «عندما يقول الناس على أمرٍ إنه مستحيل، فهم يقصدون -في الغالب- أنه غير محتمل».

تلألأ ضوء القمر على سطح نظارته الواقية، ومعطفه الكبير انتفخ من حوله، حتى بدا كرجلٍ فقد عقله تمامًا.

حاولت أن أتنفس، ظلَّت الرياح تهب بثباتٍ، بيد أن الطاقم والمستحضرين محافظون على تركيزهم، وهدوئهم أيضًا، وبدأت الغصة التي كانت مستقرة في حلقي تنزلق شيئًا فشيئًا، فتسللت الطمأنينة إلى نفسي.

صحت سائلةً (ستورمهوند): «من أين أتيت به؟».

فأجاب قائلًا: «أنا من صممته وبنيته، ولكن هذا لا يمنع أنني دمرت بعض النماذج المبدئية».

عادت الغصة تسد حلقي؛ فكلمة «دمرت» هي آخر كلمة أردت سماعها.

انحنى (مال) لينظر من فوق حافة القمرة، محاولًا تفحص الأسلحة الضخمة الموضوعة في مقدمة الهيكل.

قال: «تلك المدافع لها أكثر من فوهة».

- «وتغذى بالجاذبية، أي لا تستهلك وقتًا في إعادة التعبئة، وتطلق مائتي طلقة في الدقيقة الواحدة».

- «هذا...».

- «مستحيل؟ إن المشكلة الأساسية تكمن في ازدياد الحرارة، ولكن هذا النوع ليس سيئًا، لديَّ صانع أسلحة زمني يحاول إصلاح العيوب.. على الرغم من كونهم برابرة وأنذالًا، فإنهم يعلمون كيف يتعاملون مع الأسلحة، كما أن المقاعد تلتف حتى تستطيع إطلاق النار في جميع الزوايا».

صاح (مال) بحماسٍ: «وتطيح بأعدائك.. لو أن راڤكا كانت تمتلك أسطولًا كهذا...».

- «لحظيت بميزة كبيرة، أليس كذلك؟ ولكن هذا سيطلب أن يعمل الجيشان الأول والثاني معًا».

تذكرت ما قاله لي مستحضر الظلام منذ مدة طويلة: **إن عصر الغريشا شارف على الانتهاء.** وها قد حوَّل الطية إلى سلاحٍ له، ولكن ماذا لو باستطاعة رجل كـ (ستورمهوند) أن يحول طاقة الغريشا؟ نظرت حول سطح القارب، فوجدت البحارة والمستحضرين يعملون جنبًا إلى جنب، و(توليا) و(تمار) يجلسان خلف تلك الأسلحة المخيفة،

هذا ليس مستحيلًا.

أخذت أذكر نفسي: إنه قرصان.. وقد يعمل لمصلحة أي طرف إذا اندلعت حرب في أي لحظة، فأسلحته قد تنفع (راڤكا)، وقد يستخدمها أعداؤها أيضًا بكل سهولة.

انتشلني من أفكاري ضوء ساطع قادم من جهة اليسار، تحديدًا من منارة «خليج ألخم» العظيمة. لقد اقتربنا الآن، وإذا رفعت رقبتي إلى الأعلى قليلًا، سأرى أبراج ميناء (أوز كيرڤو) المتلألئة. لم يتوجه (ستورمهوند) مباشرة إلى هناك، بل آثر اتجاه الجنوب غربي، أعتقد أن القارب سيرسي بنا في مكانٍ ما بالقرب من الشاطئ، وكلما داهمني شعور اقترابنا، أحسست بالغثيان، ولهذا أبقيت عيني مغمضتين غير عابئة بما قد يقوله (مال).

وسرعان ما تلاشى ضوء المنارة، ترى أي مسافة ينتوي (ستورمهوند) أن يقطعها جنوبًا؟ لقد قال إنه يود الوصول إلى الساحل قبل حلول الفجر، الذي لم يتبق عليه سوى ساعة أو اثنتين. تضاربت أفكاري، وشرد ذهني مع النجوم التي تحيطنا، والسحاب الذي يندفع بطول السماء الشاسعة. ورياح الليل ظلَّت تصفع خدي، وتتخلل قماش معطفي الرفيع. نظرت إلى الأسفل وكتمت صرخة فزع؛ فلم يكن تحتنا ماء، بل يابسة صلبة لا تعرف الرحمة. تشبثت بكمِّ (مال)، وأشرت وقد تملَّكني الخوف نحو القرية في الأسفل، التي أضفى ضوء القمر عليها ظلالًا من الأسود والفضي.

صرخت مذعورة: «ماذا تفعل يا ستورمهوند؟».

فصاح (مال): «لقد قلت إنك ستأخذنا إلى أوز كيرڤو!».

- «بل قلت إنني سآخذكما لتقابلا عميلي».

صحتُ بغضبٍ: «انسَ أمر ذلك، أين سنهبط؟».

فقال: «لا تقلقا؛ ثمة بركة لطيفة صغيرة سنذهب إليها».

- «صغيرة إلى أي مدى؟».

رأيت (مال) يتسلق إلى خارج القمرة بوجهٍ ساخط، فأمرته حينها بالجلوس.

أخذ يقول: «يا لك من كاذب، سارق، و...».

فقال (ستورمهوند): «لو كنت مكانك، للزمت مقعدي، لا أظنك ستفضِّل التحرك كثيراً عندما نقتحم الطية».

تجمَّد (مال) في مكانه، وأخذ (ستورمهوند) يصفر النغمة الشاذة نفسها، إلى أن سرقتها الرياح.

قلت: «لا بد أنك تمزح».

- «كلا، على الرغم من أنها عادتي.. ثمة بندقية أسفل مقعدك يا أوريتسڤ، قد تحتاج إليها».

صاح (مال): «لا يمكنك أن تأخذ هذا القارب إلى الطية!».

- «ولِمَ لا؟ إننا نسافر مع الشخص الوحيد الذي في إمكانه أن يضمن لنا عبورًا آمنًا، على حد علمي».

أطبقت قبضتي على الهواء، واستحال خوفي إلى غضبٍ شديد، فقلت: «ربما سأدع الڤولكرا تحظى بك وبطاقمك كوجبة ليلية خفيفة!».

أبقى (ستورمهوند) يدًا على الدفة، ونظر في ساعته التي تحملها اليد الأخرى، ثم قال: «تقصدين فطورًا مبكرًا.. إننا تأخرنا عن موعدنا، كما أن الهبوط سيستغرق وقتًا، حتى وأنت معنا يا مستحضرة النور».

نظرت إلى (مال) الذي انعكس غضبه على وجهي.

ظلَّت المناظر من تحتنا تنبسط بسرعة مخيفة، قمت لألمح أي مشهد قد يدل على مكاننا.

- «الرحمة أيها القديسون».

من خلفنا كان العالم الحي، وضوء القمر، والنجوم.. وأمامنا اللاشيء.

إنه جادٌّ فيما قاله، وسيأخذنا بالفعل إلى الطية.

صاح (ستورمهوند): «فليتخذ الجميع مواقعهم على المدافع، وليبقَ كل مستحضر في مكانه».

صرخت حينها قائلة: «سأقتلك يا ستورمهوند! عُد بهذا القارب من حيث أتيت به الآن!».

- «كنت أود أن أطيع الأوامر، ولكن إذا أردت قتلي حقًّا، فسيتعين عليك الانتظار إلى أن نهبط، هل أنت مستعدة؟».

- «كلا!».

ثم مرَّت لحظة والتهمنا الظلام، لم يكن يشبه أي ليلٍ عهدناه من قبل؛ سواد عميق غريب أخذ يطبق قبضته الخانقة علينا.. وها قد دخلنا الطية.

الفصل الثامن

في اللحظة التي غرقنا فيها في لجج اللا بحر، علمت أن شيئًا ما قد تغير. ثبّتُّ قدميَّ على أرض السفينة، ثم رفعت يدي إلى الأعلى بسرعة، وقذفتُ هالة ذهبية ضخمة من ضوء الشمس حول قارب «الطنان». وعلى الرغم من غضبي من (ستورمهوند)، فإنني لن أدع سربًا من الفولكرا يقضي علينا، كي أثبت له مدى قوتي.

وبفضل قوة المضخمين، صرت أستحضر الضوء قبل حتى أن تجول الفكرة برأسي. اختبرت حواف السوار بحذرٍ، فلم أشعر بالارتباك الشديد الذي تملّك مني من قبل، ومع ذلك، كان ثمة شيء خاطئ؛ شعرت أن الطية مختلفة بشكلٍ ما، أخبرت نفسي أنها خيالات محض، لكن الظلام كان سميكًا حد أنني كدت أشعر به يمشي فوق جلدي، عاود جرح كتفي يؤلمني، أحسست به ينبض دونما توقف.

ذهبت إلى الطية مرتين من قبل، ودائمًا ما كان يخالجني شعور بأنني غريبة، أو ربما دخيلة ضعيفة اقتحمت عالمًا غريبًا خطيرًا يرفض وجودها. أما الآن، فقد أحسست أن الطية تمدد يدها إليَّ، كأنها ترحب بي، أعلم أن هذا ليس منطقيًّا؛ فالطية مكان ميت وفارغ، وليست كائنًا حيًّا.

تردد صوتٌ في رأسي يقول: «إنها تعرفني؛ فالشيء يستدعي ما يشابهه». أحسستُ بمدى سخافة أفكاري، فنفضتها عن رأسي ودفعت الضوء إلى الأعلى، حتى صار ينبض، باعثًا الدفء والطمأنينة في نفسي؛ إنني أنتمي إليه، لا إلى الظلام.

قال (مال) الذي كان واقفًا بجانبي: «إنهم قادمون.. أنصتي».

ترددتْ صرخة في أرجاء الطية، غير عابئة بهبوب الرياح، ثم علت رفرفة أجنحة الڤولكرا. لقد اشتمُّوا رائحة اللحم البشري، فعرفوا مكاننا بسرعة. ضربت أجنحتهم الهواء الذي يحيط دائرة الضوء التي خلقتها، دافعةً الظلام نحونا في موجات مضطربة. ولأن رحلات عبور الطية متوقفة منذ فترة، فإنهم قضوا وقتًا طويلًا من دون طعام، وجوعهم جعلهم وقحين.

فتحت ذراعي أكثر، كي تزداد قوة الضوء، محاولةً إبعادهم.

قال (ستورمهوند): «كلا، دعيهم يقتربون».

- «ماذا؟ ولم؟».

إن الڤولكرا حيوانات مفترسة، ولا يجب الاستخفاف بها إطلاقًا.

قال (ستورمهوند) رافعًا صوته كي يسمعه الجميع: «إنهم يودون اصطيادنا، ربما حان الوقت لأن نصيدهم نحن».

علت صيحات الطاقم، صيحات تعلن اشتعال الحرب، أتبعوها بنباحٍ كثير وعويلٍ.

أردف: «اسحبي الضوء إلى الخلف».

فقلت لـ (مال): «لقد فقد عقله، أخبره بذلك!».

تردد (مال) وقال: «في الواقع...».

سألته مرتابةً: «في الواقع ماذا؟ لا تنس أن أحد تلك الكائنات كاد يلتهمك من قبل!».

رفع كتفيه، وحام طيف ابتسامةٍ على شفتيه، ثم قال: «ربما لهذا أريد رؤية ما تستطيع تلك الأسلحة فعله».

هززت رأسي؛ لم يعجبني ما يحدث، مطلقًا.

قال (ستورمهوند) بحدة: «فقط للحظة، اسمحا لي بذلك».

يقول اسمحا لي بذلك كأنه يطلب قطعةً إضافية من كعكةٍ ما!

كان الطاقم في وضع الاستعداد، و(توليا) و(تمار) جلسا بظهرين منحنيين خلف سلاحيهما، يشبهان حشرتين لهما ظهران جلديان.

قلت: «حسنًا، ولكن لا تقل فيما بعد أنني لم أحذرك».

رفع (مال) بندقيته إلى كتفه.

فقلت: «ها نحن ذا...»، ثم لويت أصابعي، فانكمشت دائرة الضوء من حول السفينة، وصاحت الڤولكرا بحماسٍ.

زعق (ستورمهوند) آمرًا: «اسحبي الضوء كله».

ضغطت أسناني، ثم فعلت كما أمرت، فاكتست الطية بالظلام من جديدٍ.

سمعت خفقات أجنحة.. لقد اندفعت الڤولكرا باتجاهنا.

صاح (ستورمهوند): «الآن يا ألينا! اقذفي الضوء واسعًا!».

لم أستغرق وقتًا للتفكير، فقذفت في الهواء موجة ضوء وهاجة أرتنا الأهوال التي تحيط بنا، كأن شمس الظهيرة القاسية كانت تكسونا. انتشرت الڤولكرا في كل مكانٍ حولنا، معلقةً في الهواء حول السفينة، ككتلاتٍ رمادية مجنحة، أو أجسام ملتوية، مصبوغة بطيفٍ أبيض، لها أعين لا تبصر، وفكوك مزدحمة بالأسنان. لا يمكن لأحدٍ أن يغفل الشبه بينها وبين كائنات النيتشيڤويا، ومع ذلك فقد كانت أكثر فظاعة، وغرابة.

صاح (ستورمهوند) قائلًا: «أطلقوا النيران!».

فاندفعت الطلقات من أسلحة (توليا) و(تمار)، لم أسمع صوتًا كصوتها من قبل، رعد غاشم قادر على تهشيم الجماجم، يهز الهواء -وعظامي أيضًا- بعنفٍ.

كانت مذبحة بكل المقاييس؛ هبطت الڤولكرا من كل مكان في السماء، بصدورٍ منشقة، وأجنحة مبتورة. أزت الأعيرة النارية الفارغة فور اصطدامها بسطح السفينة، ورائحة البارود المحترق غمرت الهواء.

مائتا طلقة في الدقيقة الواحدة.. هذا ما يستطيع فعله الجيش الحديث.

لم يبدُ أن الوحوش على دراية بما يحدث، أخذت تتلوى وتشق الهواء، مدفوعة بنهمها إلى سفك الدماء، والجوع، والخوف، ينظر بعضها إلى بعض بأعينٍ يملؤها الارتباك، والرغبة في الهرب. أما صرخاتها... لقد أخبرتني (باغرا) من قبل أن أسلاف الڤولكرا كانوا من البشر، ويمكنني أن أقسم بأنني سمعت في صرخاتها أصواتًا بشرية.

تلاشت أصوات الطلقات النارية، تردد الرنين في أذني، نظرت إلى الأعلى فرأيت بقعَ دماء سوداء، وبعض الأشلاء، عالقة بالأشرعة. انفجر من جبيني نهر من العرق البارد حد أنني ظننتني أصبت بعلةٍ ما. استمر الهدوء بضع لحظات، ثم أرجع (توليا) رأسه إلى الوراء وأطلق صرخة انتصار، فانضم إليه باقي الطاقم يصيحون ويعوون، أردت أن أصرخ لأسكتهم جميعًا.

سأل أحد مستحضرو الرياح: «أتظن أننا سنستطيع جذب سرب آخر؟».

فرد (ستورمهوند): «ربما، ولكن علينا أن نتجه شرقًا؛ فالفجر اقترب، ولا أريد أن يكشف موقعنا».

قلت في نفسي: «أجل، فلنتجه شرقًا.. فلنخرج من هنا!».

ارتعشت يداي، وجرح كتفي ظل ينبض ويحترق، ترى، ماذا حدث لي؟

إنهم وحوش في إمكانهم تمزيقنا من دون تفكير، تلك حقيقة أعلمها، ومع ذلك فما زلت أسمع صراخهم.

قال (مال) فجأة: «ثمة المزيد منها.. أكثر مما رأينا».

فسأله (ستورمهوند): «وكيف عرفت؟».

فرد قائلًا: «إنني فقط أعرف ذلك».

بدا التوتر على (ستورمهوند).. كان من المستحيل ألا أقرأ ملامحه رغم ارتدائه نظاراتٍ واقية، وقبعة، ومعطفًا ياقته مرفوعة.

قال في النهاية: «أين؟».

فأجابه (مال): «جهة الشمال قليلًا، من هنا».

ثم أشار نحو الظلام، وحينها كدت أصفع يده. فإذا كان في إمكانه تعقب الڤولكرا، فهذا لا يعني بالضرورة أنه مجبر على فعل ذلك.

أمر (ستورمهوند) بتعديل مسار السفينة، فخفق قلبي. أخفض قارب «الطنان» أجنحته، والتفت، بينما أخذ (مال) يصيح بالاتجاهات، و(ستورمهوند) مستمر في تصحيح مسارنا. حاولت التركيز في بعث الضوء، وفي الحضور المطمئن لقوتي، متجاهلةً ذلك الشعور السيئ الذي أصاب دواخلي. انخفض (سورمهوند) بنا مجددًا، فلمع ضوئي فوق رمال الطية الشفافة، ولامس الهيكل المظلم لإحدى السفن الرملية المحطمة. اهتز كياني عندما اقتربنا أكثر، لقد شطرت السفينة نصفين، وأحد الصواري كذلك، كما رأيت بقايا ثلاثة أشرعة سوداء، لقد قادنا (مال) إلى حطام سفينة مستحضر الظلام.

ثم تلاشى الهدوء الذي حاولت زجه في نفسي.

انخفض القارب أكثر، فطاف ظله فوق سطح السفينة المهشمة. داهمني شعور خافت بالطمأنينة، وعلى الرغم من عدم منطقية الأمر، فإنني توقعت رؤية جثث الغريشا الذين هجرتهم، مسطحة على أرض السفينة، وهياكل السفراء الأجانب، ومبعوث الملك، مكومة في أحد الأركان، لكنهم بالطبع قد أطعموا للڤولكرا، وتناثرت عظامهم فوق أراضي الطية القاحلة.

مال القارب جهة اليمين، فاخترق الضوء أعماق هيكل السفينة السحيقة، وعلى صوت الصراخ.

صاح (مال): «الرحمة أيها القديسون!»، ثم رفع بندقيته إلى الأعلى.

كانت ثمة ثلاثة من الڤولكرا، يختبئون في باطن السفينة، أولونا ظهورهم، ورفعوا أجنحتهم إلى الأعلى، ولكن ما أثار خوفي ونفوري، كان ما حاولوا الاحتماء بأجسادهم منه: بحر من الأجسام الضئيلة الملتوية، التي لها

أذرع لامعة، وظهور شقتها أغشية شفافة لأجنحة بالكاد تشكلت. ارتفعت أصوات الأنين والصياح، وأخذ بعضهم يزحف فوق بعض، يحاولون الفرار من الضوء.

بيد أننا اكتشفنا عشًا..

ساد الصمت بين أفراد الطاقم، ولم يعد ثمة صراخ ولا عويل.

التفَّ (ستورمهوند) بنا مجددًا، ومال إلى الأسفل قليلًا، ثم صاح قائلًا: «توليا، تمار، جريناتكي!».

ثبّت التوأمان كرتين مغلّفتين بالحديد فوق حافة حاجز السفينة، حينها انتابتني نوبة ذعر أخرى. قلت في نفسي: «إنها كائنات الڤولكرا.. انظري إليها! يا لهم من وحوش!».

ثم صاح (ستورمهوند): «انتظروا إشارتي أيها المستحضرون! أشعلوا الفتائل! الآن اقذفوا بقوة!».

قذفت القنابل في اللحظة التي أعطى فيها (ستورمهوند) الإشارة، ثم أدار الدفة بحدة إلى اليمين. حينئذٍ رفع المستحضرون أذرعهم، فحلّق القارب صوب السماء. ساد الصمت ثانيةٍ واحدة، ثم دوى صوت انفجار عنيف من تحتنا، حد أن الموجة الحرارية الناتجة عنه صفعت السفينة بقوة.

زعق (ستورمهوند) قائلًا: «تأهبوا!».

ثم انعطفت السفينة بحدة، متأرجحةً مثل البندول أسفل أجنحتها الشراعية. حاوطني (مال) بذراعيه، وجعل من جسده درعًا لجسدي، بينما كنت أحاول الحفاظ على توازني، وعلى الضوء الذي ينبض من حولنا.

وأخيرًا، توقفت السفينة عن التأرجح، وأخذت تتحرك بنعومة، راسمة دائرة واسعة عاليًا فوق الحطام المحترق.

ظل جسدي يهتز بعنفٍ، وغمرت الهواء رائحة لحمٍ محترق، أحسست بأن رئتيَّ ملتهبتان، وكل نفسٍ يحرق صدري. عاد طاقم (ستورمهوند)

للعويل والنباح، ولكن هذه المرة انضم إليهم (مال)، رافعًا بندقيته في الهواء معلنًا عن انتصارنا. ولكن من بين كل هذا الهتاف، التقطت أذني صرخات الڤولكرا اليائسة.. صرخات بشرية لأمهات يرثين فراق صغارهن، أغمضت عيني كي لا أبقي يديَّ فوق أذني وينتهي بي الأمر بأن ألقي بنفسي على أرض السفينة.

همست إليهم قائلة: «كفى!»، فلم يسمعني أحد.

فأردفت بنبرةٍ حادة: «أرجوك يا مال...».

- «وها قد أصبحتِ قاتلة يا ألينا».

إنني أعرف تلك النبرة الباردة.. انفتحت عيني على الفور، فأبصرت مستحضِر الظلام واقفًا أمامي، بزيه الأسود الذي أخذ يموج فوق سطح قارب «الطنان»، شهقت وتراجعت إلى الخلف، محدقة إلى كل ما هو حولي بخوفٍ، ولكن لم يك ثمة من يراني؛ فجميعهم باتوا يصيحون وهم يراقبون ألسنة اللهب.

قال لي بلطفٍ: «لا تقلقي؛ ستعتادين ذلك بمرور الوقت، هيا، دعيني أريك شيئًا».

ثم سحب سكينًا من كمِّ زيه، وقبل أن تتسنى لي فرصة للصراخ، شق الهواء أمام وجهي، فرفعت يدي عاليًا لأدافع عن نفسي، وهربت صرخة من حلقي، وإذ بالضوء يتلاشى، والسفينة تنغمس في الظلام، خارت قواي فوقعت على ركبتي، مستعدة، ومستسلمةً، لطعنة فولاذ الغريشا المؤلمة.

ولكنها لم تأت..

ظل الجميع يصيحون في الظلام من حولي، وصرخ (ستورمهوند) مناديًا اسمي، وترددت صيحات إحدى الڤولكرا القريبة، القريبة جدًّا.

صرخ أحدهم، ثم مالت السفينة بحدة، ضرب أفراد الطاقم أرض السفينة بأرجلهم، محاولين الحفاظ على توازنهم.

- «ألينا!».

كان صوت (مال) هذه المرة.

أحسست به يلمسني في الظلام، فاستعدت حواسي قليلًا، وقذفت شلال ضوءٍ ساطع صوب السماء. عوت الڤولكرا التي كانت قد هبطت فوقنا، وعادت تختبئ في الظلال. رأيت أحد المستحضرين ينزف على أرض السفينة، ذراعه شبه مبتورة من مفصل كتفه، ومن فوقه رفرف شراع بلا فائدة، ومالت السفينة يمينًا بقوة، خاسرةً ارتفاعها بسرعة شديدة.

صاح (ستورمهوند) قائلًا: «ساعديه يا تمار!»، غير أنها كانت مستلقيةً بالفعل، مع (توليا)، على أرض السفينة، بجوار المستحضر الجريح.

أما عن المستحضرة الأخرى، فظلّت رافعةً يديها إلى الأعلى، وتصلّبت ملامح وجهها من فرط الإجهاد في أثناء محاولتها استدعاء تيار قوي يكفي لإبقائنا مرتفعين في الهواء. لم تكف السفينة عن التمايل والتأرجح، تمسك (ستورمهوند) بالدفة بقوة، وأضحى يقذف أوامره صوب البحارة المسؤولين عن الأشرعة.

سعرت كأن مطرقةً تضرب قلبي، نظرت حولي ذاهلةً، ذهني مشتت بين الخوف والقلق، لقد رأيت مستحضر الظلام.. أجل، لقد رأيته رأي العين.

سألني (مال) الواقف بجانبي: «هل أنت بخيرٍ؟ هل أصابك مكروه؟».

لم أقو على النظر في عينيه؛ كان جسدي يهتز بعنفٍ حد أنني ظننتني سأطير بعيدًا، كثفت جهودي لأبقي الضوء ساطعًا حولنا.

هتف (ستورمهوند) قائلًا: «هل جرحت؟».

فأجاب (مال): «فقط أخرجنا من هنا!».

فصاح (ستورمهوند): «هل هذا ما عليّ فعله حقًّا؟».

أخذت الڤولكرا تصرخ وتتلوى، ضاربة دائرة الضوء، قد يكونون وحوشًا، لكن ترى هل يعرفون ما هو الانتقام؟ ظل القارب يهتز ويتمايل، نظرت

إلى الأسفل فأبصرت رمالًا رمادية تسرع لتقابلنا.

وفجأة، انبثقنا من الظلام، مندفعين نحو آخر خيوط الطية السوداء، إلى أن كسانا ضوء الفجر الأزرق.

اهتزت الأرض بقوة من تحتنا، قاذفة في قلوبنا الرعب.

صاح (ستورمهوند) من جديد قائلًا: «فليختفِ الضوء!».

أخفضت يدي وأمسكت بحاجز قمرة القيادة بيأسٍ، رأيت امتدادًا طويلًا لإحدى الطرق، وأضواء بلدة تبرق من بعيد، وهناك، أسفل سلسلة من التلال الخفيضة، ثمة بركة زرقاء نحيلة، يتقافز ضوء الصباح على سطحها.

علا صوت (ستورمهوند) مرة أخرى وهو يقول: «أبعد قليلًا».

أطلقت المستحضرة صرخة إرهاق، ذراعاها ارتعشتا، فانخفضت الأشرعة، واستمر القارب في السقوط، مررنا فوق رؤوس الأشجار، وأخذت فروعها تخدش الهيكل.

صاح (ستورمهوند): «انبطحوا وتمسكوا جيدًا!».

فهبطنا أنا و(مال) على أرض قمرة القيادة، وأسندنا أذرعنا وأرجلنا إلى جانبيها، وتشبَّث أحدنا بيدي الآخر، وظلَّت السفينة الصغيرة تهتز وتتخبط.

قلت لـ (مال): «إننا لن ننجو بالتأكيد».

لم ينبس بكلمة، فقط اكتفى بعصر أصابعي بقوة.

صرخ (ستورمهوند) قائلًا: «استعدوا!».

وفي الثانية الأخيرة، ألقى بنفسه فوق أطرافنا المتشابكة، ثم قال: «يا له من مظهر لطيف»، قبل أن نصطدم بالأرض بقوةٍ كادت تهشم عظامنا. قذفت أنا و(مال) إلى مقدمة قمرة القيادة، رجَّت السفينة بعنفٍ، وبدأ هيكلها ينفرج، وأصوات الاصطدام تعلو، وإذا بنا نسبح فوق الماء. سمعت صوت انخلاعٍ مقبض، فأدركت أن جزءًا من الهيكل قد انفصل تمامًا، قفزنا على سطح الماء بقوة، وبمعجزةٍ ما، توقفنا.

حاولت الوقوف.. كنت مستلقيةً على ظهري، بجانب قمرة القيادة، وكان ثمة أحد يتنفس بصعوبة بالقرب مني، انقلبت على جنبي بحذرٍ شديد، رأسي تلقى ضربة قوية، وكفاي مجروحتان، لكنني لم أفقد طرفًا.

تدفق الماء إلى أرض قمرة القيادة، سمعت أصوات رش، وأناسًا بعضهم ينادي بعضًا.

- «مال؟».

حاولت لفظها عاليًا، ولكن لم يخرج من فمي سوى صرير مرتعش.

كان يجلس عن يساري في مكانٍ ما.. قال: «أنا بخيرٍ، علينا أن نخرج من هنا».

شخصت ببصري حولي، ولكن (ستورمهوند) لم يكن قريبًا.

زحفنا إلى خارج قمرة القيادة، وحينها بدأت السفينة المشطورة تميل، باعثةً القلق في نفوسنا، سمعنا صريرًا عاليًا، ثم انفك أحد الصواري، واصطدم بسطح البحيرة، منغمسًا بفعل ثقل أشرعته. ألقينا بأنفسنا في أحضان المياه، وجدفنا بأرجلنا بقوة، مقاومين بطش البحيرة التي عزمت على ابتلاعنا إلى جانب السفينة. أبصرت أحد أفراد الطاقم وقد التفت حوله حبال، غاص (مال) لكي ينقذه، وكدت أبكي من الارتياح عندما رأيتهما ينبثقان من سطح الماء من جديد.

رأيت (توليا) و(تمار) يسبحان بحرية، يتبعهما بعض أفراد الطاقم، أما المستحضرة الجريحة فقد ظلت ملتصقة بـ (توليا)، وسبح (ستورمهوند) خلفهم جاذبًا أسفل ذراعه بحارًا غائبًا عن الوعي.

ثم اتجهنا صوب الشاطئ.

ظللت أشعر بثقل أطرافي، المكسوة بثيابي المبللة، إلى أن وصلنا أخيرًا إلى منطقة ضحلة. دفعنا أنفسنا خارج المياه، محاولين تجنب عيدان البوص الزلقة، ثم ألقينا بأجسادنا فوق رمال الشاطئ اللامعة، الشاسعة. جلست

لاهثةً، أنصت إلى أصوات الصباح الباكر الغريبة، كعرير صراصير العشب، أو زقزقة عصافير الغابة، أو نقيق خفيض متقطع لضفدع. كان (توليا) يرعى مستحضرًا جريحًا، ينهي شفاء ذراعه، ويأمره بثني أصابعه ومرفقه، وأخيراً، وصل (ستورمهوند) إلى الشاطئ وأودع آخر البحارة في رعاية (تمار).

خاطبها قائلًا: «لقد انقطعت أنفاسه، ولم أشعر بنبضٍ أسفل أصابعي».

أجبرت نفسي على النهوض، فنهضت الشمس أيضًا من خلفي، مدفئةً ظهري، وكاسية مياه البركة، وحواف الأشجار، بصبغة ذهبية. ضغطت (تمار) بيديها صدر البحار، مستعينة بقوتها لتسحب الماء إلى خارج صدره، وتقذف الحياة في قلبه من جديد. مرَّت دقائق طويلة، وهو لا يزال مستلقيًا بلا حراكٍ فوق الرمال، ثم شهق فجأة، وانفتحت عيناه، وأخذ يذرف المياه فوق قميصه.

تنفست الصعداء؛ فها قد محي اسم ميت من قائمة الوفيات التي تؤنب ضميري.

ضغط فرد من الطاقم جنبه، محاولًا التأكد من عدم وجود ضلوع مكسورة، أما (مال) فقد نما جرح بشع على جبهته، لكن عددنا كان مكتملًا.. لقد نجونا.

عاد (ستورمهوند) إلى الماء من جديد، ثم وقف عندما وصل الماء إلى ركبتيه، متأملًا سطح البحيرة الناعم، ومعطفه يطفو من خلفه. ولولا المساحة المرتفعة من أرض الشاطئ، لاختفت كل العلامات التي تدل على أن قارب «الطنان» قد جاء إلى هنا.

التفتت المستحضرة التي لم يمسسها ضرّ نحوي، وصاحت قائلة: «ماذا حدث لنا للتوّ؟ إن كوفو كاد يقتل! جميعنا كنا على وشك خسارة حياتنا!».

- «لا أدري»، قلتها ثم أسندت رأسي إلى ركبتي.

لفَّ (مال) ذراعه حولي، لكنني لم أرد أن يطمأنني أحد، بل أردت شرحًا لما رأيته.

سألتني، وقد بدا عليها عدم التصديق: «ألا تدرين حقًّا؟».

- «أجل، لا أدري».

كررت قولي، متفاجئةً بدفقة الغضب التي صاحبت كلماتي.

أردفت: «لم أطلب اقتحام الطية، ولا مشاكسة الڤولكرا، لماذا لا تسألين قبطانك عما حدث؟».

- «إنها على حق».

قالها (ستورمهوند) وهو يخرج من الماء متجهًا صوبنا، خالعًا نظاراته الواقية المهشمة.

ثم أردف قائلًا: «كان عليَّ أن أحذرها كما يجب، وألا أطارد العش».

خالجني شعور بالغضب لاتفاقه معي، لكنه حينما نزع نظاراته وقبعته، استحال غضبي إلى اندهاشٍ محض، نهض (مال) واقفًا في لحظة، وقال بصوتٍ خفيض وحذر: «ما هذا؟!».

جلست مشلولة، طغى المظهر الغريب الماثل أمام عيني على ألمي وإرهاقي، لم أعِ ما رأيته، ولهذا سررت أن (مال) شاركني رؤيته؛ فبعد ما حدث في الطية، لم أعد أثق بنفسي.

تنهد (ستورمهوند)، وتحسس وجهه كأنه غريب عنه. فقدت ذقنه حافتها البارزة، والتوت أنفه قليلًا، فلم تعد كتلة مكسورة مثلما كانت في السابق، وتبدَّل لون شعره من الأحمر الداكن إلى الذهبي الغامق، وقصر إلى الطول العسكري، أما عيناه الغريبتان، المكسوتان بلونٍ أخضر موحل، فقد استحالتا إلى لونٍ بندقي جلي.

لقد بدا مختلفًا تمامًا، لكنه لم يزل (ستورمهوند).

ولم يزل وسيمًا.

قلتها في نفسي بامتعاضٍ.

لم يكن ثمة من يحدق إليه غيري، و(مال) أيضًا، أما بقية الطاقم فلم يبد على أحدهم أي أثر للدهشة.

قلت: «لا بد أن لديك خياطًا».

جفل (ستورمهوند).

قال (توليا) غاضبًا: «إنني لست خياطًا!».

فخاطبه (ستورمهوند) قائلًا: «كلا يا توليا، إن موهبتك مختلفة تمامًا؛ تتجلى في التشويه والقتل بالتحديد».

سألته: «ما الذي أجبرك على فعل هذا؟».

حاولت أن أعتاد ذلك الشعور المزعج بأن صوت (ستورمهوند) يخرج من فم شخص آخر.

- «كان يجب ألَّا يتعرَّف مستحضر الظلام على مظهري، على الرغم من أنه لم يرني منذ عامي الرابع عشر، لكنني لم أرِد المخاطرة».

صاح (مال) غاضبًا: «من أنت؟».

- «ذاك سؤال معقد».

قلت وقد نهضت سريعًا من مجلسي: «في الواقع هذا سؤال مباشر جدًّا، ويتطلَّب إجابة حقيقية، لكنك -على ما يبدو- لا تتفوَّه بالحقيقة إطلاقًا».

نفَّض الماء عن حذائه وقال: «بل يمكنني قول الحقيقة، ولكنني لست بارعًا في ذلك».

- «ستورمهوند!».

لفظها (مال) وقد تملكه الغضب، وتقدم نحوه، ثم أردف: «لديك عشر ثوانٍ بالضبط لتجيب عن السؤال، وإما سيتعيَّن على توليا أن يصنع لك وجهًا جديدًا كليًّا!».

انتفضت (تمار) واقفةً وقالت: «ثمة مَن يقترب».

صمتنا جميعًا لنستمع. قدمت الأصوات من الغابة التي تحيط البركة، كانت دقات حوافر، حفيف أوراق شجر، وقرقعة أغصان تكسر، رجال يتحركون نحونا من بين الشجر.

قال (ستورمهوند) متذمرًا: «كنت أعرف أننا سنُكشَف؛ لقد قضينا الكثير من الوقت داخل الطية»، ثم تنهد تنهيدةً متقطعة، وأضاف: «سفينة محطمة، وطاقم كالقنافذ الغارقة، هذا ليس ما خططت له».

أردت أن أعرف ما خطط له من البداية، ولكن لم يكن هناك وقت للسؤال.

افترقت الأشجار، وغزا الشاطئ بعض الرجال الذين يمتطون الأحصنة.. عشرة.. عشرون.. ثلاثون جنديًا من الجيش الأول.. إنهم رجال الملك المدججون بالسلاح، تُرى من أين قدموا؟

ظننت أنني لن أخاف من أي شيء بعد مذبحة الڤولكرا وتحطم السفينة، لكنني كنت مخطئة؛ فقد داهمني شعورٌ بالذعر فور تذكري ما قاله (مال) عن عقوبة الفرار من الخدمة العسكرية، تُرى هل سيأسروننا بتهمة الخيانة؟

تشنجت أصابعي.. لن أسمح بأن أُلقى في السجن مرة أخرى.

همس إليَّ القرصان قائلًا: «فلتهدئي أيتها المستحضرة، دعيني أتعامل مع الموقف».

- «هل لأنك تعاملت مع جميع المواقف السابقة بحكمة يا ستورمهوند؟».
- «بل من الحكمة ألا تناديني بهذا الاسم بعض الوقت».
- «لماذا؟».
- «لأنه ليس اسمي».

توقف الجنود أمامنا، نور الصباح يلمع فوق بنادقهم وسيوفهم، استلَّ قائد شاب سيفه، وقال: «باسم ملك رافكا، ألقوا بأسلحتكم».

تقدَّم (ستورمهوند) إلى الأمام، ووقف بين الأعداء والجرحى من طاقمه، ثم رفع يديه معلنًا استسلامه وقال: «إن أسلحتنا قابعة في قاع البركة.. نحن عزل».

ولأنني أعلم حيل (ستورمهوند) والتوأمين، لم أصدق ما قاله.

قال القائد بلهجةٍ آمرة: «اذكر اسمك وسبب تواجدك هنا».

خلع (ستورمهوند) معطفه المبلل ببطءٍ وأعطاه (توليا)، علت همهمات مقلقة بين صف الجنود. كان (ستورمهوند) يرتدي زي (راڤكا) العسكري. وعلى الرغم من أن جسده كان مبللًا بالكامل، فإنني تعرفت فورًا على زي جيش (راڤكا) الزيتوني، ولون أزراره النحاسي، والعقاب المزدوج الذهبي، الذي يشي بأنه من الضباط، تُرى أي حيلة يتبعها ذلك القرصان؟

اخترق رجلٌ صف الجنود، بدا أكبر منهم سنًّا، أخذ يجول بحصانه حول (ستورمهوند) كأنه يعلن رغبته في مواجهته، عرفته فور أن وقعت عيني عليه: إنه الكولونيل (رايڤسكي)، قائد معسكر (كريبيرسك)، ترى هل كنا قريبين من البلدة إلى هذه الدرجة؟ ألهذا أتى الجنود إلى هنا سريعًا؟

هتف الكولونيل آمرًا: «تكلم يا فتى! اذكر اسمك وسبب تواجدك هنا قبل أن آمر بأن يخلع عنك زيك هذا وأن تعلق في شجرة عالية!».

لم يبد أن (ستورمهوند) اكترث لما سمعه، وعندما تحدث كانت نبرته مختلفة عن أي وقتٍ سابق. قال: «أنا نيقولاي لانتسوڤ، قائد الكتيبة الثانية والعشرين، الجندي بجيش الملك، ودوق أودوڤا الأكبر، والابن الثاني لجلالة الملك ألكسندر الثالث، الملك الأكثر تبجيلًا على مر العصور، صاحب عرش العقاب المزدوج، طال عمره وحكمه».

انفتح فمي عن آخره، صفعت موجة الصدمة وجوه الجنود، وعلت قهقهات مكتومة من بين الصفوف. لم أدر كيف ظن ذلك المخبول أن ثمة مجالًا للمزاح، لكن (رايڤسكي) لم يسر على أي حال، بل قفز من فوق

حصانه، قاذفًا زمامه في يد أحد الجنود.

قال أخيرًا: «استمع إليَّ أيها الجرو الخبيث...»، ثم وضع يده على مقبض سيفه، واقترب من (ستورمهوند)، وقد رسمت خطوط ملامحه لوحة للغضب على وجهه.

أردف: «لقد خدم نيقولاي لانتسوف تحت قيادتي في الحدود الشمالية و...».

تلاشى صوته.. وقف أنفًا إلى أنف في مواجهة (ستورمهوند) الذي لم يرفرف له رمش. فغر الكولونيل فاه، ثم أغلقه، وتراجع إلى الخلف، متأملًا وجه (ستورمهوند). راقبت تعبيراته التي تغيرت من الحنق، إلى عدم التصديق، ثم ربما إلى الإدراك. وفجأة، ركع على ركبته وأحنى رأسه ناظرًا إلى الأرض، وقال: «سامحني يا سمو الأمير».

تبادل الجنود نظرات حيرة، رمقهم (ستورمهوند) بنظرة تحدٍّ باردة، روح القيادة تسيطر عليه، والصفوف بدأت ترتجف، وإذا بهم يترجلون، واحدًا تلو الآخر، ويركعون ويحنون رؤوسهم.

يا أيها القديسون...

قال (مال) بصوتٍ خفيض: «لا بد أنك تمزح!».

لقد اصطدت أيلًا سحريًا، ولبست قشور تنين الجليد المذبوح حول معصمي، ورأيت مدينة كاملة ابتلعها الظلام، لكن هذا كان أغرب شيء شهدته في حياتي، لا شك أن هذه حيلة من حيل (ستورمهوند)، وسنلقى جميعًا حتفنا بسببها.

حدقت إلى وجه القرصان، هل هذا ممكن؟ عقلي متوقف عن العمل؛ كنت متعبةً جدًّا، وتملَّك الخوف والذعر مني. فتشت في ذاكرتي عن المعلومات القليلة التي عرفتها عن ابني ملك (رافكا). لقد لمحت الابن الأكبر سريعًا في القصر الصغير، ولكن الأصغر لم يعد إلى البلاط منذ سنوات؛

فمن المفترض أنه كان مساعدًا لأحد صانعي الأسلحة، أو كان يدرس تشييد السفن، أو ربما كلاهما.

شعرت بدوار.

سوباتشكا، هكذا نعتت (جينيا) الأمير: **جروٌ**، كما قالت إنه **أصر أن ينضم إلى سلاح المشاة ليؤدي خدمته العسكرية.**

ستورمهوند، كلب العاصفة، ذئب الأمواج، لا يمكن أن يكون جروًا، مستحيل!

- «انهضوا!».

أمرهم (ستورمهوند)، أو أيًّا كان اسمه، وقد تبدَّلت وقفته.

نهض الجنود ووقفوا منتبهين.

هتف القرصان: «إنني لم أعد إلى وطني منذ وقتٍ طويلٍ، لكنني لم آتِ فارغ اليدين».

ثم تنحى جانبًا، وأشار نحوي بكلتا يديه، فالتفتت إليَّ جميع الوجوه، منتظرين، متحمسين.

- «يا إخوتي، لقد أعدت مسحضرة النور إلى راڤكا».

وحينها لم أستطع التحكم في نفسي، فانقضضت عليه ولكمت وجهه.

الفصل التاسع

قال (مال) غاضبًا: «إنك محظوظة لأنهم لم يطلقوا عليك النار».

ظل يمشي جيئةً وذهابًا، داخل خيمة ذات أثاثٍ بسيط. إنها إحدى الخيم التي بقيت في معسكر الغريشا بالقرب من (كريبيرسك). اجتث جناح مستحضر الظلام الأسود الحريري من فوق الأرض، ولم تتبق سوى رقعة واسعة من العشب الميت، تناثرت عليها مسامير ملتوية وكسور خشب كان يومًا أرضية لامعة.

اتخذت مجلسي خلف طاولة خشنة السطح، وبقيت مصوبة نظري نحو مدخل الخيمة، حيث وقف (توليا) و(تمار) ليحرسانا، أو ربما ليمنعانا من الهروب، لا أدري.

قلت: «لقد استحق الأمر ذلك، كما أن لا أحد سيطلق النار على مستحضرة النور».

- «لقد لكمت أميرًا للتوّ يا ألينا، أعتقد أن في إمكاننا إضافة جريمة خيانة أخرى إلى قائمتنا!»

هززت يدي فشعرت بألمٍ حادٍّ في مفاصلي. قلت: «أولًا، هل نحن متأكدون أنه أمير حقًّا؟ ثانيًا، إنكَ فقط مغتاظ».

- «بالطبع أشعر بالغيظ! فقد ظننت أنني من سيقوم بلكمه أولًا، ولكن هذا ليس ما يهم الآن».

تفشّت الفوضى بعد انفجاري في وجه (ستورمهوند). ظل يطلق الكثير من الكلمات في الهواء، وسيطر (توليا) بدوره على الحشد بعنفٍ شديد، وفي النهاية لم توضع في يدي الأغلال، ولم يحدث ما هو أسوأ.

اصطحبنا (ستورمهوند) إلى معسكر (كريبيرسك)، وقبل أن يتركنا في الخيمة قال بهدوء: «كل ما أطلبه منكما أن تبقيا هنا حتى أشرح لكما كل شيء، وإذا لم يعجبكما ما ستسمعانه، ستكون لكما حرية الذهاب».

قلت هازئةً: «هل الأمر بهذه البساطة؟».

- «ثقي بي».

- «في كل مرة تطلب مني الوثوق بك، تقل ثقتي بك!».

لكننا بقينا في النهاية، ولم ندر ماذا ستكون خطوتنا التالية. لم يقيدنا (ستورمهوند)، ولم يضع حراسة مشددة علينا، بل منحنا ثيابًا نظيفة جافة. وإذا أردنا الفرار، لكنا حاولنا المرور من بين (توليا) و(تمار)، ونعود إلى الطية. لم يبد أن أحدًا سيهتم بتتبعنا، وسنتمكن من الذهاب إلى أي مكان نريده غرب ساحل الطية. ولكن إلى أين سنذهب بعد ذلك؟ لقد تغير (ستورمهوند)، أما وضعنا فلم يتغير؛ لم نملك مالًا، ولا حلفاء، ولم يزل مستحضر الظلام يطاردنا.

كما أنني لا أود العودة إلى الطية، خصوصًا بعد ما جرى على متن قارب «الطنان».

قمعت ضحكة كئيبة بداخلي، فبما أن فكرة اللجوء للطية قد جالت بذهني، فهذا يعني أن الأمور تزداد سوءًا.

ثم دخل علينا خادم يحمل صحنًا كبيراً، وضع أمامنا قنينة ماء، وزجاجة كڤاس، وبعض الأكواب، وأطباقًا صغيرة من مقبلات الزاكوسكي، جميع حوافها مزينة بإطارٍ ذهبي، ومرسوم عليها العقاب المزدوج. دققت النظر في الطعام فرأيت سمك الرنكة يستريح فوق خبزٍ أسود، والبنجر يغوص في توابله، والبيض محشو البطن. لم يزر الطعام معدتينا منذ الليلة الماضية، منذ أن كنا على متن سفينة ڤولكڤولني، كما أن استخدامي لقوتي قد جعلني ألهث من الجوع، وعلى الرغم من ذلك، منعني توتري الشديد من الأكل.

قال (مال) عندما غادر الخادم الخيمة: «ماذا حدث لك هناك؟».

هززت يدي من جديد وأجبته: «فقدت أعصابي».

- «ليس هذا ما قصدته، ماذا حدث في الطية؟».

ظللت أحدق إلى الإناء الصغير المملوء بالزبد المخلوط بالأعشاب، ثم أمسكت به وأخذت أقلبه في يدي.

لقد رآه.

قلت بصوتٍ خفيض: «كنت فقط متعبة».

- «لقد استخدمت المزيد من قوتك عندما كنا نهرب من كائنات النيتشيڤويا، لكنك لم تصابي بأي إعياء، ترى هل هذا بسبب السوار؟».

- «بل إن السوار يزيد قوتي».

لامست كمي، تمامًا فوق موضع قشور سوط البحر. إنني أرتدي السوار منذ أسابيع، ولا أشعر بأن قواي قد تأثرت بالسلب، لكن ربما أنا لست على ما يرام.

تحسست بأصابعي مسارًا خفيًّا على سطح الطاولة وأنا أقول: «عندما كنا نحارب الڤولكرا، هل لاحظت اختلاف أصواتهم؟».

- «مختلفة من أي جانب؟».

- «أكثر... بشريةً».

عبس (مال) وقال: «كلا، كانت أصواتهم كما عهدناها.. وحوش تريد التهامنا»، ثم وضع يده فوق يدي وسألني: «ماذا حدث يا ألينا؟».

لقد رأيته.

- «كما أخبرتك، كنت متعبة وفقدت تركيزي».

تراجع إلى الوراء وقال: «إذن تودِّين الكذب عليَّ، تفضلي، لكنني لن أتظاهر بتصديقك».

- «ولِمَ لا؟»، قالها (ستورمهوند)، مقتحمًا الخيمة، ثم أردف: «إنها مجاملة معتادة».

نهضنا على الفور، متأهبين للقتال.

توقف (ستورمهوند) سريعًا، ورفع يديه معلنًا استسلامه. كان قد بدَّل زيه بزيٍّ جاف، وثمة كدمة بدأت تنمو على خده. سحب سيفه بحذر وعلقه على عمود بجانب مدخل الخيمة، ثم قال: «لقد قدمت فقط لأتحدث إليكما».

قال (مال) بحدة: «إذن تكلم.. من تكون، وأي حيلة تمارسها علينا؟».

- «أنا نيقولاي لانتسوف، وأرجوكما لا تطلبا مني أن أعيد ذكر ألقابي؛ فهذا مزعج للجميع، ولكن أهم لقب هو «الأمير»».

سألته: «وماذا عن «ستورمهوند»؟».

فرد: «إنني أيضًا ستورمهوند، قائد سفينة ڤولكڤولني، ومروض البحر الحقيقي».

- «مروض؟».

- «في الواقع، يبدو أنني قد أثرت ضيقكما على أقل تقدير».

هززت رأسي وقلت: «مستحيل».

فقال: «تقصدين أن هذا «غير محتمل»».

- «هذا ليس أنسب وقت للمزاح».

قال بنبرةٍ استرضائية: «أرجوكما اجلسا، إنني لا أعلم عنكما شيئًا أيضًا، ولكنني أفضِّل الجلوس في أثناء الحديث لأن قدرة الاستيعاب تزيد هكذا أكثر، أشك أن الأمر متعلق بالدورة الدموية، ولهذا الارتخاء مفضل، لكنني لا أعتقد أننا متفقون على هذا حتى الآن».

لم أحرك ساكنًا، واكتفى (مال) بعقد ذراعيه.

- «حسنًا إذن، سأجلس أنا. لم أكن أعلم أن لعب دور البطل العائد سيكون متعبًا إلى هذا الدرجة، وأنا متعب للغاية في الواقع».

ثم عبر إلى الطاولة، وصبَّ لنفسه كأسًا من الكفّاس، وجلس متنهدًا والبسمة ترتسم على وجهه، وحينما ارتشف من كأسه تلوَّت قسمات وجهه، وقال: «إنه لشراب فظيع، لم تتقبَّله معدتي أبدًا».

فقلت بانفعالٍ: «في إمكان جلالتك أن تطلب منهم أن يحضروا إليك البراندي، وبالطبع سيجلبوا لك كل ما تريده».

أشرق وجهه بابتسامة، وقال: «هذا حقيقي، بل في إمكاني أن أسبح في بحرٍ من البراندي إذا أردت».

ضرب (مال) الهواء بيديه وقد استشاط غضبه، ثم مضى إلى مدخل الخيمة ليلقي نظرة على المعسكر.

قلت: «لا تظن أننا سنصدق أيًّا مما تقول».

حرَّك (ستورمهوند) أصابعه ليستعرض خاتمه وقال: «لكنني أملك الخاتم الملكي».

نخرت وقلت: «ربما تكون قد سرقته من الأمير نيقولاي الحقيقي».

- «وماذا عن معرفة رايڤسكي بي، وخدمتي معه؟».

- «قد تكون سرقت وجه الأمير أيضًا!».

تنهد وقال: «عليكما أن تفهما أن المكان الوحيد الذي يمكنني الكشف عن هويتي فيه بأمان هو راڤكا. وليس هناك، من بين أفراد الطاقم، من يعرف حقيقتي سوى الذين أثق بهم تمام الثقة: توليا، وتمار، وپريڤيت، وبعض الإثيريالكي. أما البقية فـ ... حسنًا، إنهم رجال صالحون، لكنهم أيضًا قراصنة ومرتزقة».

- «أيعني هذا أنك خدعت طاقمك الخاص؟»

- «في البحار، سيكون نيقولاي لانتسوف أكثر قيمة كرهينة لا قبطان، وسيصعب أن أقود سفينة وأنا خائف على الدوام من أن يضرب أحد رأسي في ساعة مأخرة من الليل، ثم يساوم عليَّ مع أبي الملك!».

هززت رأسي وقلت: «كل ما قلته ليس منطقيًّا؛ فمن المفترض أن الأمير نيقولاي سافر إلى مكانٍ ما ليدرس بناء السفن أو...».

- «لقد عملت بالفعل مساعدًا لبناء سفن فييرداني، ولديَّ صانع أسلحة زمني، وأيضًا لديَّ مهندس مدني من مقاطعة بله في شو هان، كما كتبت الشعر لمدة قصيرة، ولكن جميع النتائج كانت... مزرية، ولكن هذه الأيام، يستغرق كوني ستورمهوند معظم تركيزي».

استكان (مال) على عمود الخيمة عاقدًا ذراعيه، ثم قال: «إذن، لقد قررت يومًا أن تطيح بحياتك الفارهة وتجرب أن تلعب دور القرصان؟».

- «قرصان ملكي.. كما أنني لا أسمي ذلك لعبًا؛ فقد كنت أعلم أنني سأقدم الكثير لرافكا كستورمهوند، بدلًا من الجلوس بكسلٍ في القصر».

سألته: «وماذا عن الملك والملكة؟ أي مكانٍ يظنانك فيه؟».

فأجاب: «في جامعة كتردام، إنه مكان لطيف ومريح للغاية، ثمة موظف يحضر حصص الفلسفة بالنيابة عني بينما نحن نتحدث الآن، وقد حظي بمبلغٍ هائل، والحق أنه يحصل على درجاتٍ لا بأس بها، ويجيب إذا ناداه أحدٌ بـ «نيقولاي»، ويشرب الكثير من الخمور، ولهذا لا يشك فيه أحد».

ترى أليست هناك نهاية لكل هذا؟

سألته: «ولماذا؟».

فجاء ردُّه: «لقد حاولت، حقيقةً، لكنني لم أقوَ يومًا على الجلوس بلا حراكٍ، حد أن مربيتي كاد تجن.. «مربياتي» جميعهن في الواقع -فقد كان هناك جيش منهن- على ما أذكر».

كان لا بد أن أسدد إليه لكمة أقوى.

قلت: «أقصد، لماذا ألَّفت مسرحية كهذه؟».

- «إنني الوريث الثاني لعرش راڤكا، كدت أهرب من أداء الخدمة العسكرية، ولا أظن أن والديَّ سيوافقان على اختطافي لقراصنة نوڤييي زم، أو اختراقي الحصارات الفييردانية، لكن ستورمهوند سيعجبهم بلا شكٍّ».

قال (مال) من موقعه عند المدخل: «حسنًا، إنك أمير، وقرصان، وأحمق، ماذا تريد منا؟».

ارتشف (ساورمهوند) بتردد من كأسه مرة أخرى، ثم هزَّ كتفيه، وقال: «مساعدتكما.. لقد تغيَّرت اللعبة، وتوسَّعت الطية، والجيش الأول على وشك التمرد. وعلى الرغم من فشل محاولة انقلاب مستحضر الظلام، فإنها هشَّمت الجيش الثاني، ما يعني أن راڤكا على شفا حفرة من الانهيار».

أحسست بغصة في حلقي.

قلت: «وهل يجب أن أصدق أنك ستصلح كل ذلك؟».

مال (ستورمهوند) إلى الأمام وقال: «هل قابلت أخي ڤاسيلي عندما كنتَ في القصر؟ إنه يهتم بالخيل والويسكي أكثر من شعبه، ولم يكن أبي مهتمًّا بحكم راڤكا سوى فترة عابرة، ويقال إنه لم يعد مهتمًّا على الإطلاق؛ إن المملكة تنهار، ويجب أن يجمع أحدٌ شتاتها قبل فوات الأوان».

- «لكن ڤاسيلي هو الوريث».

- «أعتقد أننا سنستطيع زحزحته من فوق العرش».

قلت بامتعاضٍ: «ألذلك استدرجتنا إلى هنا؟ كي تصير الملك؟».

- «بل لأن المستشار الروحاني قد جعل منك قديسة حية، وصار الشعب يحبك، لقد استدرجتك إلى هنا لأن قوتك هي طوق النجاة لراڤكا».

ضربت الطاولة بيدي وصرخت: «هل استدرجتني إلى هنا كي يحتفوا بعودتك مصطحبًا مستحضرة النور، ثم تستولي على عرش أخيك؟».

عاد (ستورمهوند) بجسده إلى الخلف وقال: «لن أعتذر عن كوني طموحًا، وهذا لا يغير حقيقة أنني أفضل شخص سيقوم بتلك المهمة».

- «بكل تأكيدٍ».

- «عودي إلى أوز ألتا معي».

- «لماذا؟ كي تعرضني أمام الجميع كأنني كبش فداء؟!».

- «أعلم أنك لا تثقين بي، والحق أنك لا تملكين سببًا لذلك، لكنني سأفي بالوعد الذي قلته لك عندما كنّا على متن الڤولكڤولني: اسمعي عرضي، وإذا لم يثِر اهتمامك، ستأخذكما سفن ستورمهوند إلى أي مكانٍ بالعالم، أظن أنك ستبقين هنا، وحينها سأمنحك شيئًا لن يعطيكي إياه أحدٌ غيري».

قال (مال) بصوتٍ خفيض: «يجب أن يكون شيئًا ثمينًا».

فقال (ستورمهوند): «في إمكاني منحك فرصة لتغيير راڤكا، لإعطاء شعبك أملًا».

فقلت باستهزاء: «حقًّا؟ أهذا كل ما في الأمر؟ وكيف سأفعل ذلك؟».

- «بأن تساعديني على توحيد الجيشين الأول والثاني.. وأن تصيري ملكتي».

وقبل أن يرمش جفني، كان (مال) قد أطاح بالطاولة جانبًا، وانقضَّ على (ستورمهوند)، رافعًا إياه في الهواء، ثم ضرب به عمود الخيمة، جفل (ستورمهوند) ولكنه لم يتحرك للمقاومة.

قال: «اهدأ؛ لا أريد أن يتلطخ زيي بالدماء. دعني أشرح...».

- «حاول أن تشرح ما تريده وقبضتي في فمك!».

انحنى (ستورمهوند)، وفي لمح البصر، انزلق من قبضة (مال)، ساحبًا سكينًا من أسفل كمِّه.

قال: «تراجع يا أورتسيڤ، إنني أكظم غيظي من أجلها، لكن في إمكاني أن أقطعك مثلما أقطع السمك».

فصاح (مال): «ولِمَ لا تحاول؟».

- «كفى!».

صرخت قاذفة دفقة ضوء قوية عمتهما، رفعا أيديهما في مقابل الضوء الذي شتَّتهما للحظات.

قلت: «ضع سلاحك في غمده يا ستورمهوند، وإلا ستكون أنت من سيقطع كالسمك، وأنت يا مال، فلتثبت مكانك».

انتظرت حتى أخفى (ستورمهوند) سلاحه، ثم تركت الضوء يتلاشى ببطءٍ. وضع (مال) يديه بجانب فخذيه، وقبضتاه ما زالتا منغلقتين. ظلَّا يرمقان بعضهما بنظرات غضب، على الرغم من أنهما كانا صديقين منذ ساعات قليلة، لكن (ستورمهوند) كان وقتها شخصًا مختلفًا تمامًا.

قال (ستورمهوند) بعدما هندم كمي زيه: «إنني لا أعرض عليها الزواج عن حب، أيها الأبله الحزين، إنه فقط تحالف سياسي، إذا أمعنت التفكير دقيقة، ستجد أن ذلك في مصلحة المملكة».

جلجلت ضحكة (مال) عاليًا، قال: «تقصد أن ذلك في مصلحتك أنت».

- «ألا يمكن أن يكون الأمران صحيحين؟ لقد خدمت في الجيش، ولديَّ خبرة في الأسلحة، وأعلم أن الجيش الأول سيتبعني، ربما أكون الوريث الثاني، لكن ثمة صلة دم تربط بيني وبين هذا العرش».

وخز (مال) وجه (ستورمهوند) بإصبعه، وقال: «لكن ليس ثمة ما يربطك بها!».

فقدت ملامح (ستورمهوند) بعض هدوئها، وقال: «ما الذي خطر على بالك أن يحدث؟ أظننت أنك ستستولي على إحدى أقوى الغريشا في هذا العالم كأنها فتاة فقيرة ضاجعتها في حظيرة؟ أتظن أن هذه نهاية الحكاية؟ إنني أحاول الحفاظ على مملكة على وشك السقوط، لا أسرق فتاتك المفضلة».

قلت بهدوءٍ: «كفى!».

استطرد (نيقولاي): «يمكنك أن تبقى في القصر، وتكون -ربما- قائد حرسها الشخصي، لن يكون ذلك الترتيب الأول من نوعه».

قفزت عضلة إلى فك (مال)، فقال: «إنك تثير غضبي».

لوَّح (ستورمهوند) بيده مبديًا عدم اكتراثه، ثم قال: «أعلم أنني وحش لئيم، ولكن هلا فكرت فيما قلته لك لحظة؟».

صرخ (مال) قائلًا: «لا أريد التفكير في شيء! وكذلك هي! ما تقوله لن يحدث بتاتًا».

قال (ستورمهوند) مصرًّا: «سيكون زواجًا صوريًّا»، ثم قذف قبالة (مال) ابتسامة ساخرة، كأنه لم يستطع قمعها، ثم أردف: «إلا فيما يتعلق بإنجاب ورثة».

اندفع (مال) نحوه، فتحسَّس (ستورمهوند) سكاكينه، ولأنني علمت ما سيجري، ألقيت بنفسي بينهما وصرخت: «توقفا! توقفا كلاكما! وكفى حديثًا عني كأني لست هنا!».

أطلق (مال) زئير إحباط، وبدأ يمشي جيئة وذهابًا داخل الخيمة، أما (ستورمهوند) فقد أمسك بكرسي كان قد أطيح به، وأجلس نفسه مرة أخرى، فاردًا رجليه ببطء كأنه يقدم عرضًا مسرحيًا، ثم صب لنفسه كأسًا أخرى من الكؤوس.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت: «يا جلالة الـ ...».

- «بل اسمي نيقولاي.. ولكنني معروف بقدرتي العظيمة على الرد على «عزيزي» أو «أيها الوسيم»».

استدار (مال) نحوه، ولكنني أسكتته بنظرة توسل.

قلت: «عليك أن تتوقف عما تقوله الآن يا نيقولاي، وإلا سأكسر أسنانك الأميرية هذه بنفسي».

تحسَّس (نيقولاي) كدمته الداكنة، ثم قال: «أعلم أنك تقدرين على ذلك».

فقلت بغلظة: «أجل، ولن أتزوجك».

زفر (مال)، وتراخى كتفاه اللتان كانتا متصلبتين، أزعجني ظنُّه أنني قد أقبل بعرض (نيقولاي).. ولكنني كنت أعلم أنه لن يعجبه ما أنا على وشك قوله: تمالكت نفسي وقلت: «ولكنني سأعود معك إلى أوز ألتا».

انتصب رأس (مال) وقال: «ألينا...».

فقاطعته: «لطالما قلنا إننا سنعود إلى راڤكا يا مال، وسنعثر على طريقة لمساعدتها، وإذا لم نفعل شيئًا، لن تكون ثمة راڤكا نعود إليها».

هزَّ رأسه، وحينها التفت إلى (نيقولاي) وتابعت: «سأعود معك إلى أوز ألتا، وسأحاول مساعدتك للحصول على العرش».

ثم تنفست بعمقٍ وأردفت: «ولكنني أريد الجيش الثاني».

عمَّ السكون في الخيمة.. نظر كلاهما إليَّ كأنني قد جننت، والحق أنني لم أشعر بأن عقلي سليم، ولكنني سئمت من التنقل عبر البحر الحقيقي، وحول نصف (راڤكا)، رفقة أناس يريدون استغلالي، واستغلال قوتي.

ضحك (نيقولاي) ضحكة متوترة، وقال: «إن الشعب يحبك يا ألينا.. ولكنني كنت أفكر في منحك لقبًا أكثر رمزية مـ...».

- «إنني لست رمزًا! لقد سئمت من لعب دور البيدق!».

قال (مال): «لا! هذا خطير جدًّا عليك، إننا بهذا سنرسم على ظهرك لوحة تصويب!».

فقلت: «ثمة لوحة تصويب مثبتة على ظهري بالفعل! ولن نكون أبدًا آمنين حتى يُهزَم مستحضر الظلام».

سألني (نيقولاي): «هل توليتِ القيادة يومًا؟».

لقد قدت مجموعة من رسامي الخرائط المبتدئين من قبل، لكنني لا أظن أن هذا ما كان يقصده.

اعترفت قائلة: «كلا».

فقال: «ليست لديك خبرة في ذلك، ولا سلف، ولا حق في المطالبة بالقيادة؛ لطالما اقتاد مستحضرو الظلام الجيش الثاني منذ تأسيسه».

لقد كان مستحضر ظلام واحدًا فقط، ولكن لم يكن ثمة وقت للشرح.

قلت: «لا العمر ولا النسب يهمان بالنسبة إلى الغريشا؛ فالقوة أهم شيء. إنني أول غريشا ترتدي مضخمي قوى، وأقوى غريشا حية في إمكانها التصدي لمستحضر الظلام وأعوانه من جنود الظلال؛ لا أحد في إمكانه القيام بما أستطيع فعله».

حاولت التحدث بثقة، إلا أنني لم أشعر بها، كل ما أعرفه أنني سئمت من العيش في خوف.. سئمت من الهرب. وإذا كان ثمة أي أمل في أن نعثر على طائر النار، فلا بد أن نجد إجابات لأسئلتنا.. وقد يكون القصر الصغير المكان الوحيد الذي تقبع فيه تلك الإجابات.

بقي ثلاثتنا صامتين للحظة طويلة.. ثم قال (نيقولاي): «حسنًا.. حسنًا».

أخذ ينقر سطح الطاولة بأصابعه، يفكر، ثم نهض ومد إليّ يده، قائلًا: «حسنًا أيتها المستحضرة، ساعديني على أن أكسب الشعب، وسيكون الغريشا طوع أمرك».

صحت قائلة: «حقًّا؟».

فضحك (نيقولاي) وقال: «إذا كنت تخططين لقيادة جيش، فعليك أن تتحدثي كالقادة، ما يعني أن الرد الأنسب هو: «كنت أعلم أنك سترجح كفة العقل»».

أمسكت بيده، كانت خشنة جدًّا، يد قرصان لا أمير، وتصافحنا.

قال: «أما عن أمر زواجنا...».

أفلتُّ يدي من يده وقلت: «لا تحاول؛ لقد قلت إنني سأذهب معك إلى أوز ألتا، فقط».

قال (مال) بهدوء: «وإلى أين سأذهب أنا؟».

كان يقف عاقدًا ذراعيه، يراقبنا بعينين زرقاوين ثابتتين، جبينه كان ملطخًا بالدماء من أثر تحطم قارب «الطنان»، بدا عليه التعب، وشرود الذهن.

قلت مترددة: «كنت... كنت أظن أنك ستأتي معي».

- «بأي صفة؟ كقائد حرسك الشخصي؟».

احمرَّ خداي.

تنحنح (نيقولاي) ثم قال: «كنت سأحب أن أعرف إلام ستنتهي تلك المحادثة، لكن لديَّ بعض الترتيبات التي عليَّ القيام بها، إلا إذا...».

- «اخرج من هنا».

قالها (مال) بلهجة أمر.

- «حسنًا إذن، سأترككما».

ثم همَّ بالمغادرة، متوقفًا فقط ليلتقط سيفه.

امتدَّ الصمت وتوسَّع ليعم الخيمة أكثر، إلى أن بدَّده (مال) قائلًا: «إلى أين سيأخذنا كل هذا يا ألينا؟ لقد حاربنا لنغادر ذلك المكان -عليه لعنة القديسين- وها نحن ذا نغرق في الوحل من جديدٍ!».

جلست فوق السرير الضيق، ممسكة رأسي بيدي، أحسست بإعياء شديد، وكل عظمة من عظام جسدي آلمتني.

قلت: «ماذا عليَّ أن أفعل؟ إن ما يحدث هنا، وما يحدث في رافكا، جزء منه بسببي».

- «هذا ليس صحيحًا».

ضحكت باستهزاءٍ، وقلت: «بل هو الصواب بعينه؛ لقد توسَّعت الطية بسببي، ولولا ما فعلته لصمدت نوفوكريبيرسك».

انحنى (مال) أمامي، واضعًا يديه على ركبتي، وقال: «حتى لو كان معك جيش الغريشا بأكمله، وآلاف من أسلحة ستورمهوند، لما استطعت إيقافه».

- «لكن إذا امتلكنا مضخم القوى الثالث...».

- «نحن لا نملكه!».

أمسكت قويًا بيديه وقلت: «سنملكه».

ظل مصوبًا نظره تجاهي وهو يقول: «هل فكرت من قبل -ولو للحظة- أنني قد أرفض؟».

استقر الخوف في جوفي.. إنه محق؛ فلم يرد على ذهني مطلقًا أن (مال) قد يرفض لي طلبًا. داهمني شعور بالخزي؛ لقد ضحى بكل شيء كي يكون معي، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه سعيد، ربما يكون قد نال كفايته من الخوف والقتال والشك.. ربما يكون قد نال كفايته مني.

- «لقد ظننت... أن كلينا يريد مساعدة راڤكا».

- «أهذا حقًّا ما أردناه؟».

وقف وأولاني ظهره، ابتلعت ريقي بصعوبة، محاولة الخلاص من الغصة التي سدت حلقي فجأة.

ثم سألته: «أيعني هذا أنك لن تذهب إلى أوز ألتا؟».

توقف عند مدخل الخيمة وقال: «لقد أردتِ ارتداء مضخم القوى الثاني، وها قد حصلت عليه، أتريدين الذهاب إلى أوز ألتا؟ حسنًا، سآتي معك، أتريدين الحصول على طائر النار؟ سأجد طريقة للوصول إليه، ولكن عندما ينتهي كل هذا يا ألينا، هل ستريدينني أن أبقى معك؟».

انتفضت واقفة وصحت: «بالطبع نعم يا مال! إن...».

لم ينتظر ليسمع أيًّا مما كنت سأقول؛ خرج من الخيمة إلى ضوء الشمس، ثم اختفى.

وضعت كفي على عيني، محاولة منع دموعي من الانسلال إلى خديَّ،

ترى ما الذي فعلته؟

إنني لست ملكة، ولا قديسة، وبالطبع لا أعلم كيف أقود جيشًا.

لمحت انعكاسي في مرآة الحلاقة المستقرة فوق المنضدة الصغيرة بجانب السرير. كشفت عن جرح كتفي.. تجلَّت الثقوب التي أحدثتها مخالب النيتشيڤويا، مجعدة ويغلب عليها السواد، لقد أخبرني مستحضر الظلام أنها لن تلتئم نهائيًّا.

ولكن أي جرحٍ هذا الذي لا تشفيه قوى الغريشا؟

إنه جرح أحدثه كائن ما كان يجب أن يُخلَق أصلًا!

لقد رأيته: وجه مستحضر الظلام الشاحب الجميل.. ورأيت شق السكين، نابضًا وحقيقيًّا.. تُرى ماذا حدث له داخل الطية؟

إن عودتي لـ (أوز ألتا)، وقيادتي للجيش الثاني، بمنزلة إعلان حرب، سيعرف مستحضر الظلام كيف يجدني، وعندما يستجمع القوة الكافية، سيأتي إليَّ، وسواء أكنَّا مستعدين أم لا، ليس لدينا خيار آخر إلا أن نتصدى له.

إنها لفكرة مخيفة، لكنها أدخلت بعض الراحة إلى نفسي، ويا لدهشة الأمر!

سأواجهه، وسينتهي كل شيء بطريقةٍ أو بأخرى.

الفصل العاشر

لم نغادر إلى (أوز ألتا) على الفور، بل قضينا الليالي الثلاث التالية في نقل البضائع إلى الجانب الآخر من الطية. تمركزنا في الجزء المتبقي من المعسكر الحربي في (كريبيرسك)، فمعظم القوات تراجعت عندما بدأت الطية في التوسع، وشُيِّد برج لمراقبة شواطئ اللابحر السوداء، وتبقى طاقم صغير للإشراف على المرفأ الجاف.

لم يكن ثمة أحد من الغريشا داخل المعسكر.. وبعد محاولة الانقلاب التي قام بها مستحضر الظلام، ودمار (نوڤوكريبيرسك)، طافت حول (راڤكا) روح معادية للغريشا، واستقرت خصيصًا في نفوس أفراد الجيش الأول. والحق أنني لم أتفاجأ؛ فثمة بلدة بأكملها قد تلاشت، وصار أهلها طعامًا للوحوش، وبالطبع لن تنسى (راڤكا) هذا عما قريب.. ولا أظنني أيضًا سأنسى.

فرَّ بعض الغريشا إلى (أوز ألتا) كي يلوذوا بالملك، وآخرون آثروا الاختباء، وهؤلاء الذين يظنهم (نيقولاي) اختاروا أن يحتموا بمستحضر الظلام. ساعدنا أتباع (نيقولاي) من مستحضري الرياح على الارتحال عبر الطية مرتين في اليوم الأول، ثم ثلاث مرات في اليوم التالي، وأخيرًا أربع مرات في اليوم الثالث. سافرت السفن الرملية إلى (راڤكا الغربية) فارغة، وعادت محملة بشحنات هائلة من البنادق زمنية[1] الصنع، وصناديق ذخيرة، وبعض البنادق متعددة الطلقات مثل تلك التي استخدمها (نيقولاي) على متن قارب «الطنان»، وبضع أطنان من السكر واليوردا، كل ذلك بفضل المهرب (ستورمهوند).

(1) نسبة إلى نوڤيي زم.

شاهدنا جنودًا طائشين يهجمون على شحنة تفرغ في المرفأ، أخذوا يصيحون باندهاشٍ من لمعان أسطح الأسلحة، حينها قال (مال): «هذه رشوة إذن».

فردَّ عليه (نيقولاي) مصححًا: «تقصد هدايا.. على كلٍّ، ستجد أسلحتي تعمل جيدًا، بغض النظر عن نواياي».

ثم التفت إليَّ، وقال: «أعتقد أننا يمكننا القيام برحلةٍ أخرى اليوم، ما رأيك؟».

أومأت برأسي، رغم أنني لم أرد ذلك.

فابتسم وربت على ظهري قائلًا: «انتظري الأوامر».

شعرت أن (مال) يراقبني بينما كنت أستدير لأرى ظلام الطية المتقلب، لم يتكرر ما حدث لنا على متن قارب «الطنان» مرة أخرى.. وبغض النظر عمَّا رأيته ذاك اليوم، سواء أكان حقيقيًّا أو هذيانًا، فإنه لم يحدث منذ ذلك الوقت، وعلى الرغم من هذا، فإنني قضيت كل لحظة داخل الطية في خوفٍ وترقب، محاولة إخفاء مدى خوفي.

أراد (نيقولاي) أن يستغل عبورنا في صيد الڤولكرا، ولكنني رفضت؛ أخبرته أنني ما زلت أشعر بالضعف، وأنني لست متأكدة من ثبات قوتي إلى الحد الذي يمكنني من توفير الأمان الكافي لنا. ولا ريب أن خوفي كان حقيقيًّا، ولكن كل ما ذكرته كان كذبًا؛ فإنني كنت أشعر بقوةٍ غير مسبوقة.. قوة تنساب مني كموجاتٍ نقية ونابضة، تشع بفضل تأثير الطوق والسوار، ولكنني لم أكن لأتحمَّل تلك الصرخات مجددًا، ولذلك حرصت أن أخلق قبة ضوء واسعة ومشعة، لتمشي السفن في كنفها، فابتعدت عنها الڤولكرا، رغم صرخاتها، وخفقات أجنحتها.

أتى (مال) معنا في جميع رحلات عبور الطية، وظل بجانبي متأهبًا ببندقيته، كنت أعلم أنه شعر بقلقي، لكنه لم يضغط عليَّ بطلب أي شرح

لحالتي، بل إنه، في الواقع، لم يتحدث إليَّ كثيراً منذ أن دار بيننا الجدال في الخيمة، خفت أنه حينما يقرر بدء حديثٍ معي ألا يعجبني كلامه، ولأنني لم أغيِّر رأيي بشأن العودة إلى (أوز ألتا)، كنت خائفة من أن يغير رأيه.

وفي الصباح الذي استعددنا فيه للرحيل إلى العاصمة، بحثت عنه بين الحشد، خوفًا من أن يكون قد قرر ألا يظهر، تمتمت بدعاء شكر وجيز عندما لمحته، مفرود الظهر فوق صهوة جواده، ينتظر الانضمام إلى صف الفرسان.

ارتحلنا قبل بزوغ الفجر، موكب من الأحصنة والعربات شقَّ طريقه خارج المعسكر إلى الطريق الواسع المعروف باسم الـ «ڤاي». كان (نيقولاي) قد جلب لي زي كفتا أزرق، ولكنه كان مدسوسًا بين الأمتعة، وريثما كان يحشد المزيد من الرجال لحراستي، وجدت نفسي جندية أخرى ضمن حاشية الأمير.

اعتلت الشمس الأفق، فراودني بصيصٌ من الأمل، على الرغم من شعوري بأن محاولتي لأخذ مكان مستحضر الظلام، ولم شمل الغريشا، وقيادة الجيش الثاني، أمر مستحيل. لكنني على الأقل أفعل شيئًا، بدلًا من أن أهرب منه، أو أنتظره ليقبض عليَّ. إنني أملك اثنين من مضخمات موروزوڤا، وأتجه الآن إلى مكان قد أعثر فيه على إجاباتٍ قد تقودني إلى المضخم الثالث.

وكان وجه (مال) عبوسًا، لكن عندما شاهدت النهار يبزغ فوق رؤوس الأشجار، أحسست أنني سأستطيع التخفيف عنه.

لم يتحسَّن مزاجي في أثناء رحلتنا إلى داخل (كريبيرسك)، مررنا من قبل بالمرفأ المتداعي حيث حدث الاصطدام، لكنني كنت مضطربة ومتذبذبة آنذاك، حد أنني لم ألحظ التغييرات التي طرأت على المكان، أما هذه المرة، لم أستطع غض طرفي عنها.

لم تكن (كريبيرسك) يومًا تلك البلدة الجميلة التي قد ترشح زيارتها لأحدٍ، ومع ذلك فقد رأيت أرصفتها تعج بالمسافرين، والتجار، وعمال الموانئ، ورجال الملك. كما كانت شوارعها المزدحمة ممتلئة بمحلات تطلق رحلات استكشافية إلى الطية، وحانات وبيوت دعارة يلوذ بها دائمًا جنود المعسكر، أما الآن، فقد عمَّ الهدوء شوارعها شبه الخالية، وأغلب المحلات والحانات أغلقت.

ثم أتتني الحقيقة سعيًا، حينما وصلنا إلى الكنيسة. أتذكر كيف كان مبناها نظيفًا، تعتليه قباب زرقاء لامعة، وها أنا ذا أرى جدرانه البيضاء مغطاة بالكتابات.. صفوف بعد صفوف من الأسماء المكتوبة بالطلاء الأحمر، الذي صار دمًا بعد جفافه. لمحت أكوامًا من الزهور الذابلة، ولوحات صغيرة، وشموع صلاة ذائبة، متناثرة على درجات السلم. كما رأيت زجاجات كڤاس، ولفافات حلوى متراكمة، وجثة دمية لطفلٍ ما.. جميعها هدايا للموتى.

جلتُ بنظري بين الأسماء:

ستيبان روشكن، 57 عامًا

أنيا سيرنكا، 13 عامًا

ميكا لاسكي، 45 عامًا

ريبيكا لاسكي، 44 عامًا

بيتر أوزيروڤ، 22 عامًا

مارينا كوسكا، 19

ڤالنتين يومكي، 72 عامًا

ساشا پنكن، 8 شهور

وتوالت الأسماء.

أحسستُ بأصابع باردة تحكم قبضتها على قلبي، فتشبثت بلجام فرسي، داهمتني الذكريات من دون سابق إنذار: أم تركض حاملة صغيرها، رجل يتعثَّر فيتلفح الظلام جسده الصارخ، عجوز خائفة يبتلعها حشد من المذعورين.. لقد رأيت كل هذا... وكل هذا بسببي.

هؤلاء كانوا أهل (نوفوكريبيرسك).. المدينة المقابلة لـ (كريبيرسك)، التي تقع على الجانب الآخر من الطية.. مدينة بها أقرباء، وأصدقاء، وشركاء عمل، وأناس عملوا بالمرفأ وقادوا السفن الرملية، منهم من نجوا أكثر من مرة في أثناء عبور الطية جيئة وذهابًا، أولئك الناس عاشوا على حافة الخوف، ظنًّا منهم أنهم آمنون في بيوتهم، وشوارعهم.

لقد ماتوا جميعًا الآن، لأنني أخفقت في إيقاف مستحضِر الظلام.

أوقف (مال) حصانه بجانبي، وقال بلطفٍ: «هيا بنا يا ألينا».

هززت رأسي.. أردت أن أتذكر كل شيء:

تاشا ستول.. أندري بازن.. شورا ريتشينكو.

جميعهم ضحايا مستحضر الظلام..

ترى هل سكنوا مناماته مثلما فعلوا معي؟

قلت لـ (مال) بغلظة: «علينا أن نوقفه عند حدِّه يا مال.. يجب أن نجد طريقة إلى ذلك».

لم أدر أي ردٍّ كان من المفترض أن أنتظره منه، لكنه آثر الصمت على أي حال، أظنه لم يرد أن يعدني بأي شيء آخر.

في النهاية مشى بحصانه، لكنني أجبرت نفسي على قراءة كل اسم أمامي، حينها فقط استدرت بحصاني ومضيت به إلى الشارع المهجور.

***

عندما ابتعدنا أكثر عن الطية، لاحظت أن (كريبيرسك) قد انتعشت قليلًا، فُتِحت بعض المحلات، وأخذ التجار يصيحون ويروجون بضاعتهم، على امتداد طريق ڤاي المعروف باسم «طريق الباعة المتجولين»، اصطفت طاولات متهالكة على طول الطريق، أسطحها مغطاة بأقمشة ملونة لامعة، ووضعت عليها بضائع شتى: كالأحذية، ووشاحات الصلاة، والألعاب الخشبية، والسكاكين رديئة الصنع التي لها أغماد يدوية، كما رأيت بضع أحجار، وعظام داجن، متناثرة على كثير من الطاولات.

صاح الباعة: «لدينا عظام حقيقية! لدينا عظام حية!».

ملت بجسدي فوق رأس جوادي لأدقق النظر، فيما سمعت عجوزًا ينادي: «ألينا!».

نظرت إليه مذهولةً.. ترى هل عرفني حقًّا؟

وفجأة وجدت (نيقولاي) بجانبي.. كان قد اقترب بحصانه من حصاني، وأمسك بالزمام، وجذبه بعيدًا عن الطاولة. ثم قال للعجوز: «كلا، شكرًا لك»، الذي بدوره صاح: «ألينا.. عظام حقيقية، ألينا!».

قلت لـ (نيقولاي): «انتظر!»، واستدرت فوق سرجي، محاولة النظر في وجه الرجل عن قربٍ، كان يرتب البضائع التي فوق الطاولة، بدا أنه فقد اهتمامه بنا حينما أدرك أننا لن نشتري منه شيئًا.

قلت لـ (نيقولاي) بإصرارٍ: «انتظر! إنه يعرفني!».

فردَّ قائلًا: «كلا».

صحت غاضبة وأنا أجذب الزمام من بين يديه مجددًا: «لقد نطق اسمي!».

فقال: «بل إنه كان يحاول أن يبيع لك رفاتًا.. كعظام الأصابع مثلًا.. عظام القديسة ألينا الحقيقية».

سرت موجة بردٍ قارسٍ في عظامي حتى تجمدت.. وحصاني الغافل أكمل مُضيَّه بثباتٍ.

- «عظام القديسة ألينا الحقيقية»، كررت قوله بذهنٍ أصابه الشلل.

التفت (نيقولاي) بحذرٍ مردفًا: «انتشرت شائعات أنك مت في الطية، فبدأ الناس يبيعون أجزاءً منك في كل أنحاء رافكا، بما في ذلك رافكا الغربية، منذ عدة أشهر، لقد أضحيتِ تميمة حظهم».

- «هل من المفترض أن هذه أصابعي؟».

- «مفاصلك، وأصابع قدميك، وكسور من ضلعك».

صفعتني الصدمة.. فاستدرت باحثة عن (مال)؛ أردت وقتها أن أرى شيئًا مألوفًا لي.

قال (نيقولاي) مستطردًا: «بالطبع لو كانت كل هذه أصابع قدميك، لكنت امرأة بمائة إصبع! ولكن للدجل قوة خاصة..».

- «وكذلك الإيمان..»، قال صوتٌ انبعث من خلفي.

استدرت لأتفاجأ بـ (توليا) ممتطيًا حصانه الأسود الضخم، وعلى وجهه العريض ملامح صارمة.

لقد فاض بي الكيل، وروح التفاؤل التي تلبَّستني منذ ساعة مضت فارقتني، شعرت كأن السماء تطبق عليَّ.. تنغلق بإحكامٍ كالمصيدة. ركلت حصاني ليسرع قليلًا.. لا أذكر أنني كنت يومًا متمرسة في ركوب الخيل، ولكنني الآن تمسكت باللجام جيدًا، ولم أتوقف إلا بعدما فارقت (كريبيرسك) بمسافةٍ طويلة، وفارقتني طقطقات العظام.

***

في تلك الليلة، أقمنا في نزل بقرية (ڤيرنوست) الصغيرة، حيث قابلنا مجموعة من جنود الجيش الأول المدججين بالسلاح، علمت لاحقًا أن كثيرًا منهم كانوا ينتمون إلى الفرقة الثانية والعشرين، التي خدم بها (نيقولاي)،

ثم قادها في حملة الشمال؛ من الواضح أن الأمير أراد أن يحيط نفسه بأصدقائه قبل دخول (أوز ألتا)، ولا يسعني لومه على ذلك.

بدا أنه مستريحٌ في وجودهم.. ومرة أخرى رأيت سلوكه يتغيَّر بسلاسة، من المغامر طلق اللسان، إلى الأمير المتعجرف، ثم إلى القائد المحبوب الذي يمزح مع رفاقه، ويعرف اسم كل فرد من العامة.

كان للجنود عربة فارهة، متأهبة وعلى أتم استعداد، مطلية بلونٍ راڤكاني أزرق باهت، ومرسوم على جانبها عقاب الملك المزدوج. أمر (نيقولاي) بإحضار عربة أخرى، ذهبية كلون أشعة الشمس، تجرها -كما العربة الأولى- ستة أحصنة بيضاء.

وعندما علا صرير تلك العربة المضيئة في فناء النزل، أشحت بنظري عنها، متذكرة ما رأيته من ترفٍ في القصر الكبير، يبدو أن (نيقولاي) ورث عن أبيه ذوقه السيئ.

تمنيت أن أتناول العشاء مع (مال) في غرفتي، ولكن (نيقولاي) أصر أن نجتمع في الغرفة العامة، فبدلًا من أن نستريح بسلامٍ بجانب موقدٍ، حشرنا حول طاولة مزدحمة بالضباط، يحفُّها الضجيج من كل جانبٍ. لم ينبس (مال) بكلمة طوال فترة تناولنا الوجبة، أما (نيقولاي) فقد تحدث كأن ثلاثتنا نتحدث في آنٍ واحد.

أخذ يقطع ذيل الثور المطهو ويخبرنا عن عددٍ لا حصر له من الأماكن التي ينوي التوقف عندها خلال رحلتنا إلى (أوز ألتا)، حد أنني أصابني الإرهاق من مجرد الاستماع إليه.

قلت متذمرة: «لم أكن أعلم أن «كسب الشعب في صفك» يعني مقابلة كل فردٍ منهم! ألسنا في عجلةٍ من أمرنا؟».

- «يجب أن تعلم راڤكا بعودة مستحضرة النور..».

- «وأميرها العاصي؟».

- «نعم؛ فانتشار الشائعات أنفع من المراسيم الملكية. ولهذا...»، ثم أخفض صوته واستطرد: «من الآن فصاعدًا، عليك أن تتصرفي كأن ثمة أحدًا يراقبك كل دقيقة». أشار بعد ذلك بشوكته إلى (مال)، ثم إليَّ، وأردف: «ما تفعلاه سرًّا هو من شأنكما، فقط كونا حذرين».

كدت أختنق في أثناء شربي النبيذ، قذفتُ السؤال في وجهه: «ماذا؟»،

فجاء رده: «إن علاقتك بالأمير، بالنسبة إلى العامة، تختلف تمامًا عن مضاجعتك لفقير».

همستُ بغضبٍ: «لكنني لا أفعل ذلك! وليس لأحد شأن في هذا الأمر!».

ألقيت نظرة على (مال) الذي صرَّ على أسنانه، وأحكم قبضته على سكينه.

قال (نيقولاي): «إن القوة تكمن في التحالف، ولهذا فهو شأن الجميع».

ارتشف من نبيذه مجددًا، وأنا أرمقه بنظرة عدم تصديق.

أردف: «وعليكِ أن ترتدي ألوانكِ الخاصة».

هززت رأسي، مندهشة من تغييره للموضوع.

سألته: «والآن تختار ملابسي أيضًا؟!».

كنت مرتدية زي الكفتا الأزرق، ولكن يبدو أن (نيقولاي) لم يكن راضيًا.

قال: «إذا كنت تنوين قيادة الجيش الثاني، وأخذ مكان مستحضر الظلام، فعليك أن تبدين كالقادة».

صحتُ بانفعالٍ: «ولكنَّ المستحضرين يلبسون الأزرق!».

- «لا تستخفِّي بقوة المظاهر يا ألينا؛ فالناس يحبون الاستعراض، وقد أدرك مستحضر الظلام ذلك».

- «دعني أفكر في الأمر».

- «ما رأيك في اللون الذهبي؟ إنه فخم ومناسب جدًّا».

- «ومبتذل جدًّا أيضًا».

- «أعتقد أن الذهبي والأسود سيكونان أفضل اختيار.. رمزية مثالية و...».

- «لن ترتدي الأسود!»، قالها (مال) وهو ينهض من مقعده خلف الطاولة، ومن دون أن ينبس بكلمة أخرى، اختفى في زحام الغرفة.

وضعتُ شوكتي على الطاولة وقلت: «لا أدري إذا كنتَ تتعمَّد اصطناع المشكلات، أم إنك أبله محض!».

أخذ الأمير قضمة أخرى من وجبته، وسألني: «ألا يحب اللون الأسود؟».

فأجبته: «إنه اللون الذي يرتديه الرجل الذي حاول قتله وأسري غير مرة.. عدوي اللدود!».

- «وهذا سبب أدعى لتستحوذي على هذا اللون».

استدرتُ برأسي لأرى أين ذهب (مال)، فوجدته قد اتخذ مقعدًا بمفرده في الحانة.

قلتُ: «لا، لن أرتدي الأسود».

فردَّ (نيقولاي): «كما تريدين، ولكن اختاري لونًا لكِ ولحراسكِ».

تنهدت وقلتُ: «هل سأحتاج إلى حراسٍ حقًّا؟».

تراجع (نيقولاي) في مقعده، وظلَّ يتفحَّصني بوجهٍ اعتلته ملامح حادة، ثم ما لبث أن سألني: «أتعلمين كيف حصلت على اسم ستورمهوند؟».

فأجبته: «لقد ظننت أنها مزحة ما، أو ربما كنت تتلاعب بلفظ «سوباتشكا»[1]».

- «كلا؛ بل إنه اسم قد اكتسبته.. إن أول سفينة عدو صعدت على متنها كانت سفينة تجارية فيردانية خرجت من ديرهولم، وعندما طلبت من قبطانها أن يضع سيفه جانبًا، ضحك في وجهي وأمرني أن أعود إلى أمي، وأخبرني أن رجال فيردا يصنعون خبزهم من عظام صبية رافكا النحفاء».

(1) في الروسية تعني «الكلب الصغير».

- «وهل قتلته؟».

- «لا، بل أخبرته أن رجال راڤكا لا يشبعهم لحم القباطنة العجائز الحمقى، ثم قطعت أصابعه وأطعمتها لكلبي أمام ناظريه».

- «ماذا... فعلت؟».

كانت الغرفة مزدحمة بجنودٍ غوغائيين: يغنون ويصيحون ويتبادلون الحكايات، ولكن أذنيَّ صمتتا، وبقيت أحدق إلى وجه (نيقولاي) في صمتٍ وذهول، شعرت كأنني أشاهده يتحوَّل من جديد، فزال ذاك القناع الساحر، كاشفًا عن وجه رجلٍ شديد الخطورة.

- «لقد سمعتِني.. إن أعدائي يفهمون معنى العنف، وكذلك طاقمي، وبعدما انتهيتُ، شربت الخمر مع رجالي وقسمت بينهم الغنائم، ثم عدت إلى كابينتي، وتقيَّأت العشاء الرائع الذي أعده لي طباخي الخاص، واستلقيت على سريري وبكيت حتى نمت، لكنني صرت قرصانًا حقيقيًّا ذلك اليوم.. وهكذا ولد ستورمهوند».

انتابني شعورٌ بالتقيؤ وأنا أقول: «لكن «كلبًا صغيرًا» لن يفعل كل ذلك».

- «لقد كنتُ صبيًّا يحاول قيادة طاقم همجي من اللصوص والأوغاد ضد أعداء أكبر منهم سنًّا، وأكثر حكمة وغلظة، فأردت أن يخافوا مني جميعهم، ولو لم يفعلوا، لمات الكثير والكثير من الناس».

دفعتُ صحني بعيدًا وقلت: «تُرى، أي أصابع تريدني أن أقطعها؟».

- «أقصد.. إذا أردت أن تكوني قائدة، فعليك أن تفكري وتتصرفي كالقادة».

- «أتعلم، لقد سمعت ذلك من قبل.. من مستحضِر الظلام ومعاونيه: كوني عنيفة.. كوني قاسية.. وبهذا ستنقذين حيوات أناسٍ أكثر على المدى الطويل».

- «أتعتقدين أنني أشبه مستحضر الظلام؟».

تفحَّصته.. شعره ذهبي، وزيه مهندم، وعيناه عسليتان تبرقان بالذكاء، قلتُ له بهدوءٍ: «كلا، لا أظن أنك تشبهه».

نهضتُ لأذهب إلى (مال) مضيفة: «لكنني أخطأت من قبل».

***

لم تكن رحلتنا إلى (أوز ألتا) مسيرة عادية محضًا، بل كانت أقرب إلى موكبٍ بطيء متعب؛ توقفنا عند كل بلدة على طريق ڤاي.. عند المزارع، والحظائر، والمدارس، والكنائس، قابلنا شخصيات رفيعة المقام، وزرنا عنابر مستشفيات، وتناولنا العشاء مع محاربين قدامى، وصفقنا لفرق الفتيات الموسيقية.

كان من الصعب ألا نلاحظ أن أغلب القرويين من كبار السن والصغار؛ فكل ذي جسدٍ فارعٍ انتقل ليخدم في جيش الملك، ويقاتل في حروب (راڤكا) التي لا تنتهي، وكذلك صارت المقابر في حجم البلدان.

أغدق (نيقولاي) عليهم عملات الذهب، وشوالات السكر، واستقبل من التجار المصافحات، ومن النساء ذوات الوجوه المتجعدة القبلات.. هن اللائي نادوه باسم «سوباتشكا».. لقد سحر (نيقولاي) كل من اقترب منه بمسافة قدمين، ولم تمس وجهه ملامح التعب أو الإرهاق، ومهما قطعنا من أميال، أو قابلنا من أناس، كان دائمًا متأهبًا للمزيد.

بدا أنه يعلم جيدًا ما يريده من الناس، ويعرف متى يكون ذلك الصبي الضاحك، أو الأمير الذهبي، أو الجندي المتعب. ربما اكتسب كل ذلك من تدريباته؛ فعلى الرغم من انتمائه إلى العائلة الملكية، وتربيته بالقصر الكبير، فإنه أحيانًا يخيفني.

علمت أنه لم يكن يمزح بشأن إقامة استعراضٍ عن وصولنا؛ فإنه دائمًا يخطط لوصولنا إما وقت الفجر وإما وقت الغروب، وكان يوقف موكبنا في باحةٍ ظليلة لكنيسة، أو ميدان بلدة، كل ذلك ليستعرض وجود مستحضِرة

النور.

كان عندما يراني أشيح بعيني بعيدًا، يبتسم ويقول: «يظن الجميع أنك ميتة يا عزيزتي، ولذلك يجب أن نقيم عرضًا مميزًا».

فكنت أفي بوعدي وأتصرَّف كالقادة، فأبتسم بلطفٍ وأستدعي الضوء لينير الأسطح، والأبراج، ويدفئ كل الأوجه المرهوبة. بكى الناس، وأحضرت الأمهات أبناءهن كي أقبِّلهم، وانحنى العجائز على يدي بخدودٍ أغرقتها الدموع.

أحسستُ حينها أنني محتالة، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وأخبرت (نيقولاي) بذلك.

صفعته دهشة حقيقية، فقال: «ماذا تقصدين؟ إن الناس يحبونك!».

فقلت له بتذمرٍ في أثناء مغادرتنا لإحدى البلدات: «بل تقصد يحبون كبش الفداء خاصتك».

- «وهل كنت كبشًا من قبل؟».

همستُ بغضبٍ: «هذا ليس مضحكًا! لقد رأيت ما يستطيع مستحضر الظلام فعله! هؤلاء الناس سيرسلون أبناءهم وبناتهم ليحاربوا النيتشيڤويا، ولن أستطيع إنقاذهم، إنك تطعمهم الكذب!».

- «بل إننا نمنحهم أملًا، وهذا أفضل من ألا نمنحهم شيئًا على الإطلاق».

- «إنك تتحدث كأنك رجلٌ لم يحظ بشيء على الإطلاق».

قلتها وأسرعت بحصاني بعيدًا.

***

يجعل الصيف (راڤكا) في أزهى حالاتها، فيكسوا حقولها بالخضرة والذهب، ويبعث في أرجائها هواءً دافئًا زكته رائحة الحشائش.

وعلى الرغم من اعتراضات (نيقولاي)، فإنني أصررت على التخلي عن راحتي داخل العربة؛ آلمني الجزء السفلي من جسدي، وفخذاي تذمَّرتا

عاليًا كلما نزلت من فوق السرج كل ليلة، ورغم ذلك، فإن ركوبي فوق حصاني يمنحني متعة الهواء المنعش، ويساعدني على البحث عن (مال) كل يومٍ.

لم يكن كثير الكلام، ولكنه على الأقل تكلم.

أشاع (نيقولاي) حكاية محاولة مستحضِر الظلام قتل (مال) في الطية، وقد أكسبه ذلك على الفور ثقة الجنود، ومنحه أيضًا بعض الشهرة. ومن حينٍ إلى آخر كان يذهب في رحلاتٍ استكشافية مع المتعقبين في الوحدة، ويحاول تعليم (توليا) الصيد، لكن ذلك الغريشا الضخم لم يستسغ التسلل في صمتٍ إلى الغابات.

وعلى الطريق خارج (سالا)، مررنا بمربعٍ تكسوه أشجار الدردار البيضاء، حينها تنحنح (مال) وقال: «كنت أفكر...».

اعتدلت في جلستي ومنحته تركيزي كاملًا، كانت تلك أول مرة يبدأ فيها محادثة معي منذ مغادرتنا لـ (كريبيرسك).

استدار فوق السرج، ولم ينظر في عيني وهو يكمل: «كنت أفكر في شخصٍ يقود الحرس».

عبستُ وأنا أسأله: «الحرس؟».

فتنحنح مجددًا وردَّ: «حرسكِ أنتِ.. إن بعض رجال نيقولاي مناسبون، وعلينا أن نضع توليا وتمار في الحسبان، أعلم أنهما من شو هان، لكنهما أيضًا من الغريشا، ولذلك ليس ثمة مشكلة.. وهناك أيضًا... حسنًا... أنا».

لا أظن أنني رأيت (مال) خجولًا من قبل.

ابتسمت وسألته: «أتقصد أنك تود أن تصير قائد حرسي الشخصي؟».

نظر إليَّ وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خافتة، وقال: «هل ستجعلينني أرتدي قبعة فاخرة؟».

- «أفخر القبعات.. وقد ألبسك رداءً أيضًا».

- «هل سيكون بها ريش؟».
- «أجل، بالطبع، الكثير منها».
- «حسنًا، أنا موافق».
أردت أن أنهي المحادثة هنا، لكنني لم أستطع منع نفسي من الاستطراد، فقلت: «لقد ظننت... أنك ستؤثر العودة إلى وحدتك، وتصير متعقبًا من جديدٍ».
ظلَّ (مال) مصوبًا نظره نحو عقدة اللجام، وقال: «إنني لا أستطيع العودة.. أتمنى أن ينقذني نيقولاي من الشنق».
- «تتمنَّى؟».
- «لقد هجرت وحدتي يا ألينا.. وحتى لو أراد الملك أن يعيدني متعقبًا لن يستطيع».
كان صوته واضحًا، لا يعكره شيء.
قلت في نفسي: إنه دائمًا ما يتأقلم.
لكنني أعلم أن جزءًا منه يتحسر على الحياة التي يستحقها.. الحياة التي كان سيحظى بها من دوني.
أومأ برأسه إلى حيث بدا ظهر (نيقولاي) بالكاد بين صف الفرسان، وقال: «ولن أقبل على أي حال أن أتركك بمفردك مع السيد الأمير المثالي».
- «أيعني هذا أنك لا تثق بقدرتي على مقاومة سحره؟».
- «إنني لا أثق حتى بنفسي.. لم أرَ من قبل شخصًا يتحكم في الحشود مثله، أنا متأكد أن الصخور والأشجار تستعد لتقديم فروض الولاء والطاعة له».
ضحكت وتراجعت إلى الخلف، شاعرةً بدفء ضوء الشمس على جلدي، الذي كسا أغصان الشجر فقذفت ظلالها فوق رؤوسنا، تحسست سوار سوط البحر بأصابعي، فوجدته في مستقره أسفل كمي. أردت أن أبقي

مضخم القوى الثاني سرًّا مؤقتًا؛ فعلى الرغم من قسم الغريشا، التابعين لـ (نيقولاي)، على الصمت، فإنني لا يسعني سوى أن آمل ألا يحركوا ألسنتهم.

تشتتت أفكاري.. وجدتني أفكر في طائر النار، ثمة جزء مني ما زال لا يصدق أنه حقيقي، تُرى، هل سيبدو كما رأيته في صفحات الكتاب الأحمر؟ هل ريشه مصبوغ بالأبيض والذهبي؟ هل أطراف أجنحته مشتعلة؟ ويا ترى، أي وحشٍ هذا الذي سيطلق سهمه ويصيده؟

لقد رفضت في السابق أن أقتل الأيل، فمات عدد لا يحصى من الناس كسكان (نوفوكريبيرسك). وأوليت الجنود والغريشا ظهري على متن سفينة مستحضِر الظلام.

وجدتني أتذكر جدران الكنيسة العالية، التي تغطيها أسماء الموتى..

أيل (موروزوف).. روزاليه.. طائر النار.. أساطير حُيِّيَت أمام ناظري، لتموت أيضًا أمام ناظري.

تذكرت ترنُّح جسد سوط البحر، وصفيره الخافت حينما لفظ أنفاسه الأخيرة، كان على شفا حفرةٍ من الموت، ولكنني ترددت.

لا أريد أن أكون قاتلة!

ولكن ربما الرحمة هبة لا تُمنَح لمستحضِرة النور.

نفضت تلك الأفكار عن رأسي؛ فعلينا أولًا أن نعثر على طائر النار، وإلى أن يتحقق ذلك، فجميع آمالنا معلقة على كتفي أمير لا نستطيع الوثوق به.

***

ظهر الحجاج الأوائل في اليوم التالي، كانوا كأيٍّ من سكان القرى، ينتظرون على الطريق ليشاهدوا الموكب الملكي يمر أمامهم، ويرتدون شارات، ويحملون لافتات رسمت عليها شمس ساطعة. نال الوسخ من ثيابهم،

من أثر السفر أيامًا طوالًا، وكانوا يحملون معهم حقائب وأكياسًا ممتلئة ببعض أمتعتهم، وعندما رأوني أرتدي زي الكفتا الأزرق، ورأوا طوق الأيل حول رقبتي، اندفعوا نحو حصاني، هامسين: «سانكتا.. سانكتا»[1]، وحاولوا التشبُّث بكمي أو بطرف ردائي، وأحيانًا كانوا يركعون، فكنتُ أتوخى الحذر لئلا يدوس حصاني أحدهم.

ظننت أنني اعتدت لفت الانتباه، أو حتى أن أُعرَض أمام الغرباء، لكن هذا كان مختلفًا؛ لم أحب نداءهم لي بـ «القديسة».. ووجوههم الجائعة كانت تتلاعب بأعصابي.

كلما توغلنا إلى قلب (راڤكا)، ازداد نمو الحشد، كانوا يأتون من كل حدبٍ وصوب.. من المدن، والقرى، والموانئ.. يتجمهرون في الميادين، وعلى طول طريق ڤاي.. رجالًا ونساءً، أطفالًا وشيوخًا، مترجلين أو راكبي الحمير أو عربات القش، وأينما ذهبنا، كانوا ينادونني.

أحيانًا كانوا ينادونني بـ «القديسة ألينا»، أو «ألينا العادلة»، أو بـ «المضيئة»، أو «ابنة كيرامزين الرحيمة»، أو «ابنة راڤكا»، أو «ابنة الطية»، أو «ابنة الطاحونتين» نسبة إلى الوادي الذي آوى مسقط رأسي غير المعروف. مرَّت في ذاكرتي صورٌ خافتة للحطام الذي سمي الوادي باسمه: شراعا طاحونة من الحجر، ملقيان على جانب طريقٍ مغبر.

يبدو أن المستشار الروحاني كان مشغولًا بالتنقيب في ماضي.. يغربله ليجد تفصيلة ليبني عليها حكاية قديسة.

أخافتني آمال الحجاج؛ فإنهم يظنون أنني أتيت لأحرر (راڤكا) من أعدائها، ومن طية الظل، ومستحضِر الظلام، والفقر، والجوع، ومن المشي حفوًا، ومن لدغات البعوض، وأي شيء قد يزعجهم.

(1) أي القديسة.

كانوا يتوسلون إليَّ حتى أباركهم، وأشفيهم، لكنني كنت فقط أستدعي الضوء، أو ألوِّح لهم، أو أسمح لهم بلمس يدي.

كان ذلك كله جزءًا من عرض (نيقولاي).

لم يأتِ الحجاج كي يروني فقط، بل ليتبعوني؛ لقد ألصقوا أنفسهم بالموكب الملكي، وكل يومٍ كانت أعدادهم تتزايد. تبعونا من قريةٍ إلى قرية، وخيموا في الأراضي البور، وسهروا حتى الفجر يدعون لأمني ولخلاص (راڤكا)، حسبت وقتئذٍ أن أعدادهم ستفوق أعداد جنود (نيقولاي).

قلت لـ (تمار) ذات ليلة في أثناء تناولنا للعشاء: «إن ذلك لمن فعل المستشار الروحاني».

أقمنا تلك الليلة في نزلٍ على الطريق، استطعت رؤية أضواء نيران الطهو التي أشعلها الحجاج، وسمعتهم ينشدون أغانيهم الريفية.

أردفت: «يجب أن يعود هؤلاء الناس إلى ديارهم؛ ليحرثوا حقولهم ويرعوا أبناءهم، بدلًا من أن يتبعوا قديسةً مزيفة».

أبعدت (تمار) قطعة بطاطا محترقة عن طبقها، وقالت: «لقد أخبرتني أمي من قبل أن قوة الغريشا منحة إلهية».

- «وهل صدقتها؟».

- «ليس لديَّ تفسير أفضل».

وضعت شوكتي على الطاولة وقلت: «إننا لا نملك منحة إلهية يا تمار؛ فقوة الغريشا شيء تولدين به، كأن تولدي بقدمٍ كبيرة، أو صوتٍ عذب!».

- «هذا ما يؤمن به أهل شو هان: أنها شيء مادي، سواء أكان مزروعًا في قلبك أو في طحالك، يمكن في النهاية أن ينتزع ويفحص».

نظرت من النافذة إلى مخيم الحجاج واستطردت: «لكنني لا أظن أن هؤلاء الناس سيتفقون مع هذا».

- «أرجوك لا تخبريني أنك تظنينني قديسة».

- «لا يهم من تكونين.. ما يهم هو ما تستطيعين فعله».

- «ولكن يا تمار...».

- «هؤلاء الناس يعتقدون أنك تستطيعين إنقاذ راڤكا.. وأظنك تشاركينهم نفس الاعتقاد، وإلا لن تقرري الذهاب إلى أوز ألتا».

- «إنني ذاهبة إلى هناك لأعيد بناء الجيش الثاني».

- «ولتبحثي عن مضخم القوى الثالث».

كدت أوقع شوكتي.. همست لها بحدة: «اخفضي صوتك!».

- «لقد رأينا كتاب حياة القديسين».

إذن لم يُبق (ستورمهوند) أمر الكتاب سرًا.

حاولت استعادة هدوئي وأنا أسألها: «من يعلم بذلك أيضًا؟».

فقالت: «لن نخبر أحدًا يا ألينا؛ إننا ندرك حجم خطر كهذا».

تركت كأس (تمار) دائرةً رطبة على سطح الطاولة، فتحسستها بيدها وقالت: «أتعلمين أن بعض الناس يعتقدون بأن القديسين الأوائل كانوا من الغريشا؟».

- «أي أناس هؤلاء؟»، سألتها بوجهٍ عابسٍ.

فهزَّت كتفيها وأجابت: «أناس كثيرون.. كثيرون حد أن قادتهم حُرِموا كنسيًّا، وبعضهم أعدموا حرقًا».

- «لم أسمع عن ذلك من قبل».

- «كان هذا من زمنٍ بعيدٍ، لا أعلم لماذا تثير تلك الفكرة غيظ الناس؛ فحتى لو كان القديسون من الغريشا، فهذا لا يقلل من قدرتهم على القيام بالمعجزات».

اعتدلت في مقعدي، وقلت: «إنني لا أود أن أكون قديسة يا تمار.. إنني لا أحاول إنقاذ العالم.. إني فقط أحاول أن أجد طريقة لهزيمة مستحضِر الظلام».

- «أعيدي بناء الجيش الثاني، واهزمي مستحضِر الظلام، ودمري الطية، وحرري راڤكا.. سمِّي ذلك ما شئت.. ولكنك بهذا تحاولين إنقاذ العالم».

عندما قالتها بتلك الطريقة، أحسستُ أن بصيصًا من الأمل يلوح في الأفق، ارتشفتُ من نبيذي، كان أكثر لذعًا من الخمر الذي شربته على متن سفينة ڤولكڤولني».

- «سيطلب منك مال أن تنضمي أنت وتوليا إلى حرسي الشخصي».

ارتسمت ابتسامة مشرقة على وجه (تمار) وهي تقول: «حقًّا؟».

- «عمليًّا، أنتما تقومان بذلك الآن، لكن إذا كنتما ستحرسانني ليلًا ونهارًا، فعليكما أن تعداني بشيءٍ أولًا».

قالت وهي لا تزال مبتسمة: «اطلبي ما شئت».

- «لا مزيد من الحديث عن القديسين».

الفصل الحادي عشر

لما تضخمت حشود الحجاج، صار من الصعب التحكُّم فيهم، لذلك أُجبِرت على ركوب العربة. رافقني (مال) في بعض الأوقات، لكنه كثيراً ما كان يؤثر ركوب جواده ليحرس العربة في الخارج مع (توليا) و(تمار). وعلى الرغم من أنني كنت أشتاق إلى رفقته، فإنني كنت أعلم أن ذلك أفضل، بيد أن العربة، التي تشبه صندوق جواهر لامعًا، دائمًا ما تعكر مزاجه.

رافقني (نيقولاي) عندما كنَّا ندخل قرية أو نخرج منها، حتى يرانا الناس معًا فقط في القدوم والرحيل. كان كثير الكلام، ودائم التفكير في بناء أي شيء جديد: كآلةٍ غريبة الشكل لرصف الشوارع، أو نظامٍ جديد لري الأراضي الزراعية، أو قاربٍ يجدف تلقائيًا. كان يرسم على أي ورقة يجدها، وفي كل يومٍ كان يبحث عن طريقة جديدة لتطوير الشكل القادم لقارب «الطنان».

كان أيضًا شديد الحماس في أثناء حديثه عن مضخم القوى الثالث، ومستحضِر الظلام، فيما كان ذلك يزيد توتري، بيد أنه لم يتعرَّف على القوس الحجري مثلي، ومهما حاولنا تدقيق النظر في صفحة الكتاب، إلا أن القديس (إليا) كان يأبى إفشاء أسراره. ولكن هذا لم يمنع (نيقولاي) من اقتراح أماكن لنبدأ منها رحلة اصطياد طائر النار، أو السؤال عن قوى (مستحضر الظلام) الجديدة.

قال ذات مرة: «إننا على وشك خوض حرب معًا، ولا تنسي أن مستحضر الظلام لا يحبني، لذلك يجب أن ننتهز كل فرصة أمامنا».

لم يكن لديَّ الكثير لأقوله؛ فإنني بالكاد أفهم تصرفات مستحضر الظلام.

قلت: «إن الغريشا في إمكانهم فقط استخدام وتغيير ما هو موجودٌ بالفعل؛ فالخلق الحقيقي نوعٌ آخر من القوة، وهذا ما أطلقت عليه باغرا: «الخلق في قلب العالم»».

- «هل تظنين أن هذا ما يسعى إليه مستحضر الظلام؟».

- «ربما، لست أدري، جميعنا لدينا حدود، وعندما نحاول أن نتعداها، نتعب، ولكن على المدى البعيد، يزيد استخدامنا طاقتنا من قوانا، أما مستحضر الظلام فإنه يستدعي كائنات النيتشيڤويا، وأظن أن هذا يستنزف قواه».

وصفت له الندبة التي برزت في وجه مستحضر الظلام، ومدى الإرهاق الذي بدا عليه، ثم أردفت: «إن قوته لا تغذيه، بل تتغذى عليه».

- «هذا يفسر الأمر إذن»، قالها (نيقولاي) وهو يضرب فخذه بأصابعه، ورأسه يموج بالاحتمالات.

- «يفسر ماذا؟».

- «أننا ما زلنا على قيد الحياة.. وأن أبي لم يبرح عرشه بعد؛ فلو كان في إمكان مستحضر الظلام أن يخلق جيشًا من الظلام، فما الذي منعه من الزحف به نحونا؟ هذا يصب في مصلحتنا، ويمنحنا متسعًا من الوقت».

راودني سؤالٌ واحدٌ: ترى كم من الوقت لدينا؟ وفي نفس اللحظة، انتابني شعورٌ بالحنين إلى منظر النجوم فوق سماء سفينة ڤولكڤولني.

إن تعطش مستحضر الظلام إلى القوة قد أذاه، مثلما أذى (موروزوڤا) على حد اعتقادي؛ فإن الجمع بين مضخمات القوى قد يصيبك ببؤسٍ لم يشهده أحدٌ في هذا العالم من قبل.

فركت ذراعي، محاولة تدفئة جسدي الذي تلفحه البرد فجأة.

لم أقدر على مشاركة (نيقولاي) شكوكي، كما أن (مال) كان معترضًا أيما اعتراض عن ذلك المسار الذي اخترنا أن نسلكه.

قلت: «إنك تعرف جيدًا ما سنواجهه، ولذلك الوقت لن يكفينا».

- «إن أوز ألتا محصنة بالكامل، كما أنها قريبة من القاعدة في پوليتزنايا، والأهم من ذلك أنها بعيدة عن الحدود الشمالية، والجنوبية أيضًا».

- «وهل هذا في صالحنا؟».

- «ثمة حدودٌ لمستحضِر الظلام؛ فعندما دمرنا سفينته، لم يستطع إرسال النيتشيڤويا خلفنا، ما يعني أن عليه القدوم إلى راڤكا برفقة وحوشه، كما أن طريق الجبال الشرقي يستحيل السير فيه، ولن يستطيع عبور الطية من دونك، ولذلك سيتعيَّن عليه القدوم إما من فييردا، وإما من شو هان، وفي كلتا الحالتين، سنكون على أتم استعداد».

- «وماذا عن الملك والملكة؟ هل سيبقيان؟».

- «إذا غادر أبي العاصمة، سنكون بهذا قد سلَّمنا المملكة لمستحضِر الظلام على طبقٍ من ذهبٍ، كما أنني لست أدري ما إذا كان يقدر على السفر».

تذكرت زي الكفتا الخاص بـ (جينيا).

سألته: «ألم يتعافَ بعد؟».

- «لقد حجبوا حالته تجنبًا لانتشار الشائعات، لكنه لم يتعافَ بعد، ولا أظنه سيتحسن».

ثم عقد ذراعيه، ومال برأسه قليلًا، وقال: «إن صديقتك الفاتنة لا يليق بها دور المسمِّمة».

- «إنها ليست صديقتي».

أحسستُ أنها جملة طفولية، وأنني في الوقت ذاته خائنة، لقد ألقيتُ اللوم على (جينيا) في الكثير من الأمور، إلا ما فعلته بالملك. يبدو أن (نيقولاي) لديه جواسيس في كل مكان.. لكنه ربما لا يدري أي رجل كان أباه.

أضفت: «لا أظنها استخدمت سمًّا».

- «لقد فعلت به شيئًا ما، ولم يعثر أي طبيبٍ على علاج له، كما أن أمي لا تسمح لأيٍ من معالجي الكوربورالكي أن يقتربوا منه».

صمتَ برهة ثم أردف: «كان تصرفًا ذكيًا.. حقًّا».

ارتفع حاجبي.. سألته: «أتقصد محاولة قتل أبيك؟».

- «كان من السهل على مستحضِر الظلام أن يقتل أبي، لكنه كان بهذا سيفجر ثورة سيقودها الجيش الأول والفلاحون، أما في حالة بقائه على قيد الحياة، وعزله، لن يعلم أحدٌ بما سيحدث. كان المستشار الروحاني متواجدًا، يلعب دوره في إعطاء النصائح والأوامر بجدارة، وڤاسيلي سافر إلى مكانٍ ما ليشتري الأحصنة والعاهرات».

سكت ونظر خارج النافذة، متحسسًا حافتها المذهبة، وأضاف: «لقد كنت في عرض البحر، ولم تأتِني الأخبار إلا بعدما انتهى كل شيء».

ظللت صامتة، لا أعلم هل وجب عليَّ الحديث أم لا، كانت عيناه منشغلتين بمراقبة المشهد في الخارج، وعقله شرد بعيدًا.

- «عندما انتشرت الأقاويل عن مذبحة نوڤوكريبيرسك، واختفاء مستحضر الظلام، فُتِحت علينا أبواب الجحيم؛ اقتحمت مجموعة من الوزراء والحراس القصر الكبير، وطلبوا رؤية الملك، أتعلمين ماذا رأوا؟ رأوا أمي ترتجف في غرفة الجلوس، محتضنة كلبها الصغير، وملك راڤكا، ألكسندر الثالث، وحيدًا في غرفة نومه، بالكاد يتنفس، مستلقيًا بين الوسخ، كل هذا حدث بسببي».

- «كان من الصعب أن تعلم ما يخططه مستحضِر الظلام يا نيقولاي، لم تتسنَّ فرصة لأحدٍ كي يعلم».

لا أظنه قد سمعني، لأنه أكمل قائلًا: «ألقي القبض على الغريشا والأوبرتشنيكي الذين سيطروا على القصر، بأوامر من مستحضر الظلام، في أثناء محاولتهم الهروب، ثم أعدموا».

حاولت قمع الرجفة التي كادت تسري في جسدي، قلت: «وماذا عن المستشار الروحاني؟».

لقد تواطأ ذلك الكاهن مع مستحضر الظلام، وربما لم يزل يعمل معه حتى الآن، ولأنه حاول التقرب مني قبل محاولة الانقلاب، راودني شعور بأنه يضع خطة دنيئة، وأعمق بكثيرٍ مما نظن.

أجابني (نيقولاي) بحدة: «لقد فرَّ هاربًا، وإلى هذه اللحظة لا يعلم أحد كيف، لكنه سيجيب عن كل أسئلتنا عندما يحين وقته».

مرة أخرى لمحت ملامح القسوة مختبئة خلف مظهره الفاتن، تُرى هل كان هذا نيقولاي لانتسوف الحقيقي؟ أم أنه يتنكر من جديد؟

قلت: «لقد أطلقت سراح جينيا».

- «لأنها كانت الطعم، وكنت أنت السمكة، لذلك تعيَّن عليَّ الحفاظ على تركيزي».

وإذا بابتسامته تشرق، لتبدِّد السحب المظلمة التي حجبت وجهه. غمز بعينه، وأضاف: «كما أنها أجمل من أنت تكون طعمًا لسمك القرش».

***

سلبني جلوسي في العربة راحتي، وبتُّ أكثر قلقًا بشأن السرعة التي أمر (نيقولاي) أن نمضي بها، وأكثر تحمسًا للوصول إلى القصر الصغير. وعلى الرغم من ذلك، فقد تسنَّت لي فرصة الاستعداد لوصولنا إلى (أوز ألتا). كان لـ (نيقولاي) فضلٌ لا يمكن إنكاره في نجاحي، ودائمًا كان يضفي على

نصائحه الحكمة. زاد الأمر على حده في بعض الأحيان، ولكنني لم أستطع أن أغض الطرف عن نصائحه، وأصبحت أتخيل أنني بالفعل عدت إلى مكتبة القصر الصغير، لأحشو رأسي بنظريات الغريشا.

كلما قلَّ كلامك، سيصبح لكلماتك ثقل أكبر.

إياكِ والجدال.. ولا تتخلي أبدًا عن الإنكار، وقابلي السباب دائمًا بالضحك.

- «لكنك لم تضحك في وجه القبطان الفييرداني».

- «لأنه لم يسبَّني، بل تحداني، لاحظي الفرق».

إن الضعف زي تنكري، ارتديه فقط كي تبيِّني لهم أنك ما زلت إنسانة، واخلعيه عنك فور ما تشعرين حقًّا بالضعف.

لا تتمني الحصول على الطوب لتشيدي بناية، ما دمت تستطيعين استخدام الحجارة، استعيني بأي شيء وأي أحدٍ أمامك.

كونك قائدةً يعني أن ثمة مَن يراقبك على الدوام.

أجبريهم على تنفيذ أوامرك البسيطة كي ينفذوا أوامرك المهمة.

لا بأس أن تتجاهلي الآمال، لكن لا تخيبيها.

قلت له غاضبة: «وكيف سأتذكر كل هذا؟».

- «لا تفكري فيهم كثيراً، فقط نفذيهم».

- «كم هو سهل بالنسبة إليك أن تقول ذلك! بالطبع كنت مهيأ منذ يوم ولادتك!».

- «بل كنت مهيأً للعب التنس، وحضور حفلات الشمبانيا، وتعلمت الباقي بالتدرب».

- «لكنني لا أملك وقتًا للتدرب!».

- «ستكونين بخيرٍ، فقط اهدئي».

لا أدري هل عليَّ أن أهدأ، أم أقذف حذائي في وجهه!

***

كلما خرجنا من العربة، كان سلوك (نيقولاي) يصيبني بالقلق؛ فإنه لم يكتف بتجديد طلب الزواج مني، بل صار يسعى لأن يبيِّن للناس أن ثمة علاقة بيننا. وكلما توقفنا، يتصرف بجرأة أكبر: يقترب مني أكثر، يقبِّل يدي، ويعلق خصلات شعري خلف أذني عندما يمسها النسيم.

عندما وصلنا (تاشتا)، لوَّح (نيقولاي) للمزارعين والحجاج الذين احتشدوا حول تمثال مؤسس المدينة، ولما كان يساعدني لنعود إلى العربة، انزلقت ذراعه إلى خصري.

همس إليَّ حينها قائلًا: «أرجوكِ لا تلكميني»، ثم ضمَّني بقوة إلى صدره، وأطبق شفتيه على شفتي.

انفجر الحشد في الهتاف.. كان أقرب إلى زئير ابتهاج.. وقبل حتى أن تتسنى لي فرصة لاتخاذ أي رد فعل، دفعني (نيقولاي) إلى أحضان الظلام داخل العربة، وتبعني مغلقًا الباب. لم يكف الجميع عن الهتاف، صاح بعضهم قائلين: «نيقولاي!»، وآخرون قالوا: «سانكتا[1] ألينا»، والبعض الآخر قالوا: سل كوروليڤا»، أي «ملكة الشمس».

استطعت رؤية (مال) عبر زجاج العربة، كان ممتطيًا حصانه، يحاول إبعاد الحشد عن الطريق، بدا من عبوس وجهه أنه شاهد كل شيء.

أمسكت بـ (نيقولاي) وركلت مقدمة ساقه، فعوى كالكلاب، لكنني لم أشعر بالرضا، فركلته مرة أخرى.

سألني: «أتشعرين بتحسنٍ الآن؟».

- «إذا حاولت تكرار ما فعلته مرة أخرى لن أركل ساقك، بل سأقطعك نصفين!».

نفض عن بنطاله ذرة وبر متناهية الصغر، وقال: «لا أظن أن هذا سيكون تصرفًا حكيمًا؛ فالناس يبغضون قتل الملوك».

---

(1) أي «القديسة» باللغة الراڤكانية.

- «ولكنك لست ملكًا، فلا تغريني».
- «لا أعلم لماذا أنتِ منزعجة هكذا.. لقد أحبَّ الناس ما رأوه!».
- «وأنا لم أحبه!».
رفع حاجبه وقال: «ولم تكرهيه».
ركلت ساقه مجددًا، لكن هذه المرة أطبق يديه على كاحلي مثلما يخنق الثعبان فريسته. لو لم نكن في الشتاء، لكنت ارتديت حذاءً طويلًا، لكن لأنني ألبس خفًّا صيفيًّا، التفَّت أصابعه حول قدمي العارية، فتوردت وجنتاي خجلًا.
قال: «عديني ألا تركليني مجددًا، وسأعدك ألا أقبِّلكِ ثانية».
- «لقد ركلتكِ لأنك قبَّلتني أصلًا!».
حاولت أن أسحب ساقي، لكن ظل قابضًا عليها بقوة.
- «عديني».
- «حسنًا.. أعدك»، قلتها بامتعاضٍ.
- «اتفقنا إذن».
أفلت قدمي، فأعدتها إلى مخبئها أسفل زي الكفتا، آملة ألا يكون قد لاحظ خجلي الأحمق.
- «عظيم، والآن اخرج من هنا».
- «إنها عربتي».
- «كان اتفاقنا متعلقًا بالركل فقط، ولم يشمل الصفع، أو اللكم، أو العض، أو الشطر نصفين!».
ابتسم وهو يقول: «أتخافين أن يظن أورتسيف أن الأمور تطورت بيننا؟».
كان هذا بالفعل ما قذف القلق إلى نفسي، ومع ذلك قلت: «بل إنني لا أريد أن أقضي دقيقة أخرى معك؛ قد أتقيأ على زيي!».
- «لقد كان هذا جزءًا من العرض يا ألينا.. فكلما بدا تحالفنا أقوى، كان

ذلك أفضل لكلينا، أعتذر إن جُرِح شعور مال، لكنه أمر ضروري».

- «تلك القبلة لم تكن ضرورية!».

- «كان هذا ارتجالًا مني.. لقد أطلقت لنفسي العنان».

- «لكنك لا ترتجل أبدًا؛ فكل خطواتك محسوبة.. إنك تغير شخصيتك مثلما يغير الناس قبعاتهم! أتعلم أن هذا مخيفٌ؟ ألا تكون نفسك مطلقًا؟».

- «أنا أميرٌ يا ألينا، ولذلك لا يسعني أن أكون نفسي».

انطلقت من صدري زفرة ضيق.

صمت هنيهة ثم أردف: «أنا... هل تظنين حقًّا أنني مخيف؟».

كانت هذه أول مرة يبدو فيها غير واثقٍ بنفسه، وعلى الرغم من ما فعله، فإنني شعرت بقليلٍ من الأسف تجاهه.

- «أحيانًا».

تحسَّس قفاه وقد بدا عليه الضيق جليًّا، ثم تنهد وهزَّ وقال: «إنني الابن الأصغر للملك.. وقد أكون ابنه غير الشرعي، كما أنني ابتعدت عن القصر سبع سنوات، لذلك سأبذل كل ما في وسعي لأعزز فرصي لاعتلاء العرش، حتى وإن كلَّفني ذلك مغازلة أمة بأكملها، أو أن أقلب عيني قمرين من أجلك، سأقوم بذلك».

حملقت إلى وجهه.. لا أظنني سمعت أي شيء بعد جملة «الابن غير الشرعي». لقد حدثتني (جينيا) من قبل عن الشائعات التي انتشرت حول نسب (نيقولاي)، لكن ما صدمني حقًّا كان اعترافه بالأمر.

ضحك وقال: «لن تتأقلمي على العيش في البلاط الملكي إلا إذا تعلمت إخفاء ما تفكرين فيه جيدًا، إنك تبدين الآن كأنك جلست في حوض ثلج، أغلقي فمك».

أغلقت فمي سريعًا وحاولت رسم ابتسامة على شفتي، وإذا بضحكات (نيقولاي) تجلجل وهو يقول: «إنك تبدين الآن كأنك ثملت من النبيذ».

استسلمت وتراجعت في مقعدي قائلة: «كيف تمزح على شيءٍ كهذا؟».

- «لقد سمعت كل تلك الشائعات مذ كنت طفلًا، وهذا لا يعني أنني أود سماعها الآن خارج هذه العربة، وحتى إن أخبرتِ أحدًا سأنكر. لا يهم إن كان دم لانتسوف يجري في عروقي؛ ففي الواقع، بالنظر إلى كل الزيجات الملكية، أعتقد أن كوني ابنًا غير شرعي يصب في مصلحتي».

- «ولماذا أنت مهتم بالعرش إلى هذه الدرجة؟ لماذا عقدت العزم لأن تمر بكل هذا؟».

- «هل من الصعب عليك الاقتناع بأنني قلق حقًّا بشأن مصير هذا البلد؟».

- «بصراحة، نعم».

أخذ يحدق إلى أطراف حذائه اللامع، الذي لا أدري كيف حافظ على لمعانه إلى هذه الدرجة.

- «أعتقد أنني أهوى إصلاح الأشياء.. دائمًا ما أفعل ذلك».

لم تكن تلك إجابة، لكنها كانت صادقة.

- «أتظن حقًّا أن أخاك سيتنحى؟».

- «أتمنى ذلك.. إنه يعلم أن الجيش الأول سيتبعني، ولا أظنه سيطيق أن تندلع حربًا أهلية، لقد ورث ڤاسيلي من أبي نفوره من العمل الشاق؛ ووقتما يدرك ما هو مطالب به ليحكم مملكة، أشك أنه لن يستطيع الفرار من العاصمة بالسرعة الكافية».

- «ماذا لو لم يستسلم بهذه السهولة؟».

- «إنها ببساطة مسألة إيجاد الحافز الصحيح، في وسعك شراء أي رجلٍ بالمال، سواء أكان معدمًا أم أميرًا».

تلك حكمة أخرى من حكم (نيقولاي لانتسوف)..

نظرت خارج النافذة، فأبصرت (مال) فوق صهوة حصانه، يمضي بمحاذاة العربة.

قلت لـ (نيقولاي): «لكن هذا لا ينطبق على كل الرجال».

صوَّب نظره إلى حيث أنظر، وقال: «كلا يا ألينا؛ فحتى بطلك الفحل هذا له ثمنه»، ثم التفت إليَّ بعينيه العسليتين السارحتين، وقال: «وها أنا أنظر إليه الآن».

- «إنك دائمًا واثق بكل شيء! ربما يأتي يوم أقرر فيه أن أحظى بالعرش، فأخنقك في أثناء نومك!».

ابتسم (نيقولاي) وقال في النهاية: «ها أنت أخيرًا تفكرين كما السياسيين».

***

غادر (نيقولاي) العربة في النهاية، لكننا لم نتوقف عندما حلَّ الليل إلا بعد ساعات. لم أحتج إلى أن أنادي (مال)، لأنني وجدته واقفًا عندما فتح باب العربة مادًّا يده إليَّ، ليساعدني على النزول منها، كانت الساحة مكتظة بالحجاج والمسافرين، جميعهم يمدون أعناقهم إلى الأعلى ليروا مستحضرة النور.

لم أكن متأكدة إن كنت سأحظى بفرصة أخرى للحديث معه، فهمست له وهو يقودني في طريقٍ مرصوفٍ بالحصى: «هل أنت غاضب مني؟».

أبصرت (نيقولاي) واقفًا على الجانب الآخر من الميدان، يتحدث مع مجموعة من الشخصيات العامة.

ردَّ (مال): «منك؟ كلا، لكنني سأتحدث مع نيقولاي عندما لا يكون محاطًا بحرسٍ مسلح».

- «لقد ركلت ساقه.. إن كان هذا سيهوِّن عليك قليلًا».

ضحك (مال) وقال: «حقًّا؟».

- «مرتين.. هل أراحك ذلك؟».

- «في الواقع.. نعم».

- «سأدوس على قدمه الليلة في أثناء تناولنا العشاء».

هذا خارج اتفاق الركل الذي عقدناه.

- «ألم يرقص قلبك، أو يُغشى عليك، في حضن الأمير؟».

كان يثير غيظي، لكن الشك بدا في نبرته.

أجبته: «أعتقد أنني منيعة، ولحسن الحظ أعلم ما ستبعثه قبلة حقيقية في نفسي».

تركته واقفًا في منتصف الميدان.. أعتقد أنني اعتدت إحراجه.

***

في الليلة التي سبقت دخولنا إلى (أوز ألتا)، مكثنا في منزل أحد النبلاء يبعد عن جدران المدينة ببضعة أميال، ذكَّرني إلى حدٍّ ما بـ (كيرامزين): كانت له بوابات حديدية هائلة، ومسار طويل مستقيم يؤدي إلى البناية الفخمة التي يزيِّنها قوسان من الطوب يشبهان الجناحين. اتضح أن الكونت (مينكوف) معروف بزراعته لشجيرات الفاكهة.. وجدت صفوفًا من الشجر المشذب يزين المداخل، ويملأ بدوره الغرف بروائح الخوخ والبرقوق.

أعطيت غرفة نومٍ فخمة في الطابق الثاني، وسكنت (تمار) الغرفة المجاورة، أما (توليا) و(مال) فكانا في الجانب الآخر من الردهة. وجدتُ صندوقًا كبيرًا في انتظاري على السرير، داخله وجدت زي الكفتا الذي طلبته منذ أسبوع، بيد أن (نيقولاي) أرسل أوامره إلى القصر الصغير، فانتهى المصنِّعون من الزي على أكمل وجه، وأضفوا خيوطًا ذهبية مشرقة على الحرير الأزرق الداكن. ظننته سيكون ثقيلًا في يدي، لكن الماتيريالكي جعلوا الزي خفيفًا كأنه بلا وزن أصلًا. ولما لبسته، جلا بريقه، كأنه بحرٌ ينعكس منه الضوء، وكمَّاه شمسان ذهبيتان جميلتان يسرَّان الناظرين،

.لا شك أنه سيعجب (نيقولاي)

أرسلت سيدة المنزل خادمة لتصفف شعري، أجلستني خلف طاولة الزينة، وأخذت تسرح خصلاتي، وتربطها في عقدٍ فضفاضة. يداها كانتا أرق من يدي (جينيا)، لكن النتيجة لم تكن مبهرة. نفضت تلك الفكرة عن ذهني؛ فإنني لم أعد أؤثر التفكير في (جينيا)، وفي مصيرها منذ أن غادرت الحواتة، أو في حقيقة أنني سأكون وحيدة في القصر من دونها.

شكرت الخادمة، وقبل أن أغادر غرفتي، التقطت الحقيبة المخملية السوداء الصغيرة من الصندوق الذي أتى فيه الزي، ووضعتها في جيبي ثم تأكدت أن كمي يخفي السوار، ونزلت الدرج.

تمركز حديث العشاء حول الأحداث الأخيرة، وعن الأماكن التي من المحتمل أن يتواجد فيها مستحضر الظلام، وعن مشكلات (راڤكا). لقد امتلأ البلد باللاجئين، وكل الوافدين الجدد يُمنَعون من الدخول عند البوابات، وانتشرت أقاويل عن أعمال شغب في القرى النائية، بعيدًا جدًّا عن هذا المكان الفخم، اندلعت بسبب الفقر والجوع.

امرأة الكونت بدينة، لها خصلات رمادية ملفوفة، وقسمات وجه بارزة. أعدَّت لنا وليمة من أشهى الطعم: حساء بارد صُبَّ في أكواب على شكل القرع مرصعة بالجواهر، ولحم ضأن مشوي مغموس في هلام الكشمش، وفطر مخبوز بالكريمة، ووقواق مشوي تناولت منه الكثير. كل طبق وكأس زُيِّنت حوافه بالفضة، ورُسِم عليه رمز عائلة (مينكوف)، لكن ما أبهرني حقًّا كان ما زيَّن الطاولة من منتصفها إلى حافتها: مجسم غابة مصغرة مصنوع بإتقانٍ وإحكام، غابة كاملة تحوي أشجار صنوبر دقيقة، وكرمة متناثرة عليها زهور لا يزيد حجمها على حجم الظفر، وشجرة بندق صغيرة تخفي تحتها قبوًا.

جلست بين (نيقولاي) والكولونيل (رايڤسكي)، أنصت إلى ضحكات وثرثرات الضيوف، ويشربون نخب عودة الأمير الصغير، ويصكون نخبًا آخر في صحة مستحضِرة النور. كنتُ قد طلبت من (مال) أن ينضم إلينا، لكنه رفض، وآثر حراسة الأرجاء مع (تمار) و(توليا)، حاولت جاهدة أن أركز في المحادثات القائمة، لكنني وجدتني أنظر عبر الشرفة، على أمل أن أراه.

أظن (نيقولاي) لاحظ ذلك، لأنه همس إليَّ قائلًا: «ليس عليك أن تنتبهي، لكن يجب أن تتظاهري بأنك تنتبهين».

بذلت قصارى جهدي، إلا أنني لم يكن لديَّ الكثير لأقوله. أجل، لقد كنت أرتدي زيًّا لامعًا، وأجلس بجانب أمير، لكنني لم أزل تلك الفقيرة التي وُلِدت في بلدةٍ بلا اسم، لم أشعر بالانتماء إلى هؤلاء الناس، ولا أود ذلك. ومع هذا، وجدتني أتمتم بصلاة شكر لـ (آنا كونيا) لأنها علَّمتنا نحن اليتامى كيف نجلس حول مائدة، وأي شوكة نختار لأكل القواقع.

وبعدما انتهى العشاء، قادونا إلى صالة حيث غنى الكونت وزوجته معًا، على أنغام القيثارة التي عزفتها ابنتهما. وضعت الحلوى على الطاولة الجانبية: مخفوق العسل، ومنقوع الجوز والبطيخ، وبرج من المعجنات المغطاة بالسكر المغزول الذي لا يصح أكله بل تأمله باشتهاءٍ فقط. أحضر المزيد من النبيذ، فأتى معه الكثير من الحديث.. طلبوا مني أن أستحضر الضوء، فقذفت كرة ضوءٍ براقة صوب السقف المجوف، فصفق الجميع في حماس. وعندما جلس بعض الضيوف ليلعبوا بأوراق اللعب، تظاهرت بأنني أشعر بالصداع، وفررت بهدوء.

أوقفني (نيقولاي) عند باب الشرفة وقال: «عليكِ أن تبقي معنا؛ فهذا تدريب جيد على روتين البلاط الملكي».

- «لكن القديسين يحتاجون إلى الراحة».

- «هل تخططين للنوم تحت شجرة مزهرة؟».

- «لقد لعبت دور الدبة المدللة على أكمل وجه يا نيقولاي.. لقد قمت بكل ما ينبغي لي فعله، والآن عليَّ أن أذهب إلى النوم».

تنهد وقال: «كنت أتمنى أن أذهب معك.. إن الكونتيسة ظلَّت تضغط على ركبتي أسفل الطاولة في أثناء العشاء، وأنا أكره اللعب بالأوراق».

- «ظننتك سياسيٌ محنك».

- «لقد أخبرتك من قبل أنني لا أطيق البقاء من دون حركة».

- «إذن عليكَ أن تطلب من الكونتيسة أن ترقص معك»، قلتها وعلى وجهي بسمة مشرقة، ثم تركت هواء الليل يحملني معه إلى الخارج.

نزلت الدرج إلى الحديقة، ثم استدرت لأرى (نيقولاي) ما زال يحوم حول المدخل، كان يرتدي زيه العسكري الكامل، وعلق على صدره حزام أزرق داكن. لمعت ميدالياته في ضوء الصالة، وأنارت أطراف شعره المذهب، كان يلعب دور الأمير اللامع الليلة، ولكنه الآن يبدو كصبيٍ وحيد لا يود العودة إلى الحفل بمفرده.

استدرت مجددًا ونزلت السلم الحلزوني المؤدي إلى الحديقة، لم أستغرق وقتًا طويلًا في العثور على (مال)؛ كان مستندًا إلى جذع شجر بلوط كبيرة، يتفحص الأرض الملونة.

سألته: «أرأيت أحدًا يختبئ في الظلام؟».

- «ليس ثمة أحد سواي».

وقفت بجانبه مستندة إلى الشجرة، وقلت: «كان عليكَ أن تنضم إلينا على العشاء».

فنخر وقال: «لا، أشكرك، لقد لاحظت عليك البؤس، ونيقولاي أيضًا لم يبد سعيدًا. إلى جانب هذا...»، نظر إلى زي الكفتا وأضاف: «ترى، ماذا كنت سأرتدي؟».

- «ألا يعجبك هذا الزي؟».

- «بل إنه رائع.. إضافة مذهلة إلى جهاز العروس».

وقبل حتى أن أندهش، أمسك بيدي وقال: «لم أقصد شيئًا.. إنك تبدين جميلة.. أردت أن أخبرك بهذا منذ أن رأيتك الليلة».

قلّت وقد توردت وجنتاي: «شكرًا لك.. إن استخدامي لقواي يوميًّا ساعدني كثيراً».

- «لكنك أيضًا كنت جميلة عندما كنّا في كوفتون، وعندما ملأت حبوب اليوردا حاجبيك».

وجدتني أمسك بخصلةٍ من شعري تلقائيًّا.

قلت: «يذكرني هذا المكان بكيرامزين».

- «قليلًا، لكنه مزدحم أكثر، ترى، ما فائدة تلك الفاكهة الصغيرة؟».

- «إنها للناس ذوي الأيدي الصغيرة.. تجعلهم يشعرون بالرضا تجاه أنفسهم».

جلجلت ضحكته.. كانت ضحكة حقيقية، نابعة من أعماقه. وضعت يدي في جيبي، وبحثت داخل الحقيبة المخملية السوداء.

قلت: «لقد أحضرت شيئًا لك».

- «وما هو؟».

مددت يدي المنغلقة.

- «خمِّن».

كانت تلك لعبة اعتدنا أن نلعبها منذ الصغر.

- «من الواضح أنها سترة».

هززتُ رأسي نفيًا.

- «دمية على شكل مهر؟».

- «كلا».

أمسك يدي، ولفَّها، ثم فتح أصابعي رويدًا، انتظرت أن أرى رد فعله.

انفتح ثغره عن آخره لما التقط الدبوس الذهبي من يدي، ملمس أصابعه الخشنة أصابني بالقشعريرة.

سألني: «هل هذا لقائد حرسك الشخصي؟».

تنحنحت وقد أصابني التوتر، وقلتُ: «إنني... إنني لم أرد أي أزياء رسمية.. ولم أرد أي شيء يشبه الأوبريتشنيكي!».

ساد الصمت للحظة طويلة، ظلَّ (مال) خلالها محدقًا إلى الدبوس الذهبي، ثم بعد ذلك أعاده إليَّ، شعرت بغصة في قلبي، لكنني حاولت أن أواري خيبة أملي.

قال: «ألن تلبسيه لي؟».

تنفَّست الصعداء، ثم أمسكت بالدبوس وحاولت تثبيته عدة مرات في ياقة قميصه اليسرى، وعندما انتهيت، تراجعت إلى الخلف، فأمسك بيدي ووضعها على الدبوس المصنوع على شكل شمسٍ ذهبية، تمامًا فوق قلبه.

- «أهذا كل شيء؟».

كنَّا نقف على مقربة الآن، وحدنا في دفء ظلام الحديقة، كانت تلك أول مرة نصير فيها بمفردنا منذ أسابيع.

«كل شيء؟».

علا صوتي فوق صوت أنفاسي قليلًا.

- «أظن أنني وُعدت بأن أُعطى رداء وقبعة فارهة».

- «سأعوضك عنهما».

- «هل أعتبر هذا غزلًا؟».

- «بل إنها مقايضة».

- «حسنًا، دعيني آخذ حقي الآن».

كانت نبرته هادئة، لكن حينما التقت شفاهنا، لم تكن قبلته بنفس الهدوء، كانت أنفاسه ساخنة، ومذاقه يشي بأنه تناول كمثرى ناضجة من حديقة الكونت. أحسست بمدى جوعه عندما أطبق شفتيه على شفتي بإحكامٍ.. تلك الحدة التي لم أعهدها من قبل قذفت داخلي شراراتٍ نابضة أشعلت جسدي.

وقفت على أطراف أصابعي، ولففت ذراعي حول رقبته، شعرت حينها أن جسدينا ينصهران، كان جنديًا قويًّا، له ذراعان صلبتان، شعرت بضغط أصابعه أسفل ظهري، حتى كاد يمزق الحرير وهو يقربني منه أكثر، كان شرسًا، وبائسًا، كأنه لم يكتف بتلك المسافة بيننا.

استمر رأسي في الدوران، وتباطأ سيل أفكاري كأنها صارت لزجة، ثم سمعت وقع أقدام، وفي اللحظة التالية، وجدت (تمار) تركض في الممر.

قالت: «هناك مشكلة».

انفصل (مال) عني، وأمسك ببندقيته بحركة واحدة سريعة، وسألها: «ما الأمر؟».

- «ثمة مجموعة من الناس يقفون عند البوابة، يطلبون رؤية مستحضرة النور».

حاولتُ استجماع أفكاري التي بعثرتها القبلة، سألتها: «هل هم حجاج؟».

فهزَّت رأسها وقالت: «بل يدعون أنهم من الغريشا».

- «هنا؟».

وضع (مال) يده على ذراعي، وقال: «انتظري في الداخل يا ألينا، إلى أن نرى ماذا سيحدث على الأقل».

ترددت؛ جزء مني أبى أن يهرب ويختبئ، وجزء آخر لم يرد التصرف بحماقة.

علت صيحة من مكانٍ ما بالقرب من البوابات.

انفلتت من قبضة (مال) وقلت: «لا! إذا كانوا حقًّا من الغريشا، فقد تحتاجون إليَّ».

لم يبدُ أنهما استساغا الفكرة، لكن كلا منهما اتخذ موقعه بجانبي، ثم ركضنا في الممر المرصوف بالحصى.

اجتمع الحشد عند البوابات الحديدية، كان من السهل رؤية (توليا) وسط الزحام، فقد بدا كبرجٍ شامخ بين الجميع، أما (نيقولاي) فكان في المقدمة، محاطًا بجنودٍ مسلحين، وبعض من رجال الكونت. احتشدت مجموعة من الناس على الجانب الآخر من القضبان، هزَّ أحدهم البوابة بغضبٍ، وسمعت صيحات تتداخل.

- «اذهبا بي إلى هناك».

رأيت (تمار) ترمق (مال) بنظرة قلق، لكنني رفعت رأسي بإصرارٍ.. فبما أنهما حارساي، فعليهما اتباع أوامري.

أردفت: «هيا، الآن! أود أن أرى ماذا سيحدث قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة».

أشارت (تمار) إلى (توليا)، فتقدَّم العملاق أمامنا، دافعًا الناس بكتفيه بسهولة، إلى أن وصلنا إلى البوابات. لطالما شعرت بمدى صغر حجمي، بالأخص وأنا أمضي الآن بين (مال) والتوأمين، ويتدافع الجنود نحونا من كل حدبٍ وصوبٍ.. شعرت فجأة أنني لا أستطيع التنفس، فسيطرت على ذعري، واستكملتُ المضي بين أجساد الواقفين حتى وصلت إلى (نيقولاي) الذي كان يتجادل مع شخصٍ ما عند البوابة.

قال أحدهم: «لو أردنا التحدث إلى الملك، لكنَّا اجتمعنا أمام بوابة القصر الكبير، لكننا أتينا لمستحضرة النور».

فصاح جندي لم أتبيَّن موقع: «أظهِر بعض الاحترام أيها الوغد.. إنك تتكلم مع أميرٍ من أمراء رافكا، وضابط في الجيش الأول».

لم يكن الوضع مطمئنًا.. دنوتُ أكثر من المقدمة، ثم توقفت عندما أبصرت الكوربورالكي الذي وقف خلف القضبان.

- «فيديور؟».

اتسع وجهه الطويل بابتسامة لطيفة، ثم انحنى بجسده، وقال: «ألينا ستاركوف.. كنت أتمنى أن تصح الشائعات».

تفحَّصتُ وجهه جيدًا، كان محاطًا بمجموعةٍ من الغريشا، غطى التراب أزياءهم، معظمهم يرتدون لون الكوربورالكي الأحمر، وبعضهم يرتدون لون الإثيريالكي الأزرق، وآخرون يرتدون لون الماتيريالكي البنفسجي.

سألني (نيقولاي): «أتعرفينه؟».

فأجبته: «نعم، لقد أنقذ حياتي يومًا».

تذكرت حينما ألقى (فيديور) بنفسه بين القتلة الفييردانيين.

انحنى بجسده مجددًا وقال: «كان ذلك شرفًا لي».

لم يبدُ على (نيقولاي) الانبهار، سألني: «هل في إمكاننا الوثوق به؟».

قال جندي آخر كان يقف إلى جانب (نيقولاي): «إنه متهرب من الجيش».

علت الهمهمات من جانبي البوابة.

أشار (نيقولاي) إلى (توليا) قائلًا: «أرجِع الكل إلى الخلف، وتأكد أنه ليس من بين هؤلاء المشاة من سيتسرع بإطلاق النار؛ فإنني أعتقد أنهم أصيبوا بالملل هنا بين أشجار الفاكهة»، ثم التفت صوب البوابة من جديدٍ، وقال: «اسمك فيديور، أليس كذلك؟ أعطِنا لحظة».

جذبني بعيدًا قليلًا عن الحشد وسألني بهدوء: «هل يمكننا الوثوق به؟».

- «لست أدري».

إن المرة الأخيرة التي رأيت فيها (فيديور) كانت في حفلة بالقصر الكبير، قبل ساعات من معرفتي بخطة مستحضِر الظلام، وهروبي في العربة، نقَّبت

في عقلي، محاولة تذكر ما قاله لي حينها.

- «أظنه كان يخدم في الحدود الجنوبية، إنه متلاعب بالقلوب رفيع المنصب، لكنه لم يكن من المقربين لمستحضر الظلام».

أومأ (نيقولاي) برأسه وهو ينظر نحو الجندي الغاضب، وقال: «إن نيفْسكي على حق.. فلا يهم إن كانوا من الغريشا أم لا، لكن ولاءهم الأول والأخير لا بد أن يكون للملك، لا تنسي أنهم تركوا مواقعهم، وهذا يعني أنهم -عمليًّا- متهربون».

- «لكن ذلك لا يجعلهم خونة».

- «السؤال المهم الآن: هل هم جواسيس أم لا؟».

- «إذن، ماذا نحن فاعلون بهم الآن؟».

- «يمكننا أن نقبض عليهم ونستجوبهم».

أخذت أعبث بكمٍّ زيي، وأطرقت أفكر.

قال (نيقولاي): «تحدثي معي».

- «ألسنا نخطط لعودة الغريشا؟ إذا قبضنا على جميع من يأتون إلينا، لن أجد جيشًا أقوده».

- «تذكري إنك ستأكلين معهم، وتعملين معهم، وتنامين معهم تحت سقفٍ واحد».

- «وقد يكونون في النهاية يعملون لصالح مستحضِر الظلام..».

استدرت لأرى (فيديور) الذي انتظر بصبرٍ عند البوابة.

قلتُ لـ (نيقولاي): «ما رأيك؟».

فأجاب: «لا أعتقد أننا في إمكاننا الوثوق بهم، أو حتى تخوينهم؛ إنهم لا يفرقون شيئًا عن هؤلاء الذين ينتظروننا في القصر الصغير».

- «هذا ليس مشجعًا».

- «عندما نصير خلف جدران القصر، ستراقب كل وسائل الاتصال جيدًا. ولذا، لا أظن أن مستحضر الظلام سيستطيع استخدام جواسيسه إن لم يصل إليهم».

قاومتُ إحساسًا ملحًّا بأن ألمس الندبات التي برزت على كتفي، تنفست بعمقٍ وقلت: «حسنًا، افتح البوابات، سأتحدث إلى فيديور فقط، وسيخيم البقية خارج المنزل الليلة، ثم سيرافقوننا غدًا إلى أوز ألتا».

- «هل أنت متأكدة؟».

- «لا أظنني سأكون متأكدة من أي شيء بعد الآن.. لكن جيشي ينقصه جنودٌ».

قال (نيقولاي) وهو يومئ إليَّ: «جيد جدًّا، لكن كوني حريصة بمن تثقين».

فنظرت إليه بحدة، وقلت: «سأفعل ذلك».

الفصل الثاني عشر

تحدثت إلى (فيديور) طوال الليل، إلا أننا لم نكن وحدنا للحظة؛ فقد ظل (مال)، و(توليا)، و(تمار)، يراقبوننا.

كان (فيديور) يخدم بالقرب من (سيكورسك)، عند الحدود الجنوبية، وعندما بلغت القاعدة الأقاويل عن دمار (نوڤوكريبيرسك)، انقلب جنود الملك على الغريشا، حد أنهم كانوا يسحبونهم من أسرَّتهم في منتصف الليل، ويقيمون محاكمات مزيفة بحجة اختبار انتمائهم، فقاد (فيديور) مجموعة من الغريشا، وتمكَّن من الفرار بهم.

قال: «كنَّا نستطيع أن نقضي عليهم جميعًا، لكننا جمعنا المصابين وهربنا».

بعض الغريشا لم يكونوا متسامحين، فحدثت مذابح في (تشيرناست) و(أولينسك) عندما حاول بعض الجنود شن هجمات على الجيش الثاني. في تلك الأثناء، كنت مع (مال) على سفينة ڤيرهادر، نبحر غربًا، بعيدًا عن الفوضى التي تسبَّبنا فيها من الأساس.

قال (فيديور) مستطردًا: «منذ عدة أسابيع، انتشرت بعض الشائعات أنك ستعودين إلى راڤكا، لذلك، توقعي أن يبحث عنك المزيد من الغريشا».

- «كم عددهم؟».

- «ليست ثمة طريقة لمعرفة ذلك».

يعتقد (فيديور)، تمامًا مثل (نيقولاي)، أن ثمة أفرادًا من الغريشا قد آثروا الاختباء، ينتظرون أمرًا بالعودة، ولكنه يشك أنهم قد اتخذوا صف مستحضر الظلام.

قال: «إنهم مقتنعون بأنه مصدر القوة والأمان».

قلتُ في نفسي: أو ربما يظنون أنهم اختاروا الجانب الرابح.

لكنني أعلم جيدًا أن الأمر يفوق ذلك؛ لقد شعرت بمدى قوة مستحضر الظلام، ألم يكن هو السبب في أن يتبع الحجاج قديسة مزيفة؟ وتُرى، لماذا لم يزل الجيش الأول يخضع لملكٍ كسول؟ أحيانًا يكون الاتِّباع أسهل من أي شيء آخر.

عندما انتهى (فيديور) من حكايته، طلبت أن يُحضَر إليه العشاء، ونصحته أن يستعد للسفر إلى (أوز ألتا) فجرًا.

قلت له: «لا أعلم كيف سيستقبلوننا».

- «سنكون على أتم استعداد يا مولاتي»، قالها وهو ينحني بجسده.

صدمني ذلك اللقب؛ ما زلت أقتنع أنه يليق بمستحضر الظلام أكثر.

مضيت معه إلى الباب، وقلت: «فيديور...»، ثم ترددت، لم أصدق أنني سأقول ذلك له، ولكن (نيقولاي) كان متفقًا معي.

أكملت: «أعلم أنك سافرت كثيرًا، لكن استعد للغد؛ لا بد أن نبدو في أفضل مظهرٍ».

لم يرمش بعينيه، اكتفى فقط بالانحناء، ورد قائلًا: «حسنًا يا مولاتي»، ثم اختفى في ظلام الليل.

قلت في نفسي: عظيم، ها قد أعطيت أمرًا من آلاف الأوامر القادمة.

***

في الصباح التالي، ارتديت زي الكفتا، ونزلت السلم مع (مال) والتوأمين. لمعت الدبابيس الذهبية المثبتة في صدورهم، إلا أنهم ما زالوا يرتدون ملابس القرويين الخشنة. أعلم أن (نيقولاي) لم يعجبه ذلك، لكنني أردت أن أكسر الحاجز الذي يفصل بين الغريشا وشعب (راڤكا).

لم يصر (نيقولاي) أن أركب العربة هذه المرة، على الرغم من التحذيرات التي تلقيناها من احتشاد الحجاج واللاجئين في (أوز ألتا)، لقد أراد أن يرى الجميع قدومي إلى المدينة، أي أن ذلك كان جزءًا من العرض المعتاد. امتطيت أنا وحراسي جيادًا بيضاء جميلة، وأحاطنا جنود من كل جانب، يرتدون جميعهم عقاب (راڤكا) المزدوج، ويحملون أعلامًا مرسومًا عليها شموس ذهبية.

- «غامضٌ كالعادة».

ردَّ (نيقولاي) وهو يمتطي حصانه الرمادي المرقط: «إن الاستخفاف أمرٌ مبالغ فيه.. والآن، هل سنزور منزل طفولتي الغريب؟».

كان صباحًا دافئًا، أخذت رايات موكبنا تتمايل في الهواء الساكن بينما نحن نمضي ببطءٍ على طريق ڤاي، متجهين صوب العاصمة. عادة تقضي العائلة الملكية الشهور الحارة في قصرهم الصيفي بمنطقة البحيرة، ولكن لأن (أوز ألتا) أسهل تأمينًا، فقد آثروا البقاء خلف أسوارها المزدوجة الشهيرة.

شرد ذهني؛ لم أحظَ بقسطٍ كافٍ من النوم. تآمر عليَّ دفء النهار، وتمايل الحصان، وهمهمات الحشرات، كي تتدلى ذقني على صدري، ولكن عندما صعدنا التل الذي يقف على أطراف المدينة، استيقظت على الفور.

أبصرت (أوز ألتا) في الأفق.. مدينة الأحلام، بأبراجها العالية التي تطعن سماء بلا سحاب. لكن ما حال بيننا وبين المدينة، صفوف الجند التي اصطفَّت في تشكيلٍ عسكري منضبطٍ: مئات من جنود الجيش الأول، أو ربما ألفٌ منهم، ما بين مشاة، وفرسان، وضباط. لمع ضوء الشمس على أسنة سيوفهم، وعلى البنادق المعلقة على ظهورهم. رأينا أمامنا رجلًا يرتدي معطف الضباط، معلقًا عليه العديد من النياشين، كان يركب أضخم حصان رأيته في حياتي.. حصان في وسعه أن يحمل فردين بحجم (توليا).

راقبه (نيقولاي) بينما كان يسرع جيئة وذهابًا بين الصفوف، ثم تنهد وقال: «يبدو أن أخي قد أتى ليحيينا».

مضينا ببطءٍ إلى أسفل المنحدر، ثم توقفنا أمام الحشود المنتظرة، وعلى الرغم من أننا كنا نمتطي أحصنة بيضاء، ونرفع رايات لامعة، فإن موكب الغريشا والحجاج لم يضاهِ فخامة هؤلاء الرجال، تقدم (نيقولاي) بحصانه، فتقدم أخوه بدوره ليحييه.

لقد رأيت (ڤاسيلي لانتسوف) عدة مرات في (أوز ألتا)، كان وسيمًا جدًّا، إلا أنه -مع الأسف- ورث عن أبيه ذقنه الصغيرة، وجفنيه الغليظين اللذين جعلاه يبدو دائمًا كالمخمورين، أو كأنه مصاب بالملل دائمًا. لكن يبدو الآن أنه قد نفض عنه تلك الحالة المستديمة؛ فاعتلى صهوة حصانه، يشع نبلًا وغرورًا، بدا (نيقولاي) بجانبه طفلًا على نحوٍ لا يصدق.

ارتعدت خوفًا.. لطالما بدا (نيقولاي) واثقًا بنفسه في كل المواقف، كان من السهل نسيان حقيقة أنه يكبرني و(مال) ببضع سنوات.. إنه ذلك القبطان الصبي الذي يطمح إلى أن يكون الملك الصبي.

كان (نيقولاي) بعيدًا عن البلاط الملكي سبع سنوات، ولا أظن أنه قابل (ڤاسيلي) خلال تلك الفترة، لكنهما لم يذرفا دمعًا، ولم يطلقا صيحة تحية، اكتفى الأميران بالترجل، والعناق الموجز.

جال (ڤاسيلي) ببصره في الحاشية، ثم توقف ليتفحصني.

قال: «هل هذه الفتاة التي تدَّعي أنها مستحضرة النور؟».

رفع (نيقولاي) حاجبيه، بيد أن أخاه لم يجد افتتاحية أفضل من تلك.

أومأ إليَّ وقال مخاطبًا (ڤاسيلي): «إنه ادعاء يسهل إثباته».

إن الاستخفاف أمرٌ مبالغ فيه.

رفعت يدي واستدعيت موجة ضوءٍ براقة، فاصطدمت بالجنود وانفجرت مدفئة الجو، رفعوا أيديهم وتراجعوا إلى الخلف، وأخذت أحصنتهم تتمايل

وتثور، ثم تركت الضوء يتلاشى.

شهق (ڤاسيلي) وقال: «لا بد أنك كنت مشغولًا جدًّا يا نيقولاي».

ردَّ (نيقولاي) بغبطة: «أنت لا تعلم إلى أي درجة يا ڤاسيا».

تغضنت شفتي (ڤاسيلي) عندما خاطبه (نيقولاي) بصيغة التصغير، حد أنه كاد يستشيط غضبًا.

أكمل (نيقولاي): «إنني مندهش لرؤيتك هنا في أوز ألتا، لقد ظننتك مشاركًا في سباقات كاريبڤا».

قال (ڤاسيلي): «كنت هناك بالفعل، قام فرسي الأزرق بعرضٍ مذهل، لكنني عندما علمت بعودتك إلى الديار، أردت أن أحييك».

- «إنه لطفٌ منك أن تتحمَّل كل تلك المتاعب».

- «إن عِودة الأمير ليست بالأمر الهين، حتى وإن كان الابن الأصغر».

كان توكيده واضحًا، مما قذف الخوف في نفسي، ربما قد استخف (نيقولاي) برغبة (ڤاسيلي) في اعتلاء العرش، لم أرِد تخيل بقية أخطائه وحساباته غير الدقيقة، وما قد يترتب عليها.

لكن (نيقولاي) اكتفى بالتبسم، تذكرت نصيحته: قابلي السباب دائمًا بالضحك.

قال: «نحن الأبناء الصغار تعلَّمنا أن نقدِّر ما نحظى به»، ثم نادى جنديًّا كان يقف منتبهًا، وقال: «أيها الرقيب پشكن، إنني أتذكرك من حملة هالمهند، لا بد أن ساقك قد تحسنت بما أنك تقف أمامي الآن مثل تمثال من حجر!».

اعتلت الدهشة وجه الرقيب الذي قال باحترامٍ: «أجل، مولاي الأمير».

- «ستفي «سيدي» بالغرض أيها الرقيب، إنني أرتدي الزي العسكري الآن، إذن فأنا ضابط ولست أميرًا».

التوت شفتا (ڤاسيلي) مجدداً؛ فإنه كان، مثل الكثير من أبناء الملوك، ممن منحوا رتبًا شرفية، وقضوا خدمتهم العسكرية في خيم الضباط، بعيدًا عن خطوط العدو، لكن (نيقولاي) خدم في سلاح المشاة، ونال رتبه ونياشينه باستحقاق.

قال الرقيب: «أجل يا سيدي.. وأشعر بالضيق فقط عندما تهطل الأمطار».

- «إذن تخيل أن الفييردانيين يصلون يوميًّا لكي تحدث عواصف، ستقضي على بعضٍ منهم وتريحهم من العذاب، أليس كذلك؟».

ابتسم الجندي وقال: «أذكر أنك قمت بنفس الشيء يا سيدي».

كادت تهرب من فمي ضحكة، ها قد خطف (نيقولاي) زمام الأمور من أخيه في غمضة عين، وعندما يجتمع الجنود الليلة في حانات (أوز ألتا)، أو حينما يلعبون بأوراق اللعب في ثكناتهم العسكرية، سيكون ذلك محط حديثهم: الأمير الذي تذكر اسم جندي عادي.. الأمير الذي حارب إلى جانبهم، من دون الالتفات إلى الغنى أو النسب.

قال (نيقولاي) مخاطبًا (ڤاسيلي): «دِعنا ننهي التحايا ونذهب إلى القصر، لديَّ صندوق ويسكي من كيرتش علينا إفراغه، كما أنني أود سماع نصيحتك بشأن مهر رأيته في كيرتدام، يقولون إن داجرينر هو مالكه، لكنني أشك في ذلك».

حاول (ڤاسيلي) مواراة حماسه، لكنه فشل؛ وهذا لأنه قال: «داجرينر؟ هل لديهم أوراق؟».

- «تعالَ لتلقي نظرة».

لم يزل الحذر طاغيًا على ملامح (ڤاسيلي). ذهب يحدِّث أحد القادة من الضباط، ثم اعتلى صهوة جواده بسلاسة تنم عن احترافه، اتخذ الأخوان موقعهما في المقدمة، ثم شرع الموكب في التحرك من جديد.

همس إليَّ (مال) حينما كنا نمضي بين صفوف الجنود: «يا لبراعته! نيقولاي ليس أحمق».

- «أرجو ذلك.. من أجل مصلحتنا».

لما اقتربنا من العاصمة، رأيت ما تحدث عنه ضيوف الكونت (مينكوف): بزغت مدينة من الخيم حول الأسوار، وانتظر صف طويل من الناس بالقرب من البوابات، الكثير منهم تجادلوا مع الحراس، لا شك كانوا يطلبون إذنًا للدخول. انتشر جنود مسلحون فوق الأبراج القديمة لأغراض المراقبة، وهو إجراء مهم لبلدٍ في حالة حرب، لكنهم أيضًا كانوا يحذرون الناس من إحداث الفوضى.

انفتحت بوابات المدينة بالطبع لأميري (راڤكا)، واستمر الموكب في المضي من دون توقف.

رسمت شموس بشعة المظهر على كثيرٍ من الخيم والعربات، وبينما كنا نمشي داخل المعسكر المؤقت، سمعت هتافًا اعتادته أذني: «سانكتا ألينا.. سانكتا ألينا».

شعرت ببعض الحماقة عندما أجبرت نفسي على رفع يدي والتلويح لهم، قررت أخيرًا أن أبذل بعض المجهود على الأقل، هتف الحجاج وبادلوني التلويحات، وركض الكثير منهم محاولين اللحاق بنا. آخرون من اللاجئين فضلوا الوقوف صامتين على جانب الطريق، عاقدين أذرعهم، وعلى وجوههم ملامح الريبة، وأحيانًا العداوة.

أطرقت أفكر: تُرى ماذا يرون الآن؟ أيرون غريشا محظوظة أخرى، ذاهبة إلى قصرها الفخم الآمن فوق التل، بينما هم يطهون طعامهم في الخلاء، وينامون تحت ظل مدينة ترفض أن يلوذوا بها؟ أم أنهم يرون ما هو أسوأ؟ هل أنا في نظرهم كاذبة؟ أم محتالة؟ أم فتاة تتنكر في زي قديسة؟

في النهاية، شعرتُ بالامتنان عندما عبرنا الأسوار الآمنة.

تباطأ سير الموكب، كانت البلدة السفلى تعج بالبشر، أرصفتها المزدحمة تلفظ الناس إلى شوارعها التي لا تفرغ. وضعت ملصقات على نوافذ المحلات، مكتوب عليها البضائع المتاحة، ارتصَّت طوابير عند كل مدخلٍ. طغت روائح البول والقاذورات فوق كل شيءٍ آخر، حد أنني أردت أن أدفن أنفي في زيي، لكنني قررت التنفس عن طريق فمي.

هتف الناس وهلَّلوا لرؤيتي أيضًا، لكنهم كانوا أكثر هدوءًا من هؤلاء الذين قابلناهم عند البوابات.

قلت لـ (تمار): «إنني لا أرى حجاجًا».

فقالت: «لا يسمح لهم بعبور أسوار المدينة.. لقد أعلن الملك أن المستشار الروحاني مرتدٌّ، فمنع تابعيه من دخول أوز ألتا».

لقد تآمر مع مستحضر الظلام حول العرش، وحتى إن كانوا قد قطعوا كل الروابط بينهما، فلم يكن ثمة سببٌ كافٍ للملك كي يثق به وبعشيرته.

حدثت نفسي: إنك أنت... أنت الحمقاء التي ستذهب إلى القصر الكبير وتطلب العفو.

عبرنا القناة الواسعة، تاركين أصداء الضجيج والجلبة في البلدة السفلى. لاحظت أن منزل الجسر حُصِّن جيدًا. وعندما وصلنا إلى الجانب الآخر، أحسست أن البلدة العليا لم يتبدل فيها شيء؛ فشوارعها الواسعة نظيفة ويخيم عليها السكون، ومنازلها الفخمة لا تحتاج إلى رعاية. مررنا بحديقةٍ خرج إليها الرجال والنساء، وأخذوا يتسكعون في ممراتها ذات الأشجار المهذبة، أو يمشون بعرباتهم المفتوحة في الهواء الطلق. أما الأطفال فقد لعبوا بالكرات، أمام أعين مربياتهم، ورأيت صبيًّا يرتدي قبعة من القش، يمتطي مهرًا تتدلى الشرائط من عرفه المجدل، يمسك بلجامه خادم.

جميعهم التفتوا لمَّا مررنا بهم، رفعوا قبعاتهم، وهمست شفاههم خلف أيديهم، وهمُّوا بالانحناء والركوع عندما لمحوا (ڤاسيلي) و(نيقولاي). تُرى،

هل كانوا حقًّا هادئين ساكنين كما بدوا؟ لم أقدر على تخيل أنهم لا يرون خطرًا يهدد (راڤكا)، ولا أنهم صمٌّ عما يدور على الجانب الآخر من الجسر، والأهم أنني لم أستطع تصديق ثقتهم بالملك إلى الحد الذي يجعلهم يظنون أنه سيحميهم من الخطر.

وصلنا إلى بوابات القصر الكبير الذهبية بسرعةٍ، مما بعث الضيق في نفسي، وانتابني من الذعر الكثير لما سمعت صوت انغلاقهم القوي. أتذكر آخر مرة مررتُ فيها بتلك البوابات: حينما اختبأت أسفل قماشة في عربة، هاربة من مستحضر الظلام بمفردي.

راودني سؤال فجأة: ماذا لو كان هذا فخًا؟ ماذا لو لم يكن ثمة عذرٌ؟ ماذا لو أن (نيقولاي) لم يردني أن أقود الجيش الثاني أصلًا؟ ماذا لو كبّلوني أنا و(مال) بالأصفاد وألقوا بنا في زنزانة رطبة؟

وجدتني في الوقت ذاته أؤدب نفسي قائلة: اصمتي! إنك لست تلك الفتاة الصغيرة الخائفة التي يهتز جسدها في زيها العسكري؛ إنك غريشا، مستحضرة النور، إنهم يحتاجون إليك، وفي إمكانك هدم ذلك القصر بأكمله فوق رؤوسهم إذا أردت.

فردت ظهري، وحاولت تهدئة نبضات قلبي.

عندما وصلنا إلى نافورة العقاب المزدوج، ساعدني (توليا) على الهبوط من فوق حصاني. جلتُ ببصري حول القصر الكبير.. شرفاته البيضاء البراقة تزينها طبقات من الزخارف الذهبية، والتماثيل، لم يزل القصر بشع المظهر ومخيفًا مثلما أتذكره.

أعطى (ڤاسيلي) الخادم المنتظر لجام فرسه، ثم صعد الدرجات الرخامية من دون أن يلتفت.

فرد (نيقولاي) كتفيه وقال لنا: «حافظوا على هدوئكم، وحاولوا أن تتظاهروا ببعض الندم»، ثم صعد السلم لينضم إلى أخيه.

لاحظت شحوب وجه (مال)، مسحت يدي المتعرقتين في الكفتا، ثم تبعنا الأميرين، تاركين الموكب خلفنا.

بالداخل، ساد الصمت في أروقة القصر، بينما كنا نمرُّ بغرفة لامعة تلو غرفة لامعة. تردد صدى وقع أقدامنا على الأرضية اللامعة، وتردد معها الخوف داخلي. رأيت (نيقولاي) يقف أمام غرفة العرش، يتنفس بعمق. بدا زيه مهندمًا، وقسمات وجهه لأميرٍ من حكاية خرافية، وجدتني أشتاق إلى أنف (ستورمهوند) المتكتلة، وعينيه الطينيتين.

فُتِحت الأبواب على مصراعيها، ونادى الخادم: «ولي العهد ڤاسيلي لانتسوڤ، والدوق الأكبر نيقولاي لانتسوڤ».

كان (نيقولاي) قد أخبرنا أن قدومنا لن يُعلَن عنه، وأن علينا اتباعه هو و(ڤاسيلي)، مشينا بخطواتٍ مترددة، تراكين مسافة احترام بيننا وبين الأميرين.

امتدت سجادة زرقاء شاحبة بطول الغرفة، وفي نهايتها وقفت مجموعة من رجال البلاط الملكي والمستشارين، ارتصوا أمام المنصة، ومن فوقهم، جلس ملك وملكة (راڤكا)، على عرشين متماثلين من الذهب.

عندما دنوت منهما، لم أجد أي كاهنٍ، دائمًا ما كان يقبع المستشار الروحاني في مكانٍ ما خلف الملك، لكن غيابه اليوم كان غامضًا، يبدو أنه لم يُستبدَل به أحدٌ.

بدا الملك أكثر نحافةً وضعفًا منذ آخر مرة رأيته فيها، صدره الضيق تكهف على نفسه، واكتسى شاربه الرفيع باللون الرمادي. لكن الملكة هي من ظهر عليها التغير الأكبر؛ لم تكن (جينيا) متواجدة لتعتني بوجهها، ولذلك بدت كأنها تقدمت في السن عشرين سنة في بضعة أشهر فقط، كما فقدت بشرتها نعومتها ولمعانها، ونمت أخاديد عميقة حول أنفها وثغرها، وقلَّت زرقة حدقتيها التي كانتا براقتين أكثر من اللازم، فعادتا طبيعيتين. تلاشى شعوري

بالإشفاق عليها عندما تذكرت كيف كانت تعامل (جينيا)، ربما لو كانت الملكة قد تعاملت مع خادمتها بطريقةٍ أقل احتقارًا، لظلَّت (جينيا) معها، ولم تلق بنفسها في أحضان مستحضر الظلام؛ وكانت ستتغير أشياء أخرى كثيرة.

عندما وصلنا إلى قاعدة المنصة، انحنى (نيقولاي) وقال: «مولاي الملك.. مولاتي الملكة».

أطال كلاهما النظر في وجه ابنيهما، وإذا بالملكة تنتفض من فوق عرشها فجأة، كأن حشرة لدغتها، ونزلت السلم الذي غطاه فستانها الحريري المرصع باللآلئ.

- «نيقولاي!»، صاحت وهي تحتضن ولدها.

- «أمي»، ابتسم وبادلها الاحتضان.

علت همهمات الحشد، وصاحبه تصفيق ساخن، اغرورقت عينا الملكة بالدموع، كانت تلك أول مرة تبدي فيها مشاعرها.

نهض الملك ببطء، ساعده خادم كان يقف بجانبه، وأرشده إلى السلم. لم يبدُ في حالةٍ جيدة، وهذا ما جعلني أفكر في من سيكون ولي العهد على نحوٍ أسرع مما ظننت.

مدَّ الملك ذراعه إلى ولده وقال: «تعال يا نيقولاي.. تعال».

تعلق والدا (نيقولاي) بذراعيه، ومضوا جميعًا إلى خارج غرفة العرش، دون حتى أن ينظروا إلينا، تبعهم (ڤاسيلي) بوجهٍ تعتليه ملامح اللامبالاة، إلا أنني لاحظت أن شفتيه ما زالتا متغضنتين.

بقيت أنا و(مال) في مكاننا، لا نعلم ماذا علينا أن نفعل، كان أمرًا لطيفًا أن نرى العائلة الملكية ذاهبة إلى اجتماعٍ خاص، ولكن ما الذي علينا فعله الآن؟ لم يطلب منا أحد أن ننصرف، وفي الوقت ذاته لم نؤمر بالبقاء. رمقنا مستشارو الملك بنظراتٍ تشع بالفضول، أما رجال البلاط الملكي فأخذوا يتهامسون فيما بينهم، واكتفيت أنا برفع رأسي بتغطرس.

مرَّت الدقائق ببطء. أصابني الجوع والإعياء، وتأكدت أن إحدى قدمي خلدت في سباتٍ عميق، لكننا ما زلنا في مكاننا. لحظاتٌ وسمعت صياحًا يأتي من الردهة.. ربما كانوا يتجادلون حول المدة التي يجب أن نقضيها واقفين في انتظارهم.

في النهاية، وبعد مرور ما يقرب من ساعة، عادت العائلة الملكية، ابتهج وجه الملك، وشحب وجه الملكة، وتملك الغضب من (ڤاسيلي)، وشعر (نيقولاي) براحةٍ أكثر، وعاد يتبختر مثلما كان يفعل على متن سفينة ڤولكڤولني.

قلت في نفسي: لا بد أنه أخبرهم بأنه (ستورمهوند).

جلس الملك والملكة على عرشيهما من جديدٍ، وقف (ڤاسيلي) خلف الملك، وكذلك وقف (نيقولاي) خلف الملكة، مدَّت يدها طالبة يده، فوضعها على كتفها.

هكذا تبدو الأم بصحبة ابنها.

كنت أكبر من أن أتلهف على أبوين لم أرهما من قبل، لكنني تأثرت بالمشهد على أي حالٍ.

نفَّض صوت الملك تلك الأفكار عن رأسي عندما قال: «إنك صغيرة جدًّا على قيادة الجيش الثاني».

لم يهتم بالنظر إليَّ.. انحنيت برأسي، وقلت: «نعم يا جلالة الملك».

- «لقد فكرت في إعدامك على الفور، لكن ولدي أخبرني أنني بهذا سأجعل منك شهيدة».

صدمني قوله.. بتُّ أفكر والخوف ينتشر بداخلي: لا شك أن المستشار الروحاني سيعجبه ذلك؛ ستضاف إلى الكتاب الأحمر صفحة بها رسمة للقديسة ألينا أمام المشنقة.

أردف الملك: «إنه يظن أننا يمكننا الوثوق بك، أنا لست متأكدًا من ذلك، خصوصًا لأن قصة هروبك من مستحضر الظلام غير محتملة التصديق، لكنني في النهاية لا أستطيع إنكار حقيقة أن رافكا تحتاج إلى خدماتك».

كلامه جعلني أشعر بأنني حارسة حقل، أو ربما موظفة بإحدى المقاطعات.

ذكرت نفسي: عليك التظاهر بالندم.

وجفَّ على شفتي ردٌّ طريف كدت ألفظه.

قلت: «إنه لأكبر شرف لي أن أخدم ملك رافكا».

لا أدري إذا كان الملك قد أعجب بذلك التملُّق، أم أن (نيقولاي) قد أقنعه بحالتي ببراعة، لأن الملك نخر وقال: «جيد جدًّا، ستكونين قائدة الغريشا، على الأقل مؤقتًا».

تُرى، هل الأمر بهذه البساطة؟

- «إنني... أشكرك يا جلالة الملك».

تلعثم لساني من فرط الامتنان.

أشار بإصبعه إليَّ وقال: «لكن اعلمي هذا: إذا وصلني إثبات بأنك قمت بأي فعلٍ به تحريض عليَّ، أو أنك تواصلت بأي طريقةٍ مع المستشار الروحاني المرتد، سآمر بإعدامك من دون محاكمة أو حتى سماع عذر».

ثم علا صوته حد الصياح وهو يضيف: «يقول الناس إنك قديسة، لكنني أراك لاجئة محض، رثة الثياب، أتفهمين ذلك؟».

قلت في نفسي وقد استشاط غضبي: تلك اللاجئة رثة الثياب هي خيارك الأفضل لتحافظ على عرشك اللامع!

قمعت غروري، وانحنيت بجسدي قدر استطاعتي، هل شعر مستحضر الظلام بمثل ما شعرت به الآن؟ هل أُجبِر على الانحناء وطاعة أوامر أحمق فاسق كهذا؟

لوح الملك بيده التي نفرت منها العروق الزرقاء، كان هذا أمرًا بالانصراف.

نظرت إلى (مال)، وإذا بـ (نيقولاي) يتنحنح ويقول: «ثمة أمرٌ آخر يخص المتعقب يا أبي».

- «همممم؟»، نظر الملك إلى الأعلى كأنه استفاق من قيلولة، وقال: «الـ..؟ نعم...»، نظر إلى (مال) بعينيه الدامعتين وأتبع بنبرةٍ يغلب عليها الملل: «لقد هجرت وحدتك، وعصيت الأوامر المباشرة لقائدك، وتلك جريمة عقابها الشنق».

أخذت نفسًا عميقًا، وقف (مال) بجانبي بثباتٍ، داهمتني فكرة سيئة: إذا كان (نيقولاي) يخطط للخلاص من (مال)، فتلك أسهل طريقة لذلك.

علت همهمات الحشد المجتمع أمام المنصة، أيعقل أن يحدث كل ذلك بسببي؟ فتحت فمي، وقبل أن أنبس بكلمة، تحدث (نيقولاي) بأدبٍ قائلاً: «اعذرني يا مولاي الملك، لكن هذا المتعقب قد أعان مستحضرة النور على الهروب من أسر عدو المملكة».

- «لو كانت حقًّا في خطر كم تزعم..».

- «لقد رأيته يقاتل مستحضِر الظلام بأم عيني، إنه صديق مخلص، وأعتقد أنه تصرف بما يتناسب مع مصلحة رافكا».

التوت شفة الملك السفلى، ولكن (نيقولاي) لم يعطه فرصة للتحدث، فأضاف سريعًا: «كما أنني أشعر بأن وجوده في القصر الصغير سيكون نافعًا».

تبدَّلت ملامح الملك.

إنه على الأرجح يفكر في الغداء والقيلولة.

قال الملك مخاطبًا (مال): «هل عندك ما تقوله يا فتى؟».

فأجابه بهدوء: «إنني فقط قمت بما ظننته صحيحًا».

- «لكن ولدي يعتقد أنك تملك سببًا وجيهًا».

- «يظن كل الرجال أن أسبابهم وجيهة.. هذا لا ينفي عني تهمة التهرب».

نظر (نيقولاي) إلى السقف، أردت أن أهز (مال) لكي ينتبه لما يقوله، ألا يستطيع أن يكون أقل صراحةً مرة واحدة؟

ازداد وجه الملك عبوسًا.. انتظرنا دونما كلام.

قال الملك أخيرًا: «حسنًا، لن يهم أن نضيف دبورًا آخر إلى عش الدبابير، لكنك ستُسرَّح من الجيش».

قلت: «سيُسرَّح؟».

انحنى (مال) واكتفى بقول: «أشكرك يا جلالة الملك».

رفع الملك يده ولوَّح بكسلٍ، ثم قال بحدة: «اذهبا».

وددت أن أبقى وأتناقش معه في الأمر، لكن (نيقولاي) رمقني بنظرة تحذير، ووجدت (مال) قد استدار بالفعل وغادر. سرت على غير هدى كي ألحق به بينما كان يمشي في الممر ذي السجادة الزرقاء.

ولما غادرنا غرفة العرش، وانغلق الباب خلفنا، قلت له: «سوف نتحدث مع نيقولاي، لا بد أن يقنع الملك».

فقال من دون أن يتوقف عن المشي: «ليس هناك داعٍ لذلك.. كنت أعلم أن هذا ما سيؤول إليه الأمر».

شعرت من هزة كتفيه أن الأمل لم يفارقه بعد، أردت أن أتشبَّث بذراعه.. أن أوقفه.. أن أخبره أنني آسفة.. أننا سنجد طريقة لإصلاح الأمور. لكنني أسرعت لأمشي بجانبه، باذلة ما في وسعي كي لا أتخلف عنه، ومدركة حقيقة أن جميع الخدم يراقبوننا من كل مدخل.

عدنا من الطريق الذي أتينا منه، مضينا في ممرات القصر اللامعة، ونزلنا السلم الرخامي. وقف (فيديور) والغريشا بجانب أحصنتهم، بيد أنهم حاولوا تنظيف ملابسهم قدر المستطاع، إلا أن أزياء الكفتا ذات الألوان

المشرقة خاصتهم لم تزل متسخة قليلًا. وقف التوأمان بعيدًا عنهم بمسافةٍ قصيرة، لمع الدبوسان الذهبيان على ردائيهما الخشنين.

أخذت نفسًا عميقًا.. لقد فعل (نيقولاي) أقصى ما يمكنه فعل، وها قد حان دوري.

الفصل الثالث عشر

قادنا المسار المتعرج، المرصوف بالحصى الأبيض، عبر أراضي القصر. مررنا بالمروج والمباني الفخمة، والأسوار الضخمة لمتاهة الأشجار. تمايل (توليا) فوق سرج حصانه، كان صامتًا حد أن شفتيه بدتا كخطٍّ واحدٍ كئيب على وجهه.

سألته: «ما خطبك؟».

ظننته لن يجيب، لكنه قال: «إن الهواء يحمل رائحة الضعف والوهن هنا.. كأن الجميع هنا ناعمون!».

ألقيت نظرة على المحارب الضخم وقلت: «سيبدو أي أحد ناعمًا إذا قورن بكَ يا توليا».

في كثيرٍ من الأحيان تسخر (تمار) من تقلبات أخيها المزاجية، إلا أنها فاجأتني بقولها: «إنه محق؛ فهذا المكان يبدو على وشك الانهيار».

لم يهدئ كلامهما من روعي، بل زاد الطين بلة.

لقد اشتعل غضبي بسبب الحاضرين في غرفة العرش، وكنت لم أزل ساخطة على الملك.. يعلم القديسون أنه يستحقه؛ كان عجوزًا فاسقًا، يحب مضاجعة الخادمات، وقائدًا فاشلًا، هدد بإعدامي، وإعدام (مال)، في غضون دقائق من مقابلتنا، وها هو سخطي يتفاقم فقط لأنني فكرت في ذلك الأمر.

تسارعت ضربات قلبي لما دخلنا النفق الخشبي، مالت الأشجار علينا، أغصانها المتشابكة بدت كقبة خضراء، أذكر آخر مرة رأيتها فيها.. كانت عارية تمامًا.

خرجنا إلى أحضان الشمس المشرقة، فتجلى من تحتنا القصر الصغير.

لقد اشتقت إليه.

اشتقت إلى بريق قبابه الذهبية، وجدرانه الغريبة التي حُفِر عليها جميع أنواع الوحوش الحقيقية والخيالية.. اشتقت إلى البركة الزرقاء اللامعة، التي تبدو كقطعةٍ من السماء على هذه الأرض، والجزيرة الصغيرة التي لا تقع في منتصفها بالضبط، وسرادقات المستحضرين التي تبدو كدوائر بيضاء على ساحلها، لم يكن ثمة مكان مثله.. فاجأني ذلك الشعور بأنه بمنزلة بيتٍ لي.

لكن لا شيء يبقى على حاله.

انتشر جنود الجيش الأول في الساحات، حاملين بنادقهم على ظهورهم. لا أظنهم سيستطيعون صد مجموعة من المتلاعبين بالقلوب، ومستحضري الرياح، ومستحضري النار، لكن الرسالة كانت واضحة: أن الغريشا لا يجب الوثوق بهم.

أبصرت بعض الخدم، يرتدون ملابس رمادية، يقفون بانتظارنا بجانب السلم كي يأخذوا أحصنتنا.

همس إليَّ (مال) وهو يساعدني على النزول من فوق حصاني: «هل أنت مستعدة؟».

- «أتمنى أن يأتي يوم لا يسألني فيه الناس هذا السؤال، ألا يبدو عليَّ الاستعداد؟».

- «لقد بدوت كذلك من قبل، عندما انزلق الشرغوف من يدي، وسبح في حسائك، وتناولتِه من دون أن تشعري».

قمعت ضحكة كادت تهرب مني، أحسست أن قلقي بدأ يتلاشى.

قلت له: «شكرًا لتذكرتي بذلك، لا أظنني انتقمت منك بعد».

توقفت لأهندم زي الكفتا، آملة أن تكف ساقاي عن الارتعاش، ثم صعدت السلم، فتبعني الآخرون. فتح لنا الخدم الأبواب، فهممنا بالدخول، خضنا في ظلمة غرفة الاستقبال، ثم دلفنا إلى قاعة القبة الذهبية.

كانت غرفة ضخمة، لها ستة أركان، تتشابه أبعادها مع أبعاد كاتدرائية، جدرانها المنحوتة مطعمة باللآلئ، تعلوها قبة ذهبية هائلة بدت كأنها تسبح فوقنا، على علوٍ ليس لا مثيل. كانت ثمة أربع طاولات، مرتبة على شكلٍ مربعٍ، في منتصف الغرفة. انتظرنا الغريشا هناك، وعلى الرغم من تقلُّص عددهم، فإنهم حافظوا على ترتيبهم: يجلسون أو يقفون في جماعاتٍ متراصة.. حمراء وأرجوانية وزرقاء.

قال (توليا) متذمرًا: «إنهم يحبون الألوان الزاهية».

فهمست إليه: «لا تعطِني أفكارًا؛ فقد أقرر أن يلبس حراسي بناطيل صفراء مشرقة».

ولأول مرة، لمحت تعبيرًا في وجهه أقرب إلى الخوف.

نهض الغريشا من مجلسهم حينما تقدمنا، لاحظت أن معظمهم من الشباب، فأدركت ويا ليتني ما أدركت أن كثيرًا من ذوي الخبرة الذين يكبرونهم سنًّا، اختاروا أن يلوذوا بمستحضر الظلام.. أو ربما قد رأوا أن الحكمة تقتضي الهروب.

كان توقعي في محلِّه: أن القليل من الكوربورالكي سيختارون البقاء؛ فإنهم الأقوى بين المقاتلين، والأعلى رتبة بين الغريشا، والأقرب إلى مستحضر الظلام.

لم تزل هناك وجوه مألوفة؛ فكان (سيرجي) من بين المتلاعبين بالقلوب القلائل الذين آثروا البقاء، ومن الإثيريالكي رأيت (ماري) و(ناديا)، كما دهشت لرؤية (ديڤيد)، متراخيًا في مجلسه على طاولة المصنعين. كنت أعلم أنه راودته بعض الشكوك حول مستحضر الظلام، لكن هذا لم يمنعه

من وضع طوق الأيل على رقبتي، ربما هذا هو السبب الذي يمنعه من النظر إليَّ الآن، أو أنه يتوق إلى العودة إلى ورشته.

لاحظت أيضًا أن كرسي مستحضر الظلام الأسود قد أزيل، وطاولته كانت فارغة.

تقدم (سيرجي) أولًا، وقال بحزمٍ من دون أن ينحني لي: «ألينا ستاركوف، أود أن أرحب بعودتك إلى القصر الصغير».

جال التوتر حول الغرفة، كأنه طيفٌ أو حيوان حي، أراد جزء مني ذبحه، ويا لها من مهمة سهلة؛ سأتبسم، أو أضحك، أو أحتضن (ماري) و(ناديا). وعلى الرغم من أني لم أشعر يومًا بانتمائي إلى هذا المكان، فإنني تظاهرت جيدًا بذلك، وسيكون من الأفضل أن أكرر ذاك التظاهر ثانية.

لكنني تذكرت تحذيرات (نيقولاي) ومنعت نفسي؛ فإن الضعف زي تنكري.

تعمدت التحدث بطريقة غير رسمية وأنا أرد عليه قائلة: «أشكرك يا سيرجي، إنني سعيدة بعودتي».

فقال: «لقد انتشرت شائعات كثيرة عن عودتك، وانتشرت شائعات أكثر عن مصرعك».

- «لكن كما ترى الآن، أنا حية، وبأفضل حال بعد أسابيع من السفر على طريق ڤاي».

- «قيل إنك أتيت بصحبة ابن الملك الثاني».

ها هو التحدي الأول.

ابتسمت وقلت: «هذا صحيح، لقد أعانني خلال معركتي مع مستحضر الظلام».

علت الهمهمات داخل الغرفة.

سألني (سيرجي) مرتبكًا: «في الطية؟».

فأجبت مصححة: «بل في البحر الحقيقي».

همهم الحشد ثانية، رفعت يدي، وإذا بهم يسكتون.

أجبريهم على تنفيذ أوامرك البسيطة كي ينفذوا أوامرك الهامة.

أردفت: «عندي الكثير من القصص لأرويها، والكثير من المعلومات لأبلغها، لكنني سأؤجل كل ذلك الآن؛ فقد عدت إلى أوز ألتا لسببٍ».

- «تحدث البعض عن حفل زفاف..».

- «لكنني لم آتِ إلى هنا كي أصير عروسًا.. لقد عدت لسببٍ واحد فقط».

لم يكن ذلك صحيحًا، لكنني بالطبع لن أذكر أمر مضخم القوى الثالث لأفرادٍ من الغريشا لا يمكن الوثوق بولائهم.

تنفست بعمقٍ واكتفيت بقول: «إنني عدت لأقود الجيش الثاني».

تحدث الكل في آنٍ واحد، هلَّل البعض، وصاح البعض الآخر بغضبٍ، لمحت (سيرجي) يتبادل النظرات مع (ماري)، وعندما ساد الهدوء في الغرفة من جديدٍ، قال: «وماذا قد نتوقع غير ذلك؟».

- «لقد وافق الملك على أمر القيادة».

مؤقتًا، جالت بذهني ولكنني لم ألفظها.

انتشر الهتاف والصياح من جديد.

تنحنح (سيرجي) وقال: «إنك مستحضرة نور يا ألينا، ونحن سعداء بعودتك سالمة، لكنكِ لستِ مُؤهلة لقيادة حملة عسكرية».

- «لن يحدث ذلك فرقًا، ما دمت قد حظيت بمباركة الملك».

- «سنذهب إذن لنتحدث إلى الملك.. إن الكوربورالكي هم أعلى رتب الغريشا، ويجب أن يقودوا الجيش الثاني».

- «بالنسبة إليكَ يا سافك الدماء».

عندما سمعت ذلك الصوت الناعم، علمت على الفور من المتحدث، فقفز قلبي إلى حلقي عندما لمحت شعرها الذي يشبه جناح الغراب. تقدمت

(زويا) بين صفوف الإثيريالكي، جسدها الممشوق مغطى بالحرير الصيفي الأزرق، وعيناها جوهرتان لامعتان، تحرسهما رموش طويلة.

بذلت قصارى جهدي كي لا ألتفت لأرى رد فعل (مال).

إن (زويا) هي الغريشا الوحيدة التي فعلت كل ما في وسعها لكي تجعل حياتي بائسة خلف أسوار هذا القصر؛ لقد سخرت مني، ونشرت شائعات عني، وكسرت ضلعين لي! كما أنها كانت الفتاة الوحيدة التي لفتت انتباه (مال) وقتًا طويلًا، عندما كنَّا لم نزل في (كريبيرسك)، لا أدري ماذا حدث بينهما، لكنني لا أظن الأمور قد توقفت عند محادثة طويلة.

قالت (زويا): «إنني أتحدث بالنيابة عن الإثيريالكي، ونحن سنتبع مستحضرة النور».

جاهدت كي لا أظهر اندهاشي؛ فإنها آخر شخص أظن أنه سيدعمني، تُرى أي لعبة هذه؟

قالت (ماري) بخفوتٍ: «ليس جميعنا».

لم أتفاجأ، لكن الضيق أصابني على أي حالٍ.

ضحكت (زويا) ضحكة ازدراء، ثم قال: «أجل، نحن نعلم أنك تدعمين سيرجي في جميع قراراته يا ماري، لكن هذا ليس موعد حب في حمامات الـ «بانيا»، نحن نتحدث الآن عن مستقبل الغريشا، ومستقبل راڤكا بأكملها».

قوبل كلام (زويا) بضحكاتٍ مكتومة، واحمرَّ وجه (ماري).

قال (سيرجي): «هذا يكفي يا زويا».

تقدم أحد الإثيريالكي إلى الأمام، لم أكن أعرفه.. كانت له بشرة داكنة، وندبة خافتة فوق خده الأيسر، تطريز زيه وشى بأنه من مستحضري النار.

قال: «إن ماري محقة؛ أنت لا تتحدثين بالنيابة عنَّا جميعًا يا زويا، بالطبع أنا أفضِّل أن يقود الجيش أحد الإثيريالكي، ولكن ليس هي؛ إنها لم

تتربى هنا!».

صاح أحد الكوربورالكي: «هذا صحيح! إنها لم تكمل عامًا كواحدة من الغريشا!».

فزعق (توليا): «لكن الغريشا يولدون غريشا، لا يتحولون إلى غريشا».

تنهدت داخليًا.. قلت في نفسي: بالطبع! ها هو أخيراً قد خرج من قوقعته!

سأله (سيرچي) بنبرةٍ يشوبها الغرور: «ومن أنت؟».

تحسَّس (توليا) سيفه المقوس وأجاب: «أنا توليا يول باتار، تربيت بعيدًا عن رحم هذا القصر المشؤوم، وسأحب أن أريك كيف في إمكاني إيقاف قلبك».

قال (سيرچي) وقد بدت عليه الريبة: «هل أنت من الغريشا؟».

فأجابه (توليا) وعيناه الذهبيتان تلمعان: «تمامًا مثلك».

قال (سيرچي) مخاطبًا (مال): «وماذا عنك؟».

- «أنا جندي محض»، ثم وقف بجانبي وأضاف: «جنديها الخاص».

قال (فيديور) مضيفًا: «مثلنا جميعًا.. لقد عدنا إلى أوز ألتا لنخدم مستحضرة النور، لا صبيًّا مغرورًا».

نهض فرد آخر من الكوربورالكي وقال: «إنك واحد من هؤلاء الجبناء الذين فرُّوا عندما سقط مستحضِر الظلام، وليس من حقك أن تأتي هنا لتسبنا».

صاح مستحضر رياح آخر: «وماذا عنها؟ كيف نتأكد أنها لا تعمل مع مستحضر الظلام؟ لقد ساعدته على تدمير نوفوكريبيرسك».

صاح آخر: «وتقاسمت معه سريره!».

تردد صوت (نيقولاي) في رأسي: لا تتخلي أبدًا عن الإنكار.

قال مصنعٌ: «ما علاقتك بنيقولاي لانتسوف؟».

صاح صوتٌ غليظٌ آخر: «وما كانت علاقتك بمستحضر الظلام؟».
قلت بنبرةٍ باردة: «هل سيحدث ذلك فرقًا؟».
شعرت أنني أوشكت على فقد أعصابي.
ردَّ (سيرچي): «بالطبع، فكيف سنتأكد من ولائك؟».
صاح أحد المستحضرين: «ليس من حقك أن تسألها!».
سأل معالجٌ: «لماذا؟ ألأنها قديسة الآن؟».
صاح آخر: «ضعوها في كنيسة! هذا أفضل! أخرجوها هي وكل الرعاع الذين اتبعوها من القصر الصغير!».
وضع (توليا) يده على سيفه، ورفع (سيرچي) و(تمار) أيديهما، وأمسكت (ماري) بحجر الصوان، وغمرت الغرفة رياح المستحضرين التي رفعت حواف زيي. ظننت أنني مستعدة لمواجهتهم، لكن في الواقع لم أكن مستعدة لتيار الغضب الذي تدفق بداخلي، آلمني جرح كتفي، وتحرر شيء ما بداخلي.
أبصرت وجه (سيرچي) الهازئ، ازدادت قوتي بدافعٍ شرير واضح، رفعت ذراعي، فإن كانوا يريدون تعلم درس، سأعطيهم إياه، وفي إمكانهم حينئذٍ مناقشته مع أشلاء جثة (سيرچي). كوَّنت قوسًا في الهواء، ووجهته نحوه، صار الضوء نصلًا حادًّا سنَّه حنقي الشديد.
وفي الثانية الأخيرة، تخلل بصيص من العقلانية ضباب غضبي الكثيف، انتابني شيء من الخوف حيال ما كنت بصدد القيام به، ترنَّح عقلي المذعور، فقذفت نصل الضوء إلى أعلى.
هزَّ صوت التحطم أركان الغرفة، فصرخ الغريشا وتراجعوا إلى الخلف، متجمعين حول الجدران.
غمرنا ضوء النهار مندفعًا من شقٍّ متعرج فوقنا.. لقد كسرت القبة الذهبية كأنها بيضة ضخمة.

خيم الصمت فوق الغرفة، رمقني الغريشا بنظرات رهبة وعدم تصديق، ابتلعت ريقي، مندهشة مما فعلته للتوِّ، مذعورة مما كنت على وشك فعله، تذكرت نصيحة (نيقولاي) وربطت على قلبي؛ فلا يجب أن يلحظوا خوفي.

فوجئت بي أحدثهم بنبرةٍ باردة، قائلة: «أتظنون أن مستحضر الظلام قوي؟ إنكم لا تعلمون ما يقدر على فعله.. لم يرَ ذلك أحد سواي.. ولم يواجهه أحد غيري وعاش ليحكي ما حدث».

كلماتي تلك كانت غريبة عن أذني.

أحسستُ بأن قوتي تتردد في أركان جسدي. استدرت قليلًا، ونظرت في كل عينٍ مندهشة، وأضفت: «لا يهم إذا كنتم تظنونني قديسة، أو حمقاء، أو عاهرة مستحضر الظلام. من يريد منكم البقاء في القصر الصغير، فليتبعني، ومن لا يعجبه ذلك، فعليه الرحيل الليلة، وإما سأكبله بالأصفاد. أنا جندية في الجيش.. أنا مستحضرة النور.. أنا فرصتكم الوحيدة».

مضيت إلى الجانب الآخر من الغرفة، وفتحت الأبواب المؤدية إلى غرفة مستحضر الظلام، متمتمة بعض صلوات الشكر سرًّا لأنها لم تكن مغلقة.

سرتُ في الرواق دون أدنى فكرة عن وجهتي، كل ما أردته في تلك اللحظة أن أبتعد عن القاعة المقببة قبل أن يراني أحدٌ وجسدي يهتز. ولحسن الحظ، وجدتني أمام غرفة العمليات العسكرية، فدلفت إلى الداخل وتبعني (مال). وقبل أن أغلق الباب، وجدت (توليا) و(تمار) قد اتخذا موقعي الحراسة، بيد أن (فيديور) والبقية بقوا هناك، تمنيت أن يتحدثوا بسلامٍ مع الغريشا، أو أن يقتلوهم.

ظللتُ أمشي جيئة وذهابًا أمام خريطة (رافكا) القديمة التي تمتد بعرض الجدار.

تنحنح (مال) وقال: «ظننت الأمور قد سارت على ما يرام».

هربت من بين شفتي ضحكة هستيرية.

أردف: «بما أنك لم تتعمدي إسقاط السقف فوق رؤوسنا، فأظن أنك نجحت إلى حدٍّ ما».

عضضت أناملي واستمررت في المضي جيئة وذهابًا.

قلت: «كان يجب أن ألفت انتباههم».

- «هل كنت متعمدة؟».

كنت على وشك أن أقتل شخصًا.. راودتني رغبة القيام بذلك، لم يكن لديَّ سوى خيارين: إما القبة وإما سيرجي، وكان سيصعب لملمة أشلاء الأخير.

- «ليس تمامًا».

وفجأة، شعرت أن مخزون طاقتي نفد، فارتميت فوق كرسي بجانب الطاولة الطويلة، وأرحت رأسي بين راحتي.

قلت بنبرةٍ تحمل بعض الأسى: «سيرحلون جميعًا».

فقال (مال): «ربما، لكنني لا أظن ذلك».

دسستُ رأسي بين كفي من جديدٍ، وقلت: «لا يمكنني المزاح معهم، وما حدث كان أشبه بمزحة سيئة!».

- «لكنني لم أسمع أحدًا منهم يضحك، ولو أنني لم أكن أعرفك، ولا أعرف ما تقدرين على فعله، لقلت أنك تتقنين دور القائدة».

دققت النظر فيه.. كان مستندًا إلى الطاولة، عاقدًا ذراعيه، ويحوم طيف ابتسامة على شفتيه.

- «لقد أحدثت ثقبًا بالسقف يا مال!».

- «وبطريقةٍ درامية جدًّا».

أصدرت صوتًا لا هو ضحك ولا بكاء: «وماذا سنفعل عندما يهطل المطر؟».

- «ما نفعله دائمًا: سنحرص على البقاء في أماكن جافة».
سمعنا طرقًا على الباب، وإذا بـ (تمار) تدلف رأسها فقط إلى الداخل وتقول: «يريد أحد الخدم أن يتأكد ما إذا كنت ستنامين في جناح مستحضِر الظلام».

كنت أعلم أنني سأُجبَر على ذلك، ولم أكن متحمسة على الإطلاق. فركت وجهي بيدي ونهضت من مقعدي، قضيت ما يربو على ساعةٍ واحدة في القصر الصغير، وها قد أصابني الإرهاق الشديد.

قلت: «لنذهب ونلقِ نظرة».

يقع جناح مستحضر الظلام في آخر الردهة، في الجهة المقابلة من غرفة العمليات العسكرية. قادتنا خادمة ترتدي زيًّا أسود فاحمًا إلى غرفةٍ عادية واسعة، بها مائدة طويلة وبضعة مقاعد تبدو غير مريحة، وفي كل جدار ثمة باب مزدوج.

أشارت الخادمة جهة اليمين وقالت: «ذلك الباب يؤدي إلى الممر الذي سيأخذك إلى خارج القصر الصغير يا مولاتي»، ثم أشارت إلى الباب جهة اليسار، وأردفت: «وذاك يؤدي إلى غرفة الحرس».

لم تستدع الأبواب التي أمامنا شرحًا، كانت تمتد من الأرض إلى السقف، وحُفِر على خشبها الأبنوسي رمز مستحضر الظلام: الشمس يوم الكسوف.

لم أكن مستعدة لدخولها بعد، فآثرت الذهاب إلى غرفة الحرس، وألقيت نظرة بالداخل. وجدتها أكثر دفئًا.. وبها طاولة مستديرة للعب بأوراق اللعب، وبضعة مقاعد مريحة ترتص حول موقدٍ صغير للتدفئة في الشتاء، وخلف باب آخر، أبصرت عددًا من الأسرَّة ذات الطابقين.

قالت (تمار): «أعتقد أن مستحضر الظلام كان لديه عددٌ أكبر من الحرس».

فقلت: «أكبر بكثيرٍ».

- «في إمكاننا أن نحضر المزيد إذن».

قال (مال): «لقد فكرت في ذلك الأمر، ولا أظنه ضروريًا، كما أننا لا نعلم من نثق به».

اتفقت مع رأيه.. لقد أودعت بعض الثقة في (توليا) و(تمار)، لكن الشخص الوحيد الذي أثق به ثقة كاملة هو (مال).

قالت (تمار): «أعتقد أننا يجب أن نختار من بين الحجاج؛ فثمة البعض منهم كانوا جنودًا بالجيش، ولا بد أن هناك مقاتلين أشداء بينهم، وبالتأكيد سيضحوا بحياتهم من أجلك».

قلت: «ليس ثمة فرصة لذلك؛ فإذا سمع الملك أحدهم يهمس بجملة «القديسة ألينا»، سيأمر بلف حبل المشنقة حول رقبتي. إلى جانب ذلك، إنني لا أريد أن أضع حياتي في كف شخص يؤمن بأني أستطيع أن أُبعَث من موتي».

قال (مال): «سنتصرف».

فأومأت برأسي وقلت: «حسنًا، و... هل يمكن لأحدكم أن يتولى أمر إصلاح السقف؟».

اعتلت ابتسامتان متماثلتان شفاه (توليا) و(تمار).

- «ألا يمكننا أن نتركه هكذا لعدة أيام؟».

ضحكت وقلت: «كلا، لا أريده أن يصير مثل الكهف، تحدثوا إلى المصنعين، لا بد أنهم يعلمون ما يجب فعله».

تحسَّستُ الجرح الذي امتد بطول راحتي، ثم أضفت: «لكن لا تجعلوهم يعيدوه مثاليًا».

فالندوب أفضل تذكرة للإنسان.

عدتُ إلى الغرفة الرئيسية وناديت الخادمة التي كانت تحوم حول المدخل قائلة: «سنأكل هنا الليلة، هلا توليت أمر إحضار الصحون؟».

رفعت حاجبيها، ثم انحنت وهرعت إلى خارج الغرفة، جفلت؛ فمن المفترض أن أعطي أوامر، لا أطلب طلبات.

تركتُ (مال) والتوأمين يتناقشون حول مواعيد المراقبة، وعبرت الغرفة إلى الأبواب الأبانوسية، كان المقبضان كهلالين من عظام، يغطيهما طبقة فضة رفيعة، عندما أمسكتهما، وهممت بسحبهما، لم يصدر أي صرير، كأن الأبواب بلا مفاصل، فانفتحت دونما صوت.

كان قد أشعل أحد الخدم قناديل بغرفة مستحضر الظلام، جلت بنظري حولها وزفرت طويلًا.

تُرى، ما الذي كنت أنتظره؟ أن أجد نفسي داخل زنزانة؟ أم هوة؟ أم أن أرى مستحضِر الظلام متدليًا من غصن شجرة، وقد غطَّ في سباتٍ عميق؟

للغرفة ستة أركان، جدرانها الخشبية الداكنة نُحِتت على شكل غابةٍ مكتظة بالأشجار النحيفة. وفوق السرير الضخم المغطى بالسديل، تجلى السقف المقبَّب المصنوع من حجر السبج الأسود الناعم، والمرصع برقائق من لؤلؤ تشبه النجوم في سماء الليل الحالكة؛ لم تكن الغرفة عادية.. مترفة، ولكن لم تزل غرفة نوم.

خلت الأرفف من الكتب، وكذلك كان المكتب ومنضدة الزينة فارغين. لا ريب أنهم تخلصوا من جميع متعلقاته، ربما أحرقوها أو حطموها. راودني شعورٌ بالامتنان تجاه الملك، لأنه لم يدمر القصر الصغير.

مشيت حتى السرير، وتحسست قماش الوسادة البارد، كان من اللطيف أن أرى ما يدل على أن جزءًا منه لم يزل بشريًّا.. أنه كان يريح رأسه على تلك الوسادة كل ليلة مثل الجميع، لكن هل سأستطيع حقًّا أن أنام على سريره، وتحت سقفه؟

للحظة، شممتُ رائحته في الغرفة، لم أدرك يومًا أنه يملك رائحة خاصة، أغمضت عيني وتنفَّست بعمقٍ، تُرى أي رائحة كانت؟ أهي رائحة رياح الشتاء الحادة؟ أم رائحة الأغصان العارية؟ أم رائحة الغياب؟ أم رائحة الليل؟

آلمني جرح كتفي، ففتحت عيني، انغلقت أبواب الغرفة.. لكنني لم أسمع لها صوتًا.

- «ألينا».

استدرتُ على الفور.. وجدت مستحضِر الظلام واقفًا على الجانب الآخر من السرير.

أغلقت فمي بيدي لأمنع صراخي.

قلتُ في نفسي: ليس هذاحقيقيًّا.. إنها هلوسات محض.. مثلما حدث في الطية.

قال بنبرة حانية: «أنت ملكي يا ألينا».

كان وجهه جميلًا، مثاليًّا، وخاليًا من الندوب.

لن أصرخ، لأن هذا ليس حقيقيًا، وعندما أتجاهل ما يحدث، لن أرى شيئًا.

مضى ببطءٍ حول السرير، خطواته بلا صوتٍ.

أغمضت عيني، وأطبقت عليهما راحتي، ثم عددت إلى ثلاثة، إلا أنني عندما فتحتهما من جديد، وجدته واقفًا أمامي مباشرة.

لن أصرخ.. لن أصرخ.

مدَّ يده إليَّ.

إنه لن يستطيع لمسي.. ستمر يده داخلي كأنها يد شبح؛ لأن هذا ليس حقيقيًّا.

همس إليَّ قائلًا: «لا يمكنك الهروب مني».

لامست أصابعه خدي.. كانت قوية.. حقيقية.. شعرت بها يقينًا.

تملَّك الذعر مني، رفعت يدي، فتدفقت موجة ضوء براقة في الغرفة، وحينها اختفى مستحضر الظلام.

سمعت خطوات في الخارج، ثم فتح الباب، ودلف (مال) والتوأمان إلى الداخل حاملين أسلحتهم.

سألت (تمار) وهي تجول بنظرها حول الغرفة: «ماذا حدث؟».

- «لا شيء».

أجبرت الكلمات أن تغادر فمي، آملة أن تكون نبرتي طبيعية. ودفنت يدي في جيبي زي الكفتا، كي أواري ارتعاشتهما.

أردفت: «لماذا تسألين؟».

- «لقد رأينا الضوء و...».

- «إن الغرفة معتمة، بسبب كل هذا السواد الذي يحفها».

ظلُّوا يحدقون إليَّ، ثم نظرت (تمار) حولها وقالت: «إنها مظلمة حقًّا.. قد تحتاجين إلى بعض التجديدات».

- «هذا جزء من خطتي».

نظر التوأمان حولهما مرة أخرى، ثم خرجا من الغرفة، سمعت (توليا) يسأل (تمار) عن العشاء.

وقف (مال) عند المدخل ينتظر.

لبث مليًّا ثم قال: «إن جسدك يهتز».

أعلم أنه لن يطلب مني شرحًا، لأنه لن يحتاج إلى ذلك؛ فكنت سأخبره بالحقيقة دونما سؤال منه.

ولكن ماذا كنت سأقول له؟ إنني أرى تهيؤات؟ إنني مجنونة؟ إننا لن نكون بأمان مهما هربنا؟ إنني محطمة تمامًا مثل القبة الذهبية، لكن شيئًا أسوأ بكثير من ضوء النهار قد زحف إلى داخلي؟

لم أنبس بكلمة.

فاكتفى (مال) بهز رأسه، ومضى إلى الخارج.

وقفت بمفردي في منتصف غرفة مستحضر الظلام.

قلتُ في نفسي وقد تملَّكني اليأس: نادِيه.. أخبريه بأي شيء.. أي شيء.

كان (مال) على بُعد خطوات مني، تحديدًا خلف ذلك الجدار، كان في إمكاني أن أصيح باسمه، أن أعيده إلى هنا، أن أخبره بكل شيء: ما حدث في الطية، وما كدت أفعله بـ (سيرچي)، وما رأيته منذ لحظات. فتحت فمي، لكن الكلمات ذاتها راودتني عن نفسها: لن أصرخ.. لن أصرخ.. لن أصرخ.

الفصل الرابع عشر

استيقظت في اليوم التالي على صيحات غضبٍ، للحظة لم أدرك أين كنت، ساد الظلام إلا من بصيص ضوء رفيع تسلَّل من أسفل الباب.

ثم عدت إلى الواقع، نهضت لأبحث عن القنديل المثبت بالجدار بجانب السرير، أشعلته وظللت أدور بنظري حولي: سديل السرير الحريري الأسود، والأرضية أردوازية، والجدران الأبانوسية المنحوتة. لا بد حقًّا أن أقوم ببعض التغييرات؛ فهذه الغرفة الكئيبة لا يجدر بالمرء أن ينام ويستيقظ فيها. كان من الغريب أن أصدق أنني في غرفة مستحضر الظلام، وأنني قد قضيت ليلة على سريره، وأنني رأيته حق رؤية في هذا المكان.

هذا يكفي.

قذفت الغطاء بعيدًا، ونهضت من السرير.

لا أعلم إن كانت تلك الرؤى نتاج مخيلتي، أم أنها محاولة حقيقية من مستحضر الظلام للتلاعب بي، لكن لا بد أن ثمة تفسيرًا عقلانيًّا لذلك.. ربما قد أصابتني عضة النيتشيڤويا بمرضٍ ما، وإن صح ذلك، فعليَّ إذن أن أبحث عن علاج، أو أن أنتظر حتى تختفي الأعراض بمرور الوقت.

علا صوت الجدال خارج الغرفة، أظنني سمعت صوت (سيرجي) وزئير (توليا)، ارتديت الثوب المطرز الذي تركوه لي عند حافة السرير، وتأكدت من أنه طويل بما يكفي ليخبئ السوار، ثم أسرعت إلى الغرفة الرئيسية.

كدتُ أصطدم بالتوأمين، كانت كتفاهما ملتصقتين، يمنعان مجموعة من الغريشا الغاضبين من دخول حجرتي. وقف (توليا) عاقدًا ذراعيه، يدور جدل ساخن بينه وبين (سيرجي)، أما (تمار) فقد اكتفت بهز رأسها؛ انتابني

القلق عندما رأيت (زويا) تقف بجانبهم، برفقة مستحضر النار ذي البشرة الداكنة الذي تحداني البارحة.

كان الجميع يتحدثون في آنٍ واحد.

قلت: «ما خطبكم؟».

تقدَّم (سيرجي) فور رؤيتي، حاملًا ورقة في يده، تحركت (تمار) لتمنعه، ولكنني أشرت إليها أن تتركه.

قلت: «اهدؤوا.. ما المشكلة؟».

لكنني كنت أعلم الإجابة.

تعرَّفت على خط يدي، وبقايا ختم الشمس الذهبي الذي أعطاني إياه (نيقولاي)، على الورقة التي يهزها (سيرجي) أمام وجهي الآن.

زفر وقال: «هذا ليس مقبولًا».

لقد أرسلت خطابًا ليلة البارحة يفيد بأني بصدد تشكيل مجلسٍ حربيٍّ، وأن كل جماعة من الغريشا من حقها ترشيح فردين. سررت برؤية (فيديور) و(سيرجي) بين المرشحين، إلا أنني انزعجت -في الوقت ذاته- عندما وجدت اعتراضات من جانب الغريشا القدامى.

قال (فيديور): «إنه محق؛ فنحن الكوربورالكي خط الدفاع الأول للغريشا، والأكثر خبرة في الشؤون العسكرية، لذا، لا بد أن يزيد عدد مرشحينا».

قالت (زويا) وقد ساد الاحمرار على وجهها: «ونحن أيضًا سنضيف الكثير إلى العمليات العسكرية».

كانت فاتنة حتى وهي غاضبة.

أظنها اختيرت لتمثل الإثيريالكي، لكنني لم أسعد بذلك.

أردفت: «إذا زاد عدد مرشحي الكوربورالكي إلى ثلاثة، فلا بد أن يرشح من المستحضرين ثلاثة أيضًا».

استأنف الجميع الصياح ثانية، لاحظت أن الماتيريالكي لم يأتوا ليقدموا أي شكاوى، ربما لأنهم أقل جماعات الغريشا رتبة، فقد شعروا بالامتنان لوجودهم أصلًا، أو لأنهم منغمسون في أعمالهم إلى الحد الذي لم يجعلهم مهتمين بشيء كهذا.

لم أكن قد استيقظت بشكلٍ كامل، لذلك كنت أتوق إلى فطورٍ لا إلى جدلٍ، لكنه أمر لا بد منه؛ فقد انتويت أن أغيِّر بعض الأشياء، وإن لم يدركوا حجم التغيير، ستمحى جهودي قبل أن تبدأ.

رفعت يدي فصمتوا على الفور، يبدو أن حيلتي السابقة نجحت، وأنهم خافوا أن يسقط سقف آخر فوقهم.

قلت: «سترشح كل جماعةٍ اثنين من الغريشا.. لا أكثر، ولا أقل».

- «ولكن...».

قاطعت (سيرچي) مضيفة: «لقد تغير مستحضر الظلام، وإن كان لدينا أي أمل في ردعه، فعلينا أن نتغير أيضًا.. سترشح كل جماعةٍ اثنين من الغريشا، ومن الآن فصاعدًا لن تجلس كل جماعة على انفراد، ستتشاركون الجلوس، والطعام، والقتال».

أجبرهم حديثي على الصمت، فظلوا واقفين يحدقون إليّ.

أضفتُ أخيرًا: «وسيبدأ المصنِّعون التدريبات القتالية الأسبوع القادم».

لمحتُ في ملامحهم رعبًا، كما لو كنت أطلب منهم أن يذهبوا إلى ساحة المعركة عرايا، لكن الماتيريالكي ليسوا مقاتلين، ولم يهتم أحد بتعليمهم القتال، ولذلك شعرت أنها فرصة لا يجب أن أفوتها.

استعيني بأي شيء وأي أحدٍ أمامك.

تنهدت وقلت: «أرى السعادة تغمر أعينكم».

ثم مضيت إلى طاولة وُضِعت عليها صينية الفطور، الممتلئة بأطباقٍ مغطاة، وبحثت عن كوب شاي كنت في أمس الحاجة إليه، رفعت إحدى الأغطية، فوجدت تحته سمك الرنكة وخبز الجاودار.

لم يكن هذا صباحًا مشجعًا على العمل.

قال (سيرجي) متذمرًا: «لكن.. لطالما جرت الأمور هكذا».

أضاف مستحضر النار اعتراضه قائلًا: «ولا يمكنك الإطاحة بعاداتٍ استمرت لمئات السنين».

فقلت: «هل ستتجادلون حول هذا أيضًا؟ إننا في حربٍ ضد قوة قديمة لا نقدر تحديد موقعها، وأنتم تتشاجرون حول من سيجلس بجانبكم في أثناء الغداء!».

قالت (زويا): «ليست هذه المسألة.. ثمة نظام لكل شيء.. وطريقة لـ...».

بدؤوا الصياح من جديدٍ، متحدثين عن العادات، وعن طريقة القيام بالأشياء، وأهمية النظام، وأن يعرف كل شخصٍ مركزه.

رميت الغطاء على الطبق فرنَّ بقوة.

صحت وقد بدأ صبري ينفد: «تلك هي الطريقة المثلى.. لا مزيد من كبرياء الكوربورالكي، ولا انعزال الماتيريالكي، ولا المزيد من سمك الرنكة!».

فتحت (زويا) فمها، لكنها أطرقت تفكر للحظة ثم أغلقته مرة أخرى.

صحتُ من جديدٍ: «والآن اذهبوا! أريد أن أتناول فطوري بسلامٍ».

تجمَّدوا في أماكنهم برهة، وإذا بـ (تمار) و(توليا) يتقدمان. دهشتُ أكثر عندما رأيت الغريشا يفعلون ما أمرتهم به، تملَّك الغيظ من ملامح (زويا)، وعصف وجه (سيرجي)، لكنهم جميعًا غادروا الغرفة بخنوعٍ.

مرَّت ثوانٍ بعد مغادرتهم، ثم ظهر (نيقولاي) عند المدخل، فأدركت أنه كان يتنصت علينا.

قال: «لقد أبدعت.. وسيتذكر التاريخ هذا اليوم لصدور مرسوم الرنكة العظيم!».

ثم دلف إلى الداخل، وأغلق الباب خلفه، وأردف: «لكنك كنت قاسية بعض الشيء».

- «لأنني لا أملك موهبتك المرحة والباردة!».

جلست خلف الطاولة، ودققت النظر إلى رغيف خبز ملفوف، ثم أضفت: «لكن العبوس يليق بي».

تقدم خادم إلى الأمام، ليصب لي كوب شاي من الإناء، كان ساخنًا لحسن الحظ، فوضعت به السكر. أجلس (نيقولاي) نفسه من دون أن أطلب منه ذلك، وبدأ بوضع سمك الرنكة في طبقه.

قال: «ألن تتناولي من هذا حقًّا؟».

- «إنه يثير اشمئزازي».

قضم (نيقولاي) منه قضمة كبيرة، وقال: «لن ينجو المرء في البحر إذا لم يتناول الأسماك».

- «لا تلعب دور البحار الفقير معي، لقد تناولت الطعام على متن سفينتك، أتتذكر ذلك؟ كان طاه ستورمهوند بالكاد يطعمنا سمك القد المالح والخبز الصلب».

تنهد بأسى وقال: «كنت أتمنى أن أحضر بورغوس معي؛ فإن الطهاة هنا لا يقتنعون بأن الوجبة قد اكتملت قبل أن يشاهدوها بأعينهم تسبح في الزبد!».

- «لا يتذمر أحد على كثرة الزبد غير الأمراء».

- «همممم»، لفظها وأطرق يفكر للحظة، ثم ربت على بطنه المسطحة، وأردف: «معدتي الملكية تمنحني سلطة أكبر».

قهقهت ضاحكة.. ثم كدت أقفز عندما انفتح الباب فجأة، ودلف (مال) إلى الداخل، توقف عندما رأى (نيقولاي).

قال وهو ينحني لي ثم إلى (نيقولاي) بامتعاضٍ: «لم أدرِ أنكَ ستتناول فطورك هنا في القصر الصغير يا جلالة الأمير».

فقلت: «ليس عليك الانحناء».

- «بلى، يجب عليه ذلك».

انضم (مال) إلينا على الطاولة وقال: «ها قد سمعت ما قاله الأمير المثالي».

ابتسم (نيقولاي) وقال: «لديَّ الكثير من الكنيات، لكن تلك أكثرهم دقة».

قلت مخاطبةً (مال): «لم أكن أعلم أنك مستيقظ».

- «لقد استيقظت منذ ساعات، وظللت أتجول في الخارج، بحثًا عن شيء أفعله».

قال (نيقولاي): «ممتاز! لديَّ دعوة لك».

سأله (مال) وهو يلتقط كسرة خبز من طبقي: «هل هي حفلة؟ أتمنى حقًّا أن تكون لحفلة».

فأجاب: «أنا متأكد من أنك تتقن رقصة الفالس، ولكن لا، لقد رُصِد خنزير في بالاكيريف، وستذهب مجموعة لصيده غدًا، أريدك أن تذهب معهم».

- «هل ينقصك أصدقاء، مولاي الأمير؟».

- «بل لديَّ من الأعداء الكثير.. لكنني لن أذهب معكم؛ فوالداي ليسا مستعدين لإبعادي عن أعينهما بعد، لقد تحدثت إلى أحد الجنرالات، وقد وافق أن تكون ضيفه».

تراجع (مال) في مقعد، وعقد ذراعيه، وقال: «فهمت.. إذن سأذهب أنا للتسكع في الغابة لعدة أيام، وستبقى أنت هنا».

ثم رمقني بنظرة لها مغزى ما.

تقلبت في مقعدي.. لم يعجبني ذلك التلميح، لكن عليَّ الاعتراف أن ذلك الأمر بدا كحيلةٍ واضحة.. حيلة قصدها (نيقولاي).

قال (نيقولاي): «أتعلم، حتى إن كان حبكما أبديًا، تبدو غير واثقًا إلى درجة مقززة.. سيحضر حفل الصيد بعض أهم قادة الجيش الأول، وكذلك أخي سيكون هناك؛ فهو صياد متمرس، كما أنني رأيت بعيني ما يثبت أنك أفضل متعقب في راڤكا».

- «ظننت أنه يجدر بي حراسة ألينا، لا أن أركض مع بعض رجال الملك المدللين».

- «سيتولى توليا وتمار ذلك الأمر إلى حين عودتك.. هذه فرصة ذهبية لكي تثبت لنفسك أنك ذو نفع».

قلت في نفسي بعدما رأيت عيني (مال) تتسعان: عظيم.. ممتاز حقًا.

- «وماذا تفعل أنت لتكون ذا نفعٍ يا صاحب السمو؟».

- «أنا أمير.. وليس من وظيفتي أن أكون ذا نفع، ولكنني مثلما أهتم بمظهري الفاتن، سأعمل على تسليح الجيش الأول، وسأجمع معلومات عن موقع مستحضر الظلام، لقد انتشرت الأقاويل أنه دخل سيكورزوي».

تملَّكت الصدمة مني، ومن (مال).

إن (سيكورزوي) هي الجبال التي تمتد بمحاذاة جزء كبير من حدود (راڤكا) و(شو هان).

سألته: «أتظن أنه في الجنوب؟».

تناول (نيقولاي) قطعة أخرى من الرنكة، ثم قال: «ربما.. رغم أنني ظننته سيتحالف مع الفييردانيين؛ لأن الحدود الشمالية أكثر ضعفًا، لكن جبال سيكورزوي تصلح للاختباء. ولذا، إن صحت الأقاويل، سيتعيَّن علينا التحالف مع الشوهانيين في أسرع وقتٍ ممكن، كي نحاصره من جهتين».

سألته مندهشة: «هل ستذهب إلى هناك لتحاربه؟».

فأجاب: «ذلك أفضل من أن أنتظره ليستجمع قواه ويأتي لمحاربتنا».

قال (مال) على مضضٍ: «تعجبني تلك الخطة؛ فإن مستحضر الظلام لن يتوقعها».

ارتأيت أن (مال) و(نيقولاي) دائما الاختلاف، أما (مال) و(ستورمهوند) فهما على وشك أن يصيرا صديقين.

احتسى (نيقولاي) من كوب الشاي، وقال: «ثمة أيضًا أخبار سيئة عن الجيش الأول: هرب بعض الجنود واعتنقوا ديانة».

تبدَّلت ملامحي، قلت: «لا تقل إنك تقصد...».

أومأ برأسه وهو يقاطعني قائلًا: «لاذوا بالأديرة وانضموا إلى طائفة قديسة الشمس التي يقودها المستشار الروحاني، لقد أخبرهم الكاهن أن الملك أسرك».

- «كم هذا سخيف!».

- «ظاهريًّا، ذاك أمرٌ معقول، وفي إمكانه أن يستعين به لخلق قصة سهلة التصديق، لكن لا أخفيك سرًّا أن أبي غير راضٍ تمامًا عن ما يحدث، لقد استشاط غضبه ليلة البارحة، وضاعف ثمن رأس المستشار الروحاني».

زفرت طويلًا.. ثم قلت: «لقد ازدادت الأمور تعقيدًا».

- «نعم، ولذلك، فمن الحكمة أن أطلب من قائد حرسك الشخصي أن يبدأ إقامة تحالفات مع القصر الكبير»، ثم التفت بنظرته الحادة إلى (مال)، وأردف: «وبهذا يا أورتسيف ستصير ذا نفعٍ.. أتذكر أنك أدهشت

طاقمي، ولذلك عليك أن تحمل قوسك، وتلعب دور الدبلوماسي، بدلًا من العاشق الغيور».

قال (مال): «سأفكر في الأمر».

- «يا لك من ولدٍ مطيعٍ».

بحق القديسين.. ألا يمكنه ألا يفسد الأمور؟

وإذا بـ (مال) يقول بنبرةٍ هادئة: «كن حذرًا يا نيقولاي؛ فالأمراء ينزفون دمًا مثل كل الرجال».

التقط (نيقولاي) من كمِّه ذرة تراب غير مرئية وقال: «أجل، لكنهم ينزفون على ثيابٍ أكثر أناقة».

- «مال...».

وقف وجذب كرسيه حتى خدش الأرض، وقال: «سأذهب لأستنشق هواءً نقيًّا».

ثم أسرع إلى الخارج، من دون أن يذكر ألقابنا، أو أن ينحني.

ألقيت بمنديلي بعيدًا، وسألت (نيقولاي) بغضبٍ: «لماذا تفعل هذا؟ لماذا تستفزه بهذه الطريقة؟».

قال وهو يفتش عن لفافة خبز أخرى: «هل أثرت غيظه حقًّا؟».

فكرت أن أغرز شوكة في يده.

قلت: «لا تضغط عليه يا نيقولاي؛ فإذا خسرته، ستخسرني أيضًا».

- «عليه أن يتعلم القواعد هنا، وإن لم يفعل، سيصير عبئًا علينا، والمجازفات الكبرى لا تناسبها أنصاف الحلول».

اقشعرَّ بدني، ففركت ذراعي بيدي، وقلت: «كم أكره حديثك بتلك الطريقة! إنك تتكلم مثل مستحضر الظلام!».

- «إذا كنت تواجهين مشكلة في التمييز بيننا، ابحثي إذن عن الشخص الذي لا يعذبك ولا يحاول قتل مال، وستجدين أن هذا الشخص هو أنا».

- «هل أنت متأكد من هذا؟ إذا اقتربت من مرادك، وحصلت على العرش، وأنقذت راقكا، ألن تصطحبني إلى المشنقة بنفسك؟».

توقعت أن يرد عليَّ بإجابةٍ أفعوانية، لكنه بدا كأنني لكمته في بطنه؛ بدأ يتحدث، ثم صمت، ثم هزَّ رأسه.

ردَّ في النهاية، بنبرةٍ بين الحيرة والاشمئزاز، قائلًا: «بحق القديسين.. أنا حقًّا لا أدري».

تراجعت في مقعدي.. لم يثر اعترافه حنقي، بل حد منه، ربما لأنه كان صادقًا، أو لأنني صرت قلقة حيال ردود فعلي.

جلسنا صامتين دقيقة طويلة، وإذا به يتحسس قفاه ويهم بالوقوف، مضى نحو الباب، ثم قال بنبرةٍ يشوبها التردد: «إنني طموح يا ألينا.. ومندفع.. لكنني أتمنى... أتمنى أن أكون ما زلت أعرف الفرق بين الصواب والخطأ.. لقد منحتك الحرية، بكامل إرادتي، وإذا أردت أن تفري غدًا إلى نوفيي زم مع مال، سأضعكما على متن سفينةٍ وسأترككما للبحر».

ثم حدقت عيناه العسليتان إليَّ طويلًا، وأضاف أخيرًا: «لكنني سأشعر بالأسف إذا رأيتك ترحلين».

واختفى في الرواق.. ترددت خطواته على الأرض الحجرية.

جلست كما أنا، أتناول فطوري، وأفكر في كلمات الوداع التي قالها لي (نيقولاي)، ثم نفضتها عن رأسي؛ فلم يكن لديَّ وقتٌ لتحليل دوافعه؛ إنها بضع ساعات وسينعقد المجلس الحربي للتناقش حول الإستراتيجيات، والاتفاق على أفضل خطة دفاع.

لديَّ الكثير لأحضر له، لكن عليَّ أن أزور أحدًا أولًا.

***

أغلقت الأزرار التي تشبه أقراص الشمس، التي تزين زيي الذهبي والأزرق، ثم هززت رأسي بحزن. بالتأكيد لن تضيع (باغرا) وقتها في السخرية من مظهري الجديد. سرحت شعري، وغادرت القصر الصغير من بوابة مستحضر الظلام، وعبرت الساحة إلى البحيرة.

أخبرتني الخادمة التي تحدثت معها أن (باغرا) قد أصابها إعياء شديد فور انتهاء عيد الشتاء، ومنذ ذلك الحين توقفت عن قبول طلاب جدد. لكنني بالطبع كنت أعلم الحقيقة: ففي تلك الليلة، كشفت لي (باغرا) خطط مستحضر الظلام، وساعدتني على الهرب من القصر الصغير، ثم سعت لإكسابي بعض الوقت بإخفائها أمر غيابي، لا ريب أنه ثار غضبًا عندما اكتشف خداعها له.

أحسست كأن حجرًا أُلقي في معدتي.

وعندما حاولت الضغط على الخادمة القلقة لأعلم المزيد من التفاصيل، انحنت بجسدها سريعًا، وهرعت إلى خارج الغرفة؛ ما يهم أن (باغرا) لم تزل على قيد الحياة، وأنها هنا.

في إمكان مستحضر الظلام أن يدمر مدينة بأكملها، لكنه لا شك قد اعتبر قتل أمه من المحظورات.

اكتسى المسار المؤدي إلى كوخ (باغرا) بنبات العليق، وتشابكت أشجار الصيف، وفاحت من الأرجاء روائح النباتات والطين. مشيت على غير هدى، حد أنني دهشت لمدى حماسي لمقابلتها؛ فقد كانت معلمة قاسية، وامرأة صعبة الطباع، لكنها حاولت مساعدتي عندما لم يستطع أحد مساعدتي، وهي فرصتي الوحيدة لحل لغز مضخم موروزوفا الثالث.

صعدت درجات كوخها الثلاث، وطرقت الباب، لكن أحدًا لم يجب، طرقت ثانية، ثم دفعت الباب فانفتح، وإذا بالحرارة المألوفة لي تقابلني. تفاجأت عندما أدركت أنها ليست بمفردها، كان ثمة خادم يجلس بجانبها..

صبي صغير يلبس رداءً رماديًا، نهض عندما دخلت الكوخ، وأخذ يدقق النظر فيَّ، ثم قال: «نحن لا نستقبل ضيوفًا».

- «ومن أعطاك ذلك الأمر؟».

رمقتني (باغرا) بنظرةٍ حادة عندما سمعت صوتي، ثم ضربت الأرض بعصاها وقالت: «غادر يا فتى».

- «ولكن...».

صاحت: «اذهب!».

قلت في نفسي بحذرٍ: إنها مسرورة كالعادة.

أسرع الصبي إلى خارج الكوخ من دون أن ينبس بكلمةٍ أخرى.

قالت (باغرا) قبل حتى أن ينغلق الباب: «كنت أتساءل متى ستعودين إلى هنا أيتها القديسة الصغيرة».

لقد نادتني (باغرا) بالاسم الوحيد الذي لم أرد سماعه.

تصبَّب مني العرق.. لم أود الاقتراب أكثر من الموقد، لكنني فعلت على أي حال، ثم مضيت إلى المقعد الذي تركه الصبي.

استدارت ناحية الموقد، وأولتني ظهرها.

إنها تتعامل معي بعجرفة اليوم..

تجاهلت تلك الإهانة..

جلستُ صامتة للحظة، لا أعلم من أين سأبدأ حديثي.

ثم قلتُ بعد برهة تفكير: «أخبروني أنك مرضت بعدما غادرت القصر».

- «نعم».

لم أرد إجابة، لكنني سألتها على أي حال: «ماذا فعل بك؟».

ضحكت ضحكة جافة، ثم ردت: «أقل من المتوقع، وأكثر مما يجب».

- «باغرا...».

- «كان من المفترض أن تذهبي إلى نوڤيي زم.. وكان من المفترض أن تختفي».

- «حاولت...».

ضربت بعصاها الأرض وقالت: «كلا! لقد ذهبت إلى الصيد، وترى علام حصلت؟ عقد جميل لترتديه لبقية حياتك؟ اقتربي؛ أود أن أعرف ما هو سبب شقائي».

انحنيت لها مجبرةً، وعندما استدارت، شهقت من هول الصدمة.

ازدادت (باغرا) على عمرها عمرًا، منذ آخر مرة رأيتها فيها، تقصف شعرها واكتسى بالرمادي، وطمست ملامحها التي كانت حادة يومًا ما، وفمها المشدود صار لينًا، لكنني لم أشمئز لتلك الأسباب فقط؛ فقد صارت (باغرا) بلا عينين.. وحلَّت مكانهما هوَّتان سوداوان، تتراقص الظلال في أعماقهما اللامنتهية.

- «باغرا...».

لفظتُها ومددت يدي لأربت على يدها، لكنها جفلت.

- «وفِّري شفقتك يا فتاة».

- «ماذا... ماذا فعل بك؟»

لم يعلو صوتي عن بضع همسات.

أصدرت ضحكة خشنة أخرى وقالت: «تركني في الظلام».

كان صوتها قويًا. لاحظت، من مجلسها بجانب هذا الموقد، أنه الشيء الوحيد الذي لم يتغير. لطالما كانت لينة وصلبة في الوقت ذاته.. سكين حادة بجسد بهلوان. أما الآن، فثمة زلزال طفيف يهز يديها العتيقتين، وجسدها النحيل القوي صار واهنًا هزيلًا.

مدت يدها إليَّ وقالت: «أريني».

وقفتُ وسمحت لها أن تتحسس وجهي. مشت أصابعها الخشنة كأرجلٍ بيض لعنكبوتين، تمران فوق دموعي دونما اكتراث، ثم ينزلان من خدي إلى رقبتي ليستقرا فوق الطوق.

- «آه».

تنفَّست وهي تتلمس أجزاء الطوق الخشنة، ثم قالت بنبرةٍ هادئة حزينة: «كنت أود أن أرى أيله».

وددت أن أشيح بنظري عن بركتي الظلال اللتين حلَّتا مكان عينيها، لكنني آثرت أن أمسك يدها. وعندما حاولتْ إفلاتها، أحكمتُ قبضتي عليها، ووضعت أصابعها على السوار الذي يلتف حول معصمي، وإذا بحركاتها تسكن.

قالت: «كلا، لا يمكن».

ظلَّت تتحسَّس حواف قشور سوط البحر.

همست لي قائلة: «روزاليه.. ماذا فعلت يا فتاة؟».

منحتنتي كلماتها أملًا.

- «أنت تعرفين المضخمات الأخرى إذن».

جفلت عندما غرزت أصابعها في معصمي.

سألتني فجأة: «هل صح ما سمعته عن قدراته؟ أنه يستطيع منح الحياة إلى الظلال؟».

- «نعم».

انحنت كتفاها أكثر، وألقت بيدي بعيدًا كأنه شيء متسخ، ثم قالت: «اخرجي من هنا».

- «باغرا، إنني أريد مساعدتك».

- «قلت اخرجي من هنا!».

- «أرجوك، أريد أن أعرف أين أجد طائر النار».

ارتعشت شفتاها قليلًا وهي تقول: «لقد خنت ابني من قبل مرة، أيتها القديسة الصغيرة، ما الذي يجعلك تظنين أني سأكررها مرة أخرى؟».

قلت بترددٍ: «لقد أردت إيقافه.. إنك...».

ضربت (باغرا) الأرض بعصاها من جديد وقالت: «أردت منعه من أن يصبح وحشًا! لكن فات الأوان، أليس كذلك؟ وبفضلك، صار أبعد ما يكون عن الإنسانية.. أبعد من أي وقتٍ مضى.. ولن يكون له خلاص».

- «ربما.. لكن ما زال في إمكاننا إنقاذ رافكا».

- «ولماذا تظنين أنني أكترث لمصير هذه المملكة البائسة؟ هل العالم رائع إلى الدرجة التي تجعلك مهتمة بإنقاذه؟».

- «نعم، وأعلم أنك تريدين ذلك أيضًا».

- «إنك لم تستطيعي صنع شيء مما تعلمتِه يا فتاة».

قلت وقد غلب يأسي إحساسي بالذنب: «حسنًا، أنا حمقاء، وخرقاء، ويائسة! ولهذا أحتاج إلى مساعدتك!».

- «لا يمكن لأحد أن يساعدك.. إن أملك الوحيد يكمن في هروبك».

- «أخبريني ما تعرفينه عن موروزوفا، وساعديني على العثور على مضخم القوى الثالث».

- «لم أستطع تخمين مكان طائر النار من قبل، ولو كنت أعرف، لما أخبرتك، كل ما أريده الآن أن أقبع في غرفةٍ دافئة وأُترك وحدي لأموت».

قلتُ بغضبٍ: «في إمكاني أن أسلب تلك الغرفة منك.. وموقدك أيضًا.. وخادمك المطيع! وحينها ستتكلمين!».

فور أن غادرت تلك الكلمات فمي، أردت أن أسحبها، شعرتُ كأن دلوًا ممتلئًا بالخزي قد انقلب فوق رأسي، هل هددت عجوزًا عمياء لتوي؟

قهقهت (باغرا) بنفس الضحكة الخبيثة، وقالت: «إنك تعتادين القوة جيدًا، وكلما ازدادت، سيزداد جوعك معها؛ فالشيء يستدعي ما يشابهه يا فتاة».

بعثت كلماتها الخوف في نفسي.

قلت بنبرةٍ يشوبها الوهن: «لم أقصد ذلك».

- «لا يمكنك أن تخرقي قوانين هذا العالم من دون أن تدفعي الثمن، لا يجب أن يعثر أحد على تلك المضخمات.. لا يجب أن يحظى أحد الغريشا بتلك القوة، وها أنت ذا تتغيرين شيئًا فشيئًا، ابحثي عن المضخم الثالث، واستخدميه حينما تعثرين عليه، وستخسرين نفسك كليًّا، شيئًا فشيئًا، أتريدين مساعدتي؟ أتريدين معرفة ما عليك فعله؟ انسي أمر طائر النار، وانسي موروزوفا وجنونه».

هززت رأسي قائلة: «لا أستطيع.. ولن أفعل هذا».

استدارت إلى الموقد من جديدٍ وقالت: «إذن افعلي ما يحلو لك يا فتاة.. لقد سئمت العيش، وسئمت منك».

ترى، ما الذي كنت أتوقعه منها؟ أن تستقبلني كابنةٍ أو صديقةٍ لها؟

لقد خسرتْ حبَّ ابنها، وضحَّت بنور عينيها، وفي النهاية خذلتُها.

أردت أن أستمر في طلب مساعدتها.. أن أهددها من جديد.. أن أتملقها.. أن أجثو على ركبتي وأطلب عفوها، وأن تسامحني على كل ما تسببت في خسارته، وعلى كل خطأ اقترفته، لكنني فعلت ما أردته منذ البداية: استدرت وركضت إلى الخارج.

تعثرت وكدت أسقط من فوق الدرج، لولا أن الصبي الذي انتظر في الخارج ساعدني، أخذتُ بضعة أنفاسٍ من الهواء المنعش الذي برد بشرتي.

سألني الصبي: «هل أنت مستحضرة النور حقًّا؟».

نظرت إلى وجهه الذي يغمره الأمل، شعرت بغصة في حلقي، إلا أنني أومأت إليه وحاولت الابتسام.

- «تقول أمي إنكِ قديسة».

سألت نفسي: ترى، أي حكايات خرافية أخرى تصدقها؟

وقبل أن أحرج نفسي بأن أجهش بالبكاء على كتفه النحيف، دفعته وركضت إلى المسار الرفيع.

عندما وصلت إلى شاطئ البحيرة، مضيت إلى أحد سرادقات المستحضرين الصخرية. لم تكن بناية بالمعنى الحرفي للكلمة، بل هياكل مقببة يتدرب فيها شباب المستحضرين على استخدام مواهبهم، دون أن يخافوا من الإطاحة بسقف المدرسة، أو إشعال النيران بالقصر الصغير. جلست تحت ظل عتبة السرادق، ودفنت رأسي بين يدي، محاولة السيطرة على دموعي والتقاط أنفاسي.

لقد كنت واثقة أيما ثقة أن (باغرا) ستكون على علمٍ بأي شيء يتعلق بطائر النار.. وكنت أظنها ستساعدني، لم أدر كم استثمرت فيها من أملٍ إلى أن ضاع، كله.

فردت أطراف زي الكفتا اللامعة، وحاولت قمع شهقة بكاء، ظننتُ (باغرا) ستضحك عليَّ، وستسخر من القديسة الصغيرة التي تلبس أزهى الملابس.

لماذا ظننتُ أن مستحضِر الظلام سيرأف بأمه؟

لماذا تصرفت بتلك الطريقة معها؟

لماذا سلبتها راحتها بتهديداتي تلك؟

أصابتني بشاعة ما فعلت بإعياءٍ شديد.

في إمكاني أن ألقي اللوم على يأسي، لكن هذا لن يخفف من شعوري بالخزي، ولا سيغير من حقيقة أن جزءًا مني أراد أن أعدو إلى الكوخ مرة أخرى لأعتذر لها عن تهديداتي، وأجذبها إلى ضياء الشمس، وأسحب الإجابات من فمها الفظ.

تُرى، أي داءٍ هذا الذي أصابني؟

أخرجتُ من جيبي نسخة من «حياة القديسين»، وتحسَّست غلافه الجلدي الأحمر البالي، كنت قد نظرت فيه عدة مرات. انفتح على رسمة القديس (إليا)، فلاحظت بقع الماء (الجافة الآن) التي تناثرت بداخله بعد حادث القارب.

تساءلت: أهو قديس من الغريشا؟ أم أنه أحمق طماع لم يستطع مقاومة إغراءات القوة؟

أظنه أحمق طماع مثلي.

انسي موروزوڤا وجنونه.

مشت أصابعي على القوس.. قد يكون بلا معنى، وقد يكون إشارة إلى ماضي (إليا) ولا علاقة له بالمضخمات.. أو ربما هو لمسة من لمسات الرسام. وحتى إن كان نوعًا من أنواع النصب، فمن المفترض أن يعثر المرء عليه في مكانٍ ما، لكن (نيقولاي) جاب معظم (راڤكا)، ولم يره في أي مكان، ولو كان له وجود، فلا بد أنه تحطم منذ مئات السنوات.

قرع جرس المدرسة الواقعة على الجانب الآخر من البحيرة، فأسرع أطفال الغريشا إلى مغادرة أبوابها.. صائحين، ضاحكين، متحمسين لاستقبال شمس الصيف لهم. استمرت المدرسة في العمل، على الرغم من كل الكوارث التي حدثت في الشهور الماضية، ولكن إذا أتى مستحضر الظلام، سيتعين عليَّ إخلاؤها؛ فإنني لا أريد أن يصير الأطفال فرائس للنيتشيڤويا.

يشعر الثور بالنير، ولكن هل تحس الطيور بثقل أجنحتها؟

تُرى، هل أخبرتني (باغرا) بذلك حقًّا، أم أنها أضغاث أحلام؟

نهضتُ، ونفضتُ الغبار عن زي الكفتا، لم أدرِ ماذا أصابني بالتوتر أكثر: أهو رفض (باغرا) لمساعدتي؟ أم مظهرها المكسور؟

إنها ليست مجرد سيدة عجوز؛ إنها امرأة تعيش بلا أملٍ، بعدما سرقت منها بصيصه الأخير.

الفصل الخامس عشر

أحببت غرفة العمليات العسكرية، على الرغم من اسمها.

لم تستطع رسامة الخرائط القابعة بداخلي مقاومة منظر الخرائط القديمة، المرسومة على جلود الحيوانات، والمزينة بتفاصيل مدهشة: كمنارة (أوز كيرڤو) المذهبة، والمعابد الجبلية الشوهانية، والحوريات التي تسبح على أطراف البحار.

نظرت في وجوه الغريشا المرتصين حول الطاولة، كان بعضهم مألوفًا لي، وآخرون جددًا، يمكن لأي منهم أن يكون جاسوسًا لمستحضر الظلام، أو الملك، أو المستشار الروحاني.. أو قد يبحث أحدهم عن فرصة لإزاحتي، والاستيلاء على السلطة.

وقف (توليا) و(تمار) في الخارج، ينتظران مني صيحة في حال حدوث أي مشكلة، لكن وجود (مال) بجانبي طمأنني. كان يجلس عن يميني، مرتديًا ملابسه الخشنة وقد ثبَّت فوق قلبه الدبوس الشمسي، كم كرهت حقيقة أنه سيغادر عما قريب ليذهب إلى الصيد، لكن عليَّ الاعتراف بأن إلهاءه قد يكون ذا نفعٍ. لطالما افتخر (مال) بكونه جنديًّا، وعلى الرغم من محاولاته لإخفاء ذلك، فإن قرار الملك قد أثقل عاتقه، كما أن اعتقاده بأنني أخفي عنه شيئًا زاد الأمور سوءًا.

جلس (سيرجي) عن يمين (مال)، بوجهٍ متجهم وذراعين معقودين، بيد أنه لم يكن مسرورًا بالجلوس إلى جانب حارس من الأوتكازاتسيا، بالإضافة إلى أنني تعمدت أن أجلس مصنعة عن يساري، وهو مجلس شرف. كانت فتاة من (سولي)، اسمها (پاچا)، لم أرها في حياتي من قبل، شعرها داكن

وعيناها تميلان إلى السواد. تبين من الأطرزة الحمراء التي تزين كمي زيها البنفسجي أنها من الخيميائيين، المتخصصين في المواد الكيميائية كالسموم ومساحيق التفجير.

جلس (ديڤيد) في نهاية الطاولة، تلمع على كمي زيه أطرزة رمادية، إنه أمهر الحدادين، ولذلك استعان به مستحضر الظلام ليثبت الطوق حول رقبتي، كان يعمل بالزجاج، والصلب، والخشب، والحجارة، وكل ما هو صلب. جلس (فيديور) و(زويا) بجانبه، يبدوان في أبهى صورة في زي الإثيريالكي الأزرق. وأمام (زويا) كان (پاڤل)، مستحضر النار ذو البشرة الداكنة الذي غضب في وجهي البارحة، كانت ملامحه حادة، وأسنانه المتكسرة تصدر صفيرًا خافتًا كلما تحدث.

انقضى الجزء الأول من الاجتماع في الحديث عن أعداد الغريشا المتمركزين في المواقع العسكرية حول (راڤكا)، ومن منهم قد يكون مختبئًا. اقترحت (زويا) إرسال مبعوثين لينشروا خبر عودتي، وليعلموا كل من أقسم بولائه لمستحضرة النور بأن له عفوًا كاملًا. لبثنا ما يقرب من ساعة نتناقش حول بنود وصياغة ذلك العفو، كنت أعلم أنني سيتعيَّن عليَّ أخذه إلى (نيقولاي) كي نحظى بموافقة الملك، وبهذا سأكون قد اتخذت خطوات حذرة. وفي النهاية، اتفقنا على الجملة الآتية: «الولاء لعرش راڤكا وللجيش الثاني»، على الرغم من أن أحدًا لم يسر بها، فإنني كنت أعلم أنها صائبة.

ثم افتتح (فيديور) الحديث عن المستشار الروحاني قائلًا: «يزعجني أنه هرب من الأسر كل تلك المدة».

سألني (پاڤل): «هل حاول التواصل معك؟».

فأجبته: «كلا».

لاحظت ملامح الشك في وجهه.

قال (فيديور): «لقد رآه البعض في كيرسكي ورايڤوست.. إنه يظهر من العدم ليلقي خطبه الوعظية، ثم يختفي قبل أن يصل إليه جنود الملك».

وقال (سيرچي): «علينا أن نفكر في قتله؛ فإن قوته تزيد، ومن المحتمل أن يكون متآمرًا مع مستحضر الظلام».

أضاف (پاڤل): «علينا إذن أن نجده أولًا».

لوحت (زويا) بيديها قائلة: «وما الفائدة من ذلك؟ إن شغله الشاغل هو نشر الأخبار عن مستحضرة النور، وإقناع الناس بأنها قديسة، لقد آن الأوان أن يظهر العامة تقديرهم للغريشا».

استدار (پاڤل) بوجهٍ غاضب، مشيرًا بذقنه نحوي وقال: «ليس الغريشا، بل هي».

رفعت (زويا) كتفها وردت بلباقة: «ذاك أفضل من أن يصفونا بالسحرة والخونة».

فقال (فيديور): «لندع الملك يقوم بذلك العمل القذر.. دعوه يجد المستشار الروحاني، ويعدمه، ويتحمَّل حنق الشعب».

لم أكن أصدق أننا نتناقش بذلك البرود حول قتل رجل.. لم أدرِ إن كنت سأحب أن أرى المستشار الروحاني مقتولًا أصلًا؛ فإن ذلك الكاهن لديه الكثير من الإجابات عن أسئلتي، كما أنني لست مقتنعة بأنه لم يزَل يعمل مع مستحضر الظلام. بالإضافة إلى أنه كان الشخص الذي أعطاني كتاب «حياة القديسين»، وهذا يعني أنه بلا شكٍّ مصدر معلومات قيِّم؛ وإذا قبض عليه، فأتمنى أن يبقيه الملك حيًّا إلى أن أستجوبه.

قالت (زويا) وهي تتفحَّصني: «أتعتقدين أنه يصدق حقًّا أنك قديسة بُعِثت من موتها؟».

- «لا أظن أن رأيي سيحدث فرقًا».

- «على الأقل سيساعدنا على معرفة مدى جنونه».

تحدث (مال) لأول مرة، قائلًا بهدوء: «أفضِّل أن أقاتل خائنًا، على أن أقاتل متطرفًا.. لم يزَل لديَّ بعض المعارف القديمة في الجيش الأول، يمكنني التحدث إليهم؛ فهناك إشاعات عن جنود رفضوا الانضمام إليه، إن صحَّ ذلك، فلا بد أنهم يعرفون مكانه».

استرقت نظرة إلى (زويا)، التي كانت تحدق إلى (مال) بعينين زرقاوين لا مثيل لهما، بدت كأنها قضت نصف الاجتماع في تحريك رموشها له، أو قد يكون ذلك خيالي، إنها بلا شك مستحضرة رياح قوية، وحليفة مهمة، لكنها كانت مقربة لمستحضر الظلام يومًا ما، وذلك يجعل الوثوق بها أمرًا صعبًا.

كدت أضحك بصوتٍ عالٍ.. أي مزاحٍ سخيفٍ كان هذا؟ إنني كرهت الجلوس معها في الغرفة ذاتها؛ إنها تبدو كقديسة! عظامها رقيقة، وشعرها أسود لامع، وبشرتها مثالية، لم ينقصها سوى هالة تلتف حول رأسها. لم يعرها (مال) انتباهًا، لكن راودني إحساس أنه تعمد تجاهلها قليلًا. كنت أعلم أن ثمة ما هو أهم من (زويا) لكي أقلق بشأنه: كالجيش الذي عليَّ قيادته، والأعداء المنتشرين في كل الأرجاء، لكنني لم أستطع منع نفسي.

تنفَّستُ وحاولتُ التركيز، لم يأتِ أصعب جزء بالاجتماع بعد. داهمتني رغبة ملحة للركض إلى مكانٍ هادئٍ ومظلم، إلا أن ثمة أشياء كان علينا التحدث عنها أولًا.

نظرت حول الطاولة ثم قلت: «عليكم معرفة ما نحن بصدد محاربته».

ساد الصمت في الغرفة، كأن جرسًا قد قرع ليعلن عن انتهاء المسرحية، وبداية الاجتماع الحقيقي.

أخذت أحدِّثهم بالتفصيل عن كائنات النيتشيڤويا: عن قوتهم، وأحجامهم، وأجسادهم التي تتحمَّل بقدر ما الأنصال والطلقات، والأهم من هذا كله: أنها لم تهب ضوء الشمس.

أبدت (پاچا) اعتراضها قائلة: «لكنك هربت.. فلا بد أنها كائنات فانية».

- «إن قوتي في وسعها تدميرهم؛ فالضوء هو الشيء الوحيد الذي لم يستطيعوا الصمود أمامه، لكن الأمر ليس بتلك البساطة؛ لأن تكتيك «القطع» وحده هو ما يقضي عليهم، ولا أعلم عدد المرات التي أستطيع فيها تنفيذه في الوقت نفسه».

لم أذكر لهم أمرَ مضخم القوى الثاني، فقد آثرت أن أبقيه سرًّا، على الأقل في الوقت الراهن. كما أنني، بالاستعانة به، لن أستطيع التصدي لهجمة جيشٍ كامل من الظلام.

أردفت: «لقد هربنا لأن الأمير نيقولاي قادنا إلى خارج نطاق مستحضر الظلام.. من المحتمل أن يكونوا في حاجةٍ دائمة إلى وجود سيدهم بجانبهم».

سأل (پاڤل): «إلى أي مدى؟».

نظرتُ إلى (مال)، فأجاب بالنيابة عني: «من الصعب تحديد ذلك.. ربما إلى مسافة ميل أو ميلين».

قال (فيديور) بنبرةٍ يشوبها بعض الراحة: «إذن، ثمة حدود لقوته».

- «بالتأكيد».

غمرتني السعادة عندما استطعت ربط ما قيل بأمرٍ أقل فظاعة.

أضفت: «سيتعين عليه دخول راڤكا بجيشه، مما يعني أننا سنكون متأهبين. كما أنه سيصاب بالتعب؛ فهو لا يستحضرهم مثلما يستحضر الظلام؛ ذلك الجهد الذي يبذله يستنزفه بشكلٍ ما».

قال (ديڤيد): «لأن تلك ليست قوة الغريشا.. بل إنها ميرزوست».

في اللغة الراڤكانية، تترادف هذه الكلمة مع كلمتي «السحر» و«الرجس». تذكر نظرية الغريشا الأساسية أن المادة لا تُستحدَث من العدم، لكن ذلك اعتقاد ممارسي العلم الصغير، أما «ميرزوست»، فهي أمر مختلف: إنها تخريب لمبدأ «الخلق في قلب العالم».

عبث (ديڤيد) بخيطٍ تدلَّى من كمِّ زيه، ثم قال: «تلك القوة.. لا بد أن لها مصدرًا ما.. لا بد أنها قادمة منه».

سألت (زويا): «ولكن كيف يمكنه القيام بذلك؟ هل امتلك أحد الغريشا تلك القوة من قبل؟».

فقال (فيديور): «إن السؤال الأهم الآن هو: كيف يمكننا محاربتهم؟».

انقلب الحديث إلى كيفية الدفاع عن القصر الصغير، وإيجابيات مواجهة مستحضر الظلام في الساحة. لم أشح بنظري عن (ديڤيد)؛ فإنه، عندما سألت (زويا) عن احتمالية وجود غريشا يمتلك نفس القوة، نظر إليَّ مباشرة لأول مرة منذ وصولي إلى القصر الصغير.. أو بالأحرى قد نظر نحو طوقي.. ثم عاد يحدق إلى الطاولة، لكنني لاحظت عليه عدم الراحة، تساءلت عمَّ قد يعرفه عن (موروزوڤا)، كما أنني أردت إجابة لسؤال (زويا) أيضًا.

لا أدري ما إذا كنت أملك الجهد وثبات الأعصاب الكافيين للتدرب من جديد، ولكن أليست ثمة طريقة لاستدعاء جنود من الضوء لمحاربة جنود الظلام؟ هل هذه القوة التي تمنحها المضخمات الثلاث معًا؟

وددتُ لو أتحدث مع (ديڤيد) على انفرادٍ بعد انتهاء الاجتماع، لكنه هرع إلى الخارج، وحينما فكرت في زيارته في ورش الماتيريالكي ذاك المساء، وجدت حُزمَ أوراق كثيرة تنتظرني في غرفتي، فصرفت نظري عن ذلك. قضيت ساعات في تحضير خطاب العفو، وتوقيع عددٍ لا حصر له من الأوراق التي تفي بإمداد المراكز العسكرية، التي سيعيد إنشاءها الجيش الثاني على حدود (راڤكا)، بالأموال والمؤن اللازمة. حاول (سيرچي) القيام ببعض مهام مستحضر الظلام، لكن معظم عمله كان بلا فائدة.

كان كل شيء مكتوبًا بأكثر الطرق المربكة؛ تعيَّن عليَّ قراءة الورقة الواحدة، التي من المفترض أن تحوي طلبًا بسيطًا، عدة مرات. وعندما انتهيت من عدد قليلٍ من الأوراق، وجدتني تأخرت على العشاء، وتلك

كانت وجبتي الأولى في القاعة المقببة. كنت بالطبع سأفضل تناولها في غرفتي، لكنني أردت ترسيخ وجودي في القصر الصغير، كما أردت التأكد من أن أوامري كانت تنفَّذ، وأن الغريشا قد جلسوا، دون تفرقة، بعضهم مع بعض.

جلستُ على طاولة مستحضر الظلام. وفي محاولة مني للتعرف على الغريشا غير المألوفين لي، وللحد من فرص تكوينهم نخبة جديدة، قررت أن تجلس مجموعة مختلفة معي كل ليلة لتناول العشاء. وجدتها -في البدء- فكرة جيدة، على الرغم من أني لا أملك هدوء (مال)، وحضور (نيقولاي)، إلى أن وجدت المحادثات صارت متكلفة، ويتخللها الكثير من برهات الصمت الغريبة.

لم يكن الوضع أفضل على باقي الطاولات. جلس الغريشا بعضهم إلى جانب بعض بأزيائهم الحمراء والبنفسجية والزرقاء، بالكاد يتحدثون. ترددت خشخشة ملاعقهم من جدارٍ إلى جدار، حتى غادرت الغرفة عبر ثقب القبة، الذي لم يعمل على سدِّه المصنِّعون بعد.

لم أدر أأضحك أم أبكي..! بدوا كأنني طلبت منهم أن يتناولوا العشاء مع الڤولكرا! لكن (سيرچي) و(ماري) كانا على الأقل منسجمين.. يتهامسان ويحتضن أحدهما الآخر، بغض الطرف عن مظهر (ناديا) التي بدت كأنها تود الاختفاء داخل طبق الزبدة، كنت مسرورة لهما، وربما مغتاظة قليلًا في الوقت ذاته.

حاولت إحصاء عددهم في صمت.. كانوا أربعين غريشا، أو ربما خمسين، معظمهم حديثيو التخرج، وبعضهم من الجيش، فكرت وأنا أتنهد، يبدو أن فترة حكمي الرائعة قد بدأت بداية بائسة.

***

وافق (مال) على الانضمام إلى حفلة الصيد، فنهضت من نومي مبكرًا صباح اليوم التالي كي أودعه.

أدركت أننا لن نحظى بخصوصية كافية في القصر الصغير، على الرغم من أن هذا لم يكن الحال حينما كنا في طريقنا إليه؛ ففي ظل وجود (توليا) و(تمار) والخدم المنتشرين في الأرجاء طوال الوقت، صرت مقتنعة بأننا لن نتمتع بلحظة بمفردنا.

في الليلة الماضية، استلقيت على سرير مستحضر الظلام، هائمة في تذكر كيف كان (مال) يقبِّلني في منزل الكونت، آملة أن أسمع طرقه باب الغرفة. فكرت حينئذٍ أن أعبر الغرفة الرئيسية إلى غرف الحرس، لكنني لم أكن متأكدة من سيكون مستيقظًا لنوبة الحراسة، وإن كان أحد التوأمين، فسيغرقني نهر إحراجٍ ليس له آخر، في النهاية، كان لإرهاقي الكلمة العليا، لأنني عندما وعيت بالدنيا من حولي، كان الصبح قد حلَّ.

لما وصلت إلى نافورة العقاب المزدوج، كان المسار المؤدي إلى بوابات القصر امتلأ بالناس والأحصنة: تقدمهم (ڤاسيلي) وأصدقاؤه الأرستقراطيون، بأزيائهم الفخمة الملفتة، ثم تبعهم ضباط الجيش الأول بملابسهم المتسقة، ومن خلفهم ارتصَّ الخدم، بملابسهم البيضاء والذهبية.

وجدتُ (مال) يتفحَّص سرج حصانه بالقرب من مجموعة المتعقبين الملكيين، كان من السهل العثور عليه بفضل ملابسه القروية الخشنة. لمحت قوسًا براقًا معلقًا على كتفه، وجعبة سهامٍ لونها خليط من الذهبي والأزرق الباهت: لونا شعار ملك (راڤكا).

تحرِّم رحلات الصيد الرسمية في (راڤكا) استخدام الأسلحة النارية، ومع ذلك فقد رأيت العديد من الخدم يحملون البنادق على ظهورهم، على الأرجح ليستخدموها في حال أزعجت الحيوانات سادتهم.

اقتربت منه وقلت: «يا له من عرض مميز! ترى، ما هو عدد الأشخاص المطلوب لاصطياد بضعة خنازير؟».

نخر (مال) وردًّ: «هؤلاء قلة قليلة.. لقد سبقتنا مجموعة من الخدم قبل طلوع الفجر لينصبوا الخيم، كفاك القديسون شر أمير راڤكاني ينتظر كوب شاي ساخن!».

نفخ في بوقٍ فإذا بالفرسان يتحركون إلى مواقعهم، فتعلو قعقعة الركاب والحوافر. هزَّ (مال) رأسه، وجذب حزام السرج بحزمٍ، ثم قال متذمرًا: «من الأفضل أن تكون تلك الخنازير صماء».

نظرت حولي إلى الأزياء البراقة، والأحذية اللامعة، وقلت: «كان عليَّ أن ألبسك شيئًا أكثر... لمعانًا».

ابتسم وقال: «ثمة سببٌ لأن الطواويس ليست طيورًا جارحة».

تلك ابتسامة مشرقة، رسمت على شفتيه من دون تكلف، لم أرَ مثلها منذ زمنٍ طويل.

قلتُ في نفسي: إنه سعيد لأنه ذاهب في تلك الرحلة، أجل، إنه يتذمر، لكنه مسرور.

وحاولت ألا آخذ الأمر بشكلٍ شخصي.

سألته: «وهل تعد نفسك بازًا بنيًّا كبيرًا؟».

- «بالضبط».

- «أم أنك ذكر حمام ضخم الحجم؟».

- «لنلتزم بالباز».

امتطى الآخرون أحصنتهم، وانضموا إلى البقية الذين ساروا في الطريق المرصوف بالحصى.

صاح متعقب ذو شعر رملي اللون: «لنذهب يا أوريتسڤ».

وفجأة راودني شعورٌ غريبٌ، أدركت أننا محاطون بالناس، ونظراتهم الثاقبة، ربما أكون قد خرقت بروتوكولًا ما بتوديعي لـ (مال).

ربت على خصر حصانه، وقلتُ: «حسنًا، استمتع بوقتك، وحاول ألا تطلق النار على أحد».

- «عُلِم، انتظري.. أليس من المفترض أن أطلق النار على أحد؟».

ابتسمت، مرغمة.

مرَّت لحظة طويلة غلَّفنا فيها الصمت، أردتُ أن أقذف ذراعي حول رقبته، وأن أدفن وجهي في عنقه، وأن أرغمه على وعدي بأنه سيكون بخيرٍ، لكنني لم أفعل أيًّا من ذلك.

ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيه، وإذا به ينحني لي ويقول: «مولاتي..».

ثم امتطى صهوة جواده، وركله متقدمًا إلى الأمام، ثم اختفى في نهر الفرسان الذي يصب خارج البوابات الذهبية.

عدت إلى القصر الصغير بخطواتٍ مثقلة، كانت الساعة مبكرة، والجو يدفأ تدريجيًّا، وجدت (تمار) تنتظرني عندما خرجت من الممر الخشبي.

قالت: «سيعود عما قريب.. لا داعي لكآبتك هذه».

- «أعلم ذلك»، قلتها وقد شعرت بمدى حماقتي.

وعندما اجتزنا المرج متجهين صوب الإسطبل، ضحكت وقلت: «في كيرامزين، صنعت دمية من جورب قديم لأتحدث إليها عندما كان يذهب إلى الصيد، آملة أن يجعلني هذا أفضل».

- «يبدو أنك كنت فتاة صغيرة غريبة الأطوار».

- «إلى أبعد حدٍّ.. بماذا كنت تلعبين أنت وتوليا لما كنتما صغيرين؟».

- «جماجم أعدائنا».

لمحت لمعان عينيها، فانفجر كلانا في الضحك.

خارج غرف التدريب، قابلنا (بوتكن) سريعًا، إنه المعلم المكلف بإعداد الغريشا للقتال البدني. بدا عليه السرور فور رؤيته (تمار)، ظل الاثنان يتحدثان باللغة الشوهانية عشر دقائق تقريبًا، قبل أن أذكر أمر تدريب المصنعين.

فقال بلهجته الغليظة: «بوتكن في إمكانه تدريب أي أحد».

أضفى الضوء الخافت لمعانًا على ندبة عنقه.

سألني: «علَّمتكِ، أيتها الفتاة الصغيرة، القتال، أليس كذلك؟».

فأجبته: «بلى».

تذكرت تدريباته المرهقة وضرباته.

حدق إلى تطريز الكفتا الذهبية، ثم قال: «لكن الفتاة الصغيرة لم تعد فتاة صغيرة.. عودي لتدريباتك مع بوتكن.. سأضرب الفتاة الكبيرة مثلما ضربت الفتاة الصغيرة».

- «يا لكَ من رجلٍ عادل».

قلتها ثم أسرعت مع (تمار) إلى خارج الإسطبل، قبل أن يريني العدل من وجهة نظره.

ذهبت مباشرة إلى اجتماعٍ آخر في المجلس، ثم صففت شعري وهندمت زيي قبل العودة إلى القصر الكبير لأنضم إلى (نيقولاي) ومستشاري الملك، الذين أعطوه نبذة عن خطط الدفاع عن (أوز ألتا).

راودني شعورٌ بأننا أطفال يقاطعون الكبار..

صرح المستشارون بأننا أضعنا وقتهم، لكن (نيقولاي) بدا غير منزعج، وظل يوجه إليهم أسئلة حذرة عن عدد الأسلحة والقوات المتمركزة حول أسوار المدينة، وعن نظام التحذير الذي لا بد أن يعمل في حال حدوث هجوم. وقد دفع هذا المستشارين للتخلي عن تعاليهم، وشرعوا في الحديث معهم بجدية، وسألوه عن الأسلحة التي أحضرها معه عبر الطية، وكيف يمكن توزيعها بأفضل طريقة.

كان (نيقولاي) قد أعطاني وصفًا موجزًا عن النيتشيڤويا ليساعدني في أثناء شرحي أهمية تسليح الغريشا أيضًا بتلك الأسلحة الجديدة، بيد أن المستشارين لم يزالوا يشكون في الجيش الثاني، لكن (نيقولاي) لم يكترث لذلك، لأنه في أثناء عودتنا إلى القصر الصغير قال لي: «سيقتنعون بمرور الوقت، لهذا السبب عليكِ أن تكوني دائمة التواجد.. لتطمئنيهم، وتساعديهم على فهم أن مستحضر الظلام ليس كأي عدو آخر».

- «أتظن أنهم ليسوا على علمٍ بهذا؟».

- «بل إنهم لا يريدون تصديق ذلك.. إذا كانوا يظنون أنهم سيستطيعون عقد صفقة مع مستحضر الظلام، أو يجعلوه يجثو على ركبتيه أمامهم، فيجب أن نمحو هذا الهراء من أذهانهم، قبل أن يواجهوا هول الموقف».

- «لا أستطيع لومهم».

كان من السهل الحديث عن القوات والأسوار والتحذيرات، لكنني أشك في حقيقة أنها ستجدي نفعًا مع جنود الظلال.

عندما خرجنا من النفق، قال (نيقولاي): «ما رأيك أن تمشي معي إلى البحيرة؟».

ترددت.

فأردف: «أعدك ألا أجثو على ركبتي وأنظم قصائد عن جمالك».

احمرَّت وجنتاي، فابتسم (نيقولاي) وقال: «عليك الذهاب إلى أحد الكوربورالكي لتري إن كان في إمكانه فعل شيء حيال هاتين الوجنتين الحمراوين».

ثم مضى إلى الطريق المؤدي إلى البحيرة.

أغواني اتباعه من أجل لذة إغاظته.. ولكن... هل سيستطيع الكوربورالكي تخليصي من احمرار وجنتيّ حقًّا؟

نفضت تلك الفكرة السخيفة عن رأسي؛ فإنني لو طلبت يومًا ما من أحد الكوربورالكي أن يعتني بوجهي، سأصير أضحوكة القصر الصغير.

توقف (نيقولاي) في منتصف الطريق، فانضممت إليه، ثم أشار نحو بقعة بعيدةٍ من الشاطئ، بالقرب من المدرسة، وقال: «أريد أن أبني مرفأ هناك».

- «لماذا؟».

- «كي أعيد بناء قارب الطنان».

- «ألا تستطيع البقاء هادئًا؟ ألست مشغولًا بما يكفي؟».

أخذ يحدق إلى سطح البحيرة البراق، ثم قال: «آمل أن نجد طريقة لهزيمة مستحضر الظلام يا ألينا.. لكن إن لم نفعل، فلا بد أن نهربك بطريقة ما».

رمقته بنظرة اندهاش، قلت: «وماذا عن بقية الغريشا؟».

- «ليس هناك ما يمكنني فعله لهم».

لم أصدق ما قاله للتوِّ.

- «لكنني لن أهرب».

تنهد وقال: «راودني إحساسٌ أنك ستقولين هذا».

صحت بغضبٍ: «وماذا عنك؟ هل ستطير بقاربك وتتركنا نواجه مستحضر الظلام؟».

- «حقًّا؟ أنت تعلمين جيدًا أنني لطالما أردت أن تكون جنازتي جنازة بطل»، ثم نظر إلى البحيرة من جديدٍ، وأضاف: «أنا سعيد لأنني سأقاتله، لكنني لا أريد أن يقع والدي تحت رحمته، هل ستعطيني اثنين من مستحضري الرياح لأدربهم؟».

قلت: «إنهم ليسوا هدايا يا نيقولاي».

تذكرت كيف أهدى مستحضر الظلام (جينيا) للملكة.

أردفت: «لكنني سأفتح باب التطوع.. فقط لا تخبرهم بالسبب؛ فأنا لا أريد أن يصاب الآخرون بالإحباط...».

أو أن يبدأوا في حجز أماكنهم على متن القارب.

أضفت أخيراً: «ثمة أمر آخر: أريدك أن تضع باغرا في الحسبان.. فلا يجب أن تواجه مستحضر الظلام مجدداً؛ لقد مرَّت بما يكفي».

- «بالطبع... إنني لم أزل أؤمن أن في إمكاننا هزْمه يا ألينا».

قلت في نفسي وقد تملَّكني الأسى: إنني سعيدة بأن هناك من يؤمن بذلك.

ثم استدرت لأدخل القصر.

الفصل السادس عشر

غادر (ديفيد) الاجتماع الأخير سريعًا، تمامًا مثل المرة الماضية، ولكثرة انشغالي، لم أستطع الذهاب والحديث معه في ورش المصنعين حتى مساء اليوم التالي.

وجدته يدقق النظر في حزمة من المخططات، وأصابعه مغطاة بالحبر. أجلست نفسي على كرسي صغير بجانبه، وتنحنحت، فنظر إليَّ بعينين ترمشان مثل أعين البوم. بدا عليه الإعياء الشديد، حد أنني استطعت رؤية خطوط عروقه الزرقاء بارزة على جلده، كما لو أن أحدًا ما قصَّ شعره قصة بشعة.

أو ربما هو من قام بذلك.

فكرت مليًا.. وكان من الصعب عليَّ تصديق أن ذلك الشاب هو من أسر (جينيا) بحبه.

لمحتْ عيناه الطوق المثبت في رقبتي، ثم بدأ يعبث في الأشياء المتناثرة على طاولته، يحركها في شتى الاتجاهات، ويرتبها بعناية في صفوف. كان من بينها: بوصلة، وأقلام جرافيت، ومحابر مختلفة الألوان، وأجزاء من الزجاج، بعضه عاكس وبعضه الآخر شفاف، وبيضة مسلوقة ربما تكون عشاءه الوحيد، ورسومات كثيرة، وصفحات مخططة لم أتبين منها شيئًا.

سألته: «ما الذي تعمل عليه حاليًّا؟».

رمش ثانية، ثم ردَّ: «صحون».

- «حقًّا؟».

- «صحون عاكسة.. مبنية على نظرية القطع المكافئ[1]».

- «يا له من.. أمرٍ مثير للاهتمام!».

حكَّ أنفه، راسمًا عليها خطًّا أزرق.

قال: «قد تكون طريقة لتضخيم قوتك».

- «مثل مرايا قفازي؟».

كنت قد طلبت من الحدادين إعادة تصنيعهم، وعلى الرغم من أنني، بفضل المضخمين، لا أحتاج إليها، فإن تلك المرايا تساعدني على تركيز قوتي، وتحديد الضوء في نقاطٍ، كما أنها تمنحني تحكمًا مريحًا.

قال (ديڤيد): «إلى حدٍّ ما.. إذا نجحت، ستؤهلك لإحداث تأثير أكبر حينما تنفذين تكتيك القطع».

- «ماذا لو لم تنجح؟».

- «إما أن شيئًا لن يحدث، وإما سيتفتت من يستخدمها».

- «يا له من أمر مطمئن».

- «هذا ما فكرت فيه أيضًا».

قالها من دون أن يبتسم، ثم انحنى بظهره ليستأنف عمله.

- «ديڤيد...».

نظر إليَّ، مندهشًا، كما لو أنه اكتشف لتوِّه أنني بجانبه.

- «أريد أن أسألك عن شيءٍ ما».

أسرع بالنظر إلى الطوق مجددًا، ثم إلى الطاولة.

- «ماذا تعرف عن إليا موروزوڤا؟».

انتفض (ديڤيد)، وجال بنظره حول الغرفة شبه الخالية، ما زال معظم المصنعين في الغرفة المقببة يتناولون العشاء.

(1) في الرياضيات، القطع المكافئ هو شكل ثنائي الأبعاد، ينشأ من سطح مخروطي دائري قائم، بمستوى موازٍ لراسم هذا السطح.

بدا عليه القلق جليًّا.. بل في وسعي القول إنه كان خائفًا.

نظر إلى الطاولة مرة أخرى، والتقط البوصلة، ثم تركها.

همس إليَّ في النهاية قائلًا: «أطلقوا عليه اسم حداد العظام».

اقشعرَّ بدني.. تذكرت الأصابع والفقرات التي وضعها الباعة المتجولون على طاولاتهم في (كريبيرسك).

سألته: «لماذا؟ هل بسبب المضخمات التي اكتشفها؟».

نظر إليَّ بعينين مندهشتين، ثم قال: «إنه لم يكتشفهم.. بل صنعهم».

لم أرد تصديق ما سمعته لتوي.

- «ميرزوست؟».

أومأ إليَّ برأسه.

إذن، لذلك نظر (ديڤيد) إلى طوق (موروزوڤا) عندما سألته (زويا) عن الغريشا الذي يمتلك قوة (ميرزوست)، يبدو أن (موروزوڤا) كان يتلاعب بالقوى ذاتها التي يمتلكها مستحضر الظلام.. السحر.. والرجس.

سألته: «ولكن كيف؟».

فنظر خلف كتفه مجددًا، وردَّ: «لا أحد يعلم.. بعدما لقي المهرطق الأسود حتفه في حادثة خلق الطية، خرج ابنه من مخبئه ليقود الجيش الثاني، وتخلص من جميع كتابات موروزوڤا».

ابنه؟

فاجأتني مجددًا حقيقة أن القليل من الناس يعرفون سر مستحضر الظلام. لم يمت المهرطق الأسود؛ لأن ثمة مستحضر ظلامٍ واحدًا فقط.. غريشا واحد استفرد بحكم الجيش الثاني سنوات طويلة، مخفيًا هويته الحقيقية، وإلى حد علمي أنه لم يكن لديه ولد، ولا يمكن أن يكون قد تخلص من شيء بقيمة مذكرات (موروزوڤا).

لقد أخبرني مستحضِر الظلام، عندما كنّا على متن الحواتة، أن بعض الكتب لم تحرِّم جمع المضخمات، ربما كان يقصد حينها كتابات (موروزوڤا).

تملَّكني الفضول لمعرفة كيف استطاع مستحضر الظلام خداع الجميع، فسألت (ديڤيد): «ولماذا اختبأ ابنه من الأساس؟».

تبدَّلت ملامحه كأن الإجابة كانت واضحة.

قال: «لا يجدر بمستحضِر ظلامٍ أن يعيش مع وريثه في القصر الصغير؛ ففرصة اغتيالهما ستكون كبيرة».

- «فهمت».

ذلك أمرٌ جدير -ظاهريًّا- بالتصديق.. وبعد مئات السنين، لا أظن أن أحدًا تساءل عن تلك القصة.

إن الغريشا يحبون عاداتهم.. ولا شك أن (جينيا) ليست أول خياطة تكون في خدمة مستحضر الظلام.

- «ولماذا أراد تدمير المذكرات؟».

- «لأنها توثِّق تجارب موروزوڤا مع المضخمات.. أراد المهرطق الأسود أن يعيد إجراء تلك التجارب، عندما خرجت الأمور عن السيطرة».

اقشعرَّ بدني مرة أخرى، قلت: «وكانت الطية هي النتيجة».

أومأ (ديڤيد) برأسه وقال: «لقد أحرق ابنه جميع مذكرات وأوراق موروزوڤا.. قال إنها خطيرة وستغوي أي غريشا، ولهذا السبب لم أقل شيئًا في الاجتماع.. لم يكن يجب أن أعلم بوجودها من الأساس!».

- «وكيف عرفت إذن؟».

نظر (ديڤيد) حوله من جديدٍ، ثم أجاب: «كان موروزوڤا مصنعًا مثلي، ربما أول المصنعين وأقواهم على الإطلاق، لقد قام بأشياء لم يحلم بها أحد من قبل، أو من بعد».

ثم هزَّ كفَّيه بخجلٍ وأضاف: «إنه بمنزلة بطل بالنسبة إلينا».

- «هل تعرف أي شيء آخر عن المضخمات التي صنعها؟».

هزَّ (ديڤيد) رأسه قائلًا: «ثمة إشاعات عن مضخمات أخرى، لكنني لم أسمع شيئًا إلا عن الأيل».

من الممكن ألا يكون ديڤيد قد سمع بكتاب «حياة القديسين»..

زعم المستشار الروحاني أن الكتاب كان يُوزَّع على كل أطفال الغريشا عند وصولهم إلى القصر الصغير، لكن هذا كان منذ وقتٍ طويل. إن الغريشا يؤمنون بالعلم الصغير، ولم أرَ منهم من يهتم بالدين.

خرافات.. دعايا للفلاحين. هذا ما قاله مستحضر الظلام يومًا عن الكتاب الأحمر.

من الواضح أن (ديڤيد) لم يربط بين القديس (إليا) و(إليا موروزوڤا).. أو أنه يخفي شيئًا.

قلت له: «لماذا أنت هنا يا ديڤيد؟ إنك من قمت بتثبيت الطوق حول رقبتي، ولا شك أنك كنت تعلم نواياه».

ابتلع ريقه، ثم قال: «نعم كنت أعلم أنه سيتمكَّن من التحكُّم بك، وأن الطوق سيجعله يستخدم قواكِ، لكن لم يرِد على ذهني أنه... لم أعتقد أن... كل هؤلاء الناس...».

لم يجد الكلمات المناسبة.. مدَّ يده الملطخة بالحبر، وقال بنبرةٍ أقرب إلى التوسل: «إنني أصنع الأشياء.. لا أدمرها».

أردت تصديق أنه استهان بقسوة مستحضر الظلام.. فإنني ارتكبت الخطأ ذاته، لكنه قد يكون كاذبًا، أو ضعيفًا.

سألني صوتٌ غليظٌ تردَّد في رأسي: ترى ما الأسوأ؟ إنه إذا غيَّر رأيه مرة، سيغيِّر رأيه ثانية.

أكان هذا صوت (نيقولاي)؟ أم مستحضر الظلام؟ أم أنه صوت ذلك الجزء في داخلي الذي تعلَّم ألا يثق بأحد؟

قلت وأنا أنهض للرحيل: «حظًّا سعيدًا مع صحونك».

فانحنى (ديڤيد) فوق الأوراق، وقال: «إنني لا أؤمن بالحظ».

يا للتعاسة.. سنحتاج إلى بعضٍ منه في الفترة المقبلة.

***

غادرت ورش المصنعين، واتجهت مباشرة إلى المكتبة، وقضيت معظم الليل هناك. بذلت مجهودًا بلا فائدة، لم تضم كتب الغريشا التي بحثت فيها سوى أبسط المعلومات عن (إليا موروزوڤا)، على الرغم من أنه يعتبر أعظم مصنِّع عرفه العالم. إنه من اخترع فولاذ الغريشا، وطريقة صنع زجاج لا يكسر، ومركبًا سائلًا قابلًا للاشتعال، وخرق المعادلة في غضون اثنتي عشرة ساعة من تنفيذه التجربة.

ومحى أي ذكر لمضخمات القوى و»حدادة العظام».

ولكن لم يمنعني هذا من العودة في صباح اليوم التالي لأغرق نفسي في قراءة النصوص الدينية بحثًا عن أي إشارة للقديس (إليا).

وكمثل أغلب حكايات القديسين، كانت قصة استشهاده وحشية ومؤلمة: في يومٍ من الأيام، انقلب محراثٌ في الحقل الذي خلف بيته، سمع (إليا) الصرخات فأسرع ليقدم المساعدة، فوجد رجلًا يبكي على جثة ابنه، التي ثقبها عيان المحراث[1]، فتلطخت الأرض بدمه. أعاد (إليا) الصبي إلى الحياة، فشكره أهل القرية بتكبيله بالأصفاد، وإلقائه في النهر ليغرق.

كانت التفاصيل مبهمة للغاية؛ فأحيانًا ما كان يُصوَّر (إليا) مزارعًا، وأحيانًا أخرى بنَّاءً أو نجَّارًا، وكذا الحال مع أبنائه؛ فإما أن يكون له ولد، أو ابنتان، وإما يكون بلا أبناء أصلًا. كما أن المئات من القرى المختلفة قيل إنها أماكن استشهاده، ثم أتى ذكر المشكلة الصغيرة التي حدثت في أثناء قيامه بمعجزته.

(1) حديدته.

لم تواجهني مشكلة في تصديق أن (إليا موروزوڤا) كان معالجًا من الكوربورالكي، لكنه من المفترض أن يكون مصنِّعًا!

ولكن ماذا لو كانا شخصين مختلفين؟

في المساء، أضيئت الغرفة ذات القبة الزجاجية بالمصابيح الزيتية، وكان الصمت مخيمًا عليها، حد أنني سمعت أنفاسي. كنت وحيدة، محاطة فقط بالكتب، والكآبة، فصار من الصعب ألا أشعر بالضيق، ولكن المكتبة كانت أملي الوحيد، فلذت بها.

وجدني (توليا) هناك ذات مساء، جالسة على مقعدي المفضل، أحاول فهم نصٍّ مكتوب بالراڤكانية القديمة.

قال متأففًا: «لا يجب أن تأتي إلى هنا مساءً من دون أحدٍ منَّا».

تثاءبت وفردت ظهري.. وددت أن أقول له إن الخطر الوحيد الذي يهددني الآن هو أن يقع رف كتب فوق رأسي، لكنني من فرط التعب لم أجادله، فاكتفيت بقول: «لن أكرر ذلك ثانية».

سألني (توليا): «ما هذا؟»، وانحنى بجسده ليرى الكتاب المستقر على فخذي، بدا (توليا)، من فرط ضخامته، مثل دب يود الانضمام إلى حصة المذاكرة خاصتي.

قلت: «لا أعرف.. لقد قرأت اسم إليا في الفهرس، فالتقطت الكتاب، لكنني لا أفهم منه شيئًا».

- «إنها قائمة عناوين».

سألته باندهاشٍ: «أتستطيع قراءتها؟».

فأجاب وهو يتصفح الكتاب: «لقد تربينا في كنيسة».

نظرت إليه.. ثمة الكثير من الأطفال الذين تربوا في بيوتٍ متدينة، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنهم يستطيعون قراءة لغة الشعائر الراڤكانية.

سألته: «ما معنى ما هو مكتوب؟».

مرَّ بأصابعه على الكلمات الواقعة أسفل اسم (إليا)، لاحظت أن يديه الضخمتين تغطيهما الندوب، وأسفل كمِّه برزت حافة وشم على جلده.

قال: «لم يذكر إلا القليل.. القديس إليا المحبوب.. القديس إليا القدير.. وثمة بضع بلدات مذكور أنه قام بمعجزاته داخلها».

اعتدلت أكثر في جلستي، وقلت: «يمكننا البحث من هنا».

- «عليك بزيارة الكنيسة الصغيرة، أظن أنك ستجدين بعض الكتب في الموهف[1]».

لقد مررتُ بالكنيسة الملكية عدة مرات، لكنني لم أدخلها مطلقًا، لطالما اعتبرتها جزءًا من نطاق المستشار الروحاني، وحتى بعد رحيله، لا أظن أني أود زيارتها.

- «ما شكلها؟».

رفع (توليا) كتفيه الضخمتين، وردَّ: «مثل أي كنيسة».

سألته وقد داهمني الفضول: «لماذا فكرت في الانضمام إلى الجيش الثاني من الأساس يا توليا؟».

بدا أنه شعر بالإساءة؛ فلقد جاء ردُّه: «إنني لم أولد لخدمة مستحضِر الظلام».

أردت أن أسأله عن السبب الذي وُلِد من أجله، لكنه أتبع: «يمكنني أن أترجم هذا لك إذا أردت».

ثم ابتسم وأضاف: «أو ربما سأجعل تمار تقوم بذلك».

- «حسنًا، شكرًا لك».

انحنى برأسه، لكنه بقي بجانبي، كان ثمة شيء ما في وقفته جعلت بدني يقشعر، أحسست أنه ينتظر شيئًا ما. مددت يدي بحذرٍ، ووضعتها على كتفه، وفور ما استقرت أصابعي عليه، زفر كأنه يتنهد. بقينا صامتين

---

(1) غرفة المقدسات بالكنيسة.

هكذا للحظة، يحيطنا ضوء المصباح، ثم همَّ بالوقوف وانحنى ثانية، قائلًا: «سأنتظرك بالقرب من الباب».

ثم انزلق إلى الظلام.

***

عاد (مال) من رحلة الصيد في صباح اليوم التالي، تحمست لأحكي له كل ما حدث في غيابه: ما عرفته من (ديڤيد)، وخطة إعادة بناء قارب الطنان، ولقائي الغريب مع (توليا).

قال (مال): «أجل، إنه شخص غريب، لكن لن يمسنا ضرٌّ إذا تفقدنا الكنيسة».

قررنا أن نذهب إلى هناك معًا، وبينما نحن في الطريق، ضغطت عليه ليحكي لي عن رحلة الصيد.

- «قضينا معظم الوقت في اللعب بأوراق اللعب، وشرب الكئاس، أذكر أن دوقًا ثملًا فقد وعيه في النهر، حد أنه كاد يغرق، جذبه الخدم من حذائه، لكنه أخذ يسبح في الاتجاه المعاكس، متحدثًا عن أفضل طريقة لاصطياد سمك السلمون المرقط».

ضحكت وسألته: «هل كانت رحلة بشعة إلى هذه الدرجة؟».

ركل حصاة مرَّ بها على الطريق وقال: «كانت جيدة.. إنك تثيرين فضول الكثير منهم».

- «لماذا أشعر أنني لن أحب أيًّا من هذا؟».

- «إن أحد المتعقبين الملكيين يجزم بأن قواك مزيفة».

- «وكيف سأزيفها؟».

- «باستخدام نظامٍ دقيق من المرايا، والبكرات، وربما التنويم المغناطيسي أيضًا، لقد اختلط عليَّ الأمر».

اتسع ثغري بابتسامة.

- «لم يكن الأمر مضحكًا يا ألينا؛ فإن بعض النبلاء، عندما شربوا حد الثمالة، اقترحوا بوضوح إلقاء القبض على الغريشا وإعدامهم».

- «بحق القديسين!».

- «إنهم خائفون».

استشاط غضبي فقلت: «لكن هذا ليس عذرًا! إننا راڤكانيون أيضًا! وما لهم يتحدثون كأنهم نسوا ما بذله الغريشا من أجلهم!».

رفع (مال) يديه وقال: «أنا لم أقل إني أتفق معهم».

تنهدت وذهبت إلى الجلوس على جذع شجرة بريئة، قلت: «أعلم ذلك».

- «على أي حالٍ، أظن أنني أحرزت تقدمًا».

- «وكيف فعلت ذلك؟».

- «لقد أعجبوا بأنكِ خدمت بالجيش الأول، وأنك أنقذت حياة أميرهم».

- «بعدما خاطر بحياته من أجلنا؟».

- «لقد أطلقت العنان لمخيلتي في بعض الأحيان».

- «سيعجب نيقولاي بهذا بلا شكٍّ! هل أخبرتهم بشيء آخر؟».

- «أجل، أنك تكرهين سمك الرنكة».

- «ولماذا؟».

- «وأنك تحبين كعك البرقوق.. وأن آنا كونيا ضربتك بالسوط عندما اهترأ نعلاك بسبب قفزك في البرك».

جفلت.

- «لماذا قصصت عليهم كل هذا؟».

- «لأنني أردتهم أن يعرفوا أنك إنسانة؛ فهم لا يرونك سوى مستحضرة النور.. خطر يهددهم.. غريشا قوتها تضاهي قوة مستحضر الظلام، لذلك أردتهم أن يروك ابنة لهم.. أو أختًا أو صديقة.. أردتهم أن يروا ألينا الحقيقية».

شعرت بغصة في حلقي.

- «هل تتدرب لكي تصبح لطيفًا؟».

- «يوميًّا..»، قالها مبتسمًا، ثم غمز لي وأردف: «لكنني أفضِّل أن أكون «ذا نفعٍ»».

كانت الكنيسة هي البناية الوحيدة المتبقية من الدير الذي اعتلى (أوز ألتا) يومًا، ويقال إنه المكان الذي تُوِّج فيه ملوك (راڤكا) الأوائل. وبالمقارنة ببقية مباني القصر، فإنه مبنى متواضع، ذو جدران بيضاء وقبة واحدة زرقاء براقة.

كان المكان خاليًا، ويبدو في حاجة إلى التنظيف؛ فالمقاعد غطاها التراب، والحمام عشَّش على الأفاريز، مشينا في الممر، وحينما أمسك (مال) يدي، تراقص قلبي بفرحٍ ومرحٍ.

لم نضع وقتًا في الموهف؛ فقد كانت الكتب المستقرة فوق الرفوف بلا فائدة: مجموعة من الترانيم القديمة المكتوبة على ورق أصفر عفا عليه الزمن. لكن ما أثار اهتمامي حقًّا كانت اللوحة الضخمة المعلقة خلف المذبح، التي أظهرت صفحتها الضخمة، النابضة بالألوان، ثلاثة عشر قديسًا ذوي أوجه بشوشة. تعرَّفت إلى بعضهم من كتاب «حياة القديسين»: كالقديسة (ليزابيتا) وأزهارها الملطخة بالدم، والقديس (بيتير) وسهامه التي لم تزل مشتعلة، والقديس (إليا) صاحب الطوق والسوار، وقد كسرت أصفاده.

قال (مال): «ليس ثمة أي حيوانات بجانبه».

- «باستثناء كتاب حياة القديسين، لم أرَه من قبل مصورًا برفقة حيوانات.. فقط يكون دائمًا مكبلًا بالأصفاد».

ولم أكن أعلم السبب.

كانت اللوحة في حالة جيدة، لكن البلل أضرَّ الجزء الذي فيه (إليا)، حد أن وجوه القديسين حجبها العطن، وطغت رائحة العفن على المكان، فدفنت أنفي في كمي.

قال (مال): «لا بد أن ثمة تسريبًا ما.. إن هذا المكان تسوده الفوضى».

علقت عيناي بوجه (إليا) الذي نال منه السخام، وجدتني أتساءل: لماذا مشينا في ذلك الطريق المسدود؟ كرهت الاعتراف مجددًا بأنني رفعت سقف آمالي.

راودني ذلك الشعور مرة أخرى.. ذلك الشعور بأن شيئًا ما يجذب يدي.. كأن السوار لم يلتف حول معصمي أصلًا.

تُرى أين هو طائر النار؟

قال (مال): «يمكننا الوقوف هنا طوال اليوم، لكن ذلك لن يجعله يتحدث إليك».

كنت أعرف أنه يمزح، لكنني شعرت بدفقة غضب تنبع من أعماقي.. لم أعلم إن كان هو سببها، أم أنني أنا السبب.

استدرنا لنعاود المشي في الممر، لكنني توقفت فجأة بعد بضع خطوات؛ رأيت مستحضِر الظلام ينتظرني في ظلمة المدخل، يجلس فوق مقعدٍ تحفُّه الظلال.

سألني (مال) ناظرًا في نفس الاتجاه: «ما خطبك؟».

تجمَّدتُ في مكاني، وأخذت أردد في ذهني: ره.. أرجوك ره.

- «هل حدث شيء ما يا ألينا؟».

غرزت أصابعي في كفي، وقلت: «كلا، أتظن أن علينا زيارة الموهف مجددًا؟».

- «لا أعتقد أن به ما يفيدنا».

تبسَّمتُ واستأنفت المشي، قائلة: «ربما تكون على حق، وأنني فقط أتمنى ذلك».

لما مررنا بمستحضر الظلام، رفع رأسه ليراقبنا، ثم وضع إصبعًا على فمه، وأحنى رأسه من جديدٍ متصنعًا الصلاة بطريقةٍ سخيفة.

شعرتُ بتحسنٍ عندما خرجنا إلى الهواء الطلق، بعيدًا عن رائحة الكنيسة العطنة، لكن عقلي لم يهدأ.

لقد رأيته من جديدٍ.. بوجهٍ سليمٍ بلا ندوبٍ، لكن (مال) لم يره، وهذا يعني أنها تهيؤات محض وليست حقيقة.

لكنه لمسني حقًّا في أول ليلة قضيتها في غرفته.. أحسستُ بأصابعه على خدي.. فأي هلوسة قد تتسبب في ذلك؟

ارتجفت عندما مررنا بالغابة..

هل تلك قوة جديدة اكتسبها مستحضِر الظلام؟

تملكني الخوف.. ثمة احتمالية أن يكون قد وجد طريقة للسيطرة على أفكاري، لكن هناك احتمالية أخرى أسوأ بكثيرٍ.

لا يمكنك أن تخرقي قوانين هذا العالم من دون أن تدفعي الثمن.

ضغطت فخذي بذراعي، فأحسست بقشور سوط البحر وهي تحك جلدي.

انسي موروزوفا وجنونه.

قد يكون ما يحدث لا يمت لمستحضر الظلام بصلة، وأنني فقط أفقد عقلي رويدًا رويدًا.

- «مال...».

لم أدرِ ما عليَّ قوله، لكنني أتبعت: «إن المضخم الثالـ ...».

وضع إصبعًا على شفتي، تذكرت كيف قام مستحضر الظلام بالحركة ذاتها، فكدت أنتفض، ثم سمعنا حفيف أشجار، ومرَّت ثانية، وظهر (ڤاسيلي).

لم أعتد رؤية الأمير في أي مكانٍ سوى القصر الكبير، لذلك تجمَّدتُ في مكاني للحظة، ثم تخلصت من دهشتي وانحنيت له، فأومأ برأسه إليَّ، وتجاهل (مال) نهائيًّا.

حييته قائلة: «مولاي الأمير..».

فابتسم وقال: «ألينا ستاركوف.. آمل أن تعطيني لحظة من وقتكِ».

- «بالطبع».

رمى (مال) الأمير بنظرة شك، ثم قال: «سأنتظر في آخر المسار».

راقبه الأمير في أثناء رحيله، وقال: «يبدو أن ذلك المتهرب لم يعرف مقامه بعد، أليس كذلك؟».

قمعت غضبي، وقلت: «كيف يمكنني مساعدتك، مولاي الأمير؟».

- «أرجوكِ.. أفضِّل أن تناديني «ڤاسيلي»، على الأقل ما دمنا نتحدث على انفرادٍ».

رمشت عيناي تلقائيًّا، تلك أول مرة أكون فيها بمفردي مع الأمير، والحق أنني لم أرد ذلك.

سألني: «هل أنت سعيدة بإقامتك في القصر الصغير؟».

- «بالتأكيد، شكرًا، مولاي الأمير».

- «ڤاسيلي».

- «لا أعلم إن كان من الصواب أن أتحدث معك بتلك الطريقة غير الرسمية أم لا».

- «لكنك تنادين أخي باسمه».

- «لقد قابلته في... ظروف استثنائية».

- «أعلم أنه قد يكون جذابًا، لكن يجب أن تعرفي أنه ذكي ومخادع أيضًا».

قلت في نفسي: هذا حقيقي.

لكنني قلت لـ (ڤاسيلي): «إنه يملك عقلًا غير عادي».

فضحك وقال: «لقد أصبحت دبلوماسية! أتعلمين أن لديك حضورًا مميزًا؟ وإنني متأكد أنك بمرور الوقت، على الرغم من أصلك المتواضع، ستتعلمين كيف تتصرفين بلباقةٍ وضبط نفس مثل نساء النبلاء».

- «أتقصد أنني سأتعلم السكوت؟».

نخر (ڤاسيلي) معترضًا..

أردت أن أنهي تلك المحادثة من دون أن أسيء إليه؛ فحتى إن كان أحمق، فإنه لم يزل أميرًا.

قال بعدما ضحك بتكلفٍ: «بالطبع لا.. تعجبني صراحتك».

- «أشكرك.. والآن، إذا سمحت لي، مولاي الأمير...».

اعترض طريقي قائلًا: «إنني لا أعلم الترتيبات التي اتفقت عليها مع أخي، لكن يجب أن تعرفي أنه الابن الثاني للملك، ومهما كانت طموحاته، سيظل كما هو، أما أنا، فليس هناك من يستطيع أن يجعلك الملكة غيري».

ها هو قد أفصح عن مراده.

تنهدت داخليًا.. وقلت: «ولكن، لا يتوج الملكة سوى ملك».

تجاهل قولي، وأردف: «لن يعيش أبي طويلًا، وأنا من يحكم راقكا الآن».

أتسمي هذا حكمًا؟

صفعتني موجة غضب.

لا أظن أن (ڤاسيلي) كان سيبقى في (أوز ألتا) لو لم يهدد (نيقولاي) عرشه، لكنني لم أخبره بذلك.

أضاف: «لقد صرت أكبر بكثيرٍ من مجرد يتيمة نشأت في كيرامزين، ويمكن أن ترتقي مكانتك أكثر».

فقلتُ له بكامل الصدق: «أؤكد لك، يا مولاي، أنني لا أتطلع إلى المزيد».

- «إذن ماذا تريدين يا مستحضرة النور؟».

- «الآن؟ أريد أن أتناول غدائي».

عبس فتدلت شفته السفلية، حتى صار يشبه والده، ثم تبسَّم وقال: «إنك فتاة ذكية، وأعتقد أنك ستكونين مفيدة لنا.. أتطلع لتوطيد علاقتنا فيما بعد».

فرددت بتلك الكذبة: «لن يسرني غير ذلك».

ثم أمسك بيدي وضغط أصابعي بفمه المبلل، قائلًا: «إلى اللقاء، ألينا ستاركوف».

قمعت ضحكة.. ولما مضى بعيدًا، مسحت يدي خلسة في زي الكفتا.

انتظرني (مال) عند أطراف الغابة.

سألني بوجهٍ اعتراه القلق: «ماذا كان يريد؟».

- «أمير آخر يطلب يدي».

قهقه ضاحكًا: «لا بد أنك تمزحين! إنه لا يضيع وقته!».

- «إن القوة تكمن في التحالف»، قلت مقلدة (نيقولاي).

فسأل (مال): «هل عليَّ تهنئتك؟».

لكن نبرته كانت مرحة، ولم يشوبها أي ضيق، من الواضح أن ولي العهد لم يكن بمثل خطورة القرصان المتغطرس.

سألته: «هل تعتقد أن مستحضِر الظلام كان يتلقى عروضًا غير مرغوب فيها من أميرات ذات شفاه مبتلة؟».

قهقه (مال) ضاحكًا.

- «ما المضحك في سؤالي؟».

- «إنني فقط تخيلت دوقة متعرقة تحاول إغراءه».

أصدرت نخرة تلاها الكثير من الضحك.

كان (نيقولاي) مختلفًا تمامًا عن (ڤاسيلي)، حد أنهما لا يبدوان كأن ثمة صلة دم بينهما على الإطلاق.

وفجأة، ومن دون سابق إنذار، وجدتني أتذكر قبلة (نيقولاي)، وملمس شفتيه الخشن عندما قرَّبني منه.

هززت رأسي. وبينما كنا ماضيين في طريقنا إلى القصر، قلت مذكرة نفسي: قد يكونا مختلفين، لكنَّ كليهما يريدان استغلالك.

الفصل السابع عشر

طالت (أوز ألتا) يد الصيف الباطشة، فاشتد القيظ.

لم يجد أحد راحة إلا في البحيرة، أو مسابح الـ «بانيا» الباردة، الواقعة في بستان ظليل من شجر البتولا، بجانب القصر الصغير.

وعلى الرغم من الضغينة التي يكنُّها رجال البلاط الراڤكاني للغريشا، فإن ذلك لم يمنعهم من استدعاء مستحضري الرياح وخالقي الأمواج إلى القصر الكبير؛ ليستحضروا النسمات، وألواح الثلج، للغرف الخانقة. لم يكن ذلك استخدامًا يليق بقوى الغريشا، لكنني أردت إرضاء الملك والملكة؛ فقد حرمتهم من بعض المصنِّعين المهمين ليعملوا مع (ديڤيد) على تصنيع «صحونه العاكسة» الغريبة.

كنت أجتمع مع مجلس الحرب كل يوم، أحيانًا بضع دقائق، وأحيانًا أخرى بضع ساعات، لنناقش تقارير المعلومات التي وردتنا، وندرس تحركات القوات العسكرية، ونبدي آراءنا فيما يأتينا من أخبار عن الحدود الشمالية والجنوبية.

لم يزل (نيقولاي) يأمل أن نقاتل مستحضر الظلام قبل أن يجمع جيش الظلال بالكامل، لكن شبكة الجواسيس والمخبرين الراڤكانية لم تستطع تحديد مكانه، ولذلك، صارت الاحتمالية الأكبر أننا سيتعين علينا البقاء لحماية (أوز ألتا). والأمر الوحيد الذي قد يصب في مصلحتنا ألا يرسل مستحضر الظلام كائنات النيتشيڤويا لتحاربنا من دون تواجده. ولأنه -من المفترض- أن يبقى على مسافة قريبة من مخلوقاته، سيضطر إلى القدوم إلى العاصمة، ولكن السؤال الأهم: هل سيدخل (راڤكا) من جهة (فييردا) أم (شو هان)؟

وقف (نيقولاي) أمام المجلس الحربي، في قاعة العمليات العسكرية، وأخذ يشير إلى الخرائط الضخمة المثبتة على الجدران، قائلًا: «لقد استرجعنا معظم تلك المناطق في الحملة الأخيرة»، ثم وجه إصبعه إلى الحدود الشمالية التي تفصل (راڤكا) عن (فييردا)، وأردف: «إنها غابة كثيفة، قد يستحيل عبورها إن لم تكن الأنهار جافة، كما أن جميع الطرق محاصرة».

سألت (زويا): «هل ثمة غريشا متمركزون هناك؟».

فأجاب (نيقولاي): «كلا، لكن هناك الكثير من الكشافة في أولنسك، لذا، إذا أتانا من هناك، سيحذروننا».

قال (پاچا): «وعليه أن ينجو من أهوال سلسلة جبال پيترازوي.. فحتى إن تسلقها، أو التفَّ حولها، سيكسبنا ذلك المزيد من الوقت».

لقد لفتت (پاچا) أنظار الجميع خلال الأسابيع القليلة الماضية، وعلى الرغم من أن (ديڤيد) بقي صامتًا متململًا طوال الوقت، فقد بدا عليها السرور لأنها تقضي بعض الوقت خارج ورش المصنعين.

مرَّر (نيقولاي) يده على الحدود الواقعة فوق (تسيبيا): «إنني قلق بشأن الأراضي المتجمدة؛ إنها محصنة بالكامل، لكن ثمة مناطق كثيرة علينا تغطيتها».

أومأت إليه برأسي، لقد مشينا أنا و(مال) في تلك الأراضي البرية من قبل، وأتذكر كيف كانت شاسعة. وجدتني أجول بنظري حول الغرفة، باحثة عنه، رغم أنني أعرف أنه ذهب في رحلة صيد أخرى، ولكن هذه المرة برفقة رماة من (كيرتش)، ودبلوماسيين من (راڤكا).

سألت (زويا): «ماذا لو أتى من الجنوب؟».

أشار (نيقولاي) إلى (فيديور)، فنهض وبدأ يشرح للغريشا نقاط ضعف الحدود الجنوبية، لأنه كان يخدم بـ (سيكورسك)، ومعظم الكوربورالكي يعرفون تلك المنطقة جيدًا.

قال بحدة: «قد يستحيل علينا مداهمة طرق الجبال كلها، وقد استغلت ذلك القوات الشوهانية، لذلك سيسهل على مستحضر الظلام العبور من إحداها».

قال (سيرجي): «ثم سيتجه مباشرة إلى أوز ألتا».

أضاف (نيقولاي): «وحينها سيمر بالقاعدة العسكرية في پوليتزنايا، وسيكون هذا في صالحنا، على أي حال، عندما يبدأ التحرك، سنكون على استعداد له».

نخر (پاڤل) قائلًا: «على استعداد لجيش من مخلوقات لا تقهر؟».

فقال (نيقولاي): «بل يمكن قهرها»، ثم أومأ إليَّ وأردف: «وكذلك مستحضر الظلام.. إنني أعلم ما أقوله جيدًا؛ لقد أصبته من قبل».

سألته (زويا) وقد اتسعت حدقتاها في اندهاش: «هل أطلقت عليه النار؟».

فردَّ: «أجل، ولسوء الحظ لم يحقق ذلك النتيجة المرجوة، لكنني متأكد أنني سأتحسن حينما أتدرب أكثر».

ثم فحص أوجه الغريشا القلقة قبل أن يردف: «إن مستحضر الظلام قوي، لكننا أيضًا أقوياء، وإنه لم يواجه قوة الجيشين الأول والثاني حينما يجتمعان، ولا أنواع الأسلحة التي سأزودهما به، سنواجهه، ونحاصره، ونراقبه وهو يتلقى رصاصة حظه».

عندما يستهدف جيش الظلام القصر الصغير، سيكون مستحضر الظلام بمفرده، وستتمركز وحدات صغيرة مسلحة من الغريشا والجنود على بعد ميلين من العاصمة. وفور بدء المعركة، سينقضوا عليه ويطلقوا صوبه كل الرصاص الذي سيزودهم به (نيقولاي).

إلى حدٍّ ما، كان ذلك ما يخشاه مستحضر الظلام. تذكرت مجددًا كيف وصف لي الأسلحة الجديدة التي تصنع خلف حدود (راڤكا)، وما قاله لي، منذ زمنٍ طويل، تحت سقف الحظيرة العتيقة: **إن عصر الغريشا شارف على الانتهاء.**

تنحنحت (پاچا) وقالت: «هل نعلم ما سيحدث لجيش الظلال عندما نقتل مستحضر الظلام؟».

أردت احتضانها؛ فإنني لم أكن أعلم حقًّا ما قد يحدث لكائنات النيتشيڤويا إن قضينا على مستحضر الظلام.. قد تتلاشى، أو يجن جنونها، لكن (پاچا) قالت: عندما نقتل مستحضر الظلام، وهي جملة تحمل بين طياتها الكثير من القلق، والخوف، وأيضًا.. الأمل.

***

تركزت أغلبية جهودنا على دفاعات (أوز ألتا).

كان للمدينة نظام إنذار عتيق هدفه تحذير القصر في حال اقتراب العدو، أخذ (نيقولاي) إذن والده ليضع أسلحة ثقيلة، تشبه التي كانت على متن قارب الطنان، فوق أسوار القصر وحول المدينة. وعلى الرغم من تذمر الغريشا، فإنني أمرت العديد منهم بصعود سطح القصر الصغير.

قد لا يستطيعون إيقاف النيتشيڤويا، لكنهم سيبطئون سعيهم.

صار الغريشا يقدِّرون حاليًّا قيمة المصنعين، وبمساعدة مستحضري النار، حاول الماتيريالكي صناعة قنابل وظيفتها مداهمة أو تعطيل جنود الظلال. لكن واجهتهم مشكلة وحيدة، وهي أن عليهم صنعها من دون استخدام مساحيق متفجرة قد تردي بحياة كل من حولها. لقد خفت أن تتسبب تلك القنابل في دمار القصر الصغير بالكامل، وتحقق ما يريده مستحضر الظلام بالنيابة عنه. كما أنني رأيت أكثر من مرة بعض الغريشا، في قاعة الطعام، يجلسون وقد احترقت أكمام أزيائهم، أو حواف حواجبهم. لذلك شجعتهم

على القيام بالتدريبات الخطيرة على شاطئ البحيرة، وأن يستعينوا بخالقي الأمواج في حالات الطوارئ.

أثار المشروع اهتمام (نيقولاي)، حد أنه أصر على المشاركة فيه. حاول المصنعون تجاهله، ثم تصنعوا إشراكه معهم، ثم بعد ذلك أدركوا أن (نيقولاي) كان أكثر من مجرد أمير ملول يهوى اللعب؛ فإنه لم يفهم أفكار (ديڤيد) فقط، بل أيضًا فهم بسهولة لغة العلم الصغير من خلال عمله الطويل مع منشقي الغريشا، ثم، مع مرور الوقت، تناسوا أمر رتبته، وأنه من الأوتكازاتسيا، ورأوه غير مرة يجلس منحني الظهر خلف طاولة بورشة المصنعين.

لكن التجارب التي جرت خلف الأبواب الحمراء لغرف الكوربورالكي كانت أكثر ما أزعجني. هناك، تعاون الكوربورالكي مع المصنعين ليحاولوا دمج فولاذ الغريشا مع عظام البشر، بهدف زيادة قوة تحمل الجنود لهجمات النيتشيڤويا. إلا أن تلك العملية كانت مؤلمة وبها الكثير من العيوب؛ ففي أغلب الأوقات، يرفض الجسد المعدن نهائيًّا. ورغم ما بذله المعالجون من جهد، فإن صراخ المتطوعين من الجيش الأول كان يتردد أحيانًا في أروقة القصر الصغير.

وفي كل مساء، تنعقد اجتماعات لا تنتهي بالقصر الكبير. بيد أن قوة مستحضرة النور كانت الورقة الرابحة في محاولات (راڤكا) لإقامة تحالفات مع الدول الأخرى. ولهذا، كان يطلب مني الظهور باستمرار في التجمعات الدبلوماسية لأستعرض قواي، وأثبت أنني -في الواقع- على قيد الحياة. كما أن الملكة أقامت العديد من حفلات الشاي، وحفلات العشاء أيضًا، وكنت أحضرها لأقوم بالأداء المعتاد. وبين الحين والآخر، كان (نيقولاي) يمرُّ ليلقي بعض المجاملات، والمغازلات، من دون خجل، ويحوم حول مقعدي كما لو كان خاطبًا عاشقًا يود حمايتي.

لكن «جلسات التخطيط»، التي حضرها مستشارو الملك والقادة العسكريون، كانت تثير ضجري أكثر من أي شيء آخر. نادرًا ما كان يأتيها الملك؛ لأنه كان يفضِّل قضاء وقته في مطاردة الخادمات، والنوم تحت ضوء الشمس كالقطط. وفي غيابه، تناقش المستشارون في المواضيع ذاتها، وتجادل بعضهم حول أهمية عقد اتفاقية سلام مع مستحضر الظلام، ونوَّه آخرون بضرورة محاربته. كما اقترحوا التحالف مع (شو هان)، أو مع (فييردا)، وتجادلوا حول كل ما ضمته الميزانية، من أعداد المؤن إلى وجبات إفطار الجنود، وفي النهاية لم يتفقوا على قرار موحد.

ولما علم (ڤاسيلي) بأنني أحضر مع (نيقولاي) تلك الاجتماعات، قرر أن ينحي جانبًا كل السنوات التي تجاهل فيها واجبات ولي العهد، وأصر على الحضور معنا. وتفاجأت عندما وجدت (نيقولاي) يستقبله بحماس، قائلًا: «يا لسعادتي! أرجوك أخبرني أنك تفهم ما تحويه هذه الدفاتر»، ثم دفع برجًا منها باتجاهه، إلى الجانب الآخر من الطاولة.

سأله (ڤاسيلي): «ما هذا؟».

- «اقتراح لإصلاح قناة مائية تقع خارج تشيرنستين».

- «أكل هذا لإصلاح قناة مائية؟».

- «لا تقلق، سأوصل البقية إلى غرفتك».

- «أهناك المزيد؟ ألا يستطيع أحد الوزراء...».

- «لقد رأيت ما حدث عندما وضع أبونا مقاليد حكم راقكا في أيدي الآخرين.. لذلك يجب أن نبقى حذرين».

رفع (ڤاسيلي) الورقة التي تعتلي الكومة بحذرٍ، كما لو كان يمسك قطعة قماش متسخة، بذلت كل ما في وسعي حينها كي لا أضحك.

وفي وقتٍ متأخر من ظهر اليوم ذاته، قال لي (نيقولاي): «يظن ڤاسيلي أنه يمكنه قيادتنا تمامًا مثل والدي: بإعداد الولائم، وإلقاء الخطب الموسمية،

سأحرص على تعليمه كيف يحكم من دون أن تكون زمام الأمور في يدي مستحضر الظلام أو المستشار الروحاني».

بدت تلك خطة جيدة، لكنني لعنت الأميرين بداخلي على أي حال.

إن حضور (ڤاسيلي) يطيل الاجتماعات ضعف الوقت.. كان يتأنق، ويفرض نفسه، ويتدخل في جميع القضايا، مشيرًا إلى أهمية حب الوطن، والاهتمام بالإستراتيجيات العسكرية والجوانب الدبلوماسية الدقيقة.

وبعد انتهاء أحد تلك الاجتماعات المشؤومة، في أثناء عودتي برفقة (نيقولاي) إلى القصر الصغير، قلت له بغضبٍ: «إنني لم أقابل في حياتي رجلًا مثله من قبل! يقول الكثير من دون أن ينبس بكلمة أصلًا! عليك أن تفعل شيئًا حيال هذا».

- «مثل ماذا؟».

- «أن تجعل أحد أمهاره يركله في رأسه».

- «أنا متأكد أنهم أُغْروا أكثر من مرة.. إن ڤاسيلي كسول وعديم الفائدة، ودائمًا ما يحب أن يسلك الطرق المختصرة، لكنه لن يصل إلى حكم المملكة بتلك الطريقة السهلة، ثقي بي؛ سوف يصيبه التعب عما قريب».

- «ربما.. لكنني قد أموت من فرط الملل إلى أن يحدث ذلك».

ضحك (نيقولاي) وقال: «أحضري معك قارورة سم في المرة القادمة، وكلما غيَّر رأيه، ارتشفي منها».

فتنهدت وقلت: «سأهوى على الأرض قبل أن تنقضي الساعة».

***

بمساعدة (نيقولاي)، أحضرت خبراء تسليح من (پوليتزنايا) ليساعدونا على تعريف الغريشا بالأسلحة الحديثة، وتدريبهم على استخدامها. وعلى الرغم من توتر الغريشا في البداية، فإنهم اعتادوا التدريبات فيما بعد، وصار لدينا أمل أن تُكوَّن بضع صداقات بين الجيشين الأول والثاني؛ وما

أثبت لنا ذلك أن الغريشا والجنود، المكلفين بمطاردة مستحضر الظلام فور اقترابه من (أوز ألتا)، أحرزوا تقدمًا سريعًا في المصادقة، ولما عادوا من مهمات التدريب باتوا يتبادلون النكات فيما بينهم، واعتلت وجوههم ملامح الغبطة والسرور، كما أنهم صار ينادون بعضهم بعضًا بـ «نولنيكي»، أي جنود الجيش صفر، للدلالة على أنهم لا ينتمون إلى أحد الجيشين الأول أو الثاني من دون الآخر.

قلقت بشأن رد فعل (بوتكن) حيال كل تلك التغييرات، لكن ذلك الرجل بدا كأنه يمتلك موهبة في القتل، بغض النظر عن الطريقة، وكان يخلق أي عذر ليقضي وقته في الحديث مع (توليا) و(تمار) عن الأسلحة.

ولأن معظم الشوهانيين اعتادوا تشريح الغريشا بمشارطهم، لم ينضم منهم إلى صفوف الجيش الثاني إلا القليل. أحب (بوتكن) التحدث بلغته الأم، لكن أيضًا أحب شراسة التوأمين؛ فإنهما لم يعتمدا فقط على قدرات الكوربورالكي خاصتهما، كما يفعل الغريشا ممن نشأوا في القصر الصغير، بل إن قدراتهما على التلاعب بالقلوب كانت بمنزلة سلاح فتاكٍ ضمن ترسانتهما المذهلة.

قال عنهما (بوتكن): «فتى خطير.. وفتاة خطيرة».

كان ذلك وهو يشاهدهما يقاتلان مجموعة من الكوربورالكي ذات صباح، بينما انتظر بعض المستحضرين القلقين أدوارهم. وجدت حينها (ماري) و(سيرجي) واقفين، ومن خلفهما -كالعادة- (ناديا).

شقَّت (تمار) شفتي (سيرجي)، فحاول التحدث قائلًا بتذمرٍ: «إيها أفيل ميه.. أيا أشق عيى يوجها!»[1].

---

(1) أردت إبراز اللثغة كما وردت في النص الأصلي، وهذا لأن (سيرجي) لم يستطع التحدث بشكلٍ طبيعي بعدما شقت (تمار) شفته، والجملة هنا تعني: «إنها أفضل منه.. أنا أشفق على زوجها».

أوقعت (تمار) مستحضر نار على الأرض، فقال (بوتكن): «لن تتزوج».

فسألته متعجبة: «لماذا؟».

فأجابني: «لا هي، ولا أخوها؛ إنهما مثل بوتكن: وُلِدا للقتال.. خُلِقا للحرب».

اندفع ثلاثة من الكوربورالكي نحو (توليا)، وفي غضون لحظات، تأوَّه ثلاثتهم على الأرض. تذكرت حينها ما قاله لي (توليا) عندما كنا في المكتبة: أنه لم يُولَد ليخدم مستحضر الظلام. وتمامًا مثل أي شوهاني اختار أن يكون جنديًّا مأجورًا، فيطوف العالم كمرتزقة أو قرصان، لكن ها هو قد أتى في النهاية إلى القصر الصغير، فيا ترى إلى متى سيبقى هنا مع أخته؟

قالت (ناديا) وهي تنظر إلى (تمار) بعينين حزينتين: «إنها تثير إعجابي؛ فهي شجاعة».

ضحك (بوتكن) وقال: «الشجاعة تعني الغباء».

فقال (سيرجي) بينما كانت (ماري) تمسح شفتيه بقطعة قماش مبللة: «لن أقول هذا في وجهها».

وجدت ثغري يتسع بابتسامة، فأشحت بوجهي عنهم. لم أنس يومًا كيف استقبلني هؤلاء الثلاثة في القصر الصغير، وعلى الرغم من أنهم لم ينعتوني بالعاهرة، ولم يحاولوا تدبير مكيدة لطردي، فإنهم لم يتحملوا عبء الدفاع عني، ولذلك لم أتقبل التظاهر بأنهم أصدقائي، وفي الوقت ذاته لم أعرف كيف أتعامل معهم.

لم نكن يومًا مقرَّبين، والآن، وبعد اختلاف مكانتي، ثمة فجوة بيننا لا أظنها ستسد أبدًا.

وجدتني أقول في نفسي: لن تهتم (جينيا) مطلقًا.

على الرغم من أنها عرفتني جيدًا.. وتبادلت معي الضحكات والمحادثات، ولن يمنعها أي زي لامع من إخباري بما يدور في رأسها، أو أن تلف ذراعها حول ذراعي لتتشارك معي النمائم، وبغض النظر عن أكذوباتها، لكنني أفتقدتها.

ثم جذب أحدهم كم زيي، كأنه يستجيب لأفكاري، وسمعت صوتًا مرتجفًا يقول: «مولاتي..».

وقفت (ناديا) تنظر إلى ما بين قدميها، وتقول: «أتمنى أن...».

- «ماذا؟».

استدارت ونظرت صوب ركنٍ مظلم من الإسطبل، ثم أشارت إلى صبي صغير لم أره من قبل، يرتدي زي الإثيريالكي الأزرق، كان قد عاد إلينا عدد قليل من الغريشا بعدما صدر مرسوم العفو، لكن ذاك الفتى بدا أصغر سنًّا ممن خدموا في الميادين، اقترب منا بخطواتٍ قلقة، وأصابعه تعبث في جيب زيه.

ألقت (ناديا) ذراعها على كتفه، وقالت: «هذا أخي آدريك».

كان ثمة شبه بينهما، إلا أنك عليك التنقيب عنه لتلاحظه.

أردفت: «لقد سمعنا أنك ستقومين بإخلاء المدرسة».

- «هذا صحيح».

إنني سأرسل الطلبة بالفعل إلى المكان الوحيد الذي أعرف جيدًا أن به ما يكفي من المهاجع لضمهم، وهو يبعد تمامًا عن القتال: كيرامزين. وسيذهب معهم (بوتكن)، على الرغم من أني لا أود خسارة جندي شجاع مثله، لكن صغار الغريشا سيتعلمون منه الكثير، وسيستطيع هو الدفاع عنهم، ولأن (باغرا) لا تريد رؤيتي، فقد أرسلت إليها خادمًا ليقدم إليها العرض ذاته، لكنها لم تجب، ورغم جميع محاولاتي لتجاهل إهاناتها، فإن رفضها الدائم لم يزل يثير ضيقي.

نفضت أفكار (باغرا) عن رأسي، وسألت (آدريك): «هل أنت طالب؟».

أومأ برأسه، فلاحظت أن ذقنه حاد.

- «كان آدريك يتساءل... كنا نتساءل إن...».

قاطعها بحدة قائلًا: «أريد أن أبقى!».

ارتفع حاجبي، سألته: «كم عمرك؟».

- «كبير بما يكفي لأقاتل».

قالت (ناديا): «كان سيتخرج هذه السنة».

عبست؛ فإنه بهذا أصغر مني ببضعة أعوام، لكن مرفقيه كانا رفيعين للغاية، وشعره مجعد.

قلت: «اذهب مع الآخرين إلى كيرامزين.. وإذا ما زلت تريد الانضمام إلينا، يمكنك القيام بذلك خلال عام».

أكملت في ذهني: إن بقينا على قيد الحياة.

لكنه قال: «أنا مستحضر بارع، وقوي تمامًا مثل ناديا، حتى من دون مضخم قوى!».

- «إن الوضع خطير...».

- «هذا بيتي، ولن أبرحه».

- «آدريك!»، صاحت (ناديا).

فقلت: «لا بأس».

بدا الانفعال الشديد على (آدريك)؛ فقد لاحظت أنه أغلق قبضتيه بقوة.

نظرت إلى (ناديا) وقلت: «هل أنت متأكدة من أنك تريدينه أن يبقى؟».

فقال (آدريك): «إنني...».

فقاطعته قائلة: «إنني أتحدث إلى أختك.. فإنك إن وقعت فريسة لجيش مستحضر الظلام، هي من ستبكي فراقك».

شحب وجه (ناديا) قليلًا، لكن (آدريك) لم يرمش بعينه، عليَّ الاعتراف بأنه شجاع.

عضت (ناديا) شفتيها، ونظرت إليَّ، ثم إلى أخيها.

قلت: «إذا كنت تخافين إحباطه، ففكري في شعورك في أثناء دفنه».

كنت أعلم أنني تحدثت بغلظة، لكنني أردتهما أن يدركا ما يطلباه جيدًا.

ترددت ثم رفعت كتفيها، وقالت: «دعيه يقاتل، فأنا أوافق على بقائه، إذا أرسلتِه، ستجدينه عند البوابات بعد أسبوع من الآن».

تنهدت ثم نظرت مجددًا إلى (آدريك) الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة، وقلت: «لا تتحدث مع بقية الطلبة؛ فأنا لا أريدهم أن يتناقلوا مثل تلك الأفكار»، ثم أشرت بإصبعي إلى (ناديا) وقلت: «وأنت مسؤولة عنه».

انحنى (آدريك) بجذعه حد أنني ظننته سيهوي إلى الأرض، وقال: «شكرًا يا مولاتي».

بدأت أشعر بالندم على قراري.

قلت: «والآن عُد إلى حصصك».

راقبتهما بينما كانا يصعدان التل، متجهين صوب البحيرة. ثم نفضت التراب عن زيي وذهبت في طريقي إلى إحدى غرف التدريب الصغيرة، حيث رأيت (مال) يتبارز مع (پاڤل). لم يكن (مال) كثير التواجد في القصر الصغير في الفترة الأخيرة؛ فقد أتته العديد من الدعوات، منذ عودته ذاك المساء من (بالاكيريف)، لحضور حفلات منزلية، ورحلات صيد حيوانات أو أسماك سلمون، وتجمعات للعب بأوراق اللعب، بدا أن جميع النبلاء والضباط أرادوا (مال) أن يحضر جميع أنشطتهم.

كان يغيب أحيانًا مساء واحدًا، وأحيانًا بضعة أيام. وجدتني أتذكر (كيرامزين)، لما كنت أراقبه وهو يذهب بحصانه بعيدًا، وأقف أترقب

عودته كل يوم أمام نافذة المطبخ. لكن عليَّ الاعتراف بأن الأيام التي يغيب فيها تكون سهلة الانقضاء؛ فحينما يكون متواجدًا في القصر الصغير، ينتابني شعور بالذنب لأنني لا أقضي معه ما يكفي من الوقت. كما أنني أكره تجاهل الغريشا له، وطريقة تعاملهم معه كما لو كان أحد الخدم، لذلك، وعلى الرغم من أنني أفتقده، فإنني شجعته على الذهاب.

ذلك أفضل له.

قبل هروبه من الجيش لمعاونتي، كان (مال) متعقبًا له مستقبل مشرق، محاطًا بالأصدقاء والمعجبين، لا يليق به حراسة المداخل، ولا الاختباء في أركان الغرف، ولا أن يلعب دور ظلي الظليل الذي يرافقني من اجتماعٍ إلى آخر.

أتى صوت من خلفي يقول: «في إمكاني مشاهدته طوال اليوم».

تصلبت في مكاني.. وجدت (زويا) واقفة، لا يتصبب منها العرق رغم شدة الحرارة.

تذكرت كلماتها الخبيثة التي قالتها لي من قبل، فسألتها: «ألا تفوح منه رائحة كيرامزين العفنة؟».

- «لكنني أعجب أكثر بمن ينتمون إلى الطبقات الدنيا؛ فإن لديهم طابعًا فظًّا فريدًا، لا تنسي أن تخبريني حينما تنتهي علاقتكما، حسنًا؟».

- «معذرة؟».

- «هل أخطأت حقًّا؟ إنكما تبدوان... مقربين. لكنني واثقة بأنك تتطلعين إلى من هو أعلى مقامًا هذه الأيام».

استدرت وقلت: «ماذا تفعلين هنا يا زويا؟».

- «أتيت لأتدرب».

- «أنت تعلمين مقصدي.. ماذا تفعلين في القصر الصغير؟».

- «أنا جندية بالجيش الثاني.. والقصر الصغير بمنزلة بيتٍ لي».

عقدت ذراعي.. فقد حان وقت تسوية خلافاتي مع (زويا).

قلت: «أعلم أنك لا تحبينني، وأنكِ لم تفوتي أي فرصة لتأكدي لي ذلك، فلماذا تتبعينني الآن؟».

- «ألديَّ خيار آخر؟».

- «أنا واثقة بأن مستحضر الظلام سيستقبلك لجانبه من جديد بكل سرور».

- «أتطلبين مني الرحيل؟».

حاولت التحدث بنبرتها المتغطرسة المعهودة، لكنني شعرت أنها خائفة، فراودني إحساس خبيث بالسعادة.

- «أريد أن أعرف لماذا أنت مصرة على البقاء».

- «لأنني لا أريد أن أعيش في الظلام.. لأنك أفضل خيار لدينا».

هززت رأسي وقلت: «يا له من جواب سهل».

احمرَّت وجنتاها وقالت: «هل عليَّ أن أجثو على ركبتي؟».

هل ستفعل ذلك حقًّا؟ لم يكن لديَّ مانع.

- «أنت مغرورة، وطموحة، وكان في إمكانك فعل أي شيء لتحظي بانتباه مستحضر الظلام، ترى ماذا تغير؟».

- «ماذا تغير؟».

لفظتها بانفعالٍ، ثم زمَّت شفتيها، وضمت قبضتيها إلى جانبيها، وأردفت: «كانت لديَّ عمة في نوفكريبيرسك، وابنة أخ، ولم يخبرني مستحضر الظلام بما ينتوي فعله.. لو كنت فقط قد حذرتهما...».

اختلَّت نبرتها، فندمت أنني شعرت بالسعادة عندما راقبت الخوف يعتلي ملامحها.

وفجأة، تردد صوت (باغرا) في أذني: إنك تعتادين القوة جيدًا، وكلما ازدادت، سيزداد جوعك معها. ولكن، هل أصدق (زويا) حقًّا؟ هل ذلك

البريق في عينيها حقيقي أم مزيف؟

منعت دموعها من الهروب، وحدقت إليَّ، وقالت: «ما زلت لا أحبك يا ستاركوف، ولن أحبك أبدًا؛ فأنت خرقاء وحمقاء، ولا أعلم لماذا ولدت بتلك القوة، لكنك ما زلت مستحضرة النور، وإذا كان في إمكانك تحرير راڤكا، فسأحارب من أجلك».

تفحصت وجهها، فلاحظت البقعتين اللامعتين على وجنتيها، وارتعاش شفتيها.

قالت: «حسنًا؟».

لاحظت كيف جاهدت لتسألني هذا السؤال: «هل سترحَّلينني؟».

أطرقت أفكر للحظة طويلة، ثم أجبتها: «كلا، يمكنك البقاء.. حاليًّا».

- «هل كل شيء على ما يرام؟».

قالها (مال) الذي لم نلحظ أنه انتهى من المبارزة.

تلاشى تردد (زويا) في لحظة، ثم ابتسمت له ابتسامة مشرقة، وقالت: «سمعت أنك البطل الأسطوري ذو القوس والسهم، أظنك قد تحب أن تعطيني درسًا».

نظر (مال) إلى (زويا)، ثم إليَّ، وقال: «ربما لاحقًا».

- «أتطلع إلى ذلك».

قالتها ثم مضت بعيدًا بسلاسة ونعومة كالحرير.

وفي أثناء صعودنا التل لنعود إلى القصر الصغير، قال لي (مال): «ما الذي حدث؟».

- «إنني لا أثق بها».

سكت دقيقة طويلة، ثم ما لبث أن قال: «ألينا... إن ما حدث في كريبيرسك...».

قاطعته؛ لم أرد أن أعرف ما حدث بينهما في معسكر الغريشا، لكن هذا ليس السبب الوحيد. قلت: «لقد كانت من المقربين من مستحضر الظلام، ولطالما كانت تكرهني».

- «ربما إنها تغار منك».

- «لقد كسرت لي ضلعين».

- «كسرت ماذا؟!».

- «كان هذا حادثًا.. على ما أظن».

لم أخبر (مال) كم كان الوضع سيئًا قبل أن أتعلم استخدام قوتي، وكم قضيت أيامًا طويلة من الفشل.

- «إنني فقط لا أعلم إلى من تُكنُّ ولاءها الحقيقي».

فركت مؤخرة رقبتي، حيث موضع الألم، ثم أردفت: «إنني لا أثق بأحد.. لا الغريشا، ولا حتى الخدم؛ فمن الممكن أن يكون من بينهم أحد يعمل لحساب مستحضر الظلام».

نظر (مال) حوله. للحظة، لم يكن هناك من يراقبنا، فسمح ليده أن تمسك يدي، وقال: «سيقيم جريتزكي حفلة تنجيم في البلدة العالية بعد يومين، فلنحضرها معًا».

- «جريتزكي؟».

تصنَّع (مال) تعجرف النبلاء، وقال: «أباه هو ستيپان جريتزكي، ملك الورطات، لقد ورث الكثير من المال، وعائلته لديها قصر بجانب القناة».

- «لا أستطيع».

تذكرت الاجتماعات، وصحون (ديڤيد) العاكسة، وإخلاء المدرسة، لا أظنها من الحكمة أن أحضر حفلة ونحن مقبلون على حربٍ ستندلع خلال أيام أو أسابيع.

- «بلى ستستطيعين، ولنكتف بساعة أو اثنتين».

كان عرضًا مغريًا، بالأخص لأنني سأسترق بضع لحظات مع (مال) بعيدًا عن ضغوط القصر الصغير. بيد أن (مال) لاحظ ترددي، لأنه قال: «سترتدين ملابس إحدى الفنانات، ولن يعلم أحد أنك مستحضرة النور أصلًا».

إنها حفلة ليلية، ستبدأ بعدما أنتهي من عملي طوال اليوم، وستخلصني من عبء البحث ليلًا في المكتبة من دون فائدة، ترى، ما الضرر من حضورها؟

قلت في النهاية: «حسنًا، لنذهب».

اتسع فوه بابتسامةٍ كادت تقطع أنفاسي، لا أظنني اعتدت أن تكون تلك الابتسامة لي.. لي وحدي.

قال لي بنبرة تحذير: «لكن توليا وتمار لن يعجبهما ذلك».

- «إنهما حارساي، وسيتبعان أوامري».

اندهش (مال) وانحنى لي قائلًا: «أجل يا مولاتي، نحن نعيش لخدمتك».

رفعت حاجبي، ثم لما أسرعت إلى ورش المصنعين، شعرت بخفة كانت قد اختفت منذ أسابيع.

الفصل الثامن عشر

يقع قصر عائلة (جريتزكي) في منطقة القناة، التي تعد أقل أجزاء البلدة العالية رفاهية، بسبب قربها من الجسر والرعاع الذين يعيشون على جانبه الآخر. كان المبنى صغيراً لكنه فخم، يحده من جهة نصب تذكاري لضحايا الحرب، ومن جهة أخرى حدائق دير القديسة (ليزابيتا).

استطاع (مال) إحضار عربة لنا في المساء، فحشرنا داخلها مع (تمار) التي احتل القلق وجهها. كانت قد تحدثت مع (توليا) وقتًا طويلًا، وتذمرت كثيراً، وبصوتٍ عالٍ، عن الحفلة. لكنني أخبرتهما بوضوح أنني لن أرجع عن قراري، كما أنني اتخذت عليهما عهدًا بأن تبقى رحلتنا هذه سرًّا؛ فلا أود أن تصل أنباء عنها خلف أسوار القصر الصغير، تحديدًا إلى (نيقولاي).

ارتدينا جميعًا ملابس عرافي (سولي): أردية حريرية برتقالية براقة، وأقنعة حمراء نحتت على شكل رأس ابن آوى. بقي (توليا) خلفنا، وعلى الرغم من أنه كان مغطى من رأسه إلى أخمص قدمه، فإن ضخماته -بلا شك- ستلفت أنظار الجميع.

ضغط (مال) يدي بقوة، فاندفعت بداخلي دفقة حماس جارفة. صار ردائي دافئًا إلى حدٍّ لا يحتمل، وأحسست برغبةٍ ملحة في حك وجهي الذي يغطيه القناع، لكنني تجاهلت كل ذلك. انتابني شعور لوهلة أننا عائدون إلى (كيرامزين)، وسنتهرب من أعمالنا المنزلية، ونواجه خطر الضرب بالسوط، فقط لنهرع إلى المرج، ونستلقي فوق العشب البارد، ونستمع إلى طنين الذباب، ونراقب فراق السحب من فوقنا، لكن تلك الأجواء التي يعمها السلام فارقتنا منذ وقتٍ طويل.

كان الشارع المؤدي إلى القصر مكتظًّا بالعربات، فسلكنا زقاقًا قريبًا من الدير حتى نتمكن من الاختلاط بين الفنانين أمام مدخل الخدم. رفعت (تمار) رداءها بحذر في أثناء نزولنا من العربة، كانت تحمل مسدسًا أسفله، وكذلك (مال)، ولا شك أن فأسيها المتطابقتين كانتا مثبتتين في فخذيها.

غطيت رأسه بالقلنسوة، وشددت أربطة قناعي، وسألت (مال): «ماذا لو طلب أحدهم أن أقرأ له الطالع؟».

فأجاب (مال): «أخبريه الهراء المعتاد: بشِّريه بنساء حسناوات، وثروة غير متوقعة، وحذريه من الرقم ثمانية».

قادنا مدخل الخدم إلى مطبخ يغمره البخار، ثم إلى الغرف الخلفية. وفور أن دلفنا إلى الداخل، أمسك ذراعي رجل يرتدي ما بدا أنه زي الخدم، هزني بعنفٍ وهو يقول: «ماذا تظنون أنكم تفعلون هنا؟».

لمحت يد (تمار) تتحسس فخذها.

- «إنني...».

قادنا إلى الغرفة الرئيسية وقال: «عليكم أن تطوفوا الآن حول الضيوف.. لا تقضوا الكثير من الوقت مع ضيفٍ واحد، ومن الأفضل ألا أقبض عليكم وأنتم تشربون الخمر!».

أومأت برأسي، محاولة أن أهدئ من ضربات قلبي المزلزلة، ثم أسرعت إلى القاعة.

بيد أن ملك الورطات قد أسرف في تصميم منزله؛ فقد جعله يبدو كأبشع معسكر سولي يمكن لأحدٍ أن يتخيله. تدلَّت من السقف آلاف المصابيح المصنوعة على شكل نجوم، وحول أركان الغرفة استقرت عربات مغطاة بالحرير، صانعةً موكبًا براقًا، ولمعت الأضواء الملونة الراقصة من المواقد المزيفة.

ولما فتحت أبواب الشرفة، امتزجت همهمات هواء المساء مع رنين الصنج، ونحيب الكمان.

شاهدت عرافي (سولي) الحقيقيين منتشرين بين الحشد، فأدركت أن علينا ارتداء أقنعة مفزعة فوق أقنعة ابن آوى، لكن الضيوف لم يبالوا بنا؛ فمعظمهم ثملوا، وانخرطوا في نوبات ضحك، وأخذ بعضهم يصيحون ببعض، ويشاهدون البهلوانات بأعين منفرجة وهم يتدلون من الأراجيح الحريرية فوقهم. كما جلس بعضهم على المقاعد، يتمايلون، ويستمعون إلى نبوآت العرافين بينما يحتسون القهوة من أكوابٍ ذهبية. وآخرون جلسوا يتناولون الطعام، حول الطاولة الطويلة التي وضعت في الشرفة، يلتهمون التين المحشو، وبذور الرمان، ويصفقون على أنغام الموسيقى.

اختطف لي (مال) زجاجة كڤاس صغيرة، ولُذنا بركنٍ ظليلٍ بالشرفة، بينما وقفت (تمار) تحرسنا عن بُعد. أرحت رأسي على كتف (مال)، غمرتني السعادة لأنني جلست جواره، وأستمع إلى الموسيقى تجلجل عاليًا. أثقلت الهواء روائح الزهور الليلية، المختلطة برائحة الليمون النفاذة، تنفست بعمق، فأحسست بأن الإرهاق والخوف، اللذين سيطرا عليَّ في الأسابيع القليلة الماضية، يغادران جسدي أخيرًا، خلعت نعلي ودسست أصابع قدمي في الحصى البارد.

شدَّ (مال) قلنسوته ليخفي وجهه جيدًا، ورفع قناعه، ثم اقترب مني وفعل الشيء نفسه معي، ثم مال عليَّ، فاصطدم أنفا قناعينا.

قهقهته ضاحكة.

فقال (مال) متذمرًا: «فلنرتدِ أزياء مختلفة في المرة القادمة».

- «ربما علينا ارتداء قبعات كبيرة؟».

- «بل من المفترض أن نكتف بصندوقين فوق رأسينا».

اقتربت منا فتاتان تترنحان، ولم تمضِ لحظة حتى وجدت (تمار) واقفة بجانبي، فارتدينا قناعينا على الفور.

اتكأت الفتاة الأطول على كتف صديقتها، وقالت: «اقرئا لنا الطالع!».

هزَّت (تمار) رأسها، لكن (مال) أشار نحو إحدى الطاولات الصغيرة التي وضعت عليها أكواب مطلية باللونين الأزرق والذهبي.

صاحت الفتاة ببهجة، وصبَّت كمية صغيرة من القهوة التي تشبه الرواسب الطينية؛ فإن أهل (سولي) اعتادوا قراءة الطالع بالنظر في رواسب الكوب.

ثم سكبت الفتاة القهوة وعبس وجهها.

وخزت (مال) بمرفقي، وسألته في نفسي: والآن ماذا بعد؟

نهض ومضى إلى الطاولة، ثم نظر في الكوب وأخذ يقول: «همممممم... همممممم».

تشبثت الفتاة بذراعه وقالت: «ماذا هناك؟».

أشار إليَّ، فجززت على أسناني ومضيت نحوه لأنظر في الكوب.

سألت الفتاة بنبرةٍ حزينة: «هل هو أمر سيئ؟».

فأجابها (مال) بأبشع لهجة سولية سمعتها في حياتي: «بل إنهاااااا أخبااااار سعيييييدة».

تنفست الفتاة الصعداء.

أردف: «ستقابليييين رجلًا وسيييمًا».

ضحكت الفتاتان وصفقتا بأيديهما، فلم أستطع منع نفسي من قول: «لكنهووو سيكووون رجلًا خبيييثًا للغاااية».

كانت لهجتي أبشع من لهجة (مال). إذا سمعني سولي حقيقي، ربما سأعود إلى القصر بعينٍ متورمة.

أضفت: «علييك الهرب من ذاااالك الرجل».

تنهدت الفتاتان وقد أصابهما الإحباط.

- «عليييك بالزوااااج من رجلٍ قبيييح.. ذاااالك أفضل»، ثم رسمت بيدي بطنًا منتفخة وهمية، وأردفت: «سيجعلك سعيييييدة».

سمعت نخرة (مال) أسفل القناع.

قالت الفتاة: «لا تعجبني هذه النبوءة.. فلنذهب ونبحث عن عراف آخر».

وفور رحيلهما، أتى مكانهما رجلان ثملان من النبلاء، أحدهما له أنف كالمنقار وفكّان متهاديان، والآخر ألقى ما تبقى من قهوته في جوفه، كأنه يتجرع كأس كڤاس، ثم ضرب الطاولة بالكوب كأنه مطرقة، وعبث بشاربه الأحمر الكث، وقال: «والآن، ماذا يخبئ لي هذا الكوب؟ اجعلوها نبوءة سعيدة».

تظاهر (مال) بتفحص الكوب وقال: «ستكوووون لك ثروة عظيييمة».

- «لديَّ بالفعل ثروة عظيمة، ماذا بعد؟».

- «وزوجتك ستلد لك ثلاااثة أطفاااال وِساااام».

جلجلت ضحكات رفيقه ذي الأنف المنقاري، وصاح: «ستعلم حينها أنهم ليسوا أطفالك!».

ظننت أن الآخر سيشعر بالإهانة، لكنه قهقه ضاحكًا، وازداد وجهه احمرارًا فوق احمراره.

صاح: «عليَّ أن أبارك للخادم إذن!».

- «ما أعلمه جيدًا أن أفضل العائلات هي تلك التي لديها أبناء غير شرعيين».

- «جميعنا لدينا كلاب، لكننا لا نجعلهم يجلسون معنا على الطاولة!».

تبدّلت ملامحي أسفل القناع.. ساورني الشك أنه يتحدث عن (نيقولاي).

التقطت الكوب من يد (مال) وقلت: «يا له.. يا له من أمرٍ سيئ!».

سألني الرجل وهو ما زال يضحك: «ما الخطب؟».

فأجبت: «ستصاااااب بالصلع.. ستصيييير أصلع جدًّاااا».

توقف عن الضحك، وذهبت يده السمينة إلى شعره الأحمر الرفيع تلقائيًّا.

- «وأنت...»، قلت مشيرة إلى رفيقه، أعطاني (مال) ركلة تحذيرية، لكنني تجاهلته وأتبعت: «سيصيبك دااااء الكوريا».

- «داء ماذا؟».

- «الكوريا! أعضاؤك الخاصة ستنكمش ثم ستختفي!».

شحب وجهه، وابتلع ريقه وقال: «ولكن...».

في تلك اللحظة، سمعنا صياحًا آتيًا من داخل القاعة، وصوت ارتطام طاولة بالأرض، رأيت رجلين يتقاتلان.

قالت (تمار): «أعتقد أن علينا الرحيل الآن»، ثم جذبتنا بعيدًا عن تلك الفوضى.

كنت على وشك الاعتراض لما اندلع القتال بين الجميع. بدأ الناس يدفع بعضهم بعضًا، ويتدافعون إلى أبواب الشرفة. توقفت الموسيقى، وبدا أن أحد العرّافين اشترك في ذلك الهياج، ومن خلف الحشد، رأيت إحدى العربات المغطاة بالحرير ترتطم بالأرض، وأسرع نحونا شخص واصطدم بأحد الرجلين، فانقلب كوب القهوة، وتبعته الأكواب الزرقاء الصغيرة.

تحسس (مال) مسدسه وقال: «هيا بنا.. من الجهة الخلفية!».

تقدمتنا (تمار) حاملة فأسيها، تبعناها إلى أسفل السلم، وفور مغادرتنا الشرفة سمعنا صوت ارتطام آخر، تبعته صرخة امرأة هوت فوقها المائدة.

أمسك (مال) مسدسه وصاح لـ (تمار): «اذهبي بها إلى العربة، وسألحق بكما!».

- «مال...».

- «اذهبا وسألحق بكما على الفور!».

ثم اندفع بين الحشد، متجهًا صوب المرأة المحتجزة أسفل المائدة.

مضت بي (تمار) إلى أسفل سلم الحديقة، ثم إلى ممر يمتد بمحاذاة القصر، يؤدي إلى الشارع الرئيسي. ساد الظلام في الأرجاء البعيدة عن مصابيح الحفلة، فاستحضرت ضوءًا خافتًا لينير طريقنا.

قالت (تمار): «كلا! سيلفت ذلك الأنظار لنا، وستكشفين موقعنا!».

تركت الضوء يتلاشى، مرَّت ثانية ثم سمعت صوت شجار، ثم قال أحدهم «أوووووف»، ثم ساد الصمت.

- «تمار؟».

استدرت وألقيت نظرة على الحفلة، آملة أن أرى (مال) يقترب نحونا.

تسارعت ضربات قلبي، فرفعت يدي، متناسية أمر أن يكشف موقعنا؛ فإنني لن أقف مكتوفة الأيدي في الظلام هكذا، وإذا بي أسمع صرير بوابة، وأشعر بيدين قويتين تمسكان بي وتجذبانني خلف السياج. أرسلت ضوءًا وهاجًا ساخنًا، فوجدتني في فناء حجري يبعد عن الحديقة، تحده من جميع الجهات أشجار الطقسوس، ولم أكن بمفردي.

شممت رائحته قبل رؤيته..

رائحة البخور المخلوطة بالعفن.. رائحة قبر.

رفعت يدي فانبثق المستشار الروحاني من رحم الظلال، كان كما هو، له نفس اللحية السوداء الكثة، وعيناه يملؤهما التحدي. لم يزل أيضًا يلبس رداءه البني، إلا أنه استبدل بعقاب الملك المزدوج، الذي زين صدره يومًا، قرص شمسٍ طُرِّز بخيوطٍ ذهبية.

قلت له محذرة: «ابق مكانك».

فانحنى لي وقال: «ألينا ستاركوف، يا ملكة الشمس، إنني لا أنتوي إيذاءك».

- «أين تمار؟ إذا أصابها مكروه ســ...».
- «لن يمس أحدٌ حراسك بسوء، لكن أرجو أن تسمعيني».
- «ماذا تريد؟ وكيف عرفت أنني أتيت إلى هنا؟».
- «إن المؤمنين منتشرون في كل مكان يا ملكة الشمس».
- «لا تنادِني بذلك!».
- «إن جيشك المقدس يزداد يومًا بعد يوم.. يلتفون حول ضوئك، وينتظرونك لتقوديهم».
- «جيشي؟ لقد رأيت الحجاج يخيمون خلف أسوار المدينة.. فقراء، وضعفاء، وجوعى، وعطشى، يتشبثون بيأسٍ بقصاصات الأمل التي تعطيهم إياها».
- «ثمة جنود آخرون».
- «هل ثمة المزيد من الناس ممن أطعمتهم كذبة أني قديسة؟».
- «إنها ليست كذبة، ألينا ستاركوف؛ فإنك صدقًا ابنة كيرامزين التي بعثت في الطية».

صحت بغضبٍ: «أنا لم أمت لأبعث! لقد نجوت لأنني هربت من مستحضر الظلام، وقد كلفني ذلك تدمير سفينة بكل من عليها من جنود وغريشا، هل أخبرت أتباعك بذلك؟».

- «إن قومك يعانون، وأنت الوحيدة القادرة على بدء عصر جديد.. عصر يبزغ من نارٍ مقدسة».

عيناه الجامحتان غلب عليهما السواد، حد أنني لم أستطع رؤية بؤبؤ عينه.

لكن يا ترى هل جنونه حقيقي أم هو تظاهر متقن؟

- سألته: «ومن سيحكم ذلك العصر الجديد؟».
- «بالطبع أنت يا ملكة الشمس.. أنت أيها القديسة».

- «وستكون أنت ذراعي اليمنى، أليس كذلك؟ لقد قرأت الكتاب الذي أعطيتني إياه.. وعلمت أن القديسين لا يعيشون طويلًا».

- «تعاليْ معي، ألينا ستاركوف».

- «لن أذهب إلى أي مكانٍ معك».

- «إنك لا تملكين القوة الكافية بعد لتواجهي مستحضر الظلام؛ يمكنني مساعدتك».

تجمدت في مكاني.

قلت: «هات ما عندك».

- «انضمي إليَّ، وسيُكشَف لك كل شيء».

تقدَّمتُ نحوه، وقد تملَّك مني الحنق والتعطش إلى درجة أدهشتني، سألته: «أين طائر النار؟».

ظننتُ أنه سيتردد في الإجابة، أو أنه سيتظاهر بالجهل، لكنه ابتسم، فكشفت لثَّته السوداء، وركام أسنانه المعوجة.

قلت: «أخبرني أيها الكاهن، وإلا سأقطعك إلى أشلاء في التوِّ واللحظة، ولتدع أتباعك يجمعونها من جديد!».

للحظة، أدركت أنني أعني ما قلته، ولأول مرة، بدا عليه التوتر.

قلت في نفسي: جيد، هل كان يتوقع أن يجدني قديسة حنونة؟

رفع يديه محاولًا تهدئتي، وقال: «لست أدري.. أقسم لك بذلك، لكن عندما غادر مستحضر الظلام القصر الصغير، لم يكن يعلم أنها ستكون آخر مرة، فخلَّف وراءه الكثير من الأشياء الثمينة.. أشياء اعتقد الجميع أنها دُمِّرت منذ عهدٍ طويل».

داهمني التعطش إلى القوة من جديد، فسألته: «أتقصد مذكرات موروزوفا؟ هل هي بحوزتك؟».

- «فلترافقيني، ألينا ستاركوف؛ فإن ثمة الكثير من الأسرار المدفونة».

تُرى، هل يقول الحقيقة؟ أم أنه سيسلمني لمستحضر الظلام على طبق من فضة؟

- «ألينا!».

أتاني صوت (مال) من مكانٍ ما على الجانب الآخر من السياج.

فصحت له قائلة: «أنا هنا!».

أسرع (مال) إلى الفناء، حاملًا مسدسه، ومن خلفه (تمار) تحمل فأسًا بعدما خسرت الأخرى، وقد تلطَّخ رداؤها بالدماء.

استدار المستشار الروحاني، متخفيًا في ردائه، ثم اختفى بين الشجر،

قلت له: «انتظر!»، ثم أسرعت لألحق به، لكن (تمار) سبقتني وهي تزأر بغضبٍ، قافزة فوق السياج لتطارده.

صحت بها قائلة: «أريده حيًّا!».

قال (مال) حينما توقف بجانبي: «هل أنت بخيرٍ؟».

فأمسكت بذراعه وقلت: «أعتقد أنه يملك مذكرات موروزوفا يا مال».

- «هل آذاك؟».

- «في إمكاني التعامل مع كاهن عجوز.. هل سمعت ما قلته؟».

تراجع إلى الخلف قليلًا، وقال: «أجل، سمعتكِ، ظننتكِ في خطر».

- «كلا، أنا...».

ركضت (تمار) نحونا، وعلى وجهها قناع الإحباط، هزَّت رأسها وقالت: «لا أعرف كيف كان واقفًا بيننا، ثم اختفى!».

- «بحق القديسين...».

طأطأت رأسها، وقالت: «سامحيني».

لم أرها من قبل في مثل تلك الحالة من الانكسار.

قلت لها: «لا بأس»، لكن عقلي لم يتوقف عن الدوران، أراد جزء مني أن أعدو خلفه في ذلك المسار، أن أصرخ باسمه وآمره بالظهور.. أن أطارده

في شوارع البلدة حتى أمسك به، وأفتح فمه الكاذب لأنقب داخله عن الحقيقة. نظرت خلف السياج.. لم أزل أسمع صيحات قادمة من الحفلة، ومن مكانٍ ما في الظلام، دقت أجراس الدير، فتنهدت وقلت: «فلنخرج من هنا».

وجدنا الحوذي ينتظرنا في الشارع الجانبي الضيق حيث تركناه،

لم تكن عودتنا إلى القصر سهلة.

قال (مال): «لم يكن ذلك الشجار صدفة».

- «أجل..»، قالتها (تمار) مبدية موافقتها، وأخذت تتحسَّس الجرح القبيح الذي امتد بعرض ذقنها، ثم أردفت: «إنه كان يعلم أننا سنحضر الحفلة».

فقال (مال): «كيف؟ لم يعلم أحد أننا سنذهب إليها، هل علم نيقولاي بذلك؟».

أجبته: «هذا ليس من شأنه».

- «ولماذا أنت متأكدة لهذه الدرجة؟».

ضغطت بأصابعي جبهتي وقلت: «لأنه لن يستفيد من ذلك.. ربما قد رآنا أحد ونحن نغادر القصر».

- «وكيف دخل المستشار الروحاني أوز ألتا من دون أن يراه أحد؟ كيف علم أننا سنحضر الحفلة من الأساس؟».

- «لست أدري.. لقد أخبرني أن المؤمنين في كل مكان؛ فربما سمعنا أحد الخدم».

قالت (تمار): «لقد حالفنا الحظ الليلة؛ كان من الممكن أن تزداد الأمور سوءًا».

قلت: «لم أكن في خطر حقيقي؛ فإنه كان يريد التحدث معي فقط».

- «وماذا قال لك؟».

قصصت عليها ما حدث من دون الخوض في الكثير من التفاصيل، ومن دون ذكر أمر مذكرات (موروزوڤا)؛ فإنني لم أتحدث عنها إلا مع (مال)، كما أن (تمار) تعرف الكثير بالفعل عن مضخمات القوى.

قلت في النهاية: «إنه يشكِّل جيشًا ممن يؤمنون بأنني بُعِثتُ من موتي، وأنني أملك قوة مقدسة».

سألني (مال): «كم جمع إلى الآن؟».

- «لا أعلم، ولا أدري ماذا ينتوي أن يفعل بهم، تُرى هل سيقود انقلابًا على الملك؟ أم سيرسلهم إلى محاربة جيش مستحضر الظلام؟ إنني مسؤولة الآن عن الغريشا، ولا أريد أن أتحمَّل أيضًا مسؤولية جيشٍ ضعيف من الأوتكازاتسيا».

قال (مال) بحدة: «لسنا جميعًا مثيرين للشفقة إلى هذه الدرجة».

- «ليس هذا مقصدي... أعني أنه يستغل هؤلاء الناس.. يستغل أملهم».

- «هل هذا يختلف عن تجول نيقولاي معك من قريةٍ لأخرى؟».

- «لكن نيقولاي لا يخبر الناس أني خالدة، أو أن في إمكاني القيام بمعجزات».

- «أجل، لكنه لم يمنعهم من تصديق ذلك».

- «لماذا أنت سريع الهجوم عليه؟».

- «لماذا أنت سريعة الدفاع عنه؟».

أشحت بنظري بعيدًا، كنت متعبة، وغاضبة، ولا أقدر على التفكير بسبب الزوبعة التي تعصف برأسي.

مرَّت أمامي، عبر نافذة العربة، شوارع البلدة العالية المضاءة، وقضينا ما تبقى من الرحلة من دون أن ننبس بكلمة.

***

عندما عدنا إلى القصر الصغير، بدَّلت ملابسي بينما قصَّ (مال) و(تمار) ما حدث على (توليا).

كنت جالسة على السرير لما دقَّ (مال) الباب، دلف إلى الداخل، وأغلق الباب، واستند إليه، ثم أخذ يجول بنظره حول الغرفة.

قال: «هذه الغرفة كئيبة جدًّا.. ظننت أنك ستعيدين تصميمها».

رفعت كتفي.. فثمة العديد من الأشياء الأخرى التي عليَّ الاهتمام بها، كما أنني اعتدت إلى حدٍ ما كآبة الغرفة وسكونها.

سألني: «أتعتقدين حقًّا أن المذكرات بحوزته؟».

- «لقد تفاجأت أنه يعلم بوجودها من الأساس».

مضى إلى السرير، فضممتُ ركبتيَّ إلى صدري لأفسح له مكانًا ليجلس.

استقر بجانب قدمي وقال: «إن تمار محقة؛ فكان من الممكن أن تزداد الأمور سوءًا».

تنهدت وقلت: «لم تكن تلك حفلة عادية».

- «كان لا بد أن أقترح عليك حضورها».

- «كان لا بد ألا أطيعك».

أومأ برأسه، ثم جرَّ حذاءه على الأرض، وقال بهدوء: «إنني أفتقدك».

كلماته رقيقة، لكنها آلمتني، وزلزلت كياني، ترى هل يشك جزء مني في صحة مشاعره بسبب ابتعاده الدائم عني؟

لكنني لامست يده، وقلت: «أنا أيضًا أفتقدك».

- «فلتحضري معي تدريبات التصويب غدًا بجانب البحيرة».

- «لن أستطيع ذلك؛ فلديَّ اجتماع مع وفدٍ من مصرفيي كيرتش رفقة نيقولاي؛ فإنهم يريدون رؤية مستحضرة النور قبل موافقتهم على إقراض المملكة».

- «أخبريه أنك مريضة».

- «لكن الغريشا لا يمرضون».
- «إذن أخبريه أنك مشغولة».
- «لا يمكنني ذلك».
- «إن بعض الغريشا الآخرين يـ...».
- «وأنا لست منهم»، قلتها بحدة فاقت ما انتويته.
- «أعلم ذلك»، قالها مضجرًا، ثم زفر طويلًا، وأردف: «أقسم بالقديسين أني أكره هذا المكان».
جفلت، مندهشة من الغضب الذي يشوب نبرته.
قلت: «حقًّا؟».
- «أكره الحفلات، والناس، وكل شيء يتعلق به».
- «ظننت... أنك... حسنًا، لست سعيدًا بالضبط، ولكن...».
- «أنا لا أنتمي إلى هذا المكان يا ألينا، لا تخبريني بأنك لم تلحظي ذلك».
لم أصدق ما قاله؛ لأنه يتأقلم على أي مكانٍ ينزل فيه.
- «لكن نيقولاي يقول إن الجميع يعشقونك هنا».
- «بل إن وجودي يسليهم.. وهذان الأمران لا يستويان».
ثم قلب يدي، وتحسس الندبة التي تقطع كفي طوليًا، وأردف: «أتعلمين أني أفتقد الهروب؟ افتقدت حتى ذلك النزل الصغير القذر، والعمل في المستودع، كنت أشعر حينها أني أقوم بشيء ذي فائدة، بدلًا من إضاعة الوقت في الانخراط في النميمة».
شعرتُ بالضيق، فاتكأت على مرفقي لأعتدل في جلستي، ثم قلت: «إنك تستغل كل الفرص لتبتعد، رغم أنك لست مجبرًا على قبول الدعوات».
حدق إليَّ، وقال: «لقد ابتعدت لأحميك يا ألينا».
- «من ماذا؟!».

نهض وأخذ يمشي في الغرفة جيئة وذهابًا وهو يقول: «أتعلمين ما هو أول شيء سُئِلت عنه في رحلة الصيد الملكية؟ علاقتي بك».

ثم التفت إليَّ، وتحدث بنبرةٍ قاسية، وفي الوقت ذاته ساخرة، قائلًا: «سألوني: هل تضاجع مستحضرة النور حقًّا؟ هل تعجبكَ القديسة؟ هل تميل إلى المتعقبين، أم أنها تصطحب كل الخدم إلى سريرها؟».

عقد ذراعيه، واستطرد: «لقد ابتعدت لأخلق بيننا مسافة، حتى يتوقف انتشار الشائعات، ربما لا يجب أن أكون هنا الآن!».

لففت ذراعي حول ركبتي، وضممتهما أكثر إلى صدري، ثم قلت وخداي يحترقان: «ولماذا لم تخبرني بذلك؟».

- «ماذا كان عساي أن أقول؟ ومتى؟ إنني بالكاد أقابلك».

- «ظننتكَ تريد الابتعاد».

- «أردتكِ أن تطلبي مني البقاء».

شعرتُ بغصة في حلقي، فتحتُ فمي، وكنتُ على وشك إخباره بأنه يظلمني، وأنني لم أكن لأعلم ذلك بمفردي، لكنني توقفت وسألت نفسي: هل هذه الحقيقة؟

لقد ظننتُ صدقًا أن (مال) يسعد بابتعاده عن القصر الصغير، أو ربما هذا ما أقنعت نفسي به؛ فالأمور تسير بسلاسةٍ أكبر حينما لا يكون متواجدًا، ويقع من فوق عاتقي حمل أن يكون ثمة شخص آخر يراقبني، ويريد شيئًا مني.

خرج مني صوت يشبه الصرير حينما قلت: «أنا آسفة».

رفع يديه كأنه كان سيدافع عن نفسه، ثم أنزلهما من جديدٍ في يأسٍ، وقال: «إنني أشعر أنكِ أنتِ من تبتعدين عني، ولا أعلم ماذا عليَّ أن أفعل كي أمنع ذلك».

اغرورقت عيناي بالدموع، وأنا أقول: «سنجد حلًّا.. سيكون لدينا الكثير من الوقت لـ..».

- «ليس هذا فقط ما يهم.. لقد تغيَّر جزءٌ كبيرٌ منك منذ أن ارتديتِ مضخم القوى الثاني».

تحسَّست السوار بأصابعي.

أردف: «وماذا عن تدميرك للقبة؟ والطريقة التي تتحدثين بها دائمًا عن طائر النار؟ وحديثك مع زويا؟ لقد شعرت بالخوف منك يا ألينا، وقد أحببتِ ذلك».

- «ربما تكون محقًّا..!».

بدأ الغضب يتملَّك مني، وذلك أفضل من أن أشعر بخزيٍ أو ندم.

أتبعت: «لكن ما المشكلة؟ إنك لا تدري كيف كانت تعاملني، وكيف كنت أشعر تجاه هذا المكان من قبل.. وكيف تملَّك الخوف مني، وألقيت المسؤوليات على عاتقي...».

- «أنا أعلم كل هذا جيدًا، وأرى مدى تأثيره فيك، لكن لا تنسي أنه كان اختيارِك، وأن لديكِ غاية ما، أما أنا فلا أعلم ما هي فائدتي هنا».

نهضت من سريري، وقلت: «لا تقل هذا؛ نحن لدينا الغاية نفسها: لقد أتينا هنا من أجل راڤكا، ونحن...».

- «كلا يا ألينا.. أنتِ من أتيت هنا من أجل راڤكا.. من أجل طائر النار.. من أجل قيادة الجيش الثاني»، ثم نقر الشمس المرسومة فوق قلبه، وأتبع: «أما أنا فأتيت من أجلك.. أنت لوائي ووطني.. لكن على ما يبدو أن هذا لم يعد يهمك، أتعلمين أن تلك المرة الأولى التي جلسنا فيها بمفردنا منذ أسابيع؟».

كان هدوء الغرفة الغريب خير دليل. اقترب مني (مال) خطوة، فباعدت بيننا خطوتين طويلتين فقط، انزلقت يده ليمسك بخصري، وصعدت يده الأخرى لتستقر على خدي، ثم ألصق فمه بفمي برفقٍ.

قال بنبرة هادئة: «عودي إليَّ..»، ثم قرَّبني منه، وحينما التقت شفاهنا، برق شيء ما في عيني.

لمحت مستحضِر الظلام واقفًا خلف (مال)، فتصلبت كما جذع شجرة.

تراجع (مال) إلى الخلف قائلًا: «ما خطبك؟».

- «لا شيء.. إنني فقط...».

ثم صمتُّ.. لم أدرِ ماذا عساي أن أقول.

ما زال مستحضِر الظلام واقفًا من دون حراك، وإذا به يقول: «أخبريه أنك ترينني عندما يضمك إلى صدرك».

أغمضت عيني على الفور.

ابتعد (مال) عني، وقد وشى انغلاق قبضتيه بغضبه.

قال: «أعتقد أن هذا ما أردت معرفته».

- «مال...».

- «كان عليكِ إيقافي، حتى لا أظل واقفًا هنا كالحمقى، وبما أنك لا تريدينني، فكان عليكِ فقط إخباري بذلك».

قال مستحضِر الظلام: «لا تغضب أيها المتعقب؛ فكل الرجال قد يصيروا حمقى في أي لحظة».

- «هذا ليس ما في الأمر...».

- «هل وقعتِ في حب نيقولاي؟».

- «ماذا؟ لا!».

فقال مستحضِر الظلام ساخرًا: «هل وقعت في حب شخص آخر من الأوتكازاتسيا يا ألينا؟».

هزَّ (مال) رأسه وقد بدا عليه الاشمئزاز، وقال: «لقد سمحتِ له بإبعادي عن الاجتماعات، وتوقيتات العشاء.. سمحتِ له أن ينحيني جانبًا.. وآثرت الانتظار، آملًا أن تفتقديني إلى الحد الذي يجعلك تخبرينهم بأن يذهبوا جميعًا إلى الجحيم!».

ابتلعت ريقي بصعوبة، وحاولت تجاهل ابتسامة مستحضر الظلام الباردة.

ثم ما لبثت أن قلتُ: «إن مستحضر الظلام يا مال...».

- «لا أريد سماع اسمه مرة أخرى! ولا تذكري لي شيئًا عن راڤكا أو مضخمات القوى!».

ثم شقَّ الهواء بيده وقال: «لقد فاض الكيل!».

استدار ومضى نحو الباب، فركضتُ خلفه وجذبتُ ذراعه قائلة: «انتظر!».

التفت سريعًا فكدت أهوي عليه.

- «توقفي يا ألينا».

- «إنك لا تفهم شيئًا».

- «لقد جفلت.. هيا أخبريني أنك لم تفعلي!».

- «لم يكن هذا بسببك!».

علت ضحكاته، وقال: «أعلم أنك لا تملكين الخبرة الكفاية، لكنني قبَّلت ما يكفي من الفتيات لأعرف ما ينم عنه رد فعلك، لكن لا تقلقي، فهذا لن يتكرر ثانية».

صفعني بكلماته، ثم خرج وأغلق الباب في وجهي.

وقفت أحدق إلى الباب، وتحسست المقبض العظمي.

قلت في نفسي: «يمكنكِ إصلاح الأمر.. ستقدرين على ذلك».

لكنني ما زلت متجمدة في مكاني، وكلمات (مال) تدق كالأجراس في أذني. عضضت شفتي بقوة كي لا أجهش بالبكاء، لكن الدموع انثالت من عيني على أي حال، هذا جيد.. هكذا لن يسمعك الخدم.

شعرت بغصة في قلبي، قوية وصلبة، كما لو كانت شظية مؤلمة براقة غرزت في قفصي الصدري، تضغط بإصرار لتفتك به.

لم أدر أن مستحضر الظلام قد تحرك حتى وجدته واقفًا بجانبي، ألقت أصابعه الطويلة شعري خلف عنقي، ولامست الطوق، ولما قبّل خدي، أحسست بمدى برودة شفتيه.

الفصل التاسع عشر

باكرًا في صباح اليوم التالي، بحثت عن (ديڤيد) فوجدته على سطح القصر الصغير، حيث بدأ تشييد صحونه العاكسة الضخمة. كان قد وضع مكتبًا تحت ظل إحدى القباب، تناثر عليه ما بدا لي كشذرات زجاج لامعة، ورسومات مهملة هدهد النسيم حوافها كلما مرَّ، لمحت في أحد هوامشها خط يد (نيقولاي).

سألته: «كيف تجري الأمور؟».

رأيته يتفحص السطح اللامع لأقرب صحن.

قال: «أفضل من ذي قبل.. أظن أنني ضبطت زاوية الانحناء، سنتمكَّن من تجربتها عما قريب».

- «متى؟».

لم نزل نستقبل تقاريرَ متضاربة حول موقع مستحضِر الظلام، لكنه إن لم يجمع جيشه بعد، فلن يستغرق وقتًا طويلًا.

قال (ديڤيد): «أسبوعين تقريبًا».

- «أليست تلك مدة طويلة؟».

- «في إمكاني الانتهاء منها قريبًا لكنها لن تكون على أكمل وجه».

- «عليَّ أن أعلم يا ديڤيد...».

- «لقد أخبرتك بكل شيء أعرفه عن موروزوڤا».

- «لا أود الاستفسار عنه.. ليس بالضبط.. لكن، إذا أردت إزالة الطوق، كيف يمكنني القيام بذلك؟».

- «لن تستطيعي».

- «ليس الآن.. ولكن بعدما...».

قال (ديفيد) قبل أن ينظر إليَّ: «كلا؛ إنه لا يشبه بقية المضخمات.. لا يمكن نزعه، بل يجب أن يكسر.. يدمر هيكله. وستكون النتائج كارثية».

- «إلى أي مدى؟».

- «لست أدري.. لكنني واثق بأن ذلك سيوسع الطية أكثر».

- «حقًّا؟».

قلتها بهدوءٍ، وقد أدركت أن الأمر ذاته سيحدث إذا أزلت السوار، ومهما يكن مصير، فلن أستطيع تغييره.

تمنيت أن تكون الرؤى نتيجة عضة النيتشيڤويا، وأن يتلاشى تأثيرها بشفاء الجرح، لكن ليست ثمة مؤشرات لحدوث ذلك، وحتى إن تحقق، فسيظل الطوق يربطني بمستحضر الظلام. وجدتني أتساءل من جديدٍ: لماذا لم يختر أن يقتل سوط البحر بنفسه ليزيد قوة رابطنا؟

أمسك (ديڤيد) زجاجة حبر، وبدأ يقلبها بين أصابعه، لمحت ملامح البؤس على وجهه.. ولم يكن ذلك بؤسًا فحسب، بل أيضًا شعورًا بالذنب؛ فإنه من أقام ذلك الاتصال بيني وبين مستحضِر الظلام بوضع الطوق حول رقبتي إلى الأبد.

التقطت زجاجة الحبر من بين يديه بلطفٍ، وقلت: «لو لم تفعل ذلك بنفسكَ، كان سيبحث مستحضِر الظلام عن بديلٍ لك».

أومأ برأسه ورفع كتفيه في الوقت ذاته فبدا كأنه يرتعش، وضعت زجاجة الحبر في نهاية الطاولة، بعيدًا تمامًا عن أصابعه العابثة، ثم استدرت لأرحل.

- «ألينا؟».

توقفتُ واستدرتُ لأنظر إليه، فلمحت احمرار خديه، وهدهدة النسيم الدافئ لحواف شعره الأشعث، بالتأكيد ذاك أفضل من قصته البشعة.

قال: «سمعت... سمعت أن جينيا كانت برفقة مستحضر الظلام على متن السفينة».

باغتني شعورٌ بالأسى تجاه (جينيا).. بيد أن (ديڤيد) لم يكن يتجاهلها كما ظننت.

- «أجل..».

سأل، وقد بدا الأمل في عينيه: «أهي بخيرٍ؟».

فأجبته بصدقٍ: «لست أدري.. لقد رأيتها حينما هربنا...».

لا أعلم كيف كان سيتصرف مستحضر الظلام معها لو علم أنها سمحت لنا بالهروب.

استكملت بترددٍ: «وتوسلتُ إليها كي تأتي معنا».

تبدَّلت ملامحه. قال: «ولكنها اختارت البقاء؟».

- «على ما أظن، لم يكن لديها اختيار».

لم أكن أخلق أعذارًا لـ (جينيا)، لكنني لم أرد أن تتغير نظرة (ديڤيد) نحوها.

قال: «كان عليَّ أن...»، ثم صمت.

بيد أنه لم يعرف كيف ينهي كلامه.

أردت أن أطمئنه، لكن ماضيً تملؤه الأخطاء إلى الحد الذي يجعلني أنبذ الكذب الآن.

قلت في النهاية: «سنفعل ما في وسعنا».

نظر إليَّ، وعلى وجهه ملامح الندم، وبغض النظر عما كنت سأقوله، فكلانا يعلم الحقيقة المُرَّة.

إننا نفعل كل ما في وسعنا.. أو بالأحرى نحاول.. وعادةً لا يحدث ذلك فرقًا على الإطلاق.

***

حملت مزاجي السيئ معي إلى الاجتماع الجديد بالقصر الكبير.

بيد أن خطة (نيقولاي) قد نجحت؛ فعلى الرغم من مجيء (ڤاسيلي) إلى غرف المجلس لحضور اجتماعاتنا مع الوزراء، إلا أنه صار دائم التأخر عن المواعيد الرسمية، كما لاحظت أن النعاس يتملَّك منه، بين الحين والآخر، في أثناء الاجتماعات، وفي المرة الوحيدة التي اختفى فيها، جذبه (نيقولاي) من سريره، وأجبره على ارتداء ملابسه والحضور معه، بحجة أن الاجتماع لن يستأنف من دونه، لكن (ڤاسيلي) الثمل بقي نصف الاجتماع، وظل يترنَّح فوق مقعده، ثم ركض إلى الرواق ليتقيَّأ في مزهرية ملونة، ويملأ الأرجاء بضوضائه.

واليوم، باغتتني رغبة في عدم الاستيقاظ.. اختفت النسمات كليًّا، ولم تخفِّف نوافذ غرفة المجلس المفتوحة من شدة اختناقنا. استمر الاجتماع على هذا النحو، إلى أن أعلن أحد الجنرالات عن انخفاض أعداد قوات الجيش الأول، لأسبابٍ عدة منها: الموت، والتهرب من الخدمة العسكرية بسبب خوض الجيوش حروبًا وحشية على مدى سنوات، على الرغم من أن (راڤكا) ستحارب على جبهة واحدة على الأقل من جديد، في النهاية، أوضح لنا الجنرال أن الوضع ازداد صعوبة.

لوح (ڤاسيلي) بيده بكسلٍ ثم قال: «لماذا أسمع صرير أسنانكم جميعًا؟ فلنخفض سن التجنيد».

اعتدلت في جلستي وقلت: «إلى أي عمرٍ؟».

- «الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة على سبيل المثال.. ماذا عسانا أن نفعل؟».

تذكرت القرى التي زرتها مع (نيقولاي)، والمقابر التي امتدت إلى أميال.

- «لماذا لا نخفضه إلى الثانية عشرة؟».

- «إن السن الصغيرة لا تحول بين المرء والدفاع عن وطنه».

لم أدر إن كان ذلك بسبب الإرهاق أم الغضب، ولكن الكلمات غادرت

فمي من دون أن أفكر فيها: «لماذا إذن نتوقف عند الثانية عشرة؟ لقد سمعت أن الأطفال يصلحون عتادًا للمدافع!».

علت همهمات الرفض بين مستشاري الملك، مد (نيقولاي) يده أسفل الطاولة واعتصر يدي ليحذرني.

ثم نظر إلى (ڤاسيلي)، وقال: «إن تجنيد الأطفال لم يمنعهم من التهرب يا أخي العزيز».

- «إذن فلنبحث عن بعض المتهربين ونجعل منهم عبرةً لمن يعتبر».

رفع (نيقولاي) حاجبه، وقال: «هل أنت واثق بأنك إن أعدمتهم رميًا بالرصاص سيكون أفضل لهم من أن تقطع النيتشيڤويا أوصالهم؟».

- «لو كان لهم وجود أصلًا».

لم أصدق ما سمعته.

لكن (نيقولاي) ابتسم في سرور، وقال: «لقد رأيتهم بنفسي على متن الڤولكڤولني.. بالطبع أنت لا تقصد أني كذاب».

- «وبالطبع أنت لا تقصد أن الخيانة أفضل من الخدمة الوفية في جيش الملك».

- «بل أقصد أن هؤلاء الناس يحبون الحياة مثلك تمامًا، وأنهم لا يملكون ما يكفي من المعدات والمؤن، وحتى الأمل. لو كنت قد قرأت التقارير، لكنت علمت أن الضباط يواجهون مشكلة في الحفاظ على نظام الجنود».

- «عليهم إذن فرض عقوبات أكثر حزمًا؛ فهذه الطريقة الأنسب للتعامل مع الريفيين».

لقد لكمت أميرًا من قبل، وليس لدي مانع لتكرارها. تراجعت قليلًا بمقعدي لكن (نيقولاي) أوقفني، ثم قال: «بل الطريقة الأنسب أن نملأ بطونهم، ونعطيهم توجيهات واضحة.. إن سمحت لي أن أنفذ التغييرات التي اقترحتها، مثل فتح الخزائن لـ ...».

- «لا يجب أن نستجيب دائمًا لأوامرك يا... أخي الصغير».

ساد التوتر في الغرفة.

قال (نيقولاي) وقد احتدت نبرته: «إن العالم يتغير.. فإما أن نغيره نحن، وإما أن ندع التراب يوارينا».

قهقه (ڤاسيلي) ضاحكًا ثم قال: «ليس في وسعي تحديد إن كنت جبانًا حقًّا أم أنك تتظاهر بالجبن».

- «وأنا ليس في وسعي تحديد إن كنت أحمق حقًّا أم أنك تتظاهر بالحماقة!».

كست الحمرة وجه (ڤاسيلي). نهض من مجلسه، وضرب الطاولة بكفه وصاح: «إن مستحضِر الظلام بمفرده! إن كنت تخاف مواجهتي سـ..».

- «لقد واجهته بالفعل! إن كنت لا تهابه، وإن كان من بينكم من لا يهابه، فذلك لأنك لا تعرف مدى خطورته».

أومأ بعض الجنرالات برؤوسهم، لكن مستشاري الملك، ونبلاء (أوز ألتا)، والبيروقراطيين، بدت عليهم ملامح الشك والتجهم. إن الحرب لا تمثّل لهم سوى مسيرات، وخطط عسكرية، وأشكال صغيرة متناثرة على خريطة. وإذا شنت الحرب، سيكون هؤلاء أعوان (ڤاسيلي).

استقام (نيقولاي) في جلسته، وارتدى قناع الممثل من جديد، وقال: «اهدأ يا أخي العزيز؛ فكلانا يريد مصلحة راڤكا».

لكن (ڤاسيلي) لم يهدأ، وقال: «إن مصلحة راڤكا تكمن في بقاء فرد من عائلة لانتسوف على عرشها».

أخذت نفسًا عميقًا خيم بعده سكون قاتل على الغرفة.

كان ذلك تلميحًا بأن (نيقولاي) ابن غير شرعي للملك.

لكن (نيقولاي) استعاد هدوءه، والآن لن يفقده إياه شيء.

قال: «إذن فلندعُ جميعًا لملك راڤكا الشرعي.. والآن، أيمكننا الانتهاء مما اجتمعنا من أجله؟».

امتد الاجتماع إلى بضع دقائق أخرى، ثم انتهى نهاية سعيدة. وفي أثناء عودتنا إلى القصر الصغير، لزم (نيقولاي) الصمت على غير العادة. ولما وصلنا إلى الحديقة، بالتحديد عند عمودٍ مزخرف، توقف وقطف ورقة من إحدى الشجيرات، وقال: «لم يكن من الصواب أن أفقد أعصابي بتلك الطريقة؛ فذلك يخدش كبرياءه ويجعله عنيدًا».

سألته وقد أثير فضولي: «إذن لماذا فعلت ذلك؟». فنادرًا ما يدع (نيقولاي) مشاعره تتملك منه.

أجاب وهو يمزج ورقة الشجر: «لا أدري.. لقد غضبت عندما غضبت، كما أن الغرفة كانت حارة للغاية».

- «لا أظنهما سببين كافيين».

- «إذن لا بد أن السبب هو شعوري بعسر الهضم».

لكن مزحته لم تبدد غيوم فضولي. فعلى الرغم من اعتراضات (ڤاسيلي)، وعدم رغبة المجلس في اتخاذ أي قرارات جادة، استطاع (نيقولاي)، بمزيجٍ ساحر من الصبر والضغط معًا، أن ينال موافقتهم على بعضٍ من خطته، مثل: إغاثة اللاجئين الذين فروا من سواحل الطية، وتوزيع الملابس المضادة للرصاص، التي صنعها الماتيريالكي، على الوحدات الرئيسية بالجيش الأول، كما أنه أقنعهم بتمويل مشروع لتطوير المعدات الزراعية كي يتخلى الفلاحون عن الكفاف، تلك جميعها تغييرات بسيطة، لكنها قد تحدث فارقًا كبيرًا فيما بعد.

قلتُ: «إنك تهتم حقًّا بمصير هذا البلد، أما ڤاسيلي فالعرش بالنسبة إليه بمنزلة جائزة سيحظى بها، أو بالأحرى لعبة يتشاجر عليها، لكنك لست مثله، وسوف تكون ملكًا جيدًا».

- «أنا...».

لفظها ثم صمت كأن الكلمات قد فارقته، وإذا بابتسامة يشوبها الحرج تزحف على وجهه، تختلف تمامًا عن ابتسامة الثقة التي لا تفارقه.

ثم قال: «شكرًا لك».

تبعنا السير من جديد، فتنهدت وقلت: «ستتحول الآن إلى شخص لا يطاق، أليس كذلك؟».

فقال (نيقولاي): «إنني بالفعل شخص لا يطاق».

***

صارت الأيام طويلة، ولزمت الشمس مكانها أسفل الأفق، فبدأت احتفالية «بيليانوك»[1] في (أوز ألتا).

لم يسُد الظلام حتى مع انتصاف الليل، وعلى الرغم من خوف الناس من اندلاع الحرب في أي لحظة، ومن أخطار الطية التي تلوح في الأفق، فإن المدينة بأكملها احتفلت بالغسق الذي امتد ساعاتٍ لا حصر لها. في البلدة العالية، امتلأت الليالي بحفلات الأوبرا والباليه، وارتدى الجميع الأقنعة. أما على الجانب الآخر من الجسر، في البلدة السفلى، فأقيمت سباقات الخيل الصاخبة، وهزَّ رقص سكانها الشوارع. مرَّ عددٌ لا نهائي من زوارق التنزه في القناة، وفي لمعان الغسق، بدت المياه شبه الساكنة كسوارٍ مرصع بالجواهر يلتف حول العاصمة، يضيئه ألف قنديل يتدلى من مقدمات الزوارق.

انخفضت الحرارة قليلًا. وخلف أسوار القصر، بدا الجميع في حالٍ أفضل. ظللت مصرة على اختلاط جماعات الغريشا، وفي لحظةٍ ما، تبددت غيوم الصمت المميت، لا أعلم كيف، وساد الغرفة الضحك والمحادثات الصاخبة. لم تزل ثمة عداوات، ولم ينسجم كل الحاضرين بعضهم مع بعض، لكن الغرفة لم تشهد ذلك الصخب اللطيف من قبل.

---

(1) تحريف لكلمة Belaya Noch التي تعني في الروسية: الليلة البيضاء.

سررت، وشعرت بالفخر أيضًا، برؤية المصنعين والإثيريالكي يلتفون حول إناء السماور ليشربوا الشاي، وتناقش (فيديور) مع (پاڤل) حول شيء لم يعجبه في وجبة الفطور، ومحاولة شقيق (ناديا) الصغير للتحدث مع (پاچا) الذي يكبره سنًّا، ولا يبدو عليه الاهتمام.

داهمني حينها شعور بأنني أشاهدهم جميعًا من مسافةٍ بعيدة.

حاولت غير مرة التحدث مع (مال) بعد ليلة شجارنا، لكنه كان دائمًا يجد عذرًا ليبتعد عني، لو لم يكن في رحلة صيد، فإنه يلعب بأوراق اللعب في القصر الكبير، أو يسهر في حانةٍ بالبلدة السفلى مع أصدقائه الجدد. في إمكاني الزعم بأنه صار يشرب الكثير من الخمور؛ فقد لاحظت أن عينيه تبدوان غائمتين في بعض الصباحات، كما أن الجروح والخدوش قد انتشرت في جسده كأنه كان في معركة، لكنه لم يزل منضبط المواعيد، ويحافظ على أدبه المعهود، ويلتزم بمهام الحراسة في صمتٍ، ويبقي مسافة احترام بيننا عندما يرافقني إلى أي مكان.

صرت وحيدة جدًّا في القصر الصغير. وعلى الرغم من أنني كنت محاطة بالناس، فإنني شعرت بأنهم لا يرونني.. إلا عندما يريدون شيئًا مني. لم أسمح للشك أو التردد أن يعتليا ملامحي، وفي بعض الأيام أحسست بأن المسؤوليات والتوقعات ستقضي عليَّ.

حضرت الاجتماعات، وتدربت مع (بوتكن)، وقضيت ساعات طويلة بجانب البحيرة أحاول تحسين استخدامي لتكتيك «القطع»، كما أنني تخلصت من كبريائي وحاولت زيارة (باغرا) مجددًا، أملًا في أن تساعدني على تطوير قواي، ولكنها رفضت رؤيتي.

شعرت أن كل ما أفعله لا يكفي؛ فإن السفينة التي يبنيها (نيقولاي) على ساحل البحيرة تذكرنا دائمًا بأن كل ما نقوم به قد يبوء بالفشل؛ ففي مكانٍ ما، كان مستحضِر الظلام يجمع قواه، ويبني جيشه، وفور قدومهم إلينا، لن

يردعهم سلاح، ولا قنبلة، ولا جندي، ولا غريشا.. ولا حتى أنا. وإذا هزمنا في المعركة، سنلوذ بالقاعة المقببة لننتظر الإغاثة من (پوليتزنايا). دعمت الأبواب بفولاذ الغريشا، وبدأ المصنِّعون يسدون الفراغات والكسور التي تملؤها ليمنعوا دخول النيتشيڤويا.

لم أظن يومًا أننا سنصل إلى هذا الحد، لقد يأست من محاولات البحث عن طائر النار. إن نجح (ديڤيد) في صنع تلك المرايا، لن يكون لدينا خيار آخر -فور قدوم مستحضر الظلام إلى (راڤكا)- إلا أن نخلي القصر. سنهرب.. وسنظل نهرب.

لم يبعث استخدامي لقواي راحة في نفسي كما كان يحدث في السابق، في كل مرة أستحضر فيها الضوء في ورش المصنعين، أو على ساحل البحيرة، أشعر بأن معصم يدي طُبِع عليه وشمٌ حارقٌ.

وعلى الرغم من كل ما عرفته عن مضخمات القوى، وكيف يمكنها تدمير كل شيء، وتغييري إلى الأبد، فإني لم أتخلص من رغبتي في الحصول على طائر النار؛ بد أن (مال) كان محقًّا؛ فهذا بلا شك نوع من الهوس.

أستلقي كل ليلةٍ على سريري، أفكر في احتمالية عثور مستحضر الظلام على القطعة الناقصة من أحجية (موروزوڤا). قد يكون محتجزًا طائر النار في قفص دائري من الذهب، لكن يا ترى، هل يغني له؟ لا أعلم إن كان باستطاعة طائر النار أن يغني.. لكن بعض القصص تؤكد ذلك.. تروي إحداها أن طائر النار في إمكانه الغناء لجيشٍ كاملٍ حتى ينام كل فرد منه، ولما سمعه الجنود يومًا ما، أوقفوا القتال، وألقوا بأسلحتهم على الأرض، وجلسوا في أحضان أعدائهم، يومِئون برؤوسهم في سلام.

لقد قرأت جميع القصص.. عرفت أن طائر النار يبكي ألماسًا، وأن ريشه يشفي الجروح، وأن المستقبل يُعرَف من رفرفة جناحيه. ونقبت في الحكايات الشعبية، والقصائد الملحمية، والقصص الريفية، عن أي شيء

قد يدلني على مكانه، لكن الأمر لم يكن سهلًا؛ فأساطير سوط البحر مثلًا تمحورت حول المياه المتجمدة التي تتدفق بمحاذاة طريق العظام، أما القصص التي ذُكِر فيها طائر النار فقد جاءت من كل مكانٍ بـ (راڤكا)، وحتى خارجها، ولم تربط إحداها بينه وبين أحد القديسين.

والأسوأ من ذلك كله أن الرؤى صارت أوضح، وتأتيني باستمرارٍ؛ ظهر مستحضر الظلام لي كل يوم تقريبًا، عادةً في غرفته، أو في ممرات المكتبة، وأحيانًا في غرفة العمليات العسكرية في أثناء اجتماعات المجلس، أو في أثناء عودتي من القصر الكبير وقت الغسق.

وفي إحدى الليالي، بينما كنت أجلس على مكتبي ومنخرطة في العمل، شعرت به واقفًا خلفي، فهمست له: «لماذا لا تتركني بمفردي؟».

ساد الصمت دقائق طويلة، فظننته لن يرد، أو حتى أنه رحل، إلى أن شعرت بيده تلمس كتفي.

قال: «لأنني بهذا سأكون بمفردي أيضًا».

ثم بقي طوال الليل، إلى أن تلاشى ضوء المصابيح.

اعتدت رؤيته واقفًا في نهاية الطرقات، أو جالسًا على حافة سريري عندما كنت على وشك الخلود إلى النوم. وفي الأوقات التي لم يظهر لي فيها، وجدتني أبحث عنه، وأتساءل لماذا لم يأت، وهذا أكثر شيء أثار خوفي.

ثم أشرقت شمس الأمل في عيني لما قرر (ڤاسيلي) أن يغادر (أوز ألتا) ليحضر المزادات السنوية في (كاريبڤا)، حد أنني كدت أتعثر حينما زفَّ إليَّ (نيقولاي) ذلك الخبر السعيد في أثناء مشينا معًا.

قال: «لقد حزم أمتعته في منتصف الليل، وأخبرني بأنه سيعود يوم عيد ميلادي، لكنني لن أتفاجأ إن وجد عذرًا ليبقى بعيدًا».

- «عليكَ التخلص من تلك العجرفة؛ فإنها ليست من شيم الملوك».

فضحك وقال: «وبالطبع ألا أشمت في أحدٍ».

علا صفيره غير المتناغم الذي سمعته من قبل على متن سفينة ڤولكڤولني، ثم تنحنح واستطرد: «لا أقصد، يا ألينا، أنك لست جميلة مثل العادة، لكن... هل تنامين جيدًا؟».

- «أحيانًا».

- «هل تداهمك كوابيس؟».

لم أزل بالفعل أحلم بالسفينة المشطورة، وهروب الناس من ظلام الطية، لكن لم يكن ذلك ما أيقظني طوال الليل.

أجبته: «ليس بالضبط».

فوضع (نيقولاي) يديه خلف ظهره وقال: «لاحظت أن صديقك قد أغرق نفسه في العمل مؤخرًا.. إن الجميع يطلبون تواجده معهم».

فقلت بنبرةٍ هادئة: «بالطبع.. فهذه طبيعة مال».

- «أين تعلَّم التعقب؟ لا يبدو أن أحدًا لا يعلم هل هو ماهر حقًّا، أم أن الحظ يحالفه فقط».

- «إنه لم يتعلم؛ بل هي فطرته».

- «كم هذا لطيف.. إنني لم أكتسب أي شيء بالفطرة على الإطلاق».

- «لكنك ممثل بارع».

- «أتظنين ذلك حقًّا؟».

قالها ثم مال نحوي وهمس إليَّ قائلًا: «إنني أمثِّل دور «المتواضع» الآن».

هززتُ رأسي بتأففٍ، لكنني شعرت بالامتنان لثرثرة (نيقولاي) المبهجة تلك.. وممتنة أكثر لتغييره للموضوع.

***

استغرق (ديڤيد) نحو أسبوعين كي يجهز صحونه. جمعت الغريشا على سطح القصر الصغير ليشاهدوا العرض، أتى التوأمان أيضًا، وظلا يراقبان الحشد بانتباه. لم يُرَ لـ (مال) أثر. وعلى الرغم من أني بقيت في الغرفة

المشتركة الليلة الماضية، على أمل أن أراه لأطلب منه الحضور بنفسي، فإنني استسلمت وعدت إلى غرفتي بعد وقتٍ طويل من انتصاف الليل.

وُضِع الصحنان الضخمان على الجانبين المتقابلين للسقف، فوق الحافتين المسطحتين اللتين تمتدان بين قباب الأجنحة الشرقية والغربية. اتضح أنه يمكن تدويرهما عن طريق نظام معين من الروافع، يتحكم فيه الماتيريالكي ومستحضرو الرياح ممن يرتدون النظارات الواقية لتقيهم شر البريق. لاحظت أن (زويا) و(پاچا) صارا الثنائي المسؤول عن أحد الصحنين، وعند الصحن الآخر كانت (ناديا) وأحد الحدادين.

حدثت نفسي وقد انتابني القلق: حتى إن أخفقت هذه التجربة، فقد نجحنا في العمل معًا، وحتى إن حدث انفجار ما ودمر كل شيء، سيبني بيننا صداقةً حميمة!

اتخذت موقعي في منتصف السطح بين الصحنين، باغتني الخوف لما رأيت (نيقولاي) أحضر معه قائد حرس القصر، واثنين من الجنرالات، ولفيفًا من مستشاري الملك. تمنيت بداخلي ألا يتوقعوا حدوث معجزة؛ فقوتي تتجلَّى في أبهى صورها في الظلام الدامس، لكن أيام بيليانوك الطويلة هذه جعلت الأمر مستحيلًا، لذلك طلبتُ من (ديڤيد) أن نقوم بالعرض في وقتٍ متأخر من الليل، لكنه هزَّ رأسه، قال حينها: «إن نجحت، ستكون صدمة كبيرة، وإن أخفقت ستكون صدمة أكبر، وسيحدث انفجار».

- «لقد ظننتكَ تمزح يا ديڤيد».

عبس وجهه وقد أصابته الحيرة، ثم قال: «حقًّا؟».

استجاب (ديڤيد) لاقتراح (نيقولاي) بأن نتبع الإشارة من سفينة ڤولكڤلوني، على أن تكون الإشارة صافرة.

ثم صفَّر ليتراجع الناس، فاختبأ المشاهدون خلف القباب، تاركين لنا مساحة كافية. رفعت يدي، وحينما سمعت صافرة (ديڤيد) مجددًا، استدعيت الضوء.

قدم الضوء إليَّ كتيار ذهبي جارف، ثم انشطر من يدي إلى شعاعين ثابتين، اصطدم كلٌّ منهما بالصحنين، وانعكس قاذفًا بريقًا شديدًا نحونا، بدا الأمر مذهلًا، ولكن ليس إلى الحد الذي توقعته.

ثم صفَّر (ديڤيد) من جديد، فدار الصحنان قليلًا، فقفز الضوء من فوق سطحيهما العاكسين، وتضخم، وانقسم من جديد إلى شعاعين من الضوء الأبيض الوهاج، ثقبا الغسق البكر الذي خيم على الأرجاء.

هلَّل الحضور المندهشون، وحموا أعينهم من شدة الضوء.

شقَّ الشعاعان الهواء، قاذفين أمواجًا براقة ساخنة، بدت كأنها تخرج من السماء نفسها. أصدر (ديڤيد) صافرة قصيرة أخرى، فانكمش الضوء إلى شعاعٍ واحدٍ يشبه نصلًا منصهرًا، ويستحيل النظر إليه مباشرة.

لو كنت أخلق سكينًا بتكتيك القطع، فذلك سيف عريض.

ثم مالت الصحون، فانخفض الشعاع، وشهق الجمع باندهاش حينما بتر الضوء رؤوس الأشجار عند مدخل الغابة، فهوت على الأرض. مالت الصحون من جديدٍ، فتوجه الشعاع صوب الساحل، ثم إلى البحيرة فبَقَرَ بطنها، فهرب منه بخارٌ تسمع هسهساته، للحظةٍ، بدا كأن سطح البحيرة كله يتبخر.

علا صفير (ديڤيد) المتذبذب، فأخفضت يدي ليتلاشى الضوء في النهاية.

ركضنا إلى حافة السطح وشهقنا جميعًا من هول ما رأته أعيننا: بدا ما حدث كأن شخصًا أمسك بمِحلَق عملاق وقصَّ به الجزء العلوي من الغابة، وعلى الشاطئ، حُفِر خندق لامع يمتد إلى مياه البحيرة.

قال (ديڤيد) مذهولًا: «لقد نجحت التجربة.. لقد نجحت بالفعل!».

ساد الصمت برهة، ثم جلجلت ضحكات (زويا)، تبعتها ضحكات (سيرچي)، و(ماري)، و(ناديا)، وفجأة ضحكنا جميعًا، وهتفنا، وحتى (توليا) صاحب التقلبات المزاجية الكثيرة، حمل (ديڤيد) المرتبك فوق كتفيه الضخمتين. احتضن الجنود الغريشا، واحتضن مستشارو الملك الجنرالات، ورقص (نيقولاي) مع (پاچا) المذهولة حول السطح، واحتضنني قائد حرس القصر ودار بي.

ظللنا نهتف، ونصرخ، ونرقص، حتى اهتز القصر بأكمله.

وعندما يأتي مستحضر الظلام، ومعه النيتشيڤويا، سيجدون مفاجأة بانتظارهم.

صاح أحدهم: «فلنذهب لنراها!».

هممنا بنزول السلالم، ضاحكين مهللين، تمامًا مثل الأطفال لما يسمعون جرس انتهاء المدرسة.

اقتحمنا غرفة القبة الذهبية، وفتحنا جميع الأبواب، وهبطنا الدرج، وبينما كان الجميع يسرعون إلى البحيرة، انزلقتُ فوقعتُ على الأرض.

وجدت (مال) خارجًا من النفق الخشبي، فصحت لـ (نيقولاي): «اذهب أنت وسألحق بك!».

ظلَّ (مال) معلقًا نظره بالطريق، من دون أن ينظر، وعندما اقترب مني، لاحظت احمرار عينيه، ورأيت كدمةً بشعة على خده.

رفعت يدي ناحية وجهه، وسألته: «ماذا حدث؟».

لكنه أشاح بوجهه، وألقى نظرة على الخدم الذين يقفون بالقرب من أبواب القصر الصغير.

قال: «اصطدمت بزجاجة كڤاس.. أتريدين شيئًا مني؟».

- «لقد فاتك العرض».

- «لم أكن في الخدمة».

تجاهلت تلك الصدمة التي كادت تفتك بصدري، وقلت: «نحن ذاهبون إلى البحيرة، أتريد أن تأتي معنا؟».

تردد للحظة، ثم همَّ بهزِّ رأسه وقال: «لقد عدت إلى هنا فقط لأجلب بعض العملات؛ فهناك مسابقة للعب بالأوراق في القصر الكبير».

- «قد تحتاج إلى تغيير ملابسك؛ فإنك تبدو كأنك نمت بها».

شعرت بالندم على ما قلته، لكن (مال) لم يهتم؛ وهذا لأنه قال: «ربما لأن ذلك حدث بالفعل.. هل هناك أمر آخر؟».

- «كلا».

- «شكرًا، مولاتي».

قالها ثم انحنى بحدة وأسرع بصعود الدرج كأنه لا يطيق رؤيتي.

مشيت ببطء إلى البحيرة، آملةً أن يخفف ذلك وجع قلبي، تلاشت سعادتي بنجاح التجربة، أحسست أنني صرت خاوية من الداخل، كبئر عميقة يصيح في فمها شخص، فلا يسمع حتى صدى صوته.

على الساحل، سارت مجموعة من الغريشا بمحاذاة الخندق، أخذوا يقيسون أبعاده ويتناقلونها بينهم في غبطةٍ وفخر. كان عرضه نحو قدمين، وعمقه كذلك، أخدود في أرضٍ متفحمة يمتد إلى حافة المياه. وفي الغابة، خلقت رؤوس الأشجار المبتورة فوضى من الأغصان واللحاء، تحسَّست إحدى الجذوع المقطوعة، فوجدتها ناعمة ودافئة، كما اشتعلت النار في جذعين صغيرين، ولكن خالقي الأمواج أطفأوها على الفور.

أمر (نيقولاي) بإحضار الطعام والشامبانيا إلى البحيرة، فقضينا ما تبقى من المساء على الساحل. آثر الجنرالات والمستشارون الخلود إلى النوم مبكرًا، ولكن قائد الحرس، ومجموعة من الجنود، بقوا مستيقظين، وخلعوا ستراتهم وأحذيتهم وألقوا بأنفسهم في أحضان البحيرة. وحينها، لم يهتم أحد بأن تتبلل ملابسه وفعلوا مثلهم، وأخذ بعضهم يرشون الماء على

بعض، ويتسابقون إلى الجزيرة الصغيرة، لم يتفاجأ أحد بربح أحد خالقي الأمواج، الذي حمله الموج عاليًا.

اقترح (نيقولاي) وأعوانه من مستحضري الرياح أن يصطحبوا البعض إلى السفينة التي اكتمل بناؤها مؤخرًا، والتي أطلق عليها اسم «الرفراف».

في البدء كانوا قلقين، لكن بعدما عادت المجموعة الشجاعة الأولى، وأخذوا يصفقون ويتحدثون بحماسة عن كيف طارت بهم السفينة، طلب الجميع أن يحظوا بفرصةٍ مثلهم، أقسمت ألا تطأ قدمي تلك السفينة، ثم استسلمت في النهاية وانضممت إليهم.

لم أدرِ هل كان ذلك تأثير الشامبانيا، أم أن ما حدث فاق توقعاتي، ولكن سفينة «الرفراف» كانت أكثر خفةً ورشاقةً من سفينة «الطنان»، ولذلك ظللتُ متشبثة بسور قمرة القيادة، حتى إذا ارتفعنا بسلاسة في الهواء، فأحسست بروحي تطير معنا.

لملمتُ ما تبقّى من شجاعتي ونظرت إلى الأسفل، فأبصرت أراضي القصر الكبير تمتد من تحتنا، تقطعها مسارات من الحصى الأبيض، وسقف مشتل الغريشا، ونافورة العقاب المزدوج المستديرة، وبوابات القصر الذهبية البراقة. ثم طفنا فوق قصور البلدة العالية، وشوارعها الطويلة المزدانة بالأشجار، التي تزاحم فيها الناس احتفالًا بعيد الليلة البيضاء. وفي حي (جيرسكي)، رأيت مشعوذين، وبهلوانات، وراقصين يتمايلون بأجسادهم فوق مسرح مضاء في إحدى الحدائق، وعلى نغم الموسيقى من القوارب التي تملأ القناة.

وددت البقاء في الهواء إلى الأبد، لتظل دفقات الرياح تحيط بي، ولأراقب العالم المثالي الصغير الذي يموج تحتي، لكن (نيقولاي) أدار الدفة في النهاية، وعاد بنا إلى ضفة البحيرة، وهبط ببطء.

اكتسى الشفق باللون القرمزي العميق، فأشعل المستحضرون نيران التدفئة على الشاطئ، ومن مكانٍ ما، عزف أحدهم أنغامًا على البلاليكا، صاحبها صفير الألعاب النارية القادم من البلدة.

جلست مع (نيقولاي) على حافة الرصيف البحري، رفعنا أطراف سراويلنا، ودسسنا أرجلنا في الماء، وبجانبنا، تمايلت سفينة الرفراف فوق الأمواج وقد أخفضت أشرعتها البيضاء. ضرب (نيقولاي) الماء بقدمه، فرش القليل من الماء في الهواء، ثم قال: «ستغير تلك الصحون مجرى الأمور كليًّا؛ فإذا استطعتِ تعطيل النيتشيڤويا بعض الوقت، سنتمكن من تحديد موقع مستحضر الظلام واستهدافه».

استدرت لأجول بنظري حول المرفأ، ثم رفعت ذراعي واستنشقت هواء الليل القرمزي، أبصرت مبنى المدرسة الفارغ الآن، ونوافذه الداكنة، وددت لو أجمع كل الطلاب، ليروا ما تستطيع فعله تلك الصحون، حتى أمنحهم بعض الأمل. لا تزال الحرب مرعبة بالنسبة إليَّ، تحديدًا كلما أفكر في عدد الأرواح التي قد تزهق خلالها، لكننا -على الأقل- لن نجلس فوق سفح تل ننتظر أن يأتينا الموت.

قلت لـ (نيقولاي): «قد نحظى بفرصة للقتال بشرفٍ».

- «لا تجعلي الحماس يتملَّك منك.. لكنني لديَّ خبر سعيد آخر لك».

زفرت؛ فأنا أعلم تلك النبرة جيدًا.

- «لا تقل شيئًا».

- «لقد عاد ڤاسيلي من كارييڤا».

- «فلتكن رحيمًا بي وأغرقني في البحيرة الآن».

- «هل ستتركينني أتعذب بمفردي؟ لا أظن ذلك».

- «إذن فلتطلب أن تكون هدية عيد ميلادك أن يُكمِّم فوه!».

- «لكن بهذا ستفوتنا قصص ممتعة عن المزادات الصيفية، إن خيول

السباق الراڤكانية تذهلك أليس كذلك؟».

زفرت بتذمر.. فمن المفترض أن يكون (مال) في الخدمة في أثناء حفل عيد ميلاد (نيقولاي) ليلة غد، لكنني قد أطلب من (توليا) و(تمار) أن يأخذا مكانه، فإنني لن أستطيع تحمل رؤية وجهه العابس في أثناء نوبة الحراسة، بالأخص حينما يكون (ڤاسيلي) متواجدًا.

قال (نيقولاي): «فلتبتهجي! ألم يطلب الزواج منك ثانية».

اعتدلت في جلستي وقلت: «كيف علمت بهذا الأمر؟».

- «لقد فعلت الشيء ذاته إن تتذكري، إنني فقط مندهش أنه لم يكرر طلبه مجددًا».

- «ليس من السهل أن أكون بمفردي».

- «أعلم ذلك.. فلماذا تظنين أني أعود معك من القصر الكبير بعد كل اجتماع».

- «ألأن رفقتي محبَّبة لك؟».

قلتها بحدة وقد أثارت كلماته غيظي.

إن (نيقولاي) بارعٌ في جعلي أنسى أن كل ما يقوم به محسوب بإتقان.

أخرج قدميه من أعماق الماء، وفحص أصابع قدميه المرتعشة، ثم قال: «ذلك سبب آخر.. لا تقلقي، سيأتي ليطلب يدك مرة أخرى».

تنهدت طويلًا، وقلت: «كيف يمكنني رفض أمير؟».

فقال بينما لا يزال يتأمل أصابع قدميه: «لقد فعلتِها من قبل.. ولكن لماذا أنت متأكدة من أنك تريدينه إلى هذه الدرجة؟».

- «لا بد أنك تمزح».

تقلب في جلسته وقد بدا عليه الضيق. وقال: «لأنه ولي العهد، والابن الشرعي..».

- «لن أتزوج ڤاسيلي حتى لو كان يربي أنثى طائر النار اسمها لودميلا، كما أنني لا أكترث لكونه الابن الشرعي.. لكنك أخبرتني من قبل أن كل تلك النميمة حول نسبك لا تهمك».

- «في الواقع.. لم أكن صادقًا حيال ذلك».

- «أنت لست صادقًا؟ يا لصدمتي يا نيقولاي! إنني مصدومة وخائفة الآن!».

ضحك وقال: «أظن أنه من السهل عليَّ قول ذلك وأنا بعيد عن البلاط الملكي، لكن ما دمت هنا، فلا يسمح لي أحد أن أنسى، وبالأخص أخي الأكبر.. لطالما سارت الأمور على هذا النحو.. لقد انتشرت عني الإشاعات حتى قبل مولدي، لذلك لم تنعتني أمي بالسوباتشكا أبدًا؛ فإنها تقول إن هذا يجعلني أبدو ككلبٍ مهجن».

تسارعت ضربات قلبي.. فلطالما كانت لي أسماء عدة منذ صغري.

قلت: «إنني أحب الكلاب المهجنة؛ فعادة ما تكون لديها آذان مرنة لطيفة».

- «تشعر أذناي بالفخر الآن».

تحسست إحدى ألواح الرصيف الناعمة، وقلت: «ألهذا آثرت البقاء بعيدًا وقتًا طويلًا، وتحوَّلت إلى ستورمهوند؟».

- «لا أظن أن هناك سببًا واحدًا لذلك، أعتقد أنني لم أشعر يومًا بانتمائي إلى هذا المكان، لذا حاولت البحث عن مكانٍ آخر أنتمي إليه».

- «وأنا أيضًا لم أشعر بالانتماء إلى أي مكانٍ، أو أي شيء..».

باستثناء (مال)، قلتها في نفسي، ثم نفضتها عن رأسي تمامًا.

أردفت بعدما تبدَّلت ملامحي: «أتعلم ما هو أكثر شيء أنبذه فيك؟».

رمشت عيناه وقد باغتته المفاجأة، قال: «كلا».

- «أنك دائمًا تقول الرأي الصائب».

- «وهل تكرهين ذلك؟».

- «لقد رأيت كيف في إمكانك تبديل شخصياتك يا نيقولاي.. دائمًا ما تصير الشخص الذي يريده الناس. قد لا تشعر بالانتماء إلى أي مكانٍ حقًّا، وقد تدَّعي هذا فقط لكي تجبر تلك الفتاة اليتيمة الفقيرة على الإعجاب بك أكثر».

- «أيعني ذلك أنك معجبة بي؟».

أشحتُ بنظري عنه، وقلت: «أجل، فقط حينما لا أود طعنك».

- «هذه فقط البداية».

- «كلا».

نظر إليَّ، عيناه العسليتان حجران من كهرمان، ظل معلقًا نظره بي برهة ثم قال: «أنا قرصان يا ألينا.. أي أني أحصل على كل ما أعثر عليه».

شعرت فجأة بكتفه تستريح على كتفي، وفخذه تضغط فخذي، حينها صار الهواء دافئًا، وانبعثت منه روائح الصيف العطرة، المختلطة برائحة احتراق الخشب.

قال (نيقولاي): «أريد أن أقبِّلك».

هربت مني ضحكة متذبذبة.

قلت: «لقد قبَّلتني بالفعل».

ارتسمت بسمة على شفتيه، تبعها قوله: «أريد أن أقبِّلك مرة أخرى».

تنفَّستُ بعمق، باعدت مسافة قصيرة بين شفاهنا، وأراد قلبي أن يرمح كحصان مذعور.

قلت في نفسي: هذا هو نيقولاي.. أمير الحسابات.

لم أعلم إن كنت أريده أن يقبِّلني أم لا، لكن جرح كبريائي لم يشف منذ أن نبذني (مال)، ألم يقُل إنه قبَّل الكثير من الفتيات؟

أردف (نيقولاي): «إنني أريد أن أقبِّلك، لكنني لن أفعل، حتى تفكري فيَّ، بدلًا من أن تحاولي نسيانه».

تراجعت إلى الخلف، ثم نهضت سريعًا من مجلسي وقد شعرت بالإحراج.

- «ألينا...».

- «لقد علمت الآن على الأقل أنك لستَ دائمًا على حق».

ثم التقطت نعلي من على الأرض، وغادرت رصيف الميناء على الفور.

الفصل العشرون

ابتعدت عن نيران الغريشا في أثناء سيري على شاطئ البحيرة؛ فإنني لم أرغب في رؤية أحد.

تُرى، ماذا كنت أتوقع من (نيقولاي)؟ أن يلهيني عما يدور في رأسي؟ أم أن يتغزل بي؟ أم أن يخلص قلبي من أوجاعه؟

أو ربما أردت أن أعاقب (مال) بمثل تلك الطريقة السخيفة.. أو أنني كنت في حاجة ماسة إلى أن أشعر برغبة أحد فيَّ، إلى الحد الذي كان سيجعلني أقبّل قبلة زائفة من أمير لا يوثق به.

إن حفل عيد ميلاد (نيقولاي)، الذي سيقام ليلة غد، بعث في نفسي القلق، استكملت المشي إلى أراضي القصر، فكرت أن أعتذر عن الحضور، أو أن أرسل برقية إلى القصر الكبير، عليها ختم مستحضرة النور الرسمي، أقول فيها:

إلى جلالة الملك والملكة،

إن قلبي يملؤه الحزن لعدم تمكُّني من حضور الاحتفال بمولد سمو الأمير نيقولاي، دوق أودوفا الأكبر، وذلك لظروف خارجة عن إرادتي، من بينها: أن صديقي المقرب لا يطيق رؤيتي، وأن نجلكما لم يقبّلني، وكم كنت أتمنى ذلك، أو لا أتمنى.. ما زلت غير متأكدة مما أتمناه، لكن إذا أجبرت على حضور عشاء عيد الميلاد، فعلى الأغلب سينتهي بي الأمر بأن أجهش بالبكاء حتى أبلل كعكتي.

مع أطيب التمنيات في هذه المناسبة السعيدة،

الحمقاء ألينا ستاركوف.

عندما وصلت إلى غرفة مستحضِر الظلام، وجدت (تمار) تقرأ في الغرفة المشتركة، نظرت إليَّ، لكنها لم تنبس بكلمة؛ فلا بد أنها لاحظت تعكر مزاجي من ملامح وجهي.

كنت أعلم أنني لن أستطيع النوم، لذا استلقيت على السرير، وأمسكت كتابًا كنت قد جلبته من المكتبة.. كان دليل سفر قديمًا يجمع أشهر معالم (راڤكا) الأثرية، قررت قراءته على أمل أن يرشدني إلى قوس طائر النار. حاولت التركيز، لكنني صرت أقرأ الجملة ذاتها مرات ومرات، كان ذهني مشوشًا من أثر الشامبانيا، وقدماي باردتان ومبتلتان.

من المحتمل أن يكون (مال) قد عاد من المسابقة، ترى، إذا طرقت بابه وأجابني، ماذا سأقول له؟

ألقيت الكتاب بجانبي. لم أدر ماذا عساي أن أقول لـ (مال) في هذه الأيام، لكن ربما عليَّ إخباره بالحقيقة: أنني مشتتة، ومرتبكة، وعلى وشك أن أفقد عقلي، وأنني أخيف نفسي أحيانًا، وأشتاق إليه حد الألم. أردت أن أرمم شقوق قلبينا قبل أن يتدمرا بالكامل، وبغض النظر عما سيظنه بي، لن يكون الأمر أسوأ من الوقت الحالي.

في إمكاني تحمل رفض آخر، لكنني لن أقبل ألا أحاول إصلاح الأمور بيننا.

جلت ببصري حول الغرفة المشتركة، ثم سألت (تمار): «هل مال هنا؟».

هزَّت رأيها نافية.

قمعتُ كبريائي، وقلتُ: «أتعلمين أين ذهب؟».

فتنهدتْ، وقالت: «ارتدي حذاءك.. سأصطحبك إليه».

- «أين هو؟».

- «في الإسطبل».

بترددٍ، عدت إلى غرفتي وانتعلت حذائي سريعًا، ثم تبعتها إلى خارج القصر الصغير، وبين المروج.

سألتني: «هل أنت متأكدة من أنك تودين رؤيته؟».

لم أجِبها، كنت أعلم أنني لن أعجب بما ستريني إياه، لكنني رفضت أن أعود إلى غرفتي وأدفن رأسي تحت الغطاء.

سرنا إلى أسفل المنحدر الذي يمر بجانب الـ «بانيا»، على صهيل الخيول في الحظيرة، وانتشر الظلام في الإسطبل، لكن غرف التدريب كان يشع منها الضوء.

سمعت صراخًا.

كانت أكبر غرفة تدريب تزيد على مساحة حظيرة بقليلٍ، أرضها متسخة، وتغطي جدرانها كل الأسلحة المعروفة. عادةً ما يلجأ إليها (بوتكن) حينما يود معاقبة طلبة الغريشا، وأحيانًا ما يدربهم فيها أيضًا، لكنها اليوم كانت مزدحمة بالناس، أغلبهم من الجنود، وثمة بعض الغريشا والخدم، ظلوا جميعًا يصيحون ويهتفون ويتدافعون ليشاهدوا ما كان يحدث في منتصف الغرفة.

مضينا بين أجسادهم من دون أن يلتفت إلينا أحد، أبصرت اثنين من المتعقبين الملكيين، وأفرادًا من وحدة (نيقولاي)، ومجموعة من الكوربورالكي، بالإضافة إلى (زويا) التي وقفت تصفق وتصيح معهم.

وقبل أن أصل إلى المقدمة، لمحت أحد مستحضري الرياح، يرفع يديه، ويكشف عن صدره، يمرُّ من بين الدائرة التي صنعها المتفرجون. كان اسمه (إسكل)، تذكرته جيدًا؛ فإنه كان أحد الغريشا الذين رافقوا (فيديور) في رحلاته، وهو فييرداني، له عينان زرقاوان، طويل القامة وعريض المنكبين حد أنه حجب عني الرؤية تمامًا.

قلتُ في نفسي: لم يفت الأوان بعد؛ يمكنكِ الهروب كأنكِ لم تأتي أصلًا.

بقيت في مكاني، كنت على علمٍ بما سوف أراه، إلا أن الصدمة تملكت مني لما تحرك (إسكل) ورأيت (مال) لأول مرة. بدا تمامًا مثل مستحضر الرياح؛ عاريًا حتى خصره، عضلاته ملطخة بالوسخ والعرق، والكدمات منتشرة في جسده، والدماء تقطر على خده من جرحٍ أسفل عينيه، إلا أنه لم يبد أنه يلاحظ أيًا من هذا.

اندفع مستحضر الرياح نحوه، فصدَّ (مال) اللكمة الأولى، فرفع الأول ذراعيه في الهواء، خالقًا منهما قوسين، فأدركت أنه على وشك استحضار الرياح. داهمني الذعر فور أن صفع الهواء شعري، وما هي إلا ثانية حتى حمل هواء الإثيريالكي (مال) عاليًا. رفع (إسكل) ذراعه الأخرى، فانطلق جسد (مال) صوب سقف الغرفة، فاصطدم به، وظل معلقًا بالأعلى، بفضل قوة الغريشا، ثم أسقطه (إسكل)، فهوى (مال) على الأرض المتسخة بقوة تهشم العظام.

ابتلع زئير الحشد صرختي.. صاح أحد الكوربورالكي مشجعًا (إسكل)، بينما صرخ آخر آمرًا (مال) أن ينهض على قدميه، اندفعت إلى الأمام وقد بزغ الضوء من يدي بالفعل، فجذبتْ (تمار) ذراعي، قائلة: «إنه لا يحتاج إلى مساعدتكِ».

صحت: «لا يهم! هذا ليس قتالًا منصفًا! وليس مسموحًا به!»، فليس مسموحًا للغريشا بأن يستخدموا قواهم داخل غرف التدريب.

قالت تمار: «لكن قوانين بوتكن لا تطبق بعد حلول ظلام الليل.. ومال في خضم قتالٍ الآن، لا درس!».

ابتعدت عنها.. فمن الأفضل أن يغضب (مال)، بدلًا من أن يلقى حتفه.

اتكأ على يديه وركبتيه محاولًا النهوض، دهشت لرؤيته يستطيع الحراك بعد هجوم مستحضر الرياح عليه. رفع (إسكل) يديه مجددًا، فتصاعد الهواء في موجةٍ من الغبار، استدعيت الضوء، غير عابئة بما سيقوله (مال)

أو (تمار)، لكن هذه المرة نهض (مال) بسرعة مدهشة، مصارعًا التيار.

تبدَّلت ملامح (إسكل)، وجال ببصره حول الغرفة، يفكر في ما لديه من خيارات. كنت أعلم ما خطر على باله؛ فإنه لن يقوم بأي حركةٍ قد تتسبب في الإطاحة بنا جميعًا، أو بجزءٍ من الغرفة أيضًا، انتظرت، متمسكة بالضوء الخارج من يدي، لا أعلم ماذا عساي أن أفعل.

تنفس (مال) بصعوبة، انحنى بجسده، واتكأ على فخذيه، فعلى الأرجح انكسرت له ضلع على الأقل، وإنه محظوظ حقًّا لأن عموده الفقري لم يُكسَر. وددت لو يبقى مستلقيًا على الأرض، لكنه دفع نفسه إلى النهوض، يئن من شد الألم، ثم فرد كتفيه، وبصق دمًا (وسبابًا) على الأرض، وأغلق قبضته وسددها نحو مستحضر الرياح، علا هتاف الحشد.

قلت لـ (تمار): «ما هذا الذي يفعله؟ إنه يضحي بحياته!».

- «سيكون على ما يرام؛ لقد نجا مما هو أسوأ».

- «ماذا؟».

- «إنه يقاتل هنا كل ليلةٍ تقريبًا، عندما يغادره أثر الشراب..وأحيانًا يأتي وهو ثمل».

- «يقاتل غريشا؟».

رفعت (تمار) كتفيها وقالت: «لكنه موهوب حقًّا».

هل كان يقضي (مال) لياليه هكذا؟

تذكرت تلك الصباحات التي رأيت فيها جروحه وكدماته، تُرى ما الذي كان يحاول إثباته لنفسه؟

باغتت ذاكرتي تلك الكلمات الطائشة التي قذفتها في وجهه في أثناء عودتنا من الحفل، حينما قلت له: **لا أريد أن أتحمَّل أيضًا مسؤولية جيشٍ ضعيف من الأوتكازاتسيا.**

وددت لو لم أقلها من الأساس.

تحرك المستحضر يسارًا، ورفع يديه مستعدًّا لهجومٍ جديدٍ، هبَّت الريح على دائرة المتفرجين، فلاحظت أن توازن (مال) بدأ يختل، جززت على أسناني وتأكدت أنني سأراه يصطدم بأقرب جدار، ولكن في آخر لحظة، التفَّ، وابتعد عن التيار، منقضًا على المستحضر المندهش. صرخ (إسكل) عاليًا لما التفَّت ذراعا (مال) حوله بقوة وثبَّت ذراعيه لئلَّا يستخدم قواه، زمجر الفييرداني الضخم وقد آلمته عضلاته، وفرج فاه محاولًا التحرر من قبضة (مال).

كنت أعلم مدى الألم الذي أحسَّ به (مال)، لكنه تحامل على نفسه وأحكم قبضته على المستحضر، ثم تراجع. وسدد ضربة بجبهته في أنف منافسه التي علا صوت قرقعتها، وقبل أن ترمش عيني كان قد أطلق راح المستحضر، وانهال عليه باللكمات في بطنه وضلوعه.

احدودب (إسكل)، محاولًا حماية نفسه من الضربات، وأخذ يتنفس بصعوبة وقد فار الدم من فمه. تمركز (مال) وسدَّد ركلة قاتلة نحو رجلي المستحضر من الخلف، فجثا الأخير على ركبتيه، وظلَّ يترنَّح لكن من دون أن يهوي على الأرض، تراجع (مال) إلى الخلف، ملقيًا نظرة على ما فعله، ارتفعت صيحات الحشد وهتافهم الجنوني، لكن نظر (مال) ظل معلقًا بذلك المستحضر الذي جثا على ركبتيه.

ثم أنزل يديه وصاح للغريشا قائلًا: «هيا انهض!».

قذفت نظرته تلك الرعب في نفسي.. كانت تحمل تحديًا، وشيئًا من الرضا الخبيث، تُرى هل كان يعجبه مظهر (إسكل) وهو جالس على ركبتيه؟

بدت عينا (إسكل) ككرتين من الزجاج الشفاف، رفع يديه بصعوبة، فمرَّ النسيم الخافت بوجه (مال)، رافقته صيحات الرفض من الحشد.

ترك (مال) النسيم ينعشه قبل أن يتلاشى، ثم تقدَّم إلى الأمام، ووضع يده في منتصف صدر (إسكل)، ودفعه دفعةً واحدة بازدراء، فانقلب المستحضر

على ظهره، ضاربًا الأرض بجسده الضخم، ثم احتضن رجليه إلى صدره، وظل يئن من فرط الألم.

علت صيحات البهجة والسخرية من بين الحشد، أمسك جندي مبتهج معصم (مال)، ورفعه فوق رأسه معلنًا عن انتصاره، وبدأ البعض يتبادلون الأموال فيما بينهم.

وإذا بالجمع يندفعون نحو (مال)، بعدما حملوني معهم، وظل الجميع يتكلمون في آنٍ واحد، صفعوا ظهره، ووضعوا المال في كفي، ثم رأيت (زويا) تقف أمامه، لفَّت ذراعيها حول رقبته، وقبَّلت شفتيه، ولكنه كان لم يزل متصلبًا.

ارتفع صوتٌ ما في أذني.. صوتٌ علا فوق صوت الحشد، يقول: أبعدها.. أرجوك أبعدها.

للحظةٍ ظننت أنه فعل، لكنه سرعان ما لفَّ ذراعيه حولها، وضمَّها إليه، وبادلها القبلات وسط هتاف الجمع وصفيرهم.

آلمتني معدتي.. كنت كمن وضع قدمه خطأ في جدول ماءٍ متجمد، فانشق الجليد، كاشفًا عن مياهٍ داكنة تحته.

ثم انفك عن حضنها، مبتسمًا، وخدَّاه ما زالا ملطخين بالدم، والتقت أعيننا، فشحب وجهه، ولما لمحتني (زويا)، رفعت حاجبها بتحدٍّ، وقالت: «ألينا...».

- «دعيني وشأني».

هرعت إلى الخارج، مبتعدة عنها وعن الجميع، بدأت الدموع تحجب عني الرؤية، لم أدر إن كانت بسبب قبلتهما، أم ما فعلته من قبل، لكن تلك الدموع لا يجب أن يراها أحد؛ فمستحضرة النور لا تبكي أبدًا، بالأخص حينما يتعلق الأمر بأحد حراسها من الأوتكازاتسيا.

ولكن بأي حق أبكي؟ ألم أكن على وشك تقبيل (نيقولاي)؟ وربما إذا عثرت عليه الآن، سأقنعه بأن يقبِّلني بغض النظر عما سيخطر على بالي حينها.

لفحني ضوءٌ خافتٌ فور خروجي من الإسطبل، وعانقني الهواء الدافئ السميك، أحسست أنني لا أقدر على التنفس، ابتعدت عن المسار المضاء، الذي يجاور المرعى، ولذتُ ببستان يملأه شجر البتولا، ولما توقفت، جذب أحدهم ذراعي.

قال (مال): «ألينا...».

تحرَّرتُ من قبضته، وركضت.

فصاح قائلًا: «توقفي يا ألينا!»، وركض خلفي لاحقًا بي على الرغم من إصاباته.

تجاهلته واقتحمت الغابة، فشممت رائحة الينابيع الساخنة التي تغذي حمامات البانيا، وأوراق البتولا التي أدوس عليها بقدمي، كل ما أردته حينها أن أُترك بمفردي لأبكي، أو لأمرض، أو ربما الاثنين معًا.

- «اللعنة يا ألينا! هلا توقفت من فضلك؟».

وكي لا أستسلم لوجعي، استسلمت لغضبي، فقلت: «إنك قائد الحرس الشخصي لي، ولا يصح أن تتشاجر مثل العوام!».

أمسك بذراعي وأجبرني على الالتفات، وصاح: «وأنا من العوام! لستُ من الحجاج والغريشا الذين يتبعونك، أو كلب حراسة يجلس خلف باب غرفتك على أمل أن تحتاجي إليه!».

- «بالطبع لا! فلديكَ الكثير من الأشياء لتملأ بها أوقات فراغك، مثل شرب الخمر ولعق رقبة زويا!».

- «لكنها على الأقل لا تجفل حينما ألمسها! إنك لا تريدينني، فلماذا تهتمين بها؟».

- «لكنني لا أهتم!».

قلتها وكدت أجهش بالبكاء، أطلق (مال) سراح يدي فجأة حد أنني كدت أسقط، ثم ابتعد عني، وتحسس شعره. جفلت عندما تحسست أصابعه الكدمة على ضلعه، أردت حينها أن أصرخ في وجهه وآمره بالذهاب إلى أحد المعالجين، وفي الوقت ذاته أردت أن أسدد له لكمة لأزيد من وجعه!

قال: «كم كنت أتمنى لو لم نأت إلى هنا..».

- «فلنرحل إذن..».

كنت أعلم أن ذلك ليس القرار السليم، لكنني لم أهتم، فأتبعت: «فلنهرب الليلة، وننسى أننا رأينا هذا المكان يومًا ما».

قهقه ضاحكًا وقال: «أتعلمين كم أود ذلك؟ كم أريد أن أبقى معك من دون أن تحول بيننا مكانة، ولا جدران، ولا أي شيء؟ أريدنا أن نعود من العوام من جديدٍ».

ثم هزَّ رأسه وأردف: «لكنكِ لن تقبلي بذلك يا ألينا».

انهمرت الدموع من عيني، وأنا أقول: «بل سأقبل».

- «فلتقري بالحقيقة يا ألينا.. ستجدين طريقة للعودة إلى هنا من جديد».

قلت بيأسٍ: «لا أعلم كيف يمكنني إصلاح الأمور».

صاح: «لن تستطيعي إصلاحها! فهذا هو الواقع! هل خطر على بالك من قبل أنك سوف تصبحين ملكة لا محالة، وأنني لن أحقق أي شيء؟».

- «لكن هذا ليس صحيحًا!».

اقترب مني، وقد قذفت فروع الأشجار ظلالها الغريبة على وجهه، قال: «إنني لم أعد جنديًا.. كما أنني لست أميرًا، وبالطبع لست قديسًا، فمن أكون يا ألينا؟».

- «أنا...».

انخفض صوته إلى همسٍ وهو يقول: «من أكون؟».

صار قريبًا مني الآن، تبدَّلت رائحته التي أعرفها جيدًا، فصارت خليطًا من روائح شجر المرج الأخضر الداكن، وروائح العرق والدم.

قال: «هل أنا حارسك؟».

تحسَّست أصابعه ذراعي بأكمله، من كتفي وحتى أصابعي.

- «هل أنا صديقك؟».

تحسست أصابعه ذراعي الآخر.

- «هل أنا خادمك؟».

شعرت بأنفاسه تلامس شفتي، وصارت ضربات قلبي كالرعد في أذني.

- «أخبريني من أكون».

التفَّت يده حول رسغي، وقرَّبني إليه، ولما ضغط لحمي بأصابعه، اهتز جسدي بحدة حتى التوت ركبتي، صار العالم مائلًا من حولي.. شهقت.. فترك (مال) يدي فجأة كأنه احترق، وتراجع إلى الخلف وقد أصابته صدمة، وقال: «ما كان هذا؟».

حاولت أن أخفي ترددي.

كرر قوله: «ما كان هذا؟».

فقلت: «لست أدري».

لم تزل أناملي ترتعشان..

التوت شفتيه بابتسامة، وقال: «لن يكون الأمر سهلًا بيننا، أليس كذلك؟».

نهضت وقد تملَّكني الخوف.

قلت: «كلا يا مال.. لن يكون الأمر سهلًا، ولا لطيفًا، ولا مريحًا معي، لن أستطيع ترك القصر الصغير بغتة، لأهرب وأتظاهر بأنني لست مستحضر النور! لأنني إذا حاولت فعل ذلك، سيموت عدد أكبر من الناس.. عليك أن تضع في اعتبارك أنني لن أعود ألينا التي تعرفها؛ فتلك الفتاة قد ماتت!».

قال بحدة: «لكنني أريدها ثانية».

صرخت من دون أن أكترث إذا كان ثم من سيسمعني: «لن أعود إليها! حتى لو نزعت عني الطوق والسوار، فلن تستطيع إخراج قوتي مني!».

- «ماذا لو نجحت؟ هل ستستسلمين؟».

- «هذا مستحيل!».

علقت الحقيقة بيننا، بقينا في أماكننا، يكتنفنا ظلام الغابة، وظلت الغصة التي احتلت قلبي تتضخم، أعلم جيدًا ماذا سيخلف ذلك الألم من وحدة، وفراغ، حينما يرحل عني.. سيترك ثقبًا عميقًا لن يلتئم.. تلك الهاوية السحيقة التي رأيتها يومًا في عيني مستحضر الظلام.

قال (مال) في النهاية: «فلنذهب..».

- «إلى أين؟».

- «إلى القصر الصغير، لن أدعك وحدك في الغابة بالتأكيد».

صعدنا التل في صمتٍ، ودلفنا إلى داخل القصر، متجهين مباشرة إلى غرف مستحضر الظلام.

وجدنا الغرفة المشتركة خاوية، وقفت عند باب غرفتي، واستدرت نحو (مال) وقلت: «لقد رأيته.. رأيت مستحضر الظلام.. في المكتبة، وفي الكنيسة، وعلى متن قارب الطنان قبل اصطدامنا.. وفي تلك الليلة التي حاولت فيها تقبيلي».

حدق إليّ وعلى وجهه ملامح الدهشة.

أردفت: «لا أدري إن كانت تلك الرؤى حقيقية أم تخيلات محض، لم أرد إخبارك بذلك حتى لا أغضب، ولأنني أعتقد أنك بدأت تهابني قليلًا».

فتح (مال) فمه، ثم أغلقه، ثم حاول فتحه من جديدٍ، وددت أن ينكر قولي، ولكنه أولاني ظهره، ومضى إلى غرف الحرس، متوقفًا فقط ليلتقط زجاجة كڤاس من على الطاولة، ثم دلف إلى غرفته بهدوء، مغلقًا الباب خلفه.

استعددت لأخلد إلى النوم، وانسللت تحت الغطاء، لكن الليل كان دافئًا، فكومته فوق قدمي. استلقيت على ظهري أحدق إلى القبة المتلألئة المصنوعة من حجر السبج. أردت أن أذهب لأطرق باب (مال)، وأعتذر له، وأخبره بأني ارتكبت أخطاء شنيعة، وأننا كان علينا القدوم إلى (أوز ألتا) ويدانا متعانقتان.

لكن هل كان سيحدث ذلك فرقًا؟

تردد صوت في عقلي يقول: **اعلمي أن من مثلنا لا يعيشون حياة عادية.**

والحق أنها ليست حياة عادية.. بل حياة مليئة بالقتال، والخوف، وزلازل غامضة تسقطنا على الأرض.

لقد عشت حياتي على أمل أن أكون الفتاة التي يتمناها (مال)، لكن ذلك قد لا يتحقق أبدًا.

تردد صوت آخر يقول: **ليس ثمة من يشبهوننا يا ألينا، ولن يكون هناك من يشبهنا.**

انثالت دموع الغضب الحارقة من عيني، دفنت وجهي في الوسادة كي لا يسمع أحد بكائي، فبكيت ولم يبق شيء.. ثم أنهى وجودي قلق النوم.

***

- «**ألينا**».

استيقظت على ملمس شفتي (مال) الناعم، وقد أغدق قبلاته على شفتي، وجبهتي، ورمشي، وحاجبي، ارتعشت شعلة الضوء بجانب سريري، منيرة شعره البني بينما كان يتدلى عليَّ ليقبِّل رقبتي.

ترددت لحظة؛ فلم يطلق النوم سراحي بعد، لكنني لففت ذراعي حول (مال) ودنوته مني أكثر. لم أهتم بشجارنا، أو بأنه قبّل (زويا)، أو بأنه ابتعد عني.. أو باستحالة اكتمال علاقتنا، فما يهم أنه غيَّر رأيه.. وأنه أتى، ولم يتركني فريسة لبراثن الوحدة.

همست في أذنه: «اشتقت إليك يا مال.. اشتقت إليك حقًّا».

تحسَّست ظهره، وألقيت ذراعي حول عنقه، فقبَّلني من جديدٍ، فتنهدت لما أحسست بضغط شفتيه الرقيق على شفتي، شعرت بثقل جسده فوقي، فتشبثت بعضلات ذراعه الصلبة. إن كان (مال) ما زال معي، وما زال يحبني، إذن فثمة أمل. لفحني الدفء، فتسارعت ضربات قلبي، لم يعلُ صوتٌ فوق أصوات أنفاسنا، وتقلبات جسدينا، كان يقبِّل رقبتي، وترقوتي، ويرتشف مذاق جلدي، ارتعشت وقربته مني أكثر.

كان هذا ما أردته تمامًا: أن أجد طريقة لأملأ الفراغ الذي باعد بيننا، أليس كذلك؟ سرت بداخلي موجة خوف خافتة، أردت أن أنظر في وجهه كي أطمئن، احتضنت وجهه بكفي، ورفعت ذقنه، ولما نظر إليَّ، تراجعت إلى الخلف في ذعرٍ.

دقَّقتُ النظر في عينيه التي أعرف زرقتها جيدًا.. ربما أكثر من معرفتي بلون عيني.. إلا أنهما لم تكونا زرقاوين، وبدتا في ضوء المصباح رماديتين أردزاويتين.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باردة.. ابتسامة يشع منها الخبث، لم أرها على وجهه من قبل.

- «وأنا أيضًا اشتقت إليك يا ألينا».

إنني أعرف تلك النبرة جيدًا.. باردة وناعمة كما الزجاج.

ابتلعت الظلال ملامح (مال)، ثم ما لبثت أن انبثقت من جديدٍ من بين الضباب الأسود، صار وجهه شاحبًا، وجميلًا، وكسا السواد شعره، وبدا شكل فكيه مثاليًا.

وضع مستحضر الظلام يديه الرقيقة على خدي وهمس قائلًا: «عما قريب...».

صرخت، وحينها ابتلعته الظلال.

قفزت من سريري، محتضنة نفسي، ارتعد جسدي من الخوف، ومن فقدان الرغبة، توقعت أن يضرب (توليا) و(تمار) باب غرفتي بأرجلهما، فحضرت كذبة ووضعتها على حافتي شفتي.

كنت لأقول: «إنه كابوس محض»، وكانت ستغادر الجملة فمي بثقة، وثبات مقنع، رغم تزلزل قلبي، والصرخة التي احتقنت في حلقي، إلا أن الغرفة بقيت هادئة، ولم تطأها قدم أحد.

وقفت بجسدٍ مرتعش في الظلام الذي التفَّ حول أجزاءٍ كبيرة من الغرفة، أخذت نفسًا مرتعشًا، وأتبعته بآخر. ولما شعرت بثبات رجلي، لبست ردائي وذهبت لألقي نظرةً على الغرفة المشتركة، فلم أر فيها أحدًا، أغلقت الباب، واستندت إليه بظهري، وتفحصت فراش السرير المنكمش.

إنني لن أعود إلى النوم، وربما لن أنام أبدًا، نظرت في الساعة المعلقة فوق رف الموقد. عادةً ما تشرق الشمس مبكرًا في أيام عيد بيليانوك، لكن سكان القصر لن يستيقظوا قبل ساعات من الآن.

دسست يدي في كومة الملابس التي احتفظت بها منذ عودتنا من رحلة الڤولكڤولني، وأخرجت من بينها معطفًا بنيًا باهتًا، ووشاحًا طويلًا. كان الجو حارًا ولم يستدع ارتداءهما، لكنني لم أكترث، ارتديت المعطف فوق ملابس النوم، ولففت الوشاح حول رأسي ورقبتي، وانتعلت حذائي، ثم زحفت إلى الغرفة المشتركة، لمحت أبواب غرفة الحرس مغلقة. إذا كان (مال) والتوأمان بالداخل، فلا بد أنهم يغطون في سباتٍ عميق، أو ربما يكون (مال) في مكانٍ آخر، أسفل قباب القصر الصغير، نائمًا بين ذراعي (زويا). اعتصر قلبي، ففتحت الأبواب الغربية، وأسرعت إلى الأروقة المظلمة، ومنها إلى الساحات الساكنة.

الفصل الواحد والعشرون

مضيت في ضوء الطريق الخافت، مررتُ بالبساتين التي يخيم عليها الضباب، ونوافذ المشتل الغائمة، لم يكن ثمة صوت سوى وقع قدمي على الحصى. رأيت عربات الإمداد والتموين تورد الخبز والمنتجات الغذائية للقصر الكبير، فتبعتها إلى خارج البوابات، ثم إلى شوارع البلدة العالية المرصوفة بالحصى. لم يزل ثمة بعض المحتفلين الذين يستمتعون بمظهر الشفق. أبصرت شخصين يرتديان ملابس الاحتفال، يأخذان قيلولة على مصطبة بمتنزه، ومجموعة من الفتيات يضحكن ويرششن الماء بعضهن على بعض في نافورةٍ كن قد قفزن فيها بعدما رفعن تنوراتهن إلى ركبهن. مررت بهم جميعًا من دون أن يراني منهم أحد، كنت فتاة خفية محض ترتدي معطفًا بنيًّا باهتًا.

كنت أعلم أنني أتصرف بحماقة؛ فقد يراني جواسيس المستشار الروحاني، أو جواسيس مستحضر الظلام، وسيختطفونني حينها في التو واللحظة، لكنني لم آبه بذلك؛ أردت أن أمشي من دون توقف، كي أملأ رئتي بالهواء النقي، وأتخلص من لمسات مستحضر الظلام التي طبعها على جلدي.

لامست الندبة على كتفي، التي برزت حوافها أسفل معطفي الثقيل.

عندما كنت على متن الحواتة، سألت مستحضر الظلام عن السبب الذي جعله يسمح لأحد وحوشه بعضي، ظننت حينها أن كراهيته هي السبب، حتى تلازمني تلك العلامة إلى الأبد، ولكن قد يكون ثمة سبب آخر.

وماذا عن تلك الرؤى؟ هل هي حقيقية؟ هل رأيته حقًّا، أم أن عقلي يستحضر وجوده؟ وأي مرضٍ قد أصابني ودفعني إلى أن أحلم به؟

لكنني لم أرد أن أفكر.. فقط أردت المشي أكثر، وأكثر.

رأيت القوارب الصغيرة تتمايل في أثناء عبوري القناة، ومن مكانٍ ما أسفل الجسر، سمعت نغمات الأكورديون.

مررت من بوابة الحراسة إلى شوارع السوق الضيقة، التي كانت مكتظةً أكثر من ذي قبل. أطل الناس من الشرفات، ولعب البعض بأوراق اللعب على طاولاتٍ صنعوها من الصناديق، ونام البعض على الدكك، ورأيت حبيبين في شرفة حانة يتمايلان ببطء على أنغام موسيقى لم يسمعها أحد غيرهما.

ولما وصلت إلى أسوار المدينة، أمرت نفسي بالتوقف، والالتفات، والعودة إلى بيتي، كادت تهرب مني ضحكة؛ فالقصر لم يكن حقًّا بيتي.

اعلمي أن من مثلنا لا يعيشون حياة عادية.

ستمتلئ حياتي بالتحالفات بدلًا من الحب، وبالولاء بدلًا من الصداقة، سأفكر في كل قرار اتخذه، وكل فعل أقوم به، ولن أثق بأحد، سأراقب حياتي بمنظار من مسافة بعيدة.

كنت أعرف أن عليَّ العودة، لكنني أكملت المشي، وبعد لحظات وجدتني على الجانب الآخر من الأسوار، أجل، لقد غادرت (أوز ألتا) بتلك السهولة.

اتسعت مدينة الخيم، وملأها مئات الناس، أو ربما الآلاف. كان من السهل رؤية الحجاج بينهم، تفاجأت عندما وجدت أن أعدادهم ازدادت، تجمعوا بالقرب من خيمة بيضاء ضخمة، وقد أولوا وجوههم جهة الشرق، ينتظرون شروق الشمس المبكر.

رفرفت همساتهم في الهواء كأنها أجنحة طيور، ثم استحالت إلى همهمات فور أن اعتلت الشمس الأفق، وأضاءت السماء الزرقاء الشاحبة، حينئذٍ بدأت أفهم كلماتهم:

القديسة ألينا.. القديسة ألينا.. القديسة ألينا.

راقب الحجاج الفجر، فراقبتهم، لم أستطع أن أشيح بوجهي عن قبلة أملهم وتطلعاتهم، كانت ملامحهم مبتهجة، وقد ضربتها أشعة الشمس الأولى، وبعضهم بدأ يبكي.

علت الهمهمات، وانخفضت، ثم استحالت إلى نحيبٍ اقشعرَّ له بدني، ثم صار صريرًا يموج بينهم، أو بالأحرى طنين نحل يهز الأشجار:

القديسة ألينا.. القديسة ألينا.. ابنة رافكا.

أغمضت عيني لما داعبت الشمس جلدي، ودعيت أن أشعر بأي شيء.. أي شيء.

القديسة ألينا.. ابنة كيرامزين.

رفعت يدي إلى السماء. صارت أصواتهم صيحات.. وصرخات.. اشتركوا فيها جميعًا.. كبارًا وصغارًا، أقوياء وضعفاء، أصدقاء وغرباء.

نظرت حولي وقلت في نفسي: هذا ليس أملًا، بل جنونًا.. جوعًا، حاجةً، أو حتى يأسًا!

شعرت كأنني أصحو من نشوة.

ترى لماذا أتيت إلى هنا؟

أشعر بوحدة أكبر بين هؤلاء الناس.. وحدة تفوق تلك التي أشعر بها خلف أسوار القصر الصغير، لم يكن لديهم ما يمنحونه لي، وأنا كذلك.

آلمتني قدمي، فأدركت حينها مدى الإعياء الذي أصابني، استدرت ومشيت بين الحشد، متجهة صوب أسوار المدينة، وسط صياحهم.

كانوا يصرخون: ملكة الشمس.. ريبي دقا ستولبا.

أي ابنة الطاحونتين، لقد سمعت ذلك الاسم من قبل في أثناء رحلتي إلى (أوز ألتا). إنه يُطلَق على حطام قديم، كان يضم عددًا من المستوطنات الصغيرة غير المهمة، التي امتدت بطول الحدود الجنوبية. وُلِد (مال) هناك، لكنه لم يحظ بفرصةٍ لزيارة تلك المنطقة من جديد. ولكن لماذا قد

يفعل ذلك؟ فأي فرد من عائلتينا بلا شك قد حرق أو آواه التراب منذ زمن.

القديسة ألينا.

باغتتني بعض الذكريات التي سبقت ذهابي إلى (كيرامزين)، مثل: أطباق البنجر الذي دائمًا ما كان يلطخ يدي باللون الأحمر، والطريق المغبر الذي كنت أراه من فوق الكتف العريضة لشخص ما، الثيران وهي تحرك ذيولها، ظلالنا التي تتبعنا على الأرض، يد تشير نحو حطام الطاحونتين، اللتين تشبهان إصبعين صخريين أهلكهما المطر، والريح، والزمن. كان ذلك فقط ما تذكرته عن تلك الفترة، أما باقي ذاكرتي فقد احتلتها (كيرامزين).. أو بالأحرى احتلها (مال).

القديسة ألينا.

زحفت بين الأجسام المتزاحمة، ولففت الوشاح جيدًا حول أذني لأحجب عنهما الضوضاء. اعترضت طريقي عجوز من الحجاج فكدت أعرقلها، جذبتها لكي لا تسقط، فتشبثت بي، محاولةً الحفاظ على توازنها.

قلت لها بلطفٍ: «معذرةً يا سيدتي»، فلن أسمح لأحدٍ بأن يقول إن (آنا كونيا) لم تعلمنا الأدب، ساعدت العجوز على الوقوف باتزان، ثم أردفت: «هل أنت بخيرٍ؟».

لكنها لم تنظر في وجهي، بل ظل نظرها معلقًا بعنقي، فرفعت يدي نحوه، لكن فات الأوان، وانزلق الوشاح عنه.

أنَّت السيدة قائلة: «القديسة.. القديسة!»، ثم جثت على ركبتيها، وأمسكت بيدي وضغطت بها خدها المتجعد، ثم قالت من جديد: «القديسة ألينا!».

وفجأة، أحاطت بي أيادٍ كثيرة، بعضها أمسك بذراعي، والبعض الآخر جذب أطراف معطفي.

حاولت إبعادهم عني قائلة: «أرجوكم...»، ولكن ظلوا يهمسون: القديسة ألينا.. القديسة ألينا.

ثم استحالت همساتهم عويلًا وصياحًا، صار وقع اسمي غريبًا على أذني، كما لو كان جزءًا من صلاة، أو تعويذة غريبة هدفها تبديد الظلام.

التفوا حولي، وتدافعوا ليدنوا مني أكثر، ليلمسوا شعري، وجلدي، ثم سمعت صوت شيء يتمزق، فأدركت أنه معطفي.

القديسة.. القديسة ألينا.

ضغطت أجسادهم جسدي، وظلوا يتدافعون ويصيحون.. فجميعهم أرادوا الاقتراب مني، هويت على الأرض، وصرخت عندما انفصلت خصلة عن فروة رأسي.

لقد كانوا يمزقونني إلى أشلاء.

علا صوتٌ واضح في رأسي يقول: دعيهم يفعلون ذلك.

حينئذٍ لن ينتابني المزيد من الخوف، ولن تلقى على عاتقي مسؤوليات أخرى، ولن تطاردني كوابيس عن سفن محطمة وأطفال تبتلعهم الطية، ولن تفزعني تلك الرؤى من جديد.

حينئذٍ سأتحرر من أسر الطوق والسوار، ومن ثقل آمالهم التي أرهقت كاهلي.

دعيهم يفعلون ذلك.

أغمضت عيني، فلربما تكون هذه النهاية، وقد تصير لي صفحة في كتاب «حياة القديسين»، سيضعون فيها هالةً ذهبيةً حول رأسي، وسيسمونني «ألينا ذات القلب الحزين»، أو «ألينا المثيرة للشفقة»، أو «ألينا المجنونة»، أو «ابنة الطاحونتين التي تمزقت إلى أشلاء ذات صباح في ظلال أسوار المدينة».

وحينها سيستطيعون بيع عظامي الحقيقية على جانب الطريق.

صرخ أحدهم بغضبٍ، فأمسكت بي أيادٍ ضخمة ورفعتني في الهواء، فتحت عيني فأبصرت وجه (توليا) العابس وقد حملني بين ذراعيه، وكانت (تمار) بجانبه، رافعةً كفيها وقوستهما ببطء.

قالت محذرةً الحشد: «تراجعوا!».

وجدت بعض الحجاج يرمشون بأعينهم وقد تملك النوم منهم، وآخرين جلسوا بهدوء على الأرض، بيد أنها قد أبطأت ضربات قلوبهم، في محاولة منها لتهدئتهم، لكن أعدادهم كانت هائلة.

اندفع رجلٌ إلى الأمام، وفي لمح البصر، سحبت (تمار) فأسيها، جأر الرجل لما برز خط أحمر على ذراعه.

قالت (تمار): «إذا اقتربت سأفصله تمامًا عن جسدك!».

اعتلى الغضب وجوه الحجاج.

قلت: «دعي هذا الأمر لي...».

تجاهلني (توليا) ومضى بين الحشد، تبعته (تمار) وأخذت تحرك فأسيها كي تبعد الحشد عنا، علا صياح الحجاج وعويلهم، ومدوا أيديهم تجاهي ليحاولوا الوصول إليَّ.

- «الآن»، قالها (توليا)، ثم رفع صوته وكرره قوله: «الآن!».

انطلق مسرعًا، فاصطدمت رأسي بصدره، إلى أن وصلنا إلى بر الأمان خلف أسوار المدينة، و(تمار) من خلفنا. كان الحرس قد لاحظوا اهتياج الحشد، فهموا بإغلاق البوابتين. أسرع (توليا) ضاربًا كل من يعترض طريقه، ودلف إلى الداخل من الثغرة الضيقة بين البوابتين، وانزلقت (تمار) وراءنا قبل ثوانٍ من إغلاقهما. وعلى الجانب الآخر، سمعت أجسادًا تصطدم بالبوابة، وأيادي تطرق عليها، وأصواتًا تصيح باسمي، بجوعٍ ولهفة، تقول: القديسة ألينا.. القديس ألينا.

أنزلني (توليا) من فوق كتفيه، وصرخ: «فيم كنت تفكرين؟!».

فقالت (تمار): «ستجيب عن ذلك لاحقًا..».

حدق إليَّ الحرس.

صاح أحدهم بغضبٍ: «أخرجوها من هنا! سنكون محظوظين إن لم تحدث ثورة متكاملة علينا».

كان حصانا التوأمين بانتظارنا، ألقت (تمار) غطاءً كانت قد جلبته من محلٍّ بالسوق على كتفي، فلفَّته حول رقبتي لأواري الطوق تحته، ثم قفزت فوق السرج، ورفعني (توليا) بقوة وأجلسني خلفها.

مضينا في طريقنا إلى بوابات القصر الصغير من دون أن ينبس أحدنا بكلمة.

لم تصل أي أخبار إلى القصر عن أعمال الشغب التي تحدث خلف أسوار المدينة، لكن ذلك لم يمنع الناس من إلقاء نظرات التساؤل في وجوهنا.

لم يتفوَّه التوأمان بكلمة، لكنني لاحظت أنهما غاضبان، ولهما كل الحق في ذلك؛ فقد تصرفت تمامًا كالحمقى، وما عليَّ الآن إلا أن آمل أن يستعيد الحراس النظام من دون اللجوء إلى العنف.

لكن ثمة فكرة قفزت إلى عقلي، نحت جانبًا الذعر والندم اللذين تملَّكا مني، حاولت إقناع نفسي أنها هراء محض، أو أضغاث أحلام، إلا أنني لم أستطع نفضها عن رأسي.

ولما وصلنا إلى القصر الصغير، أراد التوأمان أن يقوداني إلى غرف مستحضر الظلام مباشرةً، لكنني رفضت.

- «إنني بأمان الآن.. ثمة أمرٌ عليَّ القيام به».

أصررًا أن يتبعاني إلى المكتبة..

لم أستغرق وقتًا طويلًا في البحث عن ما أردته؛ ففي النهاية، أنا رسامة خرائط. وضعت الكتاب أسفل ذراعي، وعدت إلى غرفتي برفقة حارسي العابسين، دهشت لما رأيت (مال) ينتظرنا في الغرفة المشتركة، كان يجلس خلف طاولة، يرتشف من كوب الشاي ببطء.

قال: «أين كنـ ...»، ولكنه قبل أن يكمل، انتزعه (توليا) من فوق المقعد، في لمح البصر، وضرب به الحائط، وصاح بوجهه قائلًا: «أين كنت أنت؟!».

- «توليا!».

صحتُ بغضبٍ، وحاولت إبعاد يده عن رقبة (مال)، لكن الأمر كان أشبه بثني قضيبٍ من فولاذ. نظرت إلى (تمار) طالبةً المساعدة، لكنها تراجعت إلى الخلف، عاقدةً ذراعيها وقد استشاط غضبها تمامًا مثل أخيها.

اختنق (مال)، يبدو أنه لم يبدل ملابسه منذ الليلة الماضية، ونمت بضع شعيرات على ذقنه.

وعلقت بجسده رائحة الدم المخلوطة بالكڤاس، كما لو كانت معطفًا متسخًا يرتديه.

- «هلا تركته يا توليا بحق القديسين!».

للحظة ظننت أن (توليا) ينتوي إنهاء حياة (مال)، لكنه أرخى قبضته، فانزلق الأخير على الأرض، وانخرط في نوبة سعال وشهيق.

صاح (توليا) بحدة مصوبًا إصبعه في صدر (مال): «لقد حدث ذلك في أثناء نوبة الحراسة الخاصة بك! كان لا بد أن تبقى معها!».

قال (مال) متحسِّسًا عنقه: «أنا آسف.. لا بد أنني استغرقت في النوم.. لقد كنت بجانب...».

- «لقد كنت مشغولًا بشرب الخمر.. إن رائحتها تفوح منك».

قال (مال) بيأسٍ: «أنا آسف..».

أغلق (توليا) قبضته بغضبٍ، وقال: «آسف؟ كان عليَّ أن أقطع أوصالك!».

قلت: «في إمكانك فعل ذلك لاحقًا، أما الآن، فعليكم أن تبحثوا عن (نيقولاي) وتخبروه بأن يقابلني في غرفة العمليات العسكرية، سأذهب لتبديل ملابسي».

ثم اتجهت إلى غرفتي وأغلقت الباب، وحاولت أن أجمع شتات نفسي.

كدت أُقتَل اليوم، أو أن أتسبب في اندلاع انقلاب قبل أن يستيقظ سكان القصر ليتناولوا فطورهم.

غسلت وجهي، وارتديت زي الكفتا، ثم أسرعت إلى غرفة العمليات العسكرية. وجدت (مال) ينتظرني هناك، جالسًا فوق مقعدٍ، على الرغم من أني لم أدعه إلى المجيء. كان قد بدَّل ملابسه، لكن لم يزل مظهره بشعًا، وعيناه لم يفارقهما الاحمرار، وتناثرت كدمات جديدة على وجهه من أثر ما فعله الليلة الماضية، نظر إليَّ فور أن دخلت الغرفة، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

تُرى هل سيأتي يومٌ أنظر فيه إلى وجهه من دون أن أتألم؟

وضعت الأطلس على الطاولة الطويلة، ثم مضيت إلى خريطة (راڤكا) العتيقة التي تمتد بعرض الحائط البعيد. من بين كل الخرائط التي تحيط بالغرفة، كانت تلك أكثرهم جمالًا وقدمًا. تحسست بأصابعي جبال (سيكورزوي) البارزة، التي تمثل الحدود الجنوبية الفاصلة بين (راڤكا) و(شو هان). تتبعتها حتى السفوح الغربية، فلم أجد وادي (دڤا ستولبا) مرسومًا على الخريطة لصغره.

سألت (مال) من دون أن أنظر إليه: «هل تتذكر أي شيء قبل كيرامزين؟».

لم يكن (مال) يكبرني بأعوامٍ كثيرة، ما زلت أتذكر اليوم الذي أتى فيه إلى الملجأ.. أخبرونا حينها أن لاجئًا جديدًا سيقدم إلينا، فتمنيت أن تكون فتاة لألعب معها، لكنني وجدته فتى قصيرًا بدينًا، له عينان زرقاوان يملؤهما التحدي.

أجاب قائلًا: «كلا».

لم تزل نبرته خشنة من أثر خنق (توليا) له.

- «ألا تتذكر أي شيء على الإطلاق؟».

- «كنت فقط أحلم بامرأة لشعرها ضفيرة طويلة ذهبية، كانت تدليها أمامي كأنها دمية».

- «أهي أمك؟».

- «كيف سأعرف إن كانت أمي أم عمتي أم جارتي؟ ألينا، ما حدث...».

- «هل ثمة شيء آخر؟».

ظلَّ يتأملني للحظة طويلة، ثم تنهد وقال: «في كل مرة أشم فيها رائحة العرق سوس، أتذكر كيف كنت أجلس على مصطبة وأمامي مقعد مطلي باللون الأحمر، هذا ما أتذكره الآن، وكل شيء آخر...».

سكت وهزَّ كتفيه، لم يكن مطالبًا بالشرح.. فالذكريات رفاهية للأطفال الآخرين، لا يتامى (كيرامزين).

حاول (مال) التحدث من جديد قائلًا: «إن ما قلتِه عن مستحضر الظلام يا ألينا...».

وإذا بـ (نيقولاي) يقتحم الغرفة.

وعلى الرغم من أن الساعة مبكرة، فإنه بدا تمامًا مثل الأمراء؛ شعره الأشقر يلمع، وحذاؤه يبرق. تأمل مظهر (مال) القبيح، والكدمات المنتشرة في جسده، ورفع حاجبيه وقال: «لا أظن أن أحدًا قد طلب الشاي».

ثم جلس ومدَّ رجليه الطويلتين أمام (مال)، اتخذ (توليا) و(تمار) موقعهما، لكنني طلبت منهما أن ينضمَّا إلينا ويغلقا الباب.

وعندما اجتمعنا جميعًا حول الطاولة، قلت: «لقد ذهبت إلى الحجاج هذا الصباح».

رفع (نيقولاي) رأسه إلى الأعلى، وفي لحظة، تخلص من شخصية الأمير الهادئ، وقال: «أظنني لم أسمعكِ جيدًا».

- «أنا بخيرٍ».

قالت (تمار): «كادت تُقتَل».

فقلت: «لكنني ما زلت على قيد الحياة».

فصاح (نيقولاي): «هل فقدت صوابكِ؟ إنهم متعصبون!»، ثم التفت إلى (تمار) وقال: «كيف سمحت لها أن تذهب إلى هناك؟».

فقالت: «لم أفعل..».

فقال لي: «أخبريني أنكِ لم تذهبي بمفردك».

- «أجل، لم أذهب بمفردي».

- «بل ذهبت بمفردها».

- «اصمتي يا تمار! لقد أخبرتكَ يا نيقولاي أنني بخيرٍ».

قالت (تمار): «لأننا وصلنا إليها في الوقت المناسب».

قال (مال) بهدوءٍ: «وكيف وصلتما إلى هناك؟ كيف وجدتماها؟».

أظلم وجه (توليا)، ضرب الطاولة بقبضته الضخمة، وقال: «لم يكن علينا أن نجدها لأن ذلك حدث في أثناء نوبة حراستك!».

فقلت بحدة: «دعه وشأنه يا توليا، أعلم أنه لم يكن في المكان الصحيح، لكنني أستطيع أن أكون حمقاء من دون مساعدة!».

تنفَّست بعمقٍ.

اعتلى البؤس ملامح (مال)، وبدا (توليا) كأنه يود أن يحطم الغرفة بأكملها، أما وجه (تمار) فتصلَّب، وتملَّك الغضب من (نيقولاي) إلى درجة لم أرها من قبل.

لكنني على الأقل حظيت بانتباههم.

دفعت الأطلس إلى منتصف الطاولة، وقلت: «ثمة لقبٌ ينادونني الحجاج به: ابنة دڤا ستولبا».

قال: «الطاحونتين؟».

- «إنه وادٍ، أطلقوا اسمه على حطامٍ منثورٍ في مقدمته».

فتحت الأطلس على الصفحة التي تركت بها علامة، كانت ثمة خريطة تفصيلية للحدود الجنوبية الغربية، تحسَّست بأصابعي حافة الخريطة وقلت: «لقد وُلِدتُ أنا ومال بالقرب من هذا المكان.. والمستوطنات تمتد بطول تلك المنطقة».

ثم قلبت الصفحة لأريهم رسمة توضيحية لطريقٍ يؤدي إلى وادٍ مكتظ بالبيوت، وعلى جانبيه كتل صخرية مموجة.

قال (توليا) متذمرًا: «لا يبدو ذا أهمية».

- «بالضبط، فذلك حطام قديم، ولا يعلم أحد أصله أو منذ متى وجد.. إنه يسمى وادي الطاحونتين اللتين كانتا على الأرجح تابعتين لبوابةٍ ما، أو كانتا تطلان على قناة مائية».

ثم مشيت بأصابعي على حطام الأبراج المقوسة، وقلت: «أو ربما كانتا معًا قوسًا واحدًا».

خيَّم الصمت على الغرفة فجأة، فإن مظهر القوس في المقدمة، ومن خلفه الجبال، يشبه تمامًا المنظر الذي تجلَّى خلف القديس إليا في كتاب «حياة القديسين»، كان فقط ينقصه طائر النار.

سحب (نيقولاي) الأطلس إليه وقال: «هل نحن نرى الآن ما نتمنى رؤيته فقط؟».

فقلت: «ربما، لكنني لا أظن أن تلك صدفة محض».

- «إذن سنرسل كشافة».

- «كلا، فأنا أريد الذهاب بنفسي».

- «إذا رحلت الآن، ستضيع كل الإنجازات التي حققتِها مع الجيش الثاني. سأذهب أنا.. فإن كان ڤاسيلي قد ذهب إلى شراء المهور، فلن يمانع أحد أن أذهب في رحلة صيدٍ قصيرة».

هززتُ رأسي وقلت: «يجب أن أقتل طائر النار بنفسي».

فقال (مال): «هل تتناقشون في ذلك حقًّا وأنتم تعلمون جيدًا أنني الوحيد الذي عليه الذهاب إلى هناك؟».

تبادل التوأمان نظراتٍ يشع منها الضيق.

تنحنح (نيقولاي) وقال: «مع احترامي لك يا أورتسيف، لكنك لا تبدو في أفضل حالاتك».

- «أنا بخيرٍ».

- «هل نظرت في المرآة مؤخرًا؟».

- «يكفي أنك تفعل ذلك»، ثم مسح وجهه بيده، وقد بدا عليه الانزعاج.

أردف: «إنني ثملٌ ومتعبٌ، ولن أتجادل معك في ذلك، فأنا الشخص الوحيد الذي يستطيع العثور على طائر النار».

قلتُ: «سأذهب معك».

فصاح بحدة فاجأتني: «كلا! سأصيده، وسأحضره إليك، ولن تكوني معي».

قلت متذمرة: «تلك مخاطرة كبيرة؛ فحتى إن أمسكت به، كيف ستتمكّن من العودة به إلى هنا؟».

- «مُري أحد المصنعين أن يصمم لي عربةً أو شيئًا من هذا القبيل، ذلك أفضل للجميع. سأجد طائر النار، ثم سأغادر هذا المكان الملعون».

- «لا يمكنك الذهاب بمفردك.. إنك...».

- «إذن فلتسمحي بأن يرافقني توليا أو تمار، سنرحل سريعًا ولن نلفت الأنظار».

ثم دفع مقعده إلى الخلف، ونهض وأردف: «فكري في الأمر، وقومي بالتحضيرات التي تريدينها».

لم ينظر إليَّ حينما أضاف: «فقط أخبريني متى عليَّ الرحيل».

ثم اختفى قبل أن أبدي أي اعتراض آخر.

أشحت بوجهي، محاولة التغلب على الدموع التي كادت تنهمر من عيني.

ومن خلفي، سمعت (نيقولاي) يعطي تعليماته للتوأمين قبل أن يرحلا.

دققت النظر في الخريطة، فأبصرت (پوليتزنايا) التي قضينا فيها خدمتنا العسكرية، و(رايڤوست) التي بدأنا منها رحلتنا إلى (پيترازوي)، و(تسيبيا) التي قبّلني فيها أول مرة.

وضع (نيقولاي) يده على كتفي، لم أدرِ هل كان عليَّ أن أبعد يده عني، أم أن ألتفت وألقي بنفسي بين ذراعيه، تُرى، ماذا سيفعل حينذاك؟ هل سيربت ظهري؟ أم سيقبّلني؟ أم سيطلب مني الزواج؟

لكنه اكتفى بقول: «هذا للصالح العام يا ألينا».

قهقت ضاحكة، وقلت: «هل لاحظت من قبل أن تلك كذبة يقولها الجميع دائمًا؟».

أنزل يده من فوق كتفي، وقال: «إنه لا ينتمي إلينا».

أردت أن أصيح في وجهه قائلة: بل إنه ينتمي إليَّ!

لكنني كنت أعلم أنه محق..

تذكرت وجه (مال) الذي بزغت منه الكدمات، وكيف كان يركض جيئةً وذهابًا كما الحيوان المحبوس في قفص، وكيف كان يبصق من فمه دمًا، ويصرخ في (إسكل) آمرًا إياه أن ينهض، وتذكرت أيضًا حينما عانقني في أثناء عبورنا البحر الحقيقي.

اغرورقت عيناي بالدموع، فلم أعد أرى الخريطة.

قال (نيقولاي): «دعيه يذهب».

- «إلى أين؟ إلى جبال يختبئ فيها الشوهانيون؟ ليصيد كائنًا أسطوريًّا قد لا يكون له وجود من الأساس؟ تلك مهمة مستحيلة».

فقال بلطفٍ: «هذا ما يفعله الأبطال يا ألينا».

- «لا أريده أن يصير بطلًا!».

- «إنه لن يتغير أبدًا، تمامًا مثلما ستظلين أنت غريشا».

كان ذلك أشبه بصدى لما قُلته منذ ساعات، لكنني لم أرد سماعه مجددًا.

قلت بغضبٍ: «إنك لا تكترث لأمر مال؛ فأنت تريد التخلص منه».

- «لو وددت أن أخلصك من حبِّه لأمرته بالبقاء هنا، كي يظل يستعين على حل مشكلاته بشرب الكڤاس، ويتصرف كأحمق مجروح، لكن هل هذه الحياة التي تتمنينها له؟».

أخذتُ أنفاسًا متقطعة.. لم تكن تلك حقًّا الحياة التي يستحقها، أعلم ذلك جيدًا؛ فإن (مال) يشعر بالتعاسة هنا، ويتعذب منذ أن وطأت قدماه هذا المكان، لكنني غضضتُ الطرف عن ذلك، ووبَّخته حينما أرادني أن أتغيَّر، على الرغم من أنني طلبت منه الشيء ذاته.

نفضت الدموع من فوق خدي.

لن يجدي النقاش نفعًا مع (نيقولاي)، فإن (مال) جندي، ويحتاج إليه (نيقولاي) لمهمة محددة، لن تنفذ إلا بموافقتي.

ولكن لماذا لا أعترف بالحقيقة؟

فعلى الرغم من اعتراضي، ثمة صوتٌ آخر، أكثر شراهةً وطمعًا، يطالبني بإتمام المهمة، وأن أبعث (مال) ليبحث عن طائر النار، ويحضره إليَّ مهما كلَّفه ذلك، لقد أخبرت (مال) من قبل أن الفتاة التي يعرفها قد ماتت، فمن الأفضل أن يرحل قبل أن يتأكد من ذلك بنفسه.

لامست بأصابعي موقع (دڤا ستولبا) في الرسمة التوضيحية، أيعقل أن هاتين طاحونتان محض؟ وتُرى، مَن في وسعه معرفة سر ذلك الحطام؟

أغلقت الكتاب ومضيت نحو الباب، ثم استدرت وقلت: «أتعلم ما هي مشكلة الأبطال والقديسين يا نيقولاي؟ أن جميعهم يلقون حتفهم في النهاية».

الفصل الثاني والعشرون

تجنَّب (مال) رؤيتي طوال الظهيرة، ولذلك دهشت لما ظهر برفقة (تمار) ليقوداني إلى العشاء المقام احتفالًا بعيد ميلاد (نيقولاي)، ظننته سيطلب من (توليا) أن يذهب بدلًا منه، لكنه ربما كان يحاول تعويض غيابه عن نوبة حراسته الماضية.

فكرت في عدم حضور العشاء، لكن لم تكن ثمة جدوى من ذلك؛ فليس لديَّ عذرٌ قوي، كما أن غيابي سيثير غضب الملك والملكة.

ارتديت زي كفتا رقيقًا غُزِل من حريرٍ ذهبي صافٍ، ورُصِّع جزؤه العلوي بأحجار الياقوت الزرقاء التي تتماشى مع الجواهر التي تزين شعري، وزرقة زي المستحضرين.

ومضت عينا (مال) حينما دخلت الغرفة المشتركة، ربما كانت تلك الألوان ستليق بـ (زويا) أكثر مني، لكنها -على الرغم من جمالها الفاتن- لم تكن المشكلة الحقيقية؛ فإن (مال) يرحل عني بسببي، ولا يجب أن يلقى اللوم على أحد غيري.

أقيم العشاء في إحدى أفخم قاعات القصر الكبير، أطلق عليها اسم «عش العقاب» لأن ثمة إفريزًا ضخمًا في سقفها نُحِت عليه العقاب المزدوج المتوج، يحمل بين مخالب إحدى قدميه صولجانًا، وبين مخالب قدمه الأخرى حزمة من السهام التي تلتف حولها شرائط حمراء وزرقاء وأرجوانية، أما ريشه فنُحِت من ذهبٍ خالص، ولما رأيته وجدتني أفكر في طائر النار تلقائيًّا.

ازدحمت المائدة بلفيفٍ من أعلى جنرالات الجيش الأول رتبة، وجلست زوجاتهم إلى جانبهم، ثم أتى أفراد عائلة (لانتسوف) المبجلة، من أعمامٍ وعمات وأبناء عمومة، وفي نهاية المائدة جلست الملكة، تبدو كزهرة ذابلة تلتفُّ في حريرٍ وردي شاحب. وعلى الناحية الأخرى، جلس (ڤاسيلي) بجانب الملك، متظاهرًا بعدم رؤية غمزات والده لزوجة أحد الضباط. وأخيرًا، اتخذ (نيقولاي) مجلسه في منتصف المائدة، لافتًا الأنظار بوسامته كالعادة، وجلست أنا إلى جانبه.

كان (نيقولاي) طلب ألّا تقام حفلة رقص على شرفه، لأن ثمة الكثير من اللاجئين الجوعى خلف أسوار المدينة، لكن الملك والملكة لم يستطيعا منع نفسيهما؛ فلم نزل في عيد «بيليانوك».

تكوَّنت الوليمة من ثلاثة عشر طبقًا رئيسيًّا، من بينها خنزير رضيع كامل، وصحن جيلاتيني كبير صُمِّم خصيصًا لطهي الخشف[1].

ولما حان وقت تقديم الهدايا، منح الملكُ (نيقولاي) بيضةً ضخمة، طُليت باللون الأزرق الشاحب، كسرت لتكشف عن تمثال مصغر رائع لسفينة تبحر في مياهٍ من لازورد، يرفرف على صاريها علم (ستورمهوند) الذي رسم عليه كلبه الأحمر، وأطلق مدفعها قرقعةً رقيقة، ونفث دخانًا أبيض خافتًا.

تناولت العشاء وأذني تصغي إلى المحادثات من حولي، وعيناي معلقتان بـ (مال). اصطفَّ حراس الملك حول الجدران، تفصل بينهم مسافات قصيرة. كنت أعلم أن (تمار) تقف في مكانٍ ما خلفي، أما (مال) فوقف أمامي مباشرةً، متصلبًا حاد التركيز، واضعًا يديه خلف ظهره، يصوب نظره نحو الفراغ الذي يكتنف الخدم. إن رؤيته بهذا الشكل كانت بمنزلة تعذيبٍ لي؛ باعدت بيننا بضعة أقدام، لكنها كانت في نظري أميالًا، لكن أليست

(1) الظبي بعد أن يكون جداية، أي حين بلوغه ستة أشهر، ويقال خشف أول ما يولد. المصدر: معجم لسان العرب، المجلد الثالث، لابن منظور الأنصاري.

تلك حالنا منذ عودتنا إلى (أوز ألتا)؟ ألم تتضخم تلك الغصة في قلبي كلما نظرت إليه؟

لاحظت أنه حلق لحيته، وقصَّ شعره، وهندم زيه، إلا أنه ما زال منهكًا، وبعيدًا عني، وعاد (مال) الذي أعرفه من جديدٍ.

شرب النبلاء نخبًا في صحة (نيقولاي)، وأثنى الجنرالات على شجاعته وحسن قيادته العسكرية. توقعت أن أرى وجه (ڤاسيلي) عابسًا بعد أن أُغدِق كل ذلك الثناء على أخيه، لكنه بدا مسرورًا، وتورَّد وجهه من شرب النبيذ، وحام طيف ابتسامةٍ خافتة حول شفتيه، لا بد أن رحلته إلى (كاريبڤا) قد حسَّنت مزاجه.

انحرف نظري نحو (مال) من جديدٍ، لم أدرِ إن كان عليَّ البكاء، أم أن أقف وأقذف الصحون صوب الحائط.

كانت الغرفة دافئة للغاية، آلمني جرح كتفي من جديد، فقاومت رغبةً ملحة في خدشه.

قلت في نفسي: عظيم، يبدو أن الهلوسات ستطاردني هنا في منتصف القاعة، وسيخرج مستحضر الظلام من وعاء الحساء الآن.

أحنى (نيقولاي) رأسه وقال: «أعلم أنك لا تسعدين برفقتي، لكن هلا حاولت تقبُّلها؟ إنك تبدين كأنك على وشك الجهش بالبكاء».

- «معذرة، إنني فقط..».

- «أعلم»، قالها ثم اعتصر يدي أسفل الطاولة، وأردف: «لكن ذلك الظبي ذي اللحم الطري قد ضحى بحياته ليمتعك».

حاولت أن أبتسم، وسرعان ما ضحكت، وتجاذبت أطراف الحديث مع الجنرال ذي الوجه الأحمر المستدير الجالس بجانبي، وتظاهرت بعدم الاهتمام بصبي عائلة (لانتسوڤ) ذي الوجه المنمش، الذي يجلس أمامي، متفاخرًا بالإصلاحات التي قام بها في القصر الذي ورثه.

ولما قُدِّمت كؤوس الثلج، نهض (ڤاسيلي) ورفع كأس الشامبانيا قائلًا: «أخي العزيز، إنه لمن دواعي سروري أن أشرب نخب عيد ميلادك، وأن أحتفي بك بعدما خضت البحور طويلًا، لك مني كل التحايا، ولنشرب نخبًا على شرفك، في صحتك يا أخي الصغير!».

صاح الضيوف دفعةً واحدة: «في صحة الأمير!».

ثم أفرغوا كؤوسهم واستأنفوا محادثاتهم.

لكن (ڤاسيلي) لم ينته من حديثه بعد، فضرب كأسه بشوكةٍ، محدثًا ثلاث قعقعات، فانتبه الحضور من جديد.

قال: «لدينا اليوم أمرٌ آخر علينا الاحتفال به، إلى جانب عيد ميلاد أخي النبيل».

لو أن توكيده على تلك الكلمة الأخيرة لم يكن كافيًا، فابتسامته الخبيثة ستفي بالغرض.

لم تفارق البسمة وجه (نيقولاي).

استطرد (ڤاسيلي) قائلًا: «كما تعلمون جميعًا، لقد سافرت كثيرًا خلال الأسابيع الماضية».

قال الجنرال ذو الوجه الأحمر: «وبالطبع أنفقت المال لتبني إسطبلًا جديدًا عما قريب، أليس كذلك؟».

حملق (ڤاسيلي) إلى وجهه وقال: «إنني لم أذهب إلى كارييڤا، بل ارتحلت شمالًا لأنجز مهمة أذن لي بها والدنا العزيز».

تجمَّد (نيقولاي) بجانبي.

أردف (ڤاسيلي): «وبعد مفاوضات دامت وقتًا طويلًا، واسغرقت مني مجهودًا كبيرًا، يسعدني أن أزف إليكم خبر موافقة فيردا على التحالف معنا في حربنا ضد مستحضر الظلام، وقد تعهدوا بتزويدنا بالقوات والموارد التي سنحتاج إليها».

سأل أحد النبلاء: «أيعقل هذا؟».

انتفخ صدر (ڤاسيلي) فخرًا، وهو يقول: «أجل، أخيرًا، وبعد عناء طويل، صار ألد عدو لنا أقوى حلفائنا».

هتف الضيوف بحماسٍ شديدٍ، فابتسم الملك واحتضن ابنه الكبير، ثم رفع كأس الشامبانيا وصاح: «في صحة راڤكا!».

فردَّد الجميع: «في صحة راڤكا».

دهشت حينما رأيت وجه (نيقولاي) عابسًا، لقد أخبرني من قبل أن أخاه يحب الطرق المختصرة، ويبدو أنه قد عثر على واحد، لكن ذلك ليس السبب الذي أظهر ضيق (نيقولاي) وإحباطه.

رفع كأسه، وقال: «إنه لإنجاز غير مسبوق يا أخي العزيز، أحييك عليه، لكن هل لي أن أسأل ماذا طلبوا في مقابل ذلك الدعم؟».

ضحك (ڤاسيلي) بسرورٍ وقال: «لقد كانت صفقة صعبة، لكنهم لم يطلبوا أشياء صعبة التنفيذ، فقط أرادوا أن نسمح لسفنهم بأن ترسي في موانئنا بـ (راڤكا الغربية)، وطلبوا مساعدتنا في مراقبة مسارات التجارة حتى لا يسلكها قراصنة نوڤيي زم، وأظن أنك ستعاوننا على ذلك يا أخي».

ثم ضحك بخفوتٍ وأضاف: «كما أرادوا أن تفتح بعض طرق الغابات من جديد، وبعد هزيمة مستحضر الظلام، سينتظرون معاونة مستحضرة النور في جهودنا المشتركة لإزاحة الطية».

نظر إليَّ وقد اتسع ثغره بابتسامة، أزعجني افتراضه، رغم أن الطلب كان منطقيًّا، كما أن قائد الجيش الثاني عليه طاعة الملك.

أومأت إليه برأسي باستعلاء.

سأله (نيقولاي): «أي طرق تلك التي تقصدها؟».

لوح (ڤاسيلي) بيده باستخفافٍ، وقال: «إنها طرق تقع في مكانٍ ما جنوب هالمهند، وغرب الأراضي المتجمدة، التي تحصنها قاعدة أولينسك بالكامل، أي أن الفييردانيين سيحاصرون إذا أخلفوا عهدهم».

وقف (نيقولاي) فجأة، فكشط مقعده الأرض الخشبية محدثًا صريرًا عاليًا.

صاح: «متى أمرت بإزالة الحواجز؟ منذ متى فتحت الطرق؟».

رد (ڤاسيلي): «أي فرق سـ...».

- «**منذ متى؟**».

آلمني جرح كتفي.

- «ما يزيد على أسبوع بقليلٍ، أتظن حقًّا أن الفييردانيين ينتوون المجيء إلينا من أولينسك؟ إن الأنهار لن تتجمد قبل أشهر من الآن، وإلى ذلك الحين..».

- «هل فكرت للحظة لماذا سيهتمون بطرق الغابات؟».

لوَّح (ڤاسيلي) بيده بلامبالاة: «أظن أنهم في حاجة إلى الأخشاب، أو أن تلك الطرق يقدسها أشباح الغابة خاصتهم».

علت ضحكات قلق من حول الطاولة.

صرخ (نيقولاي): «هناك قاعدة واحدة تحصنها».

- «لأن المسار ضيق للغاية، ولن يستوعب قوة عسكرية كاملة»

- «إنك تشن حربًا قديمة يا أخي.. ومستحضر الظلام لا يحتاج إلى جيشٍ من المشاة، ولا أسلحة ثقيلة؛ يكفيه فقط الغريشا والنيتشيڤويا، علينا إخلاء القصر فورًا!».

- «لا تكن سخيفًا».

- «لقد كنَّا نعتمد كليًّا على التحذير المبكر، وهؤلاء الكشافة الذين ذهبوا إلى مواقع الحواجز كانوا يمثِّلون خط الدفاع الأول لنا، كانوا أعيننا

التي أعميتها أنت، وعلى الأرجح، سيكون مستحضر الظلام على بُعد أميال منا الآن».

هزَّ (ڤاسيلي) رأسه بحزنٍ وقال: «إنك تتكلم كالحمقى».

ضرب (نيقولاي) الطاولة بيده، فقفزت الأطباق محدثةً قرقعةً عالية.

صاح: «إذن فلماذا لم يأتِ وفدٌ من فييردا ليشاركك الاحتفال ويشربون نخب هذا التحالف غير المسبوق؟!».

- «لقد أرسلوا اعتذارهم، قائلين إنهم لا يستطيعون السفر سريعًا بسبب...».

- «إنهم لم يأتوا إلى هنا لأن ثمة مذبحة ستحدث! لا شك أنهم تحالفوا مع مستحضر الظلام».

- «لكن جميع معلوماتنا تؤكد أنه في الجنوب عند الشوهانيين».

- «ألا تظن أن لديه جواسيس أو عملاء سريين داخل نطاقنا؟ لقد أعد فخًّا يستطيع أي طفل رؤيته، لكنك ألقيت بنفسك فيه!».

احمرَّ وجه (ڤاسيلي).

قالت الملكة معترضةً: «لكن يا نيقولاي، بالتأكيد...».

قاطعها أحد الجنرالات: «إن قاعدة أولينسك بها وحدة كاملة».

فقال (ڤاسيلي): «أرأيت؟ هذا الجبن في أبهى صوره، وليس في وسعي تحمُّل ذلك!».

- «وهل ستصمد وحدة أمام جيش كامل من النيتشيڤويا؟ لا شك أن جميع من في الحصن قد ماتوا بالفعل، وقُدِّموا قربانًا لكبريائك وغبائك!».

تحسست يد (ڤاسيلي) مقبض سيفه وهو يصيح: «لقد تعديت حدودك يا ابن الحرام!».

شهقت الملكة.

دوت ضحكة (نيقولاي)، قال: «أجل، هات ما عندك يا أخي، كي نُسَر جميعًا! انظر حول هذه المائدة: لقد اجتمع حولها كل الجنرالات، وأعلى النبلاء مقامًا، ومعظم أفراد عائلة لانتسوف، بالإضافة إلى مستحضرة النور، جميعنا نجلس في مكانٍ ما.. في ليلةٍ واحدة».

شحبت وجوه بعض الحاضرين.

قال الفتى ذو الوجه المنمش الذي يجلس أمامي: «ربما علينا أن نفكر في...».

فقال (ڤاسيلي) بشفةٍ مرتعشة: «كلا! إنه يغار مني ويكره أن يراني ناجحًا! إنه...».

وفجأة، قرعت أجراس الإنذار، قدم صوتها من بعيدٍ في البداية، الجرس تلو الآخر، ثم اتحدت، كأنها جوقة تتغنى بأناشيد تحذير تتردد في شوارع (أوز ألتا)، ثم تشق طريقها إلى البلدة العالية، وتزحف في النهاية على جدران القصر الكبير.

قال (نيقولاي): «لقد سلَّمت راڤكا إليهم على طبق من فضة».

نهض الضيوف فجأة، مبتعدين عن الطاولة في ذعرٍ.

وقف (مال) بجانبي على الفور، ممسكًا بسيفه الضالع.

تذكرت الصحون العاكسة المثبتة على السطح، فقلت: «علينا الذهاب إلى القصر الصغير، أين تمار؟».

انفجرت النوافذ بغتة، فأمطرت زجاجًا علينا، رفعت ذراعي لأحمي وجهي، بينما صرخ الحضور وتمسك بعضهم ببعض.

انثال النيتشيڤويا إلى داخل القاعة على أجنحةٍ من ظلالٍ منصهرة، وملؤوا الهواء بطنينهم الذي يشبه طنين الحشرات.

صاح (نيقولاي): «اصطحبوا الملك إلى مكانٍ آمن!»، ثم سحب سيفه من غمده وركض نحو أمه.

شُلَّ حراس القصر.. تجمَّدوا من فرط الذعر.

رفع ظلُّ الصبي المنمش في الهواء وضرب به الحائط، فانزلق على الأرض وقد كسرت رقبته.

رفعت يدي، ولكن القاعة كانت مزدحمة للغاية فلم أخاطر باستخدام «القطع».

وقف (ڤاسيلي) خلف الطاولة، وبجانبه الملك وقد جثا مرتعدًا.

صاح لـ (نيقولاي): «أنتَ من فعلت هذا! أنتَ وتلك الساحرة!».

ثم رفع سيفه الضالع واندفع إلى الأمام، وقف (مال) أمامي مشهرًا سيفه ليصد الضربة، ولكن قبل أن يخفض (ڤاسيلي) سلاحه، أمسك به أحد النيتشيڤويا، وخلع ذراعه من مكانها، فهوت بالسيف على الأرض، وقف (ڤاسيلي) للحظة في مكانه، ثم ترنَّح وقد انفجر الدم من جرحه كالنافورة، ثم سقط على الأرض فارقت روحه جسده.

صرخت الملكة بشكلٍ هستيري، وركضت نحو جسد ابنها، فانزلقت قدمها في دمه بعد أن جذبها (نيقولاي)، احتضنها وقال: «توقفي.. لقد مات يا أمي».

هبط من النوافذ عددٌ آخر من النيتشيڤويا، متجهين صوب (نيقولاي) وأمه، كان عليَّ استغلال الفرصة، فاستحضرت قوسين متوهجين من الضوء، وأخذت أقطع الوحوش الواحد تلو الآخر، حتى كدتُ أصيب أحد الجنرالات، الذي تكوَّم على الأرض في خوفٍ، كان الناس يصرخون ويبكون بينما تنهال عليهم وحوش النيتشيڤويا.

صاح (نيقولاي): «اتبعوني!»، ثم قاد أباه وأمه إلى خارج الباب، فتبعناهم برفقة الحرس، راكضين إلى الردهة.

عمت الفوضى في أرجاء القصر الكبير، اكتظ الخدم والجنود المذعورون في الأروقة، بعضهم يحاول العبور إلى المدخل، والبعض الآخر يلوذون بالغرف، سمعت عويلًا، وزجاجًا يُكسَر، وانفجارًا حدث في مكانٍ ما بالخارج.

قلتُ في نفسي بيأسٍ: لعلهم المصنعون.

غادرت القصر مع (مال)، وهبطنا السلم الرخامي، غزا صليل السيوف الهواء. نظرت صوب الطريق المرصوف بالحصى الأبيض، فرأيت الإثيريالكي يخلعون بوابة القصر الكبير برياحهم العاتية. ثم تدفق أتباع مستحضر الظلام من الغريشا إلى الداخل، يرتدون أزياءهم الحمراء البراقة.

سلكنا الطريق المؤدي إلى القصر الصغير، ومن خلفنا الحرس و(نيقولاي) وأبوه المتباطئ.

ولما وصلنا مدخل النفق الخشبي، انحنى الملك وأخذ يلهث بقوة، فتشبثت الملكة بذراعه وبكت.

قال (نيقولاي): «عليَّ أن أقودهم إلى سفينة الرفراف».

فقلت: «اسلك الطريق الطويل؛ فمستحضر الظلام سيتجه إلى القصر الصغير أولًا ليبحث عني».

- «إذا قبض عليك يا ألينا...».

- «اذهب الآن! أنقذهم، وأنقذ باغرا.. إنني لن أترك الغريشا».

- «سأخرجهم من هنا، وأعود إليك، أعدك بذلك».

- «أهذا وعد قرصانٍ شجاع؟».

لامس خدي سريعًا ثم قال: «قرصان بأوراق رسمية».

زلزل الأرض انفجار آخر.

فصاح (مال): «هيا بنا!».

ركضنا داخل النفق، فاستدرت لأرى (نيقولاي) وقد كساه الغسق بظلٍّ أرجواني، تساءلت بداخلي إن كنت سأراه ثانية.

***

احترق جرح كتفي وآلمني، فاندفعت على غير هدى داخل المسار، كان عقلي يعج بالأفكار: لو أنهم استطاعوا التجمع في القاعة الرئيسية.. لو أنهم امتلكوا وقتًا كافيًا لتثبيت الأسلحة على سطح القصر.. لو أنني وصلت إلى الصحون العاكسة.

لكن كل خططنا فشلت بسبب تعجرف (ڤاسيلي).

خرجت إلى الخلاء، ضرب نعلي الحصى فحلق عاليًا، وانزلقت جاثيةً على ركبتي، لا أدري إن كان ذلك بفعل السرعة، أم بسبب ما رأيته أمامي.

وجدت الظلال الثائرة قد تلفَّحت القصر الصغير، مصدرةً أزيزًا وطنينًا عاليًا، وظلَّت تتسلق الجدران، وتحوم حول السطح. كانت ثمة أجساد ملقاة على السلم، ومكومة على الأرض في كل مكان، ووجدت الأبواب الأمامية مفتوحة على مصراعيها.

تناثر زجاج مرآة مكسورة أمام الدرج، وبجانبه هيكلٌ محطمٌ لأحد صحون (ديڤيد)، تحته جثة فتاة كسرت نظارتها الواقية، إنها (پاچا).. انحنى اثنان من النيتشيڤويا أمام الصحن، لينظرا في انعكاسهما المكسور.

زأرت بغضبٍ شديدٍ وأرسلت سيفًا مشتعلًا من الضوء ليحرقهما، فهشَّم حواف الصحن حينما اختفى النيتشيڤويا.

سمعت دوي رصاصة قادمًا من السطح، فعلمت أن ثمة شخصًا ما زال على قيد الحياة.. وما زال يحارب، وكان ثمة صحن واحد متبقيًا، بالتأكيد لن يكون فعالًا بما يكفي، لكنه أملنا الوحيد.

قال (مال): «من هنا!».

عبرنا المرج إلى الباب المؤدي إلى غرف مستحضِر الظلام، داهمنا أحد النيتشيڤويا أمام المدخل، عند الدرج، فأسقطني على الأرض، ضربه (مال) بسيفه، فشُطِر، ثم تجمَّع من جديد.

صحت له: «تراجع!».

ففعل كما أمرته، فنفذت تكتيك «القطع»، واختفى جندي الظلام.

صعدت درجتين في وقتٍ واحد. قلبي كان ينبض بقوة. تبعني (مال) بسرعة، وكان الهواء كثيفًا، يحمل معه رائحة الدم والبارود اللتين ترتعد لهما العظام.

وفور وصولنا السطح، سمعنا أحدهم يصيح: «ابتعدا!».

تراجعنا قبل لحظة انفجار القنبلة فوقنا، أصبنا بالعمى المؤقت، وصمَّ الرنين آذاننا.

وجدنا الكوربورالكي قد تولوا أمر أسلحة (نيقولاي)، مرسلين شلالات من الرصاص صوب كتل الظلال، بينما عبأ المصنعون أسلحتهم بالذخيرة أما الصحن فقد أحاطه أفرادٌ مسلحون من الغريشا، يبذلون قصارى جهدهم لإبعاد النيتشيڤويا عنه. أبصرت (ديڤيد) بينهما، ممسكًا بندقيته على نحوٍ غريب، ويحاول الوقوف بثباتٍ. ألقيت الضوء عاليًا، فطار كسوطٍ وهاج شق السماء فوق رؤوسنا، منحت بضع ثوانٍ لنا.

- «ديڤيد!».

أعطى (ديڤيد) صفارتين قويتين، فارتدت (ناديا) نظارتها الواقية، واتخذ الحداد المسؤول عن الصحن موقعه. لم أنتظر، فرفعت يدي وأرسلت دفقة ضوء تجاه الصحن. أتانا صفيرٌ آخر، فانحنى الصحن وعكس سطحه شعاع ضوء صافٍ وحيدٍ. ومن دون الحاجة إلى الصحن الآخر، ثقب الشعاع السماء، وهاجم النيتشيڤويا، فاحترقوا، وتلاشوا كأنهم لم يكونوا.

مسح الضوء السماء، خالقًا قوسًا براقًا، مذيبًا الأجساد السوداء التي تعترض طريقه، إلى أن قلَّ عددهم، وتجلَّى غسق بيليانوك السحيق. على هتاف الغريشا لما رأوا النجوم لأول مرة، وثقب شعاع أمل فضي قلبي المذعور.

ثم اندفع أحد النيتشيڤويا، تفادى الشعاع وألقى بنفسه على الصحن، فهزه بقوة.

انقضَّ (مال) على الوحش فورًا، وبات يضربه ويقطعه بسيفه، حاولت مجموعة من الغريشا أن يقبضوا على رجليه اللتين برزت عضلاتهما، لكن الكائن انفك عنهم، وابتعد. وإذا بآخرين من النيتشيڤويا يهبطون فوقنا من كل حدبٍ وصوب، رأيت أحدهم يعبر الشعاع ويندفع مباشرةً إلى خلف الصحن، مالت المرآة إلى الأمام، فخفت الضوء، ثم تلاشى.

صرخت قائلةً: «ناديا!».

فقفزت مع الحداد في الوقت المناسب، انقلب الصحن على جنبه، مصطدمًا بقوة بالأرض، تهشم زجاجه وتابع النيتشيڤويا هجومهم.

قذفت قوسًا تلو الآخر من الضوء.

صرخت: «اذهبوا إلى القاعة وأغلقوا الأبواب!».

ركض الغريشا، لكنهم لم يركضوا بالسرعة الكافية، سمعت صيحةً فاستدرت لأرى (فيديور) وقد رُفِع في الهواء وأُلقي به من فوق السطح. خلقتُ درعًا من الضوء، لكن النيتشيڤويا أتوا من كل مكان.

لو أن الصحنين ما زالا معنا.. لو أننا حظينا بالمزيد من الوقت..

وقف (مال) بجانبي في لمح البصر، ممسكًا ببندقيته، قال: «الوضع سيئ.. علينا أن نخرج من هنا».

أومأت برأسي وأسرعت بالعودة إلى الدرج، أبصرت السماء قد امتلأت بكثيرٍ من الأشكال الملتوية.

لامست قدمي شيئًا ناعمًا خلفي، فتعثرت وهويت على الأرض. أبصرت (سيرجي) مستندًا إلى القبة، محتضنًا (ماري) التي شُقَّ جسدها من رقبتها وحتى سرة بطنها.

قال والدموع تنهمر من عينه: «لم يبق أحدٌ.. لم يبق أحدٌ».

ثم بات يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف، مقربًا (ماري) منه أكثر.

لم أتحمَّل النظر إليها.. أيعقل أن تلك (ماري) الحمقاء الضاحكة ذات الشعر البني الملفوف؟

ملأ النيتشيڤويا السطح، واندفعوا نحونا مثل موجةٍ سوداء.

صحت: «ساعده على النهوض يا مال!».

ثم هاجمت حشد الظلال الذي ركض نحونا.

أمسك (مال) بـ (سيرچي) وجذبه بعيدًا عن (ماري)، قاومه (سيرچي) محاولًا الابتعاد عنه، إلا أن (مال) استطاع سحبه إلى الداخل، وأغلق الباب خلفه بقوة، حملناه وجذبناه إلى الأسفل، ولما وصلنا الطابق الثاني، سمعنا صوت باب السطح يُفتَح، فأرسلت «القطع» عاليًا، آملةً أن تصيب أي شيء سوى السلم، ثم هبطنا الطابق الأخير.

ألقينا بأنفسنا داخل القاعة الرئيسية، فانغلق الباب بقوة خلفنا، وأوصده الغريشا بإحكامٍ، فضرب النيتشيڤويا الباب بعنفٍ محاولين اقتحام القاعة.

صاح (مال): «ألينا!».

فوجدت بضع أفرادٍ من النيتشيڤويا داخل القاعة، رغم أن الباب موصد، وأبصرت (زويا) وشقيق (ناديا) محاصرين أمام جدارٍ، يستخدمان الرياح في قذف الطاولات والمقاعد وقطع الأثاث المكسورة صوب جنود الظلال الراكضين نحوهما.

رفعت يديَّ فاندفع الضوء على هيئة حبال حارقة أخذت تقطع النيتشيڤويا الواحد تلو الآخر، إلى أن اختفوا جميعًا، أنزلت (زويا) يديها، فسقط إناء من آنية السماور على الأرض، محدثًا رنينًا عاليًا.

سمعنا دقًّا وخدشًا على كل باب، حك النيتشيڤويا الأبواب الخشبية بمخالبهم، محاولين البحث عن كسور أو ثغرات ليدلفوا منها إلى الداخل، جاءتنا أصوات الأزيز من كل مكان، لكن المصنعين قاموا بعملهم على

أكمل وجه، وسيتحمل الشمع -الذي استخدموه لسد الثغرات والكسور- مخالب النيتشيڤويا، ولو بعض الوقت.

جلتُ بنظري حول الغرفة، فوجدتها تسبح في الدماء؛ لطخ الدم الجدران، والأرض الحجرية، وانتشرت الجثث في كل مكانٍ كأكوامٍ من ألوان ثلاث: الأرجواني والأحمر والأزرق.

سألتهم بنبرةٍ لم أستطع مواراة رجفتها: «هل ثمة المزيد؟».

فهزَّت (زويا) رأسها المذبذب مرة واحدة، رأيت الدم يغطي خدها.

قالت: «كنا نتناول العشاء.. فسمعنا دقات الأجراس.. لم يكن لدينا وقت كافٍ لتشميع الأبواب.. فوجدناهم... في كل مكان».

بكى (سيرچي) بخفوتٍ، وبدا (ديڤيد) شاحب الوجه لكنه حافظ على هدوئه، ولفَّت (ناديا) ذراعيها حول (آدريك) الذي ارتجف جسده رغم ملامحه العنيدة، كان معنا ثلاثة من مستحضري النار، واثنان من الكوربورالكي، ومعالج، ومتلاعب بالقلوب، هؤلاء فقط من تبقوا من الجيش الثاني.

قلت: «هل رأى أحدٌ منكم توليا وتمار؟».

لكن لم يرهما أحدٌ، ربما يكونان قد ماتا، أو أنهما لعبا دورًا ما في هذه الكارثة، فقد اختفت (تمار) من قاعة العشاء، ومن الممكن أن يكونا من أتباع مستحضر الظلام، ويعملان معه منذ البداية.

قال (مال): «ربما لم يرحل نيقولاي بعد.. يمكننا أن نحاول الذهاب إلى سفينة الرفراف».

هززتُ رأسي، فإن لم يرحل (نيقولاي) بعد، فلا بد أنه مات، وأبويه و(باغرا) كذلك.

تخيلت جثة (نيقولاي) تطفو في البحيرة، وقد غاص وجهه في الماء، وإلى جانبه أجزاء مكسورة من السفينة.

كلا، لن أسمح لتلك الأفكار أن تحتل عقلي، تذكرت أول مرة رأيت فيها (نيقولاي)، لا شك أن الثعلب فائق الذكاء سيهرب من هذا الفخ أيضًا.

قلت: «إن مستحضر الظلام يركز قواه هنا.. يمكننا الركض إلى البلدة العالية، ونقاتل هناك إلى أن نجد طريقًا للمغادرة».

قال (سيرچي) بيأسٍ: «لن نستطيع الوصول إلى هناك.. فعددهم كبير جدًّا».

كان محقًّا.. لقد علمنا هذا منذ البداية، ولكننا ظننا أن أعدادنا ستزيد بعدما تأتينا الإمدادات من (پوليتزنايا).

أتى الرعد من مكانٍ بعيدٍ.

قال أحد مستحضري النار: «إنه قادم إلينا! النجدة أيها القديسون، إنه قادم إلينا!».

همس (سيرچي): «سيقتلنا جميعًا».

أضافت (زويا): «إن حالفنا الحظ».

لم يكن ذلك الوقت المناسب، لكنها محقة؛ لقد رأيت كيف تعامل مستحضر الظلام مع الخونة في الفراغ المظلم لعيني أمه، وأظن أن (زويا) والبقية سيلقون أشد من ذلك عذابًا.

حاولت (زويا) مسح الدم عن خدها، إلا أنها نجحت فقط في تلطيخ وجهها أكثر.

قالت: «أرى أننا علينا الذهاب إلى البلدة العالية، فمن الأفضل أن أختبر حظي مع الكائنات في الخارج، لا أن أبقى هنا لأنتظر مستحضر الظلام».

كم كرهت ألا أعطيهم أملًا.

قلت: «قد لا يحالفنا الحظ؛ فإنني لست قوية بما يكفي لإيقافهم جميعًا».

قال (ديڤيد): «لكن على الأقل، سيقضي النيتشيڤويا علينا سريعًا.. أنا أيضًا أرى أن نذهب إلى قتالهم».

نظرنا إليه جميعًا، فبدا عليه الاندهاش، ثم هزَّ كتفيه، وقال حينما التقت أعيننا: «فلنفعل ما في وسعنا».

نظرت إليهم، فوجدتهم يومِئون برؤوسهم الواحد تلو الآخر.

تنهدت وقلت: «هل فاضت أي قنابل؟».

أخرج عبوتين من جيب زيه وقال: «لم يتبق إلا هاتان».

- «استخدم واحدة، وحافظ على الأخرى. سأفتح الأبواب، وعندما أعطيكم الإشارة، اركضوا إلى بوابة القصر».

قال (مال): «سأبقى معك».

فتحت فمي لأعترض، لكن نظرته وشت بأن لن تكون ثمة فائدة من ذلك.

قلت للبقية: «لا تنتظرونا.. سأوفر لكم تغطية قدر استطاعتي».

سمعنا هزيم الرعد يشق الهواء.

سحب الغريشا البنادق من بين أحضان الجثث، وتجمَّعوا خلف الباب.

قلت: «حسنًا..».

استدرت وأمسكت بمقبض الباب المزخرف، فشعرت بارتطام أجساد النيتشيڤويا على الخشب.

آلمني جرح كتفي.

أومأت برأسي إلى (زويا)، ففككت القفل.

فتحت الباب وصحت: «الآن!».

فقذف (ديڤيد) القنبلة إلى أحضان الغسق، ورفعت (زويا) ذراعيها في الهواء لتحمل رياح المستحضرين العبوة عاليًا.

صاح (ديڤيد): «انبطحوا!».

لذنا جميعًا بالقاعة، وأغمضنا أعيننا، ووضعنا أيدينا فوق رؤوسنا، وتأهبنا للانفجار.

اهتزَّت الأرضية الحجرية تحت أقدامنا، وعمى الوهج الأحمر عيني رغم أن جفنيَّ منغلقان.

ثم ركضنا.

تشتت النيتشيڤويا وقد دهشوا من شدة الضوء ودوي الانفجار، وما هي إلا ثوان حتى عادوا يندفعون نحونا.

صحت: «اركضوا!»، ثم رفعت يدي وأرسلت في الهواء مناجل نارية شقَّت السماء الأرجوانية، وشقَّت النيتشيڤويا واحدًا تلو الآخر، ثم أطلق (مال) النار صوبهم، بينما ركض الغريشا إلى النفق الخشبي.

استدعيت كل ما أملك من قوة الأيل وسوط البحر، وطبقت كل حيلةٍ تعلمتها من (باغرا)، سحبت الضوء ناحيتي، وحوَّلته إلى أقواس وهاجة أحدثت ثقوبًا مضيئة في أجساد جيش الظلال.

لكن عددهم كان كبيرًا جدًّا، تُرى ماذا كلف ذلك مستحضر الظلام؟ كيف يجمع هذا العدد؟

اندفعوا نحونا.. أجسادٌ متمايلة تلمع كسربٍ من الخنافس، أذرعها ممتدة إلى الأمام، ومخالبها الحادة مشهرة. أبعدوا الغريشا عن النفق، رفرفت أجنحتها السوداء ضاربةً الهواء، وفتحت أفواهها الواسعة التي تشبه الثقوب الملتوية.

ثم انتعش الهواء بدوي الرصاص.

اندفع جنودٌ من الغابة على يساري، اقشعرَّ بدني حينما سمعت صيحات الحرب التي لفظتها أفواههم.

القديسة ألينا.

انقضوا على النيتشيڤويا، حاملين سيوفهم وبلطاتهم، وباتوا يضربون الكائنات بضراوة مخيفة. ارتدى بعضهم ملابس الفلاحين، وآخرون لبسوا أزياء الجيش الأول الرثة، لكنهم جميعًا رسموا على جوانب وجوههم الوشم ذاته: إنه قرص الشمس.

إلا اثنان منهم لم يرسموه، هما (توليا) و(تمار).. أعينهما جامحة، وأسلحتهما لامعة، ويصرخان باسمي.

الفصل الثالث والعشرون

انقضَّ جنود الشمس على جنود الظلال، وأخذوا يضربونهم ويقطعونهم. دفعوا النيتشيڤويا إلى الخلف وسط وابل من رصاص الجنود، وعلى الرغم من شراستهم، فإنهم ما زالوا بشرًا من لحمٍ ودم، يسددون ضربات أسلحتهم نحو ظلالٍ حية، فالتقطهم النيتشيڤويا من فوق الأرض، واحدًا تلو الآخر.

صاحت (تمار): «اتجهوا إلى الكنيسة!».

الكنيسة؟ هل خططت أن تلقي التراتيل على مستحضر الظلام؟

ركض (سيرچي) نحوي وصاح: «سيحاصروننا هناك!».

فقال (مال): «إننا محاصرون بالفعل!»، ثم علق بندقيته على ظهره، وجذب ذراعي وقال: «هيا بنا!».

لم أدر فيما عليَّ أن أفكر، لكن لم يكن لدينا خيارات أخرى.

صحت: «ديڤيد! اقذف القنبلة الثانية!».

فرماها صوب النيتشيڤويا، فلم يصب في البدء، لكن (زويا) كانت بجانبه لتساعده.

اقتحمنا الغابة، وتبعنا جنود الشمس، كسا الانفجار الأشجار باللون الأبيض.

أضيئت الكنيسة بالمصابيح، وفُتِحت أبوابها على مصراعيها، دلفنا إلى الداخل، هزَّ وقع أقدامنا المقاعد الخشبية والقبة الزرقاء المزججة.

صاح (سيرچي) مذعورًا: «أين سنذهب الآن؟».

سمعنا طنينًا وهمهمةً في الخارج، أغلق (توليا) باب الكنيسة بقوة، ووضع المزلاج الخشبي الضخم في مكانه، اتخذ جنود الشمس مواقعهم بجانب النوافذ، حاملين بنادقهم.

قفزت (تمار) فوق أحد المقاعد، وركضت في الممر قائلةً: «اتبعيني!».

راقبتها بترددٍ، تُرى، أين سنذهب؟

أسرعت نحو المذبح، وأمسكت بإطار اللوحة الخشبي المذهب، شهقت لما رأيت اللوحة، التي أتلفها الماء، تنفتح لتكشف عن ممر مظلم.

من هنا صعد جنود الشمس إلينا.. ومن هنا هرب المستشار الروحاني خارج القصر الكبير.

سأل (ديڤيد): «إلى أين يؤدي؟».

فصاحت (زويا): «أيهمك هذا؟!».

ارتجف المبنى لمًا دوى الرعد وشق الهواء، انفجر باب الكنيسة متحطمًا إلى كسور، تراجع (توليا) إلى الخلف، وتدفق الظلام إلينا.

قدم مستحضر الظلام محمولًا على موجةٍ من ظلال.. أنزلت الوحوش قدميه على أرض الكنيسة بحرصٍ شديد.

صرخت (تمار): «أطلقوا النيران!».

دوى الرصاص عاليًا، تلوى النيتشيڤويا وداروا حول مستحضر الظلام، وتشكَّلت أجسادهم من جديدٍ بسلاسةٍ، بعدما اخترقتها الرصاصات، كأنهم ينبثقون من موجة الظلال.

أما هو، فلم يحرك ساكنًا.

دلف النيتشيڤويا من باب الكنيسة، نهض (توليا) وأسرع ليقف بجانبي مشهرًا مسدسيه، أحاطني (مال) و(تمار)، ومن خلفهما اصطفَّ الغريشا، رفعت يدي، وتأهبت للهجوم.

قال مستحضر الظلام: «استسلمي يا ألينا».

تردد صدى نبرته الباردة في أرجاء الكنيسة، وعلى فوق الضوضاء والفوضى.

أردف مكررًا: «استسلمي يا ألينا، وسأطلق سراحهم».

ضربت (تمار) فأسيها ببعضهما، محدثةً صليلًا عاليًا، ردًّا عليه، فرفع جنود الشمس بنادقهم، وسمعت صوت دفقات نيران المستحضرين.

قال: «انظري حولك يا ألينا، إنك لا تستطيعين ربح هذه المعركة، ستراقبين أرواحهم تزهق، تعالي إليَّ الآن ولن أتسبب لجنودك المتعصبين، والخونة من الغريشا، في أي أذى».

شعرتُ أنني أعيش في كابوسٍ داخل تلك الكنيسة، طاف النيتشيڤويا فوقنا، وتجمعوا حول القبة من الداخل، والتفَّ بعضهم حول مستحضر الظلام كغيمةٍ من الأجساد والأجنحة، أبصرت خارج النوافذ آخرين يسبحون في سماء الغسق.

احتدت ملامح جنود الشمس، لكن أعدادهم قد انتقصت، رأيت جروحًا قد تناثرت على وجه أحدهم. لم يخف الوشم عمره الذي لم يتعد الثانية عشرة.

لقد كانوا ينتظرون معجزة من قديستهم.. معجزة لا يمكنني القيام بها.

وضع (توليا) أصابعه على زنادي مسدسيه، فقلت له: «انتظر».

همست (تمار): «ما زال في إمكاننا إخراجك من هنا يا ألينا».

كررت قولي: «انتظر».

أخفض جنود الشمس بنادقهم، وكذلك (تمار) أنزلت فأسيها إلى جانب فخذيها، إلا أنها ظلَّت تمسكهما في إحكامٍ.

سألته: «ما هي شروطك؟».

تبدَّلت ملامح (مال)، وهزَّ (توليا) رأسه، لم أكترث لهما.. أعلم أنه قد يكون فخًا، لكن إن كانت ثمة فرصة لإنقاذ حياتهم، فعليَّ استغلالها.

ردَّ مستحضر الظلام: «استسلمي، وسأطلق سراحهم، يمكنهم الخروج من جحر الفئران هذا، ويختفون إلى الأبد».

همس (سيرچي): «يطلق سراحنا؟».

وقال (مال): «إنه يكذب كعادته».

فقال مستحضر الظلام: «لا أحتاج إلى أن أكذب؛ فألينا تود أن تأتي معي».

صاح (مال): «بل إنها لا تحتمل رؤية جزء منك!».

- «حقًّا؟».

لمع شعره الداكن تحت ضوء مصابيح الكنيسة، بيد أن استحضار جيش الظلال قد كلَّفه الكثير؛ فقد صار أكثر نحافةً وشحوبًا، إلا أن قسمات وجهه الحادة باتت أجمل من ذي قبل.

أردف: «لقد حذرتك من قبل يا ألينا من أن هذا الأوتكازاتسيا لن يفهمك، وأخبرتك أنه سيخافك وسيبغض قوتك، ألست محقًّا؟».

- «بل أنت مخطئ».

كانت نبرتي ثابتة، إلا أن الشك قد ملأ قلبي.

هزَّ مستحضر الظلام رأسه وقال: «لا يمكنك الكذب عليَّ يا ألينا، أتظنين أني كنت سآتي إليك مرارًا وتكرارًا لو لم تكوني وحيدة؟ لقد ناديتِني يا ألينا، وأنا لبيت النداء».

لم أصدق ما سمعته.

قلت: «هل... كنت متواجدًا...؟».

- «في الطية، وفي القصر ليلة البارحة».

تلطَّخ خداي بحمرة الخجل حينما تذكرت جسده يعتليني. تدفق الخزي بداخلي كنهر، رافقه جدولٌ من الراحة؛ ففي النهاية، لم تكن تلك الرؤى خيالًا محضًا.

قال (مال): «هذا مستحيل».

- «إنك لا تدري ماذا يمكنني أن أخلق من المستحيل أيها المتعقب».
أغمضت عيني.
- «ألينا...».
قال مستحضر الظلام: «إنني أعلم حقيقتك يا ألينا، ولم أوليك ظهري يومًا، ولن أفعل، لكن هل يمكنه أن يقول مثلي؟».
قال (مال) بغلظة: «إنك لا تعلم أي شيء عنها».
- «تعالي معي الآن يا ألينا، وسيتوقف كل شيء.. كل الخوف، والتردد، وسفك الدماء. اتركيه يا ألينا.. اتركيهم جميعًا».
- «كلا».
على الرغم من أنني هززت رأسي نفيًا، فإن شيئًا ما بداخلي صاح قائلًا: حسنًا.
تنهد مستحضِر الظلام والتفت خلفه قائلًا: «أحضروها».
تقدم شخص ما إلى الأمام، مغطى بوشاحٍ ثقيل، منحني الجذع ويمشي ببطءٍ كأن كل خطوةٍ تؤلمه، لا بد أنها (باغرا).
آلمتني معدتي، تُرى لماذا هي عنيدة إلى هذه الدرجة؟ لماذا لم ترحل مع (نيقولاي)؟.. لو أنه استطاع الرحيل أصلًا.
وضع مستحضر الظلام يده على كتف (باغرا)، فجفلت.
قلت بغضبٍ: «دعها وشأنها!».
فقال لها: «أريهم..».
خلعت وشاحها، فشهقت وقد صعقت، وسمعت أحدًا يئن من خلفي.
إنها ليست (باغرا).. ولا أعلم من تكون. انتشرت اللدغات في كل مكانٍ بجسدها، وبرزت فيه حواف جلدٍ مسودة، وكتل من الأنسجة التي لن تشفيها يد غريشا. إنها علامات لن تخطئها عين، تركتها النيتشيڤويا عليها، ثم أبصرت شعرها الذي تلاشى لهيبه، ولون عينيها المتبقية الكهرماني الرقيق.

قلت مدهوشةً: «جينيا!».

ساد صمتٌ مميتٌ بيننا، تقدَّمت نحوها، لكن (ديڤيد) سبقني إليها، مارًّا بسلم المذبح، فأشاحت (جينيا) بوجهها عنه، وغطَّته بالوشاح.

تباطأت خطوات (ديڤيد)، تردد للحظة، ثم لامس كتفها بلطفٍ، رأيت ظهرها يرتفع وينخفض، فعلمت أنها تبكي.

أغلقت فمي بيدي لكي لا أشاطرها البكاء.

لقد شهدت آلاف الأهوال في هذا اليوم الطويل، إلا أن ذلك المنظر مرعب كان بمنزلة القشة التي قسمت ظهري.. مظهر (جينيا) وهي تحاول الاختباء من (ديڤيد) كأنها حيوان خائف.

أيعقل أن هذه (جينيا) المشرقة، ذات البشرة المرمرية واليدين الناعمتين؟ أيعقل أن هذه (جينيا) القوية التي تحمَّلت عددًا لا يحصى من الإهانات، لكنها ظلَّت رافعةً ذقنها الرقيقة عاليًا؟ أيعقل أن هذه (جينيا) الحمقاء التي حاولت أن تكون صديقتي، والتي تجرأت على رحمتي؟

ألقى (ديڤيد) ذراعه على كتفي (جينيا)، وتراجع بها إلى الممر.

قال مستحضر الظلام: «لقد خضت الحرب التي أجبرتِني على خوضها يا ألينا. لو لم تهربي مني، لظل الجيش الثاني متحدًا، وبقي كل هؤلاء الغريشا على قيد الحياة، واستمر المتعقب في أداء مهامه مع وحدته في أمانٍ وسرور، متى سنضع حدًّا لكل هذا؟ متى ستكون ثمة نهاية؟».

لا يمكن لأحد أن يساعدك.. إن أملك الوحيد يكمن في هروبك.

كانت (باغرا) محقة؛ فقد ظننت بحماقة أنني أستطيع محاربته، لكنني حاولت، ولقي أناس حتفهم لهذا السبب.

أتبع مستحضر الظلام: «إنك حزينة على من ماتوا في نوڤوكريبيرسك.. الذين قضت عليهم الطية، لكن ماذا عن الآلاف الذين قُتِلوا قبلهم في الحروب الأبدية؟ وماذا عن من يقتلون الآن في السواحل البعيدة؟ لكننا

نستطيع أن نضع حدًّا لكل هذا معًا».

حديثه منطقي، ولأول مرة، سمحت لكلماته أن تتسلل إلى عقلي.

نستطيع أن نضع حدًّا لكل هذا.

لكن الحد قد وُضِع بالفعل!

كان من الممكن أن تبعث تلك الفكرة الخيبة في نفسي، أو ربما الانهزام، إلا أن شعورًا غريبًا قد راودني، ألم يعلم جزء مني -منذ البداية- أن الأمور ستنتهي على هذا النحو؟

لقد امتلكني مستحضِر الظلام، عندما تحسست يده ذراعي في سرادق الغريشا منذ وقتٍ طويلٍ، لكنني لم أدرك ذلك حينها.

همست قائلةً: «حسنًا».

فصاح (مال) بغضبٍ: «كلا يا ألينا!».

سألت مستحضِر الظلام: «هل ستدعهم وشأنهم؟ جميعًا؟».

فردَّ: «سنحتاج إلى المتعقب فقط، من أجل طائر النار».

- «بل ستدعه يرحل، لا يمكنك أن تحظى بكلينا».

أطرق مستحضِر الظلام يفكر للحظة، ثم أومأ برأسه مرة واحدة. كنت أعلم أنه سيبحث عن طريقة للاستحواذ على (مال)، فليظن كما يشاء؛ فأنا لن أسمح له بذلك.

جزَّ (مال) على أسنانه وقال: «لن أذهب إلى أي مكان».

استدرت إلى (توليا) و(تمار)، وقلت: «اصطحباه بعيدًا عن هنا، حتى إذا تطلَّب الأمر أن تحملاه».

- «ألينا...».

قالت (تمار): «لن نرحل؛ لقد أقسمنا بذلك».

- «سترحلون».

هزَّ (توليا) رأسه الكبيرة وقال: «لقد وهبنا لك حياتنا.. جميعًا».

استدرت بجسدي ناحيتهم، وقلت: «إذن فلتستجيبوا لأوامري! توليا يول باتار، تمار كير باتار، فلتقودا هؤلاء الناس إلى مكانٍ آمن!»، ثم استحضرت الضوء، وجعلته يحترق في هالةٍ مهيبة حولي. إنها بلا شك حيلة مبتذلة، لكنها ستفي بالغرض، لو كان (نيقولاي) واقفًا بيننا الآن، لكان سيشعر بالفخر، أردفت قائلة: «لا تخذلوني».

اغرورقت عينا (تمار) بالدموع، لكنها وأخاها أومآ برأسيهما.

جذب (مال) ذراعي بقوة وأجبرني أن أستدير نحوه، وقال: «ماذا تفعلين؟».

- «هذا ما أريده».

بل إن هذا ما أحتاج إليه.. لا يهم إن كانت تلك تضحيةً أو أنانية.

- «أنا لا أصدقك».

- «إنني لا أستطيع الفرار مما تحوَّلت إليه يا مال.. وما سأتحول إليه في المستقبل، ليس في إمكاني أن أعيد ألينا التي تعرفها إلى الحياة.. لكن في وسعي أن أطلق سراحك».

- «لا يمكنك... لا يمكنك أن تختاريه بهذه البساطة!».

- «ليس ثمة خيارٌ آخر، هذا ما آلت إليه الأمور».

وكانت هذه الحقيقة، التي أكدها لي الطوق، وثقل السوار، ولأول مرة منذ أسابيع، أحسست بأنني قوية.

هزَّ رأسه وقال: «هذا خطأ فادح».

كادت نظرته تردي بي.. كانت نظرة ضياع، وصدمة.. نظرة طفل صغير يقف وحيدًا أمام حطام قرية محترقة.

قال بنبرةٍ هادئة: «أرجوكِ يا ألينا.. أرجوكِ.. لا يجب أن تنتهي الأمور هكذا».

وضعت يدي على خده، آملةً أن يكون ثمة شيء متبقٍّ بيننا يسمح بذلك، وقفت على أطراف أصابعي، وقبّلت ندبة خده.

همست وعيناي تدمعان: «لقد أحببتك طوال حياتي يا مال.. ليست ثمة نهاية لقصتنا».

تراجعت إلى الخلف، وحفظت كل قسمات وجهه الذي أحبه، ثم استدرت ومضيت في الممر بخطواتٍ واثقة.

لا بد أن يعيش (مال) حياته، ويبحث عن معنى لها، وأنا كذلك. لقد منحني (نيقولاي) فرصةً لأنقذ (راڤكا)، وأكفّر عن جميع أخطائي.. حاول، لكن محاولته كانت بمنزلة هدية لمستحضر الظلام.

صاح (مال): «ألينا!».

سمعت أصوات زحف أقدام، فعلمت أن (توليا) قد أمسك به.

- «ألينا!».

صوته كان كخشبٍ أبيض صافٍ قُطِع من قلب شجرة.

لم ألتفت.

وقف مستحضر الظلام ينتظر، وظل حرس الظلال يلتفون من حوله.

كنت خائفة، ومتحمسة في الوقت ذاته.

قال مستحضر الظلام: «نحن متشابهان، وليس ثمة أحدٌ مثلنا، ولن يكون هناك من يشبهنا».

هزّت تلك الحقيقة كياني، الشيء يستدعي ما يشابهه.

مدّ يده إليّ، فمضيتُ إلى حضنه، وضعت يدي خلف رقبته، فأحسستُ بشعره الحريري يداعب أطراف أصابعي. كنت أعلم أن (مال) يشاهدنا، فأردته أن يمضي بعيدًا.. أردته أن يرحل.. نظرت وجهي ليقابل وجه مستحضر الظلام، وهمست: «إن قوتي ملكك».

أبصرت بريق الابتهاج والانتصار في عينيه لمَّا اقترب فمه من فمي، التقت شفاهنا، فنشأ الاتصال بيننا، لم تكن تلك لمسته التي شعرت بها في رؤاي.. عندما أتاني ظلًّا.. كانت لمسةً حقيقية، أغرقتني في بحورها.

تدفقت القوة داخلي.. قوة الأيل الذي نبض قلبه داخل جسدينا.. ذلك الأيل الذي زهقت روحه، والذي حاولت إنقاذه، لكنني أيضًا شعرت بقوة مستحضر الظلام.. قوة المهرطق الأسود.. قوة الطية.

الشيء يستدعي ما يشابهه، أحسست بذلك لمَّا غاص قارب «الطنان» في أعماق اللابحر، لكنني خفت أن أسلم نفسي لتلك الحقيقة، أما هذه المرة، فلم أقاتل.. واستسلمت لخوفي، ولشعوري بالذنب والخزي. سيطر الظلام على دواخلي.. كان هو من وضعه بداخلي ولا يمكنني إنكار ذلك.

إن القولكرا، والنيتشيڤويا، جميعهم وحوشي.. جميعهم! وهو أيضًا وحشي.

كررتُ قولي: «قوتي ملكك».

ضغط بذراعيه حول خصري، فهمست له وشفتاي على شفتيه: «وقوتك ملكي».

ملكي، ترددت الكلمة داخلي.. بل داخل كلٍّ منا.

وظلَّ جنود الظلال يلتفون حولنا.

تذكرت ما شعرت به لمَّا كنَّا في المرج الجليدي، حينما وضع مستحضر الظلام الطوق حول رقبتي وامتلك قوتي.

تحكَّمت بذلك الاتصال الذي نشأ بيننا.

تراجع إلى الخلف وقال: «ماذا تفعلين؟».

علمت حينئذٍ لماذا لم ينتوِ قتل سوط البحر بنفسه.. ولماذا لم يرد أن يحدث ذلك الاتصال بيننا.. لأنه كان خائفًا.

ملكي..

قاومت حتى تصل يدي إلى ذلك الرباط الذي خلقه طوق (موروزوڤا)، فأمسكت به، واستحوذت على قوة مستحضر الظلام.

انكبت الظلال منه، كأنها حبر أسود يخرج من كفيه، تلاطمت واختلطت، مكونةً وحشًا من النيتشيڤويا.. من يدين، وأجنحة، ومخالب، ورأس، إنه أول مخلوقاتي الرجيمة.

حاول مستحضر الظلام أن ينفك عني، لكنني أحكمت قبضتي عليه، واستدعيت قوته.. استدعيت الظلام مثلما استخدم هو الطوق ليستدعي ضوئي.

صرخ مستحضِر الظلام لما انبثق منه مخلوقٌ آخر، ثم آخر، وأنا أيضًا أحسست بذلك، اعتصر قلبي واقتطع كل جندي من جنود الظلال جزءًا مني قبيل ولادته، كأنه ثمن لخلقه.

صاح مستحضِر الظلام: «توقفي!».

علا أزيز النيتشيڤويا وهمهماتهم من حولنا، وتسارعت، جذبت جنودي المظلمين إلى كنف الحياة، حتى احتشد جيشي حولي.

تأوَّه مستحضر الظلام، وأنا كذلك، كدنا نقع، لكنني لم أتراجع.

صاح: «ستقتليننا!».

- «أجل».

التوت رجلا مستحضر الظلام، فهوينا على ركبتينا.

لم يكن هذا العلم الصغير، بل كان سحرًا.. شيئًا قديمًا.. كالخلق في قلب العالم.. كان شيئًا مخيفًا وليس له حدودٌ، هكذا علمت لماذا تعطش مستحضر الظلام إلى المزيد من القوة.

على الطنين من بين طيات الظلام مجددًا، كما لو كانت تحتله آلاف الجراد، والخنافس، والذباب الجائع، التي تنقر أرجلها وترفرف بأجنحتها،

تذبذب النيتشيڤويا وتكوَّنوا من جديدٍ. سمعت طنينهم الجنوني، الذي حفزه حنق مستحضر الظلام الشديد، وغبطتي.

وُلِد وحشٌ آخر، ثم آخر، انهمر الدم من أنف مستحضر الظلام، أحسستُ كأن الغرفة ترتج، ثم أدركت أنها تشنجات جسدي، كنت أموت ببطء، قطعة وراء قطعة، مع كل وحشٍ يغادرني.

قلتُ في نفسي: فلتصمدي قليلًا.. حتى أراه يغادر إلى العالم الآخر، ثم أتبعه.

سمعت (مال) يناديني من مسافةٍ بعيدة: «ألينا!»، وأمسك بي، وحاول أن يجذبني بعيدًا.

فصحت قائلة: «كلا! دعني أنهي كل شيء!».

- «ألينا!».

أحكم قبضته على معصم يدي، فارتج جسدي، ومن بين غياهب الظلال والدماء، لمحت مظهرًا جميلًا.. شيئًا ما يشبه بابًا من ذهب.

حاول جذبي بعيدًا عن مستحضر الظلام، لكن قبل أن يتملَّك مني، أمرت أطفالي بتنفيذ مهمة أخيرة: دمروا هذا المكان.

ارتطم مستحضِر الظلام بالأرض، ارتفع الوحوش فوقه كأنهم عمود أسود، ثم اصطدموا بنوافذ الكنيسة، فاهتز المبنى الصغير من أعماق أساسه.

لفَّ (مال) ذراعيه حولي، وركض بي في الممر، ضرب النيتشيڤويا جدران الكنيسة، فسقطت ألواح بلاستيكية، وترنَّحت القبة الزرقاء وكادت تنزلق من قبضة دعاماتها.

قفز (مال) فوق المذبح، ودلف إلى داخل الممر المظلم. عبأت أنفي روائح العفن والطمي، المختلطة بروائح بخور الكنيسة العطرة، ظل يركض، هاربًا من الكارثة التي بدأتها.

دوى الانفجار من مكانٍ بعيدٍ خلفنا، انهارت الكنيسة، وارتجف الممر، ضربتنا غيمة من الوسخ والحطام بقوة موجةٍ جارفة، طار (مال) إلى الأمام، فانفككت عن ذراعيه، وانقلب العالم فوقنا.

***

كان أول شيء سمعته صوت (توليا) الأجش، لم أقوَ على التحدث أو الصراخ، ولم أشعر بشيء سوى الألم وثقل الأرض القاسية. سأدرك فيما بعد أنني بقيت على هذه الحال ساعات: أدفع الهواء إلى رئتي مجددًا، وأستنشق رائحة الدماء المتدفقة، وأحاول أن أصلح كسور عظامي البشعة.

طفت من الوعي إلى اللاوعي، فمي جاف ومغلق بإحكامٍ؛ لا شك أنني عضضت لساني.

سمعت (تمار) تعطي أوامر:

- «دمِّر بقية النفق.. علينا أن نبتعد عن هنا قدر استطاعتنا».

مال.

هل هو هنا؟ مدفون ربما تحت الأنقاض؟

لن أسمح لهم أن يتركوه، أجبرت لساني على لفظ اسمه:

- «مال».

تُرى هل سمعوني؟

كان صوتي مختنقًا وغير مألوف لأذني.

قالت (تمار): «إنها تتأذى، هل علينا أن نفقدها وعيها؟».

فقال (توليا): «لا أريد أن أخاطر، حتى لا يتوقف قلبها ثانية».

قلت مجددًا: «مال..».

فقالت (تمار) لأحدهم: «اترك الممر المؤدي إلى الدير مفتوحًا، أتمنى أن يظن أننا مضينا من هنا».

الدير.. القديسة (ليزابيتا).. الحدائق التي تجاور منزل (جريتزكي).

لم أستطع ترتيب أفكاري.. حاولت نطق اسم (مال) مرة أخرى، لكن فمي لم يستجب. تزاحمت الآلام بداخلي.. ماذا لو خسرته؟ لو امتلكت القوة الكافية لصرخت.. واعترضت.. لكنني غرقت في بحر الظلمات.

***

عندما أفقت، وجدت العالم يرتجف من تحتي، تذكرت حينما استيقظت على متن الحواتة، فخفت للحظة أن أكون على متن سفينة. فتحت عيني، وأبصرت الأرض والصخر فوقي على علوٍ كبير. مشينا في كهفٍ شاسعٍ، وكنت مستلقية على ظهري فوق محفة، يحملها رجلان على كتفيهما.

كان من الصعب أن أبقى واعية..

لقد قضيت معظم حياتي مريضة وضعيفة، إلا أن حالة الإرهاق هذه لم أعهدها من قبل، كنت كقشرة أزيلت عن جسد ثمرة فتعرَّت، وإن وصل النسيم إلى هذا المكان السحيق تحت الأرض، لطرتُ واستحلتُ رمادًا.

آلمتني كل عظمة وعضلة من جسدي اعتراضًا، لكنني لففت رأسي.

وجدت (مال) مستلقيًا على محفة أخرى، تحول بيني وبينه بضع أقدام. كان يراقبني كأنه ينتظرني أن أستيقظ، وإذا به يمد يده إليَّ، تمكنت من أن ألقي بيدي فوق حافة المحفة، بفضل بعض الطاقة المتبقية لديَّ. وعندما التقت أصابعنا، سمعت جهشًا فعلمت أنني أبكي.. بكيت لأنني لن أعيش حاملةً ذنب موته، لكن رغم امتناني شعرت ببعض الاستياء، فبكيت بغضب لأنني سأعيش من الأساس.

***

قطعنا أميالًا طويلة، مضينا في ممرات ضيقة للغاية، حد أنهم كانوا ينزلون المحفة على الأرض أحيانًا، ويجرونها بجانب الصخر. ثم مشينا في أنفاق عالية وواسعة تكفي عشر عربات قش، لا أدري كم مرَّ من الوقت في ذلك الطريق؛ فليس ثمة أنهار ولا ليالٍ تحت الأرض.

تعافى (مال) قبلي، ومشى ببطءٍ بجانب المحفة، كان قد أصيب عندما انهار النفق، لكن الغريشا استطاعوا شفاءه، أما ما حدث لي، وما تحملته، لم تقدر قواهم على شفائه.

توقفنا في كهفٍ مليءٍ بصفوفٍ من الهوابط[1]. سمعت أحد من يحملوني يسميه «فم الدودة». ولمًّا أنزلوني، وجدت (مال) معهم، فساعدني على الجلوس بجانب الحائط، حتى ذلك الجهد البسيط جعلني أشعر بالدوار، وعندما مسح أنفي بكمه، رأيت أنني أنزف.

سألته: «هل حالتي سيئة؟».

فأجاب: «بل تحسَّنت، لقد ذكر الحجاج مكانًا اسمه الكاتدرائية البيضاء، أظن أن هذه وجهتنا».

- «سيأخذونني إلى المستشار الروحاني».

نظر حول الكهف وقال: «لا شك أنه أتى إلى هنا بعدما هرب من القصر الكبير، بعد محاولة الانقلاب، ولهذا لم يعثر عليه أحد طوال تلك المدة».

- «وهكذا ظهر واختفى فجأة في حفل العرافين؛ فالقصر يقع بجانب دير القديسة ليزابيتا، أتتذكر ذلك؟ لقد قادتني تمار مباشرة إليه، ثم تركته يهرب».

لاحظت احتداد نبرتي.

تشابكت خيوط الحكاية داخل عقلي المذبذب.

لم يعلم أحدٌ بأمر الحفل سوى (توليا) و(تمار)، وهكذا اتفقا مع المستشار الروحاني ليقابلني، وبالتأكيد كانا يشاهدان شروق الشمس مع الحجاج المؤمنين ذاك الصباح الذي كدت أحدث فيه انقلابًا، ولذلك قدما إليَّ بسرعة، كما أن (تمار) اختفت من «عش العقاب» لمَّا أحسَّت باقتراب الخطر.

---

(1) تكتلات لكربونات الكلسيوم، عادةً ما تكون على شكل أعمدة أسطوانية أو مخروطية، تتدلى من أسقف الكهوف.

كنت أعلم أن التوأمين وجنود الشمس هم السبب الوحيد في نجاة الغريشا، لكن كذبهم أثار ضيقي.

- «كيف حال الآخرين؟».

نظر (مال) إلى المجموعة المتبقية من الغريشا، الذين اجتمعوا في الظلال، ثم قال: «لقد علموا بأمر السوار.. إنهم خائفون».

- «وماذا عن طائر النار؟».

هزَّ رأسه، وقال: «لا أظن ذلك».

- «سأخبرهم عما قريب».

- «إن سيرجي ليس بخيرٍ.. لم يزل في حالة صدمة، لكنَّ البقية متماسكون».

- «وجينيا؟».

- «إنها برفقة ديفيد في مؤخرة المجموعة، لأنها لا تستطيع التحرك بسرعة».

صمت برهة ثم أضاف: «لقد أسموها الحجاج رازروشايا».

المحطمة.

- «عليَّ أن أرى توليا وتمار».

- «بل إنك تحتاجين إلى الراحة».

- «الآن، من فضلك».

وقف مترددًا، ثم تكلم بنبرةٍ حادة: «كان يجب أن تخبريني بما انتويت فعله».

أشحت بنظري عنه، كانت المسافة بيننا أبعد من ذي قبل.

وددت أن أقول له: لقد حاولت أن أحررك يا (مال).. من مستحضر الظلام، ومني.

لكنني قلتُ:«كان عليكَ أن تدعني أقضي عليه.. كان عليكَ أن تدعني أموت».

عندما سمعت خطواته تخفت، أسندت ذقني على صدري، فسمعت أنفاسي تخرج في دفقات متثاقلة، ولمّا جاهدت كي أرفع عينيَّ، وجدت (توليا) و(تمار) يقفان أمامي ورأساهما منحنيان.

قلت: «انظرا إليَّ».

ففعلا كما أمرتهما، وجدت (توليا) يقف كاشفًا عن ذراعيه المفتولتين وقد رسمت عليهما شموس.

- «لماذا لم تخبراني من البداية؟».

فردَّت (تمار): «لأنك حينها لن تسمحي لنا بأن نبقى قريبين منك».

كانت محقة؛ فإنني الآن لا أعلم كيف سأتصرف معهم.

- «إذن، تظنان حقًّا أنني قديسة، لماذا لم تتركاني أموت في الكنيسة؟ ماذا لو قُدِّر لي أن أستشهد؟».

قال (توليا) دون ترددٍ: «إذن كنت ستموتين، ولم نكن لنعثر عليك تحت الأنقاض وننقذك».

- «لقد تركتما مال يعود بعدما أقسمتما لي».

قالت (تمار): «لقد هرب من قبضتنا».

رفعت حاجبي؛ فاليوم الذي يفلت فيه (مال) من قبضة (توليا) هو بالتأكيد يوم المعجزات.

رفع (توليا) رأسه وكتفيه الضخمتين، وقال: «سامحيني.. لم أستطع أن أمنعه عنك».

تنهدت.. يا له من محاربٍ مقدس.

سألتهما: «هل تخدمانني؟».

فردَّا في آنٍ واحد: «أجل».

- «أم تخدمان الكاهن؟».

فقال (توليا) بصوته الحاد الرخيم: «بل نخدمك أنت».

- «سنرى..».

ثم أومأت إليهما كي ينصرفا.

ولما همَّا بالرحيل، دعيتهما ليتوقفا قائلةً: «إن بعض الحجاج يدعون جينيا رازروشايا، حذِّروهم مرة واحدة، وإذا قالوا تلك الكلمة مجددًا، اقطعوا ألسنتهم».

لم يرمشا، ولم يجفلا، فقط أومآ برأسيهما ورحلا.

***

كانت الكاتدرائية البيضاء كهفًا مصقولًا من المرو والمرمر، شاسعًا حد أنه يكفي لاحتضان مدينة كاملة في أعماقه العاجية. جدرانه رطبة، نبت فيها الفطر السام الذي يتخذ شكل النجوم، والفطر غير السام، والزنابق، كانت كتدرائية مدفونة أسفل (راڤكا)، في مكانٍ ما شمال العاصمة.

أردت أن أقابل الكاهن وأنا واقفة على قدمي، فاستندت إلى ذراع (مال) جيدًا عندما قادونا إليه، وبذلت كل ما في وسعي كي أقف باستقامة، وأواري اهتزاز جسدي.

قال المستشار الروحاني: «ها قد أتيت في النهاية أيتها القديسة».

كان يلبس رداءً بنيًّا باليًا. جثا على ركبتيه وقبَّل يدي وهدبة ثوبي، ثم نادى المؤمنين، فتجمَّع الآلاف في بطن الكهف. ولمَّا تكلم، رجَّت كلماته الهواء: «سننهض لنبني راڤكا جديدة.. لا يحكمها ملوك ولا طغاة.. سننبثق من بطن الأرض، وسنبدد الظلام بموج إيماننا!».

هتف الحجاج من تحتنا: «القديسة ألينا! القديسة ألينا!».

كانت ثمة غرف منحوتة في الصخر، يلمع فيها العاج ورقائق الفضة. ساعدني (مال) على الذهاب إلى غرفتي، وأطعمني القليل من عصيدة البازلاء الحلوة، وأحضر إبريق ماء لأملأ الحوض. وجدت مرآةً مثبتة في الحجر، ولما رأيت مظهري، دوت من فمي صرخة، وسقط من يدي الإبريق

الثقيل فتحطم على الأرض.

أبصرت جلدي الشاحب المشدود على عظامي الناتئة، وعيناي كانتا مجوفتين وتحفهما الكدمات، وشعري اكتسى كله اللون الأبيض، كأن الثلج تساقط عليه.

لامست الزجاج بأطراف أصابعي، فالتقت عيناي بعيني (مال).

قال: «كان عليَّ أن أحذرك».

- «لقد صرت مسخًا».

- «بل إنك تشبهين الخيتكا أكثر».

- «لكن أشباح الغابة يأكلون الأطفال».

- «فقط حينما يكونون جوعى».

حاولت أن أبتسم.. أن أتشبَّث بذلك الدفء الذي حفًّنا، لكنني لاحظت أنه وقف بعيدًا عني، واضعًا يديه خلف ظهره كحارسٍ منتبه.

لم يفهم سبب بريق الدموع في عيني، لأنه قال: «ستتحسنين عندما تستخدمين قوتك».

- «بالطبع».

قلتها ثم ابتعدت عن المرآة، شاعرةً بالتعب والإرهاق وقد احتَّلا عظامي.

ترددت للحظة، ثم ألقيت نظرةً على الرجال الذين أمرهم المستشار الروحاني بالوقوف عند باب الغرفة. اقترب (مال) مني، فأردت أن أضغط بخدي صدره.. أن أشعر بذراعيه يلتفَّان حولي.. أن أسمع دقات قلبه الثابتة، لكنني لم أفعل.

بالكاد استطعت تحريك شفتي لأهمس: «حاولت، لكن ثمة خطأ ما».

عبس وجهه، وسألني بتردد: «ألا تستطيعين استحضار الضوء؟».

هل كانت تلك نبرة خوف؟ أم قلق؟ أم أمل؟

لستُ أدري.. لكنني أحسستُ بأنه تحدث بحذرٍ.

- «أشعر بضعفٍ شديدٍ.. نحن تحت الأرض بمسافةٍ كبيرة.. لا أعلم السبب».

حدقت إلى وجهه، فتذكرت الجدال الذي دار بيننا في بستان أشجار البتولا، حينما سألني إن كنت سأتخلى عن كوني غريشا، وأجبته: مستحيل.. مستحيل.

حاصرني اليأس كغيمةٍ سوداء كثيفة، أو بالأحرى كصخرة ثقيلة.

لم أرد أن أنبس بكلمة.. لم أرد أن أعطي صوتًا للخوف الذي رافقني أميالًا مظلمة تحت الأرض، لكنني أجبرت نفسي على الحديث قائلة: «إن الضوء لا يلبي ندائي يا مال.. لقد رحلت عني قواي».

الخاتمة

حلمت الصبية مجددًا بالسفن.. لكنها كانت سفنًا طائرة هذه المرة، لها أجنحة بيضاء مصنوعة من القماش الأبيض، وقف الثعلب فائق الذكاء خلف دفة إحداها. أحيانًا ما يتحوَّل إلى أميرٍ يقبِّل شفتيها، ويقدِّم إليها تاجًا مرصعًا بالجواهر، وفي أحيان أخرى يصير شيطانًا على شكل كلبٍ أحمر، يعتلي زبد البحر فمه، يلتصق بقدميها حينما تركض.

وكانت تحلم بطائر النار بين الحين والآخر.. يضعها فوق جناحين مشتعلين، ويحملها بينما يحترق.

علمت، قبل حتى أن تصلها الأخبار، أن مستحضر الظلام قد نجا، وأنها أخفقت مرة أخرى. أنقذه أتباعه من الغريشا، واعتلى عرشًا تحفُّه الظلال وجيوش من الوحوش، يحكم (رافكا) من فوقه. لكنها لم تدر إن كان ما فعلته به في الكنيسة قد أضعفه أم لا، لكن قواه قديمة، ويعلمها جيدًا، أكثر من معرفتها هي بها.

اقتحم جنوده من الأوبرتشنيكي الأديرة والكنائس، حطموا الجدران وحفروا في الأرضيات، باحثين عن مستحضرة النور، عُرِضت مكافآت، وانتشرت التهديدات.. ومجددًا صارت الصبية مطاردة.

أقسم الكاهن بأنها في أمانٍ داخل شبكة الممرات المتقاطعة كما الخريطة السرية أسفل (رافكا). زعم البعض أن جيوشًا من المؤمنين قد حفرت تلك الأنفاق، واستغرق ذلك مئات السنين من العمل الشاق بالمعاول والفؤوس، وقال آخرون إنه من عمل وحش.. دودة عظيمة ابتلعت التربة، والصخور، والحصى، وجذور الشجر، خالقة طرقًا تحت الأرض تؤدي إلى أماكن مقدسة عتيقة، حيث يتمتم الناس بصلواتٍ شبه منسية.

لكن الصبية كانت تعلم جيدًا أن ليس ثمة مكان آمن ليأويها.

نظرت في وجوه أتباعها.. كانوا من كل الأطياف: عجائز، وشابات، وأطفالًا، وجنودًا، ومزارعين، ومساجين، لكنها لم ترهم سوى جثث أخرى وضعها مستحضِر الظلام تحت قدميها.

بكى المستشار الروحاني، وصاح بامتنان لأن قديسة الشمس لم تزل على قيد الحياة، وأنها عُتِقت من جديدٍ. لمحت الصبية حقيقةً مختلفة في عينيه السوداوين الجامحتين: أن القديس الشهيد يستريح، على عكس القديس الحي.

علت صلوات المؤمنين حول الصبي والصبية، ترددت وتضاعفت تحت الأرض، واثبةً من جدارٍ حجري إلى الآخر، داخل الكاتدرائية البيضاء. قال المستشار الروحاني إنه مكان مقدس.. إنه ملاذهم، ومأواهم، وبيتهم.

هزَّ الصبي رأسه؛ فإنه يعرف الزنازين فور رؤيتها.

لكنه بالطبع كان مخطئًا؛ تأكدت الصبية من ذلك عندما رأت كيف يراقبها المستشار الروحاني حينما تكافح لتقف على قدميها، ومع كل نبضة خافتة من نبضات قلبها، لم يكن ذلك المكان سجنًا.. بل كان قبرًا.

لكن الصبية قضت سنوات طويلة في الخفاء.. كانت تحيا حياة الأشباح، تختبئ من العالم، ومن نفسها، ولهذا عرفت قوة الأشياء الدفينة أكثر من أي شخص آخر.

في الليل كانت تسمع الصبي يسرع الخطى خارج غرفتها، يحرسها بجانب التوأمين ذوي الأعين الذهبية، ظلّت مستلقية في صمتٍ فوق سريرها، تعد أنفاسها، وتمدد يدها إلى السقف بحثًا عن الضوء. تذكرت السفينة المشطورة، و(نوڤوكريبيرسك)، والأسماء الحمراء التي تزدحم على جدار كنيسة ملتوٍ، وجثث البشر الملقاة أسفل القبة الذهبية، وجسد (ماري) المنحور، و(فيديور) الذي أنقذ حياتها ذات مرة، سمعت أناشيد الحجاج

وصلواتهم، فوجدت نفسها تفكر في الڤولكرا، و(جينيا) المختبئة في الظلام.

لمست الصبية طوق رقبتها، وسوار معصمها، حاول الكثير من الرجال أن يجعلوها ملكة، لكنها الآن أدركت أنها تستحق ما هو أكبر من ذلك.

لقد أخبرها مستحضِر الظلام أنه قدر له أن يحكم، وها قد استولى على العرش، وعلى جزءٍ منها أيضًا، وكانت مرحبة بذلك.

لقد جعلت نفسها فداءً للأحياء والأموات.

ويومًا ما ستنهض.

